

ذِكْرِيَّاتِ
السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي



ذكريات السلطان عبد الحميد الثاني

Copyright©2016 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل قيار

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2016/2722

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-008-4

رقم النشر

1039

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnil.com

www.daralnil.com

ذِكْرِيَّاتُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الثَّانِي

تأليف

مراد دُومَانُ (Murad Duman)

ترجمة

أحمد عمر أحمد

نبذة عن الكاتب مراد دومان (Murad Duman)

مدرّس وكاتب

وُلد "مراد دومان" في مدينة "سقاريا" عام (١٩٧٣م)، وتخرج في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة إسطنبول، وعمل مدرّساً لمادة التاريخ منذ عام (١٩٩٤م) في العديد من المؤسسات التعليمية بالإضافة إلى بعض الكتابات التي ينشرها. في البداية نُشرَت مقالاته المتعلقة بالتاريخ والرحلات والثقافة في مجلة "سزنتي" (Sızıntı) ثم في مختلف وسائل الإعلام، وشارك في العديد من الأبحاث في الجمهوريات التركية في آسيا الوسطى والبوسنة والهرسك ومقدونيا وكوسوفا ومصر والمغرب والقدس وغيرها من الدول، وقام بإعداد وتقديم برنامج تلفزيوني على شاشة قناة "إرمق" (IRMAK TV) بعنوان: "نحو الوعي التاريخي".

الكتب المنشورة للكاتب

- "مقدمة الجمهورية التركية: جنّاق قلعة" (Cumhuriyetimizin Önsözü Çanakkale).
- "الحكام المؤسسون للدولة العثمانية (Osmanlı Kuruluş Devrinin Mimarları)".
- "حكايات ناجحة في طريق الجامعة (Üniversite Yolunda Başarı Öyküleri)".
- "ديار العشق والشوق والعبادة: بلاد الحرمين الشريفين (Aşk, Hasret ve İbadet) - (Diyarı: Hicaz).
- "السلطان محمد الفاتح سلطان العصرين (İki Çağın Hükümdarı Fatih Sultan Mehmed)".
- "ذكريات السلطان عبد الحميد (Hakanın Hatırası (Bilinmeyenleriyle Sultan Abdülhamid))". (وهو هذا الكتاب الذي بين أيديكم).
- "رجل الفكر والحركة: بديع الزمان سعيد النورسي (Bir Fikir ve Aksiyon İnsanı) - (Bediüzzaman Said Nursi)".
- "الدليل السياحي لدولة البوسنة (Bosna Gezi Rehberi)".
- "الدليل السياحي لمدينة القدس (Kudüs Gezi Rehberi)".

فهرس

٩	مقدمة
١٣	صبيحة يوم عيد بقصر "بكلربكي"
٢١	ذكريات الأعياد الماضية
٢٧	رحلة خيالية إلى سنوات الطفولة
٣٨	فاجعة ولده التي اكتوى بها قلبه
٤٢	إحسانه وحبه لفعل الخيرات
٤٦	وعيه ونفاذ بصيرته
٥٠	لمحة عن حياته العائلية
٥٦	حبّه للمصيد
٥٨	عدم توقيعهِ على أوراق الدولة بغير وضوء
٦١	اهتمامه بالعلوم الإسلامية
٦٤	حبه للنبي محمد ﷺ
٦٦	خدمته للحرمين الشريفين
٧٠	رحلاته إلى أوروبا
٧٦	فترة حكم أخيه الأكبر "مراد"
٨١	تولّيه السلطنة
٨٨	المجاهد عثمان غازي باشا بطل معركة "بلفن"
٩٠	القصور والتّزل الساحلية
٩٧	جهوده في سبيل إنقاذ الدولة
٩٩	إعلان المشروطة
١٠٧	اتباعه سياسة متوازنة في العلاقات الدولية
١١٣	اقتحام "جِزْغَان"

قصر "يِلْدِيْزْ"	١١٤
الاتحاد الإسلامي	١٢٠
علاقة الصداقة بين عبد الحميد والإمبراطور الألماني	١٢٢
جامع "بِكُلُرْبِكِي"	١٣١
إسطنبول في عهد عبد الحميد الثاني	١٣٤
حادثة "٣١ مارس/آذار"	١٤٢
جيشُ الحركة ينهبُ قصرَ "يِلْدِيْزْ"	١٥٦
خلع عبد الحميد عن العرش	١٦٣
الحسرة والندامة	١٧٣
تبليغه قرار الخلع	١٧٩
نفيه إلى "سالونيك"	١٨٨
قضية فلسطين	١٩٥
الإجراءات التي اتَّخذها من أجل حماية فلسطين	٢٠٦
الأراضي العثمانية المزوَّية بدماء أبنائها لا يمكن بيعها بالأموال	٢٠٩
أيامه الأولى في المنفى	٢١٨
نظرةٌ بديع الزمان سعيد التُّورسي إلى السلطان عبد الحميد	٢٣٨
محاولةُ الاغتيال	٢٤٦
تشبُّتُ العائلة	٢٤٨
رحلةُ السلطان محمد رشاد في الروملي والبلقان	٢٥٢
حربُ البلقان وبدايةُ النكبة	٢٥٧
الانتقال إلى إسطنبول	٢٦٢
حياته في "بِكُلُرْبِكِي"	٢٦٧
اقتحام "الباب العالي"	٢٧٢
الحرب العالمية الأولى	٢٧٨
حرب "جناق قلعة" والسلطان عبد الحميد	٢٨٣
لقاءه مع قادةِ الاتِّحاديِّين	٢٨٦
نظرتَه إلى قضية الأرمن	٣٠١

٣١٢.....	"عبد الحميد الثاني" وحبه للنبي ﷺ
٣١٩.....	أهميّة خطوط السكة الحديدية
٣٢٣.....	سياسة السلطان "عبد الحميد الثاني" النفطية
٣٢٨.....	حياته اليومية في قصر "بُكْلَرْبَكِي"
٣٣٨.....	حياته اليومية
٣٤٣.....	اشتياؤه إلى الحرمين الشريفين وموكب المحمل الشريف
٣٥٠.....	إنجازاته في مجال الإعمار والبناء
٣٥٢.....	إنجازاته في مجال التعليم
٣٦١.....	التقارب مع ألمانيا
٣٦٣.....	الحرب العثمانية-اليونانية
٣٦٧.....	وفاة السلطان "عبد الحميد الثاني"
٣٧٦.....	مراسم الجنازة
٣٨٣.....	الحالة التي آلت إليها البلاد بعد وفاته
٣٨٧.....	ما قيل عن "عبد الحميد الثاني" بعد وفاته
٣٩٥.....	خاتمة
٣٩٧.....	المصادر



مقدمة

يستحقُّ السلطان عبد الحميد الحديث عنه ووصفه بما هو فيه بحيث توضع في الاعتبار ظروف زمانه ومتطلباته بدلاً من إذكاء روح العداء له بسوق أحكام مسبقة أو إفراط في مدح شخصيته وسنوات سلطته، وكي نعرف أسباب الوقائع التي حدثت في تركيا والشرق الأوسط اليوم وكيفية حدوثها فلا بُدَّ لنا من معرفة سنوات سلطته ودراستها جيّداً؛ إذ إنَّ آثار الفراغ السياسي الذي خلفه وراءه لا تزال مستمرة حتى الآن.

لقد عاش "عبد الحميد خان" في الأيام الأخيرة من حياة دولة عريقة مُنيّت بضربات متتابة وقاصمة من الداخل والخارج على حدِّ سواء، وفي مجتمع حزين كسير، وقد تمَّ تقديمه مع الأسف إلى عموم الشعب على أنه "السلطان الأحمر والأسود الخائن، القاتل، الظالم" عبر دعايات وتلقينات ممنهجة دامت على مدار فترة من الزمان، غير أنَّه كان في الحقيقة رائداً سعى كي يُعيد المجد إلى دولة عظيمة عريقة فقدت استقامتها واستقرارها في خضمِّ كثير من الأطماع، لقد أراد أن يعيدها ثانية إلى مسارها الصحيح، وينظمها من جديد.

فقد شَبَّت القوى الاستعمارية في وجه الدولة العثمانية تحدوهم أطماعٌ لا تشبع نهمهم ولا تنتهي في سنوات سلطته التي تُشكِّل مرحلة مهمة جداً من عمر الدولة العثمانية والتاريخ التركي، وأثيرت فكرة "القومية"

بین الأقلّیات، وقد عمل في مواجهة هذه الحوادث المباغطة والصعاب النازلة على الارتقاء بالبلاد واستعادة مكانتها بين الأمم بما أجراه من إصلاحاتٍ جذريّة في مجالات التعليم والمواصلات والاتصالات والعلوم والقانون، فكان مؤيِّداً ومشايحاً لكل أنواع التقدم المادي والديني في إطار الدائرة الشرعية، وفعلًا فقد حقّق إصلاحات جذرية في إعادة هيكلة الجيش، وأقرّ ونفّذ أعمالاً ثقافيّة وحضارية عظيمة.

لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني -الذي جذب إليه الأنظار بتصرُّفاته الواعية المستهدفة الحلّ والتي أبداهها في مواجهة الأزمات السياسية سلطاناً دينياً قد امتلأ قلبه بحب الرسول ﷺ والوطن، واستطاع استخدام منصب "ال خليفة" في رعاية مصالح المسلمين، فكان حاكماً نجح في الفصل بين حياته الشخصية والسياسية، واستهدف بيروقراطية متلاحمة مع الشعب، وعاش عن قُرب شؤون الدولة؛ فكان يعمل يومياً ما بين خمس عشرة إلى ستّ عشرة ساعة بانتظام.

وإنّه حتى وإن لم يفهم بالمعنى الحقيقي من قِبَل المقربين إليه باستثناء "جودت باشا" المؤرخ العالم الفاضل، و"أحمد مدحت أفندي"، و"خير الدين باشا التونسي"، وقدّح فيه بعضُ مثقفي عصره إلا أنّه سعى بكلّ قوّته كي يضع الدولة العثمانية في مكانتها التي تستحقها بين الأمم في التوازنات الدولية؛ فكان من جهة يُسرّع من وتيرة إعادة هيكلة الدولة التي استهلها بمرسوم "التنظيمات"^(١)، ويسعى من الجهة الأخرى إلى تضييد جراح المجتمع العثماني التي ظهرت في أعقاب "التنظيمات"، وإحياء القيم الدينيّة والقومية، والدمج بين الدولة والشعب، ومما يُؤسّف أنّه تعرض لمعارضة جماعيّة من قِبَل مَنْ لم يشاركوه نفس الأفكار في الكثير

(١) يطلق مصطلح "التنظيمات" على مجموعة الإصلاحات التي أدخلها السلطان عبد المجيد في عام (١٨٣٩م)، وقد انتهى عهد التنظيمات بإغلاق مجلس النواب عام (١٨٧٨م).

من المواضيع، فكان هناك من ينظر إليه نظرة خاطئة من قبيل "أنه وضع يده على الوطن بصورة غير شرعية"، في حين أنه كان سلطاناً مُحبّاً للحق، مستيقظاً الضمير، ومحبّاً للوطن بشهادة الجميع، لقد كان رجل دولة ذكياً وحكيماً، وأستاذاً في الدهاء السياسي والدبلوماسي على حدٍ سواء، كما كان في الوقت نفسه رائداً وقائداً لطيفاً مؤدباً عفيفاً وقوراً وعظيماً رحيماً.

إن السلطان عبد الحميد الثاني الذي ترك بصمته على جبين التاريخ رغم أنه عاش في مرحلة زمنية حرجة من تاريخ الدولة العلية خلعه "مجلس مبعوثان"^(٢) نتيجة ضغط "جيش الحركة" الذي صادر الحكم حيث قدم إسطنبول بعد حادثة ٣١ مارس/آذار، ونُفي إلى "سالونيك"، وحين اندلعت حرب البلقان في أثناء فترة إقامته الجبرية في تلك المدينة أُعيد بسرعة إلى إسطنبول، ووُضع تحت المراقبة والإقامة الجبرية في قصر "بُكلُزبُكي".

وعند كتابة هذا الأثر الذي بين أيديكم وصياغته تناولنا -وفي ضوء المصادر الأساسية والحقائق التاريخية- تلك المراحل الزمنية التي استقرأ فيها الماضي وحاسبه برغم مشغوليّاته اليومية في هذا القصر الذي قضى به آخر خميس سنوات من عمره، واستفدنا في ذلك من مذكرات شهود عيان على عصره مثل "تحسين باشا" وعلى رأس هؤلاء أيضاً بناته: "عائشة عثمان أوغلو" و"شادية عثمان أوغلو"، و"عاطف حسين بك" طيبه الخاص الذي لازمه أيام إقامته بمنفاه في "سالونيك" وقصر "بُكلُزبُكي" على حدٍ سواء، وكذلك من بحوث ودراسات الأكاديمية التي تناولت عصر السلطان عبد الحميد، وقد وُضعت الجُمْلُ المأخوذة من المصادر السالفة الذكر بين علامتي تنصيص، كما ألحقت بنهاية الكتاب قائمة عامة بالمصادر.

(٢) مجلس النواب وكلمة "مبعوثان" اسم الجمع على الطريقة الفارسية لكلمة مبعوث العربية، وهو المندوب في مجلس البرلمان العثماني. (المترجم)

وقد بُذِلَ في هذا الكتاب -الذي يتنقلُ بين الحقيقة والخيال من فينةٍ إلى أخرى- أقصى الجهد من أجل الالتزام بالحقيقة والتمسُّك بالنهج الموضوعي، فإنَّ كنتم ترغبون في مرافقة السلطان عبد الحميد خان رحلته في دهاليز الماضي في أواخر لحظات عمره، ومشاركته الذكريات التي تحيا في ذهنه حين يتجول في قاعاتٍ وحديقةٍ وعلى رصيفٍ قصرٍ "بُكلزبكي" التي تفوح تاريخاً، فإنني أنصحكم بقراءة هذا الكتاب الممتع الشيق...

مراد دومان (Murat Duman)

الثالث من يناير/كانون الثاني (٢٠١٣م)

إسطنبول



صبيحة يوم عيد بقصر "بُكْلُزْبَكِي"

توافد أمراء وأميرات عائلة السلطان عبد الحميد الثاني جميعهم على قصر "دُولْمَا بَاهْجَه (Dolmabahçe)" كلُّ على حدة، وتقدموا بالتماس لدى حضرة السلطان العثماني محمد رشاد؛ مبدين رغبتهم في زيارة والدهم السلطان عبد الحميد في قصر "بُكْلُزْبَكِي (Beylerbeyi)" بعد أن نُقِلَ من "سالونيك" إلى إسطنبول إثر اندلاع حرب البلقان، حتى إن بعضهم تقدّم بطلبٍ خطّيٍّ لأجل ذلك إلى كل من رئيس مجلس النواب (مجلس مبعوثان) والصدر الأعظم، وفي النهاية وافق السلطان على هذه الالتماسات التي تقدّموا بها، وبشّرهـم بأن الزيارة يمكن أن تتم في اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى المبارك، وأبلغهم أن عائلات ضباط الفرقة المكلفة بالحراسة في قصر "بُكْلُزْبَكِي" ستحضر هي أيضًا هذه الزيارة، واستدعي "راسم بك" قائد الحرس إلى ديوان القصر السلطاني، وأبلغ بهذا الأمر.

وفي يوم الأربعاء الموافق الحادي والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر عام (١٩١٢م) تجمعت أمهات الأمراء، والأميرات، وبعض الأمراء، وأحفادهم من البنين والبنات، وعدد من قدامى الخدم المخلصين في قصر "زكية سلطان" المُطلّ على ساحل "أُورْطَه كُوي (Ortaköy)"، وكان كل واحدٍ منهم يحمل مشاعر شوق ولهفة جعلته لا يطيق صبرًا حتى يعبر إلى الساحل الواقع عليه قصر "بُكْلُزْبَكِي" برفقة "نزهت بك" الحاجب الثاني للسلطان، وفي النهاية تحركت السفن صوب الشطر الأناضولي، ولم تلبث أن اقتربت من باب القصر الذي يُطلق عليه اسم باب والده السلطان "والده قاييسي (Valide Kapısı)"، وفي حديقة قصر "بُكْلُزْبَكِي"

اصطفَ ضباطُ الحرس وفي مقدمتهم "راسم بك" قائد الحرس السلطاني، وحيّا الضباطُ والجنودُ الزائرين، وكان مرافقو السلطان عبد الحميد في استقبال الزائرين أمام باب الحريم، واصطحبهم مباشرة إلى داخل القصر.

كان عبد الحميد يقف في انتظارهم عند أول السلم الصغير المواجه للباب، وكانت علامات السعادة والسرور تبدو عليه بكلّ أحواله، وفور دخولهم عليه بدأ كل واحد منهم يُقَبِّلُ يَدَهُ ويُعانقه بحرارة، وفي تلك اللحظة أخذت الدموعُ تفيضُ من عين السلطان السابق، ثم التفت إلى طبيبه الخاص "عاطف بك" قائلاً:

"لقد جعلوني أبكي كالطفل الصغير وأنا في هذه السن".

ولم يكن السلطان عبد الحميد يبكي وحده فحسب، بل إن أبناء وزوجاته وأحفاده كانوا ييكون أيضاً لرؤيته بعد كل هذه المدة، وكانت ابنته "رفيعة سلطان" تعاني من ضعفٍ وهزالٍ شديدين بعد إنجابها طفلها؛ فحزن السلطان عبد الحميد عليها وتأسى لحالتها، وكانت ثمة علاقة وطيدة تربط زوجات ضباط الحرس السلطاني وأولادهم بالزائرين.

وبعد أن استجمع عبد الحميد قواه دعاهم إلى بهو القصر، فدخلوا سوياً إلى "بَمْبَه صَالُونُ" (Pembe Salon) (أي: الصالون الوردی)، فجلس عبد الحميد على الأريكة الكبيرة الموجودة في الوسط، وجلس أبنائه على المقاعد الموجودة في أنحاء الحجرة مصطفين حوله، والتف أحفاده من البنين والبنات على جانبيه، ثم سأل عبد الحميد كل واحد منهم على حدة، عن حالته وأحواله، ولم يغفل في أثناء ذلك السؤال عن أوضاع أصهاره وأحوالهم، وقام كبيرُ الحُجْبَةِ في الديوان السلطاني بإحضار الأمير "نور الدين أفندي"، وكان الأمير قد كبر وأُجريت له قبل فترة عملية ختانه، وكان يريد البقاء بصحبة والده في قصر "بَكْلَرَبَكِي"، فبكى وأخذ يقول:

"أرجوك يا والدي الحبيب أنا أريد البقاء هنا إلى جوارك،
فلتذهب أُمي، ولأبقى أنا بجانبك".

فأبكى كلأمة هذا والدّه، ولما حان وقت الرحيل أخذ يحايله في ذلك
اليوم راجئاً ومتوسلاً قائلاً:

"يا بني، أنا هنا قيد الإقامة الجبرية، وإن بقيت معي أنت أيضاً
لن تخرج بعد ذلك".

وفي النهاية أقنعه بأن يغادر.

والأصح أن "بهيجة هانم" والدّة الأمير نور الدين لم تكن تستطيع
الاهتمام به بالقدر الكافي لكونها شابة قليلة الخبرة؛ فكانت تعيش مع
خادمتها في بيتٍ بالإيجار، وكثيراً ما كانت تُراجع القصر موضحةً أنّها
تعاني صعوبة في العيش بما خصص لابنها الأمير نور الدين أفندي من
نفقات، حتى إنها أرسلت إلى أنور باشا، وألحّت عليه في الطلب أن تُمنح
"قصر مصلّق" (*Maslak Köşkü*) الذي استخدمه عبد الحميد حين كان أميراً
صغيراً، وبناءً على طلباتها هذه المتلاحقة والمتكررة أرسلوها إلى قصر
"بكلزبكي" (*Beylerbeyi*) بواسطة مدير الشرطة في الثلاثين من مارس/آذار
(١٩١٤م) قائلين: "إن السلطان عبد الحميد مريض ويريد رؤيتك"، ولقد
تأثر السلطان عبد الحميد الثاني وحزن لأقصى درجة بسبب هذا الموقف
وبسبب مناقشة مسألة عائلية في مجلس الأسرة الحاكمة وبين الوزراء؛ فقد
كان في الواقع يعيش هو والسيدة "بهيجة هانم" منفصلين عن بعضهما منذ
فترة زمنية طويلة لأسباب مختلفة، ولا سيما أن هذه المرأة المسكينة كانت
عصبية ومعاندة في آخر سنواتها، ولم تكن تُفلح معها أيّة نصيحة، وكانت
أحياناً ما تعجز عن السيطرة على لسانها، والحقيقة أنه كان يريد إرسالها
إلى الحجاز؛ إذ كان يعتقد أنّ قلبها وعقلها سيهدآن ويصفوان في تلك

البقاع العطرة الطيبة المليئة بالروحانيات، وانقضت الثلاثة أشهر -التي مكثتها "بهيجة هانم" في قصر "بكلزبكي" - مضطربةً جدًا. [وقد عاشت هي أيضًا حياة المنفى إثر طرد الحاكم لها خارج البلاد عام (١٩١٤م)، فلما سمح للسيدات السلطانات بالعودة في فترة (١٩٥٠م) عادت إلى تركيا، وقد توفيت عام (١٩٦٩م)، ودُفنت في تكية "يحيى أفندي" في "بشكطاش"].

ورغم أنه من الطبيعي أن تشع أجواء السرور في يوم العيد هذا، إلا أن الحزن سيطر على كل من كانوا في "بمبه صالون"، ويبدو أنها حرارة نيران البعد والفراق التي أوجعت الشوق في صدورهم المحزونة، فكانت وكأنها لن تنطفئ أبدًا، فما كانت أعينهم تنضب من الدموع ولا تتوقف عن البكاء، حتى إن زوجة "راسم بك" قائد الحرس التي شاهدت هذا اللقاء لم تستطع السيطرة على دموعها، وجلست كبيرة زوجات السلطان السيدة "بدرفلک" (*Bedrifelek*) "المسكينة التعيسة إلى جوار عبد الحميد فأخذت تقبل يديه وركبتيه باكية حزينة، وبعد قليل دخل الأعيان وقدامى الخدم الذين جاؤوا في معية الأمراء والسلاطين واحدًا تلو الآخر، فقدموا تحية القصر إلى عبد الحميد بكل إجلال وتقدير، فأثنى عليهم وقال لهم: "لقد سعدت بمجيئكم".

كان عبد الحميد يتمتع بروح نقيّة ونفس صافية راضية بقدرها، فبعد أن أجبره الاتحاديون على التخلي عن العرش نُفي إلى "سالونيك" (*Selanik*)؛ ولما اندلعت حرب البلقان جيء به إلى إسطنبول ثانية بعد أن تم إقناعه بصعوبة؛ فقد كان عبد الحميد يُريد أن يقضي ما تبقى من حياته في راحة وهدوء وآمان، ولم يكن يرغب في التدخل في أي شيء بعد ذلك، وبدأ يرى وهو ما زال على قيد الحياة عقاب الله في الذين افتروا

عليه وآذوه وأسأؤوا إليه، ومع مرور الزمن كانت الحقائق تظهر وتتكشف يوماً بعد يوم، وكانت الأمة تقدرُ هذا وتستحسنه، فقد ضاعت من قبضة الدولة العثمانية أراضي "الرؤملي" ^(٣) العريقة، وفقدت أراضٍ كثيرةً بسبب الصراعات العقيمة التي دارت آنذاك.

بالطبع خلال هذا اللقاء الذي جرى صبيحةً اليوم الثاني من العيد لم يتمّ الحديث عن هذه المسائل؛ إذ طغى عليه الشوق العارم، ولأنه رجلٌ ربطَ مصيره بمصير الدولة والأمة فقد كانت علامات الحزن والأسى باديةً عليه بسبب أحوال البلاد السيئة.

في قصر "بكلزبكي"، -وعلى عكس الأيام التي قضاها في "سالونيك"- كانت الصحف تُقدّم إليه، وكان من بينها: "تصوير أفكار" (*Tasvîr-i Efkar*) و"طَينُنْ" (*Tanin*) و"ترجمان" (*Tercüman*) و"پیام" (*Peyam*)، و"صباح" (*Sabah*) و"إقدام" (*İkdam*)؛ وكان يتابع أخبار الدولة العثمانية وأخبار العالم عن قرب من خلال تلك الصحف، إلا أنه لم تكن لديه القدرة على ردّ الادّعاءات والافتراءات التي تُصدّر بحقه والمقالات الكاذبة التي تكتب ضده، فلم يكن بحوزته في ذلك الوقت الوثائق والأوراق والسجلات التي يستطيع أن يردّ بها على تلك الافتراءات الكاذبة، حتى إنه كان قلقاً على مصير تلك الوثائق والأوراق، فكان يُتهمُّ بأقوال وافتراءات لم تكن تخطر على باله، فعلى سبيل المثال أنه حين كان يذهب خلال سنوات حكمه إلى جامع "يُلدِيز" لأداء صلاة الجمعة كان في الأكثر يصطحب معه ابنه "برهان الدين أفندي" في سيارة القصر، فَنُشِرَتْ أخبار كاذبة في الصحف الأوروبية في ذلك الوقت تزعم أن السلطان سيترك له عرش السلطنة، وذلك على الرغم من أنه كان لا يزال طفلاً صغيراً وأنه كانت توجد تقاليد وأعراف

(٣) الرؤملي (*Rumeli*): الاسم العام الذي أطلق على أراضي الدولة العثمانية الواقعة في أوروبا. (المترجم)

داخل العائلة السلطانية تنظّم الجلوس على العرش، وقد كُتِبَ مرة أخرى في تلك الأيام أيضًا وفي جريدة "ترجمان" تحديدًا أن السلطان "سعى أثناء حكمه من أجل تنصيب "برهان الدين أفندي" أميرًا على بُلغَارِيَا"، في حين أن "الأمير برهان الدين" لم يكن قد وُلِدَ بعد ولم يكن قد بزغ نجمه في ذلك التاريخ الذي نُشِرَ فيه هذا الكلام، ولم يكن هذا الأسلوب -الذي تنتهجه الصحافة ضدَّ إنسانٍ ليست لديه القدرة للدفاع عن نفسه- مقبولًا ولا لائقًا، فكان يتذكَّر ويفهم رغبتهم في تشويه صورته أمام الرأي العام حتى إنه كان يقول:

"حتى قذيفة المدفع لا يمكن أن تُلقَى على المدن التي ليس لها حصن يدافع عنها، وما دمتُ لا أستطيع الدفاع عن نفسي، فإنه ليس من المهارة ولا الحرفية أن تُكتب كل كلمة يُتَفَوَّه بها وتتردَّد على الألسنة، والشعبُ يمنحني مبالغَ مخصَّصة، ومهما طال عمري فإنني سأُمضي ما تبقى منه في التضرُّع والدعاء، وحتى لو كنتُ أتمتّع بحرِّيَّتِي في ذلك الوقت فإنني لا أرغب في مقابلة أحدٍ، ولا أرغب في الحديث عن السياسة مطلقًا".

وفي الحقيقة لم يعد لدى عبد الحميد أيُّ أملٍ دنيويٍّ، ومن الناحية الجسدية أيضًا لم تعد حالته الصحيَّة تسمح له بالانشغال بشيءٍ أو الدخول في صراعات وجدالات سياسية مع أحدٍ، ولذلك فإنه كان يشعر في بعض الأحيان بالغصَّة والمرارة في صدره حين يقرأ الصحف.

وكانت حالة السعادة والفرح الموجودة لدى أحفاده وكذلك الصخب الذي أحدثه "أورخان أفندي"، و"عبد الكريم أفندي"، و"محمد عابد أفندي" داخل القصر وخارجَه وهم يلعبون ويمرحون تُبَدِّدُ وتُخَطِّمُ بعضًا من أجواء الحزن والكَدَرِ التي يعيش فيها، ثم أمر عبد الحميد بإعداد مائدة من الطعام من أجل زائريه، وكلف "رشيد آغا" كبير ضنَّاع الحلوى بإعداد

الحلوى العثمانية المعروفة بـ "دُورْت قَرْدَش (Dört Kardeş)" خَصِيصًا لهم، وجلست في ذاك اليوم تقريبًا أسرته كُلُّها على مائدةٍ واحدةٍ، وقد ترك الطعام الذي تناولوه آنذاك أثرًا كبيرًا في أذهانهم.

وبعد تناول الطعام دعاهم عبد الحميد لمشاهدة غرفة نومهِ الموجودة بالطابق الأول في الأجنحة المخصصة للحريم بالقصر، وفي أثناء هذا شرح لهم ما هي الأمور التي يشغل بها وكيف يقضي وقته، وبعد قليل أرسل "راسم بك" مع "نوري آغا" خبرًا لهم بأن وقت الرحيل قد حان؛ كيف مرَّ الوقت ومضى بسرعة!! وفي لحظات الوداع المشوبة بالدموع والأحزان هذه بدَّد حديثُ عبد الحميد الحزن العميق لدى الجميع، فخطب أبناءه قائلاً:

"هيا، اذهبوا يا أبنائي، ولنلتق في العيد القادم بمشيئة الله تعالى".

ثم اتجه إلى بهو القصر، وهناك خاطبهم جميعًا وقال:

"ما إن تخرجوا من هنا، توجَّهوا مباشرةً إلى القصر حيث عمَّكم "السلطان رشاد"، وأبْلِغُوهُ عميقَ شكري وامتناني".

وربما شَعر عبد الحميد بأن أبناءه لا يرغبون في القيام بهذا الأمر، فأضاف قائلاً:

"حتمًا، يجب أن تذهبوا، فأنا أريدُ ذلك، وسأتابعُكم من خلال المنظار".

أصبح "بمبه صالون" بعد هذه الكلمات ساحةً لمراسم الوداع الحزين الذي سالت خلاله الدموع، وبينما كانت الأميرات يرتدين نقابهن الذي يتكوَّن من غطاءٍ للوجه مصنوعٍ من القماش الرقيق الشفاف؛ كان عبد الحميد يربّت على أكتاف أحفاده ويطبّع قبلاّت حانيةً على وجناتهم، ثم رافق زائريه إلى بداية السلم المرمي وودَّعهم، وتوجَّهوا جميعهم مرة

أخرى إلى السفن التي ركبوها حين مجيئهم إلى القصر، وتحركوا برفقة الحاحب الثاني "نزهت بك".

وفي طريق العودة ونزولاً على رغبة والدِهِم صارت وجهة السفن أولاً نحو قصر "دُولْمَا بَاهْجَه"؛ غير أنهم لم يتمكّنوا في ذلك اليوم من مقابلة عمهم السلطان محمد رشاد؛ حيث كان يحاصره قادة الاتحاديين الذين لم ينظروا بعين الرأفة لهذا اللقاء؛ فعارضوه ولم يسمحوا له بأن يتم، فعادت السفن بالأمرأء أدراجها مرّة ثانية قافلة إلى قصر السلطنة "زكّية" المُطلّ على الساحل؛ إذ لم يكن هناك سبيل آخر سوى الوداع، ولم تتحقّق هذه الزيارة إلا في العام التالي في عيد الأضحى المبارك، فقد كان يُسمح لعبد الحميد في الفترات الأولى برؤية أبنائه مرة واحدة في العام في اليوم الثاني من عيد الأضحى المبارك؛ ثم سُمحَ لهم بعد ذلك بزيارته أيضاً في عيد الفطر السعيد.



ذكريات الأعياد الماضية

عاد السلطان عبد الحميد إلى "بَقْبَه صَالُونُ" بعدما ودَّع زائريه، وشعر بطمأنينة خاصة في قلبه، وسكينة في نفسه بعدما تبدَّد الحزن وانطفأت حرارة الشوق بقاء أبنائه.

وبينما كان السلطان يرتشف قهوته عاد به خياله في لحظة إلى ذكريات شهر رمضان المعظم والأعياد التي مرت خلال سنوات حكمه، حينما كان يجتمع بزوجاته وأبنائه وبناته وأصهاره وأحفاده صيحة كل عيد داخل قصر "يَلْدِيز" ويعطي كل واحد منهم هدية العيد:

كان شهر رمضان المبارك يمرُّ على القصر في ظل أجواء مليئة بالسعادة والخير؛ حيث جرت العادة على تقديم هدايا متنوعة وأموال إلى الضيوف الذين تتم دعوتهم إلى الإفطار، كانت تُعرف هذه العادة باسم "كراء الأسنان" (*diş kirası*)، وعقب الإفطار كان السلطان وإخوته وأصهاره والأمراء والعلماء وكبار رجال الديوان يستمعون إلى الأناشيد والابتهالات الدينية، ويؤدون صلاة التراويح في المبنى الملاصق للجناح الخاص خلف أحد الأئمة مع اثنين من المؤذنين من أصحاب الأصوات الشجية، وكان جناح الحريم يتحوّل إلى ما يشبه المسجد؛ حيث ينشغل كل فرد فيه بالعبادة، وكانت صلاة التراويح تؤدّى بمشاركة حريم القصر بمصاحبة اثنين من آغوات الحريم وإمام ومؤذنين في كلّ قاعة، وعقب الصلاة كانت المشروبات الباردة تُقدَّم إلى الأئمة والمؤذنين.

ومن ناحية أخرى كان السلطان يستمع في كلّ يوم من أيام شهر رمضان إلى الدروس الدينية التي تُلقَى في حضرته داخل ديوان القصر؛

وهي عبارة عن شروحات ومناقشات علمية تقدم في شكل سؤال وجواب من قبل رجال الدين الذين في حضرة السلطان، وفي كل ليلة من ليالي شهر رمضان كانت كتيبة من الجند تتناول الإفطار في ساحة قصر "يلديز"، ثم تؤدى الصلاة.

وكانت تُتخذ إجراءات وتدابير صارمة واستعدادات مهمة من أجل زيارة "البردة النبوية" التي تتم مرة واحدة سنوياً في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك؛ حيث كانت زيارة سلاطين الأسرة العثمانية للقاعة الموجودة بها "بردة السعادة" في قصر "طوب قابي" تقليداً متبعاً منذ عهد السلطان "ياووز سليم" الملقب بمُحبِّ رسول الله ﷺ، وبعد مغادرة السلاطين قصر "طوب قابي" كانت تلك الزيارة تستمر بإقامة مراسم ملكية مهيبه يُطلق عليها اسم "الموكب الخاص ببردة السعادة".

كان السلطان وحاشيته وأفراد الحريم والوزراء وزوجاتهم يتوجهون جميعاً بالعربات إلى قصر "طوب قابي"؛ لزيارة المتعلقات الخاصة برسول الله ﷺ وآثار أصحابه المحفوظة داخل القاعة الخاصة بها، والتي تحظى برعاية كبيرة وخاصة.

وكانت تلك الزيارة العظيمة التي تملأ القلوب بسعادة روحانية وفرحة غير متناهية تجمع القلوب وتؤلف بينها بالمحبة، وتُمثل إحدى العادات الدينية التي تُوليها السلالة العثمانية أهمية كبيرة.

وفي ذلك اليوم كان يتبارك زوّار "بردة السعادة" بالمنديل الخاص بالرسول ﷺ، والذي يُعرف بـ"المنديل الشريف"؛ حيث كان يُبلّ بماء زمزم، ثم يُقبّل كل واحد منهم هذا المنديل ويضعه على رأسه.

وكانت هناك خادמות القصر العجائز اللائي يقضين أواخر أيام حياتهن بالدعاء والعبادة داخل الأجنحة الخاصة بقصر "طوب قابي"،

حيث كانت تلك الخادومات العجائز اللائي خدمن في القصر أزمان السلاطين السابقين يفرحن بتذكّر السلاطين لهنّ، وتقيلهن لأيديهن على اعتبار أنهنّ كأمهاتهن، وكانت الأميرات في المقابل يُقَبِّلن أيديهنّ أيضاً.

وكانوا في ذلك اليوم أيضاً يتناولون الإفطار في قصر "طوب قابي"، ثم يرجعون مرة أخرى إلى قصر "بِلْدِيْز" في موكبٍ من العربات السلطانية، وفي ليلة القدر -أي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظّم- كانوا يتوجّهون لأداء الصلاة في موكب مهيبٍ.

أما صلاة العيد فكانت تُؤدّى في مسجد "سنان باشا" الواقع بساحة "بَشْكَطاش"، وبعد أداء الصلاة كان السلطان يتوجّه إلى قصر "دُولْمَا باهْجَه"، ويدخل من باب السلطنة الكبير -المدخل المخصّص للسلطان فحسب- متّجهاً إلى ديوان القصر، وكان أهل القصر يدخلون من باب الحريم وهم يرتدون أجمل وأحدث ما لديهم من ثياب، وكان الجميع -صغاراً وكباراً- يتبادلون التهنئة بالعيد فيما بينهم.

وكانت المراسمُ المهيبة للتهنئة بالعيد تقام داخل "صالون المعايدة" الكبير بقصر "دُولْمَا باهْجَه"، وفي حضور كبار رجال الدولة من العسكريين والإداريين ورجال الدين، وكانت القبة الخاصة بهذا الصالون كبيرة جداً وفي غاية البهاء والارتفاع؛ حيث كانت تُضخّم أيّ همسة صغيرة، وأرضيته ممهّدة ومفروشة بأثمن وأنفُس أنواع السجاجيد، أما الثريا الشهيرة المعلقة في سقفه -والتي تَرْن أربعة أطنان ونصف الطن- فكانت تجذب انتباه وإعجاب كلّ من في الصالون.

وكان هذا الصالون يحتوي أيضاً على عرش السلطنة المصنوع من الذهب، والمُطعّم بالزمرد والألماس بحرفيّة عالية ومهارة فائقة،

وكانت الزمرّدة الوحيدة التي لا مثيل لها على وجه الأرض - إذ كانت تعادل حجم ثمرة التفاح - هي أكثر أجزاء العرش جذباً للأنظار.

كان السلطان عبد الحميد - مثل أجداده تماماً - لا يجلس على كرسي العرش - الذي لا يمكن لأحدٍ تقدير قيمته الحقيقية - سوى في المناسبات والمراسم الخاصة فقط.

وكانت الأضواء التي تتوهّج من اللآلئ المعلقة في الشريا وتنتشر في أرجاء الصالون تنعكس أشعتها بشكلٍ خاصٍ على نياشين وأوسمة السلطان وعلى الألباس المزين به العرش؛ لتعطي بريقاً ولمعاً يسحر الأبصار ويجعل كل من في الصالون يتابع هذا المشهد في إعجاب تام ودهشة بالغة.

وكان أكبر المجاهدين والعسكريين سنّاً وأقدمهم - مثل عثمان غازي باشا^(٤) قائد دفاع مدينة "بلفن (Plevne)" - يقفُ إلى جانب السلطان عبد الحميد ممسكاً في يده الراية المقدسة (راية الخلافة) المصنوعة من الحرير الخالص، وتشتمل على كتابات لأركان الإيمان، وكلمة التوحيد، واسم سيدنا محمد ﷺ، ولفظ الجلالة.

ويُتاح لحريم القصر مشاهدةً مظاهر المعاييدة كافة وبكل تفاصيلها من خلال الشرفات المبنية بمهارة فائقة في الطابق العلوي للصالون، ولا يمكن لأيٍّ من الحاضرين في الصالون أن يرفع رأسه ويوجّه بصره نحو شرفات الحريم، أما القاعات المكشوفة الموجودة في الجهة الأخرى من الصالون فكانت تضمّ سفراء الدول الأجنبية وأعضاء الهيئات الدبلوماسية.

(٤) انظر لمزيد من المعلومات عنه: جان ألبجونيغ: بصامات خالدة في التاريخ العثماني، دار النيل - القاهرة، (٢٠١٥م)، ص ١٦٧-١٨٨.

وتبدأ مراسم الاحتفال عند قدوم السلطان ووقوفه أمام العرش، وكان السلطان عبد الحميد يقف لتلقي التهنئة من هيئة كبار العلماء والشيوخ وهو يرسم ابتسامة عريضة على وجهه، كما كان يتلقى التهنئة من بطريك الأرمن وبطريك الروم وكبير الحاخامات أيضاً والوفود المرافقة لهم الذين يأتون إلى القصر السلطاني لتقديم التهنئة للسلطان في الأعياد، وكانت الموسيقى السلطانية تغزف الأناشيد والألحان الوطنية بلا توقف طوال مراسم التهنئة بالعيد.

أما تهنئة السلطان الحريم السلطاني بالعيد فكانت تتم في قصر "يلديز"، وقد كان عبد الحميد يداعب أبناءه بعد أن يقبلوا يديه، ويظهر المحبة التي يكنّها لهم، ويشي عليهم واحداً تلو الآخر ويطلع قبلات حانية على وجناتهم، ثم يقوم أبناءه الأمراء والأميرات بتقبيل أيادي أمهاتهم وأمهات أخواتهم؛ حيث كانوا يحترمون أمهات أخواتهم ويحبونهن بنفس القدر الذي يحترمون به ويحبون أمهاتهم، مما يدل على قوة أواصر المودة بين حريم القصر.

وبالرغم من أن أشهر رمضان هذه التي مرت في سعادة وخير خلال سنوات حكمه قد أصبحت جزءاً من الماضي؛ إلا أن مشاعره الدينية وأفكاره ومعتقداته هو وعائلته ظلت كما هي لم تلعب بها الكوارث ولم تغيرها السنين؛ فقد دفعته ظروف الحرب العالمية الأولى هو وعائلته -تماماً مثل الآخرين- إلى أن يستعين بالصلاة والتضرع إلى الله أكثر وأكثر، ففي أواخر شهر مارس/آذار من عام (١٩١٦م) قبيل حلول شهر رمضان المبارك أرسل السلطان عبد الحميد طلباً إلى قصر "دولما باهجه" بأن يتم تعيين إمام معه في قصر "بكلربكي"، وأن تؤدى صلاة التراويح في القصر كل ليلة طوال شهر رمضان؛ حيث ذكر في طلبه:

"ليست هناك حاجة لوجود مؤذنين، فإذا صلّينا وراء الإمام
فحسب يكفيننا سماعُ صوته وإن كان من وراء ستار".

وكانت رغبة زوجاته اللائي يَقُطُنَّ معه ومواليه الذين يقومون على
خدمته تَتَّفِقُ مع طَلَبِهِ، وكانت الاستعدادات والتحضيرات للأعياد
والمناسبات الدينيّة تجري على قدم وساق؛ حيث كانت العطايا تُقدَّم
إلى الزوار وجنود الفرقة المكلفّة بحراسة القصر.

رحلةٌ خياليّةٌ إلى سنوات الطفولة

كانت علامات السعادة والسرور تبدو جليّةً على وجه عبد الحميد بلقاء أسرته في صبيحة يوم العيد المبارك، وبعد أن قبل أبنائه يديه بكل حبٍّ واحترام دعا لهم وعانق أحفاده بكل عطف وحنان، وقدم لهم هدايا شتّى.

إن مشاهدة السلطان السابق الأطفال وهم يلعبون ويمرحون في ردهات القصر بكل سعادة وسرور في تلك اللحظات جعلته يستعيد ذكريات طفولته؛ فقد مرت أمام عينيه في لمحة بصر السنوات الأولى لطفولته حينما كان يقوم هو وإخوته بتقبيل يدي أبيه السلطان عبد المجيد صبيحة كل عيد، ففي تلك الأيام المباركة كانوا يقبلون يد أبيهم ثم يد أمهم السيدة الأم "تير مُجْكَانَ" (*Tir-i Mijgan*)، لكن هيهات لقد أضحت سنوات الطفولة هذه ذكريات من الماضي.

كان عبد الحميد الابن الثاني للسيدة "تير مُجْكَانَ قادين أفندي"، فقد توفيت لها قبل ذلك ابتها "نعيمة سلطان"، وقد أطلق عبد الحميد على أبنائه فيما بعد أسماء إخوته الأمير "محمد عابد أفندي" والأميرة "نعمة سلطان" الذين توفوا قبله؛ وفاءً وإخلاصاً لهم، وكانت السيدة "تير مُجْكَانَ" التي تنحدر من أصول شركسية قوقازية أمّاً لأمرين وأميرة واحدة، واشتهرت بين خدم القصر برقتها وجمالها ودلالها، فخلال الفترات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية أصبحت أمهات السلاطين والزوجات والجواري والخدم اللائي ينحدرن من أصول قوقازية يتمتّعن بنفوذ كبير جداً داخل القصر العثماني؛ فثمة روابط قوية تربط أهل القوقاز بالأسرة العثمانية، وعلى وجه الخصوص كانت الزوجات الشركسيّات الأصل يتمتّعن بنفوذ كبير

داخل القصر خلال الفترة الأخيرة للدولة العلية؛ فنجد أن حريم السلطان عبد المجيد كافة ينحدرون من أصول شركسية، فلم يرَ أو يسمع أحد عن دخول امرأة من أصول أرمنية أو رومية إلى القصر العثماني ذي العادات والتقاليد الراسخة، ولذلك فإن الادعاء بأن أم السلطان عبد الحميد من أصول أرمنية غير صحيح.

وقد توفي والد عبد الحميد الثاني السلطان "عبد المجيد" الذي قام بالعديد من حركات الإصلاح والتجديد في الخامس والعشرين من حزيران/يونيو عام (١٨٦١م) إثر إصابته بمرض السلّ كآبيه السلطان محمود الثاني، وتعرض في الثالث عشر من أيلول/سبتمبر (١٨٥٩م) لمؤامرة اغتيالٍ وانقلابٍ عليه، ولكنها أجهضت وقُبض على مدبريها وتمّت معاقبتهم، وقد تركت تلك المؤامرة أثراً كبيراً في نفسه وأُغتيت، وقد سعى عبد المجيد جاهداً من أجل إحداث نهضة اقتصادية وسياسية في الدولة العثمانية، وقام خلال فترة حكمه بإصدار فرمان "التنظيمات"، ولهذا فقد أعياه الحزن وأصبح طريح الفراش لِمَا رأى من مؤامراتٍ ومكائد تحاك ضده.

وذات يومٍ حينما جاء عبد الحميد من زيارة خاطفةٍ لـ "سالونيك" قافلاً إلى إسطنبول عرّجَ لزيارة والده السلطان عبد المجيد قبل واحد وعشرين يوماً من وفاته بعدما أنهكه المرض وجعله طريح الفراش، فكان عبد المجيد يجلس في حجرته على أريكة وضعت على جانبيها الوسائد، وكان يعاني من سعالٍ شديدٍ وضيق في التنفّس، ظلَّ عبد الحميد إلى جوار والده حوالي نصف الساعة، لكنه لم يستطع أن يتمالك أعصابه أمام حالة والده وانخرط في البكاء، كانت ساقاه ترتعشان وكاد يفقد توازنه ويسقط على الأرض، وأصيب بحالة شديدة من الحزن ولم يستطع أن يتحمّل

أكثر من هذا؛ فألقى على والدِه التحيّة وخرج من الحجرة، فصاح السلطان عبد المجيد منادياً على ابنه قائلاً:

"تعال أيها الولد الرقيق".

كان السلطان عبد المجيد يُطلِّق عليه "الابن الرقيق" منذ صغره، وفي تلك الأثناء كان عبد الحميد يقف خلف الباب والدموع تنهمر من عينيه بغزارة؛ فذهب إليه رئيس الديوان "محمد علي بك" وقال له:

"إنه يريدك فلا تحزنه".

فمسح دموعه ودخل على أبيه مرة أخرى، كان السلطان عبد المجيد نحيفاً، ويعاني من ضعفٍ وهزالٍ شديدين، وأخذ يواسي ابنه قائلاً:

"أنا سبب بكائك وحزنك، فلتسامحني يا ولدي ولا تقلق فأنا بخير".

ثم قام بالدعاء له، فبادره عبد الحميد قائلاً:

"استغفر الله يا سيدي".

ثم قَبَّل يديه وركبتيه.

لقد كان مصير والد عبد الحميد خان وجَدّه واحداً، وقد مهّد فقْدُه جَدّه وأُمّه وأباه بمرض السِّل إلى زيادة حساسيَّته وقلقه وأوهامه ومخاوفه الصحيّة، فدائماً ما كان يأكله الخوف من أن يُصاب بمرض السِّل أو الكوليرا أو الطاعون أو الملاريا أو ما يشابهها، ولهذا فقد كان يُكثِر استدعاء الطبيب كلّما آلمته بطنه، وقد عمل في خدمته عدد كبير جدّاً من الأطباء الأتراك والأجانب على حدٍ سواء في مرحلة إمارته أو في سني سلطنته، بالإضافة إلى أنّه لم يكن يحبُّ الأدوية الكيميائيّة التي يصفها له أطباؤه، وإنما كان يُفضِّل استخدام العلاجات والعقاقير الطبيعيّة، وربما

أنه كانت لديه معرفة طبيّة، فقد كان يعلم جيّدًا الأعشاب وأيًا من الأمراض تعالج ولأيّها تنفع وتصلح.

وُلد عبد الحميد يوم الأربعاء الحادي والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٨٤٢م) وهو الابن الثاني للسلطان عبد المجيد، وعند ميلاده أُقيمت المراسم والاحتفالات المعتادة، حيث أرسل والده السلطان عبد المجيد مرسومًا ملكيًا إلى "الباب العالي"^(٥)؛ فأطلقت المدافع طلقاتها خمس مرات يوميًا لمدة سبعة أيام بلياليها، وأُضيئت المصاييح أمام المنازل، وعُلقت الزينة.

وقد أُقيمت مراسم الاحتفال بختان عبد الحميد وأخيه الأمير "مراد أفندي" (السلطان مراد الخامس) -الذي يكبر أخاه عبد الحميد بعامين- وبداية تعليمهما عام (١٨٤٦م) في "حيدر باشا" (Haydarpaşa).

مرّ عبد الحميد عام (١٨٥٣م) بواحدة من أقسى الآلام في حياته؛ حيث فقد أمّه "تيز مُجْكَان" التي توفيت بمرض السلّ وهو لا يزال في سنّ الحادية عشرة من عمره، وقد فارقت هذه السيدة المسكينة الحياة بينما كانت تعيش فترة نقاهة واستجمام بقصر "بُكْلَرْبُكي".

كان عبد الحميد كثيرًا ما يتحدث عن أمّه في أسى وحزن قائلاً:

"لقد رَحَلَتْ أُمي العزيزة المسكينة وهي لا تزال شابةً، ودائمًا ما يمرّ طيفها أمام عيني، لا يمكنني نسيانها أبدًا فقد كانت تحبني كثيرًا، وطوال فترة مَرَضِها كانت تجعلني أجلس أمامها وتكتفي

(٥) يطلق في الاصطلاح العثماني على مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع عام (١٦٥٤م)، وأطلق فيما بعد اسم المكان على ساكنه وهو يعني رئيس الوزراء، وكان للباب العالي أهمية كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. (سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض - ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٩).

بالنظر والتطُّلُع إلى وجهي، ولم تكن ترضى لنفسها أن تُقْبِلَنِي
رحمها الله رحمة واسعة".

لقد كان عبد الحميد يزور قبر أمّه في مسجد "بني جامع"، ويقرأ
الفتحة على روحها كلّما أحسّ بحاجته إلى الراحة والهدوء واتخاذها أيّ
قرارٍ مُهمٍّ، وفي أوقات الشدّة والحزن أيضًا سواء حين كان أميرًا أو بعد
أن أصبح سلطانًا.

وفي الحقيقة كانت السيدة "تيز مُجْكَانُ قادين أفندي" تُكْنُ لابنها
عبد الحميد أسمى مشاعر الحبّ والحنان، كانت هذه المرأة التعيّسة
التي فُجِعت لوفاة ابنتها "نعيمّة سلطان" تُكْرِسُ نفسها وحياتها لابنها؛
لعلمها بأن مرضها خطيرٌ للغاية، وكانت تشعر بالحزن كلّما تذكّرت أنها
لن تتمكّن من رؤية ابنها عندما يبلغ أشده فما كانت تألو جهدًا في سبيل
إسعاده، فتشتري له الهدايا القيمة وتُعْده وهو في سنٍّ صغيرة؛ فربما يجلس
يومًا ما على العرش.

كانت صينيّة القهوة والملاحّة الذهبيّتان اللتان استخدمهما عبد الحميد
خان سواء في سنوات سلطنته أو بعد خلعها عن العرش وحتى وفاته تذكّارًا
من أمّه، حتى إنّ "علي أفندي" رئيس صنّاع قهوة السلطان نجح بطريقة ما
في جلب هذه الصينيّة معه إلى منفى عبد الحميد في "سالونيك".

كان السلطان عبد المجيد يواسي ابنه يتيم الأم (عبد الحميد) ويشمله
بعطفه وحنانه، ولكنه شعر بأنه في حاجةٍ للرعاية والاهتمام، فعهد بترتيبه
ورعايته إلى زوجته "برستو" (Pereştü) قادين أفندي "الشركسية الأصل التي
كان يحبّها ويكُنُّ لها احترامًا أكثر من باقي زوجاته الأخريات، وقد اعتمد
السلطان عبد المجيد على الله أولاً ثم على السيدة "برستو قادين أفندي" في
تربية ابنه الرقيق، واستودعهُ أمانةً لديها، وأمره بتقيل يدها، ووصّاه بإطاعتها.

كما كانت السيدة "دَلْبَرُ جَانَانُ هانم" تقوم أيضًا على رعاية الأمير الصغير، وكانت السيدة "نَزْجِسُ نِهَالُ" المهاجرة قد نشأت في الجناح الخاص بوالدته "تِيَزُ مُجْكَانُ"، ولذلك أوصتها والدته ألا تترك ابنها الأمير حتى الموت وأن تقوم على رعايته والاعتناء به، وبالفعل ظلت السيدة المخلصة "نَزْجِسُ نِهَالُ" في خدمة السلطان عبد الحميد حتى آخر أيام حياتها، وعندما أصبح عبد الحميد سلطاناً جَهَّزَ بناتها وزوجهن من القصر، وقد كان كُلُّ مَنْ في القصر يحترم هذه السيدة ويقدرها، حتى إنها لُقِّبت بـ"الجدة الخادمة لمولانا"، وكان أبناء عبد الحميد يخاطبونها أيضًا بـ"الجدة".

كانت السيدة "بَرْسُتُو قادين أفندي" معمرة خيرة، وتتصف بالركة والجمال والدلال والحب والحنان والوقار بقدر ما كانت تتصف بالتضحية والإيثار؛ فقد نشأت وتربت كالأميرات بعدما تبنتها "أسماء سلطان" ابنة السلطان "عبد الحميد الأول" وعمّة السلطان عبد المجيد، وكانت "بَرْسُتُو" حزينه جدًا لأنها عاقرة لم تنجب أطفالاً، وكان هذا سبباً قوياً لتقبل بترية عبد الحميد والعناية به كابنٍ لها وتغمره بالعطف والحنان بمشاعر أمٍ حقيقية، ولم تعامله مطلقاً على أنه ربيها، ولذلك كانت تستحق بجذارة لقب "أم السلطان" بكلِّ ما يحمله من معنى؛ فكانت تتمتع بمحبّة وتقدير كل من في القصر، حتى إن السيدة "تِيَزُ مُجْكَانُ" كانت تحبها حباً جماً؛ فأتى لها أن تعرف أنه سيأتي يومٌ على ابنها تقوم "بَرْسُتُو قادين أفندي" بترية ولدها ورعايته.

عانى عبد الحميد مرة أخرى معاناة كبيرة وهو في سن التاسعة عشر لفقد أبيه السلطان عبد المجيد الذي توفي عن عمر ناهز التاسعة والثلاثين، وحاول أن يتشبث بالحياة بعدما أصبح يتيم الأب والأم.

وكان عبد الحميد يعرف تمامًا معنى الوفاء والإخلاص؛ فخلال سنوات إمارته وحتى بعدما أصبح سلطانًا كان دائمًا ما يُكرِّن احترامًا كبيرًا لزوجته أبيه ويشني عليها ويمتدحها... وبالرغم من أن "برُسْتُو" كانت كثيرًا ما تحبُّ الذهاب إلى منزلها في حيّ "ماجكا" الذي وهبه إياها السلطان عبد العزيز في وقت سابق؛ إلا أن عبد الحميد كان يرغب في بقائها في القصر، وحضورها مراسم السَّلامِك (تقديم تحية الجمعة) التي تقام كلَّ يوم جمعة، ومع هذا كان عبد الحميد يؤمن تمامًا بأن تدخل أمهات السلاطين في شؤون الدولة خلال عهد السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس لم يسفر مطلقًا عن أيّة نتائج إيجابية سواء للأسرة العثمانية الحاكمة أو للدولة بشكلٍ عام، ولهذا فقد قبلَ يدَ مربّيته في اليوم التالي لتوليهِ العرش، وقال لها:

"لم تجعليني أشعر ولو ليوم واحد بأنني فقدتُ أمي، إنني أرى أنّه لا فرق بينك وبين أمي الحقيقية ومكانتك هي مكانة السلطانة الوالدة، وستمتّعين بكلِّ حقوق وصلاحيّات أم السلطان في القصر، إلا أنني في المقابل أرجو منك ألا تتدخل في شؤون الدولة وألا تحملي على عاتقك حماية أي شخص، وأن تبتردي بشكلٍ قاطعٍ عن أصحاب المصالح والطامعين في الرتب والوظائف".

وقد ظلت "برُسْتُو هانم" ملتزمة بأوامر عبد الحميد حتى وفاتها، ولم تكن وحدها فحسب بل إن باقي أفراد الأسرة احتذوا حذوها في هذا الشأن.

وفي يوم من الأيام سافرت "برُسْتُو هانم" سرًا إلى منزلها في "ماجكا" ووافها أجلها هناك؛ فلما علم عبد الحميد بهذا الخبر حزن حزنًا شديدًا وألمَّ به الأسى، وتحول القصر إلى مأتمٍ كبيرٍ وأُعلن الحداد حزنًا على وفاتها، ولم تُعزف الموسيقى الخاصة بنوبات الحراسة لمدة أسبوعٍ كامل.

دفنت السيدة "برستو قادين" في الضريح الذي شيده لنفسها في حي "أيوب"، وكانت من قبل قد حاكت بيديها كفنها الخاص، وأنشدت على روحها أشعار في مدح النبي ﷺ (أهازيح المولد الشريف) في مسجد "حميدة"، والتكية "الشاذلية" بضاحية "يلدیز"، وكانت قطع الحلوى المسماة بـ "سُكَّر العَقِيْدَة" توزَّع على المشتركين في إنشاد تلك الأشعار الدينية في صحافٍ كبيرة مصنوعة من الفضة، وعند بنائها هذا الضريح في مقابر مسجد "السلطان أيوب" أراد عبد الحميد أن يساعدها فيه، ولكنها رفضت قائلةً:

"سأعدُّ قبري بنفسي حتى يرجع ثوابه أو إثمُه إليَّ".

وقد أولى السلطان عبد الحميد عنايةً كبيرةً بتربية وتعليم ابنه عبد الحميد الذي فقد أمه وهو في سن صغيرة؛ فُعني بتعليمه على يد أساتذة كبار بارعين في مجالاتهم، فقد درس الأمير عبد الحميد اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة الفرنسية والتاريخ العثماني والفنون والعلوم الدينية، والفقہ الإسلامي والحديث والتفسير...

وتلقى عبد الحميد دروس الموسيقى وتعلَّم أيضًا العزف على البيانو، وقد جعلته الهبات والمَلَكات التي منحه الله إياها كحبِّ المعرفة والنبوغ يتمتّع بشخصية مؤثّرة وناطقة بالحيوية.

كان عبد الحميد يتمتّع بذكاءٍ حادٍّ وبصيرةٍ ثابتة، وبفضل التعليم الذي تلقاه على يد الأساتذة الكبار والعلماء الأجلاء أصبح ذا ثقافة عالية وعلمٍ غزيرٍ وأفقٍ واسعٍ، فكان طَلَقَ اللسان يتحدث بسلاسةٍ متناهية، ويتمتّع بصفات محمودة جعلته يكتسب أهميّة خاصة بين السلاطين العثمانيين كدماثة الخُلُق والتعلُّق بالدين وشدة الأدب والحياء والعفة والعقل والعلم والعدل والإنصاف وفصاحة اللسان والصبر والعمل من

أجل الوطنِ والوعيِ السياسي والإحسانِ لأعدائِهِ، وقد عمل على تجسيد تلك الصفات على أكمل وجه وأفضل صورة خلال فترة حكمه.

كان السلطان السابق يفرح، وتتهلل أسارير وجهه، وتمتلى عيناه البَيَّتان بالابتسام كلما تذكَّر تلك الأيام الخوالي خلال سنوات إمارته حينما كان يتدرَّب بالسلاح والسيف، ويمارس الرياضة وركوب الخيل وقراءة الكتب في أوقات فراغه من الدراسة، وكان شغلُه الشاغلُ في تلك الفترة هو ركوبُ الخيل؛ فكان يُرَبِّي الجيادَ الأصيلَةَ الباهرةَ الجمالَ في الإسطبل الخاصِّ بمزرعَتِهِ الواقعة في "مَاجِكا"، وبعدما أصبح سلطاناً كان يأمرُ بأن تطوفَ خيولُه المحبَّبَةُ إليه داخل حديقة قصر "يِلْدِرِز" الشاسعة برفقة سائسي الخيول، وكان يجدُ متعةً كبيرةً في مشاهدتها من النافذة.

كان لدى عبد الحميد في طفولتِهِ مُهرةٌ جميلة يركبها ويطوف بها في حديقة القصر برفقة "إبراهيم أفندي" أحد الأغوات، ففي تلك الأوقات كان لكل أمير من الأمراء قِزَمٌ من الأغوات، وكان لدى عبد الحميد قِزَمٌ يسمَّى "إبراهيم أفندي"، وإلى جانب الخيول كان عبد الحميد يحب تربية الببغاوات والقطط والحمام ويطلق على كل منها اسماً خاصاً، فكانت تربية الحيوانات أكبر متعة في حياته، بل إنه ربَّى حتى ثعابين في طفولته.

* * *

كان السلطان عبد الحميد الثاني طويلاً القامة، لكن ما أضعفَهُ هو ما حَمَلَهُ على عاتقه من عبءِ الحُكْمِ ومسؤوليَّتِهِ لسنوات وقعت خلالها اضطراباتٌ وأحداثٌ جَلَلٌ، وكان كلُّ يوم يمضي يزداد ضعفُ عبد الحميد العجوز الذي يقضي آخر لحظاتِ حياتِهِ في قصر "بُكُلُرْبَكِي"، ولا يخشى الموت؛ فقد كان مؤمناً سليم العقيدة يَثِقُ في أنه سينال الثواب من ربه على ما قام به من كفاح ونضال لخدمة العالم الإسلامي وبقائه وسعادته.

كان عبد الحمید یسترجع ذکریاتٍ من سنوات حیاته الماضیه بینما كان یتحدّث مع أبنائه الأمراء الذین جاؤوا لزیارته فی العید، وبعد أن خلّل یده فی لحیتہ السوداء المجعّده قليلاً ارتشف آخر رشفة فی فنجان قهوته، ثم وضع الفنجان علی المنضدة الخشبية التي صنعها بنفسه، ونهض عن الأريكة التي یجلس علیها، فنهض علی إثره الأمير "محمد سلیم أفندي" والأمیر "محمد برهان الدین أفندي" تقدیرًا واحترامًا له، حیث كانوا یجلسون فی الحجرة الواقعة فی الطابق السفلي لجناح الحریم بقصر "بُکْلُزْبَکي"، والتي تطل علی تلك الحديقة الغناء التي تنمو فیها النباتات وتُظِلُّها الأشجار الضخمة، وتزینها تماثيل الأیل من ناحية البحر، أما حجرة نومه الخاصة فكانت تقع فی الناحیه الأخری من الممرّ.

وكانت الحجرة الخاصة بـ"مشفقة قادین أفندي" (١٨٦٧-١٩٦١م) زوجة عبد الحمید تقع بجوار حجرة نومه فی جناح الحریم، وكان قد تزوجها فی الثاني عشر من ینایر/كانون الثاني عام (١٨٨٦م)، واسمُها الحقیقی هو عائشة، وكانت أول هدیة أهداها لها نسخة قيمة من المصحف الشریف، قال لها وهو یعطيها إياها:

"أريد أن أطلق عليك اسمًا، سأفتح المصحف ولنرأي اسم سيقسمه الله لنا".

وبتلك النظرة المتفائلة وبهذا الفأل والنية وقعت عيناه علی كلمة ﴿مُشْفِقُونَ﴾ فی الآية الثامنة والعشرين من سورة الأنبياء، وبناءً علی هذا قال لها:

"إن شاء الله ستكونين امرأة مشفقة وخيرة".

وبهذا أطلق علیها اسم "مشفقة باش إقبال"، وأمر أن يُنقش لها ختم بهذا الاسم، وبالفعل كانت السيدة "مشفقة هانم" إنسانة عطوفة وشفوفة

وقَدَمَ سعدٌ وخيرٌ على السلطان عبد الحميد، وكانت تقفُ إلى جواره دائماً في الأزمات والمحنِ حتى وفاته، ولم تَضُنَّ أبداً بالدعاء له ولا الوفاء لذكراه. [وقد سافرت "مشفقة هانم" إلى باريس عام (١٩٢٤م) بعدما نُفِيَ أفرادُ الأسرة العثمانية خارج البلاد، ثم عادت مرة أخرى إلى إسطنبول في خمسينات القرن العشرين عندما سُمح لسيدات الأسرة العثمانية بالعودة إلى تركيا، وقد توفيت عام (١٩٦١م) وُدفنت في ضريح "يحيى أفندي" في إسطنبول].

فاجعة ولده التي اکتوى بها قلبه

كان جناح الحريم بقصر "بُكْلَزْبَكِي" يؤدّي إلى الحديقة عبر باب ضخم يوجد على جانبه تمثالان لأسدين يُهْبِطُ من خلاله بواسطة سلّمٍ مرمريّ، أما الطابق الثاني من جناح الحريم فيحتوي على غرفٍ عديدةٍ كان عمّه السلطان عبد العزيز والسلطانة الوالدة يستخدمانها فيما مضى.

وبعدما نهض عبد الحميد من الأريكة اقترب من النافذة بخطوات بطيئة، واستغرق في مشاهدة أحفاده وهم يلعبون بالألعاب المختلفة في سعادة ومرح داخل حديقة القصر، فخلال سنوات حكمه كان يشعر بسعادة غامرة عند مشاهدته أحفاده الذين يأتون لزيارته في قصر "يِلْدِيز" وهم يلعبون ويمرحون حتى إنه كان يطوف معهم حديقة القصر.

كان عبد الحميد يحبُّ أبناءه حبًّا جمًّا وعلى الأخصّ البنات منهم، فكان يعاملهن بكلِّ حبٍّ وحنانٍ وعطفٍ.

وكلّما أراد أن يعانق إحدى حفيداته كان يتذكّر ابنته خديجة سلطان التي توفيت عام (١٨٩٨م) بسبب إصابتها بمرض "الدفتيريا (الحُناق)" وهي لا تزال طفلةً لا يتعدّى عمرها ثمانية أشهر، حيث تعلّق بها وأحبّها حبًّا جمًّا منذ أن وضعتها أمّها "فاطمة بَسَنْدْ هانم"، ولم يفارقها ولو للحظة واحدة طوال فترة مَرَضِها؛ حيث شعر بأصعبِ أحاسيس المعاناة والألم التي يمكن أن يتحمّلها الآباء شفقةً على أبنائهم.

وقد أولى عبد الحميد أهميةً كبيرةً خلال سنوات سلطنته لمجال الطّب، وأوفد الأطباء المتميّزين إلى خارج البلاد حتى يتخصّصوا ويطلّعوا على كلّ ما هو جديد في عالم الطّب، ومن هؤلاء "د. إبراهيم بك" الذي

أنهى دراسته في كلية الطب عام (١٨٨٨م) وعمل طبيباً في مستشفى "دنيز" في إسطنبول؛ حيث تم إيفاده إلى ألمانيا وأصبح متخصصاً في أمراض الأطفال، وقد قرأ عبد الحميد في الصحف عن تخصصه في هذا الفرع من الطب؛ فأمر باستدعائه إلى القصر لفحص الحالة المرضية لابنته "خديجة سلطان"، وطلب منه أن يذل كل ما في وسعه لمعالجة طفله الصغيرة، وبعدما قام "د. إبراهيم أفندي" بمعاينة "خديجة سلطان" التي كانت في حالة صحية حرجة للغاية أكد على التشخيص الذي قام به "د. باسم عمر باشا" قبل ذلك وهو إصابتها بمرض الدفتيريا، وصارح السلطان عبد الحميد بأن حالتها غاية في الخطورة وميؤوس منها؛ لدرجة أنه لم يتمكن من إعطاء الطفلة أي دواء، وفي واقع الأمر لم تكن الرغبة في مصارحة السلطان بهذه الحقيقة المرة وإثارة مشاعر الحزن لديه أمراً هيناً على "إبراهيم بك"؛ ولكنه كان مضطراً لمصارحته بالحقيقة حتى لو كانت مؤلمة، وعندما علم السلطان بحالة ابنته حزن كثيراً وخزَّ ساجداً لله ودعاه قائلاً:

"اللَّهُمَّ أَنْقِذْ لِي ابْنَتِي وَاشْفِهَا".

لكن أمر الله قد وقع، وتوفيت خديجة سلطان بعد ظهر نفس اليوم. إن معاشة عبد الحميد لألم وفاة ابنته "خديجة سلطان" أثر فيه بشكل كبير ولا سيما أنها جاءت بعد وفاة ابنته "علوية سلطان" عام (١٨٧٥م) وهي لا تزال في السابعة من عمرها إثر حادثة مؤسفة وقعت حينما كانت تلهو بأعواد الثقاب؛ حيث شبت النيران في ملابسها المصنوعة من القماش الرقيق واحترق كامل جسدها، وكانت "علوية سلطان" قد ولدت عام (١٨٦٨م) من زوجته "نازك أدا قادين" (Nazikeda Kadın)، وكان عبد الحميد في تلك الأثناء يسبح في حمام خاص على شاطئ البحر في "جَنَكُلْ كُوي" برفقة أخيه "برهان الدين أفندي"، وبمجرد إبلاغه بالخبر

هَزُؤْلَ مسرعًا إلى القصر لكنَّهُ اصطدم بالحقيقة المؤلمة، فحاول عمه السلطان عبد العزيز تخفيف فجیعة الأمر علیه وهُدًّا من روعه، وطلب منه أن یبقى إلى جوار والدته في "نِشَان طَاشِي" لفترة من الزمن، وقد أقيمت جنازة "خديجة سلطان" ثُمَّ دُفِنَتْ إلى ضريح "یحیی أفندي".

وتوفيت أيضًا ابنته "سامية سلطان" بينما كانت لا تزال في سن صغيرة، وهي ابنته من زوجته "صالحة ناجية إقبال أفندي"، وكانت "سامية سلطان" آخر أبناء السلطان عبد الحمید، وهي الابنة السابعة عشرة عمومًا والتاسعة بين البنات، وقد دُفِنَتْ في مقابر "یحیی أفندي".

كما توفي ابنه "محمد بدر الدين أفندي" عن عمر ناهز سنتين ونصف السنة إثر مرضه، وله أخ توأم یسمى "أحمد نور الدين أفندي"، وقد ولدا عام (١٩٠١م) في قصر "یَلْدِز" وهو ابن "عبد الحمید" من زوجته "بهیجة هانم أفندي" الملقبة بـ"الإقبال الخامس"^(٦)، وكانت علامات الذكاء بادية علیه منذ صغره.

أما أخوه التوأم "أحمد نور الدين أفندي" فقد تلقى تعلیمًا عسكريًا وأصبح ضابطًا بالجيش، ثم سافر إلى "باريس" عندما نُفِيت الأسرة العثمانية خارج البلاد، وتوفي على إثر مرضه عام (١٩٤٥م)، ودُفن في مقابر المسلمين في مدينة "بوينی (Bobigny)" بفرنسا.

كان السلطان عبد الحمید يرغب في القيام بعمل خيري یُخَلِّد به ذكری ابنته "خديجة سلطان" التي دُفِنَتْ في مقابر "یحیی أفندي" بالقرب

(٦) بدءًا من النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر كانت هناك جوارٍ في الدولة العثمانية تسمى الواحدة منهن "إِقْبَال" (İkbal) علاوة على زوجات السلطان، موقعهن أدنى من موقع الجواري اللاتي یسمین "قَادِین"، ولهن أرقام تسلسلية ١، ٢، ٣، ٤، حسب اختيار السلطان، ولهن خادما شخصیات أيضًا، وبمقدورهن أن یرتدین أزياء ذات حواشٍ فراتية شتاءً إشارة إلى علوِّ مكانتهن، وإذا خلا مكان بين "قَادِینلَر" ترتقي صاحبة المرتبة الأولى في "إِقْبَال" إلى درجة "قَادِین". (المترجم)

من قصر "يَلْدِيز"، وبينما كان السلطان يتشاور بشأن تلك الفكرة مع الطبيب "إبراهيم بك" الذي أدرك مدى إخلاص السلطان وتُنبّله طرح عليه "إبراهيم بك" فكرة قائلاً:

"حتى الآن لا يوجد مستشفى واحد للأطفال فوق أراضي الدولة العثمانية العريقة، والحقيقة أن الأبحاث الطبية أكّدت وجود حاجة ماسة لإنشاء مستشفى مجهّز لتشخيص أمراض الأطفال وعلاجها".

فَقَبِلَ السلطان عبد الحميد هذه الفكرة، وعَهَدَ إلى "إبراهيم بك" في الثامن عشر من فبراير/شباط عام (١٨٩٨ م) بإقامة مستشفى للأطفال بجوار دار طبّ القصر، وفي الخامس من يونيو/حزيران عام (١٨٩٩ م) بدأ العمل في المستشفى تحت اسم "مستشفى حميدية للأطفال"؛ حيث تمّ تجهيزها بأحدث الوسائل والأجهزة الطبية التي أُخْصِرَتْ من ألمانيا، وبدأت هذه المستشفى -وهي أول مستشفى مخصّصة للأطفال فوق الأراضي العثمانية آنذاك- بمعالجة آلاف الأطفال المرضى؛ إذ عَمِلَ بها أمهرُ الأطباء، واستَقْدَمَتْ لها أبرعُ الممرّضات الألمانيّات، وكان عددٌ كبيرٌ من الناس يأتون إلى "إسطنبول" لعلاج أطفالهم، وطراً عليها فيما بعد العديد من التجديدات والإصلاحات، وعُرفت بعد ذلك باسم "مستشفى شيشلي للأطفال".



إحسانه وحبه لفعل الخيرات

كان السلطان عبد الحميد يقدم كل الدعم للجمعيات الخيرية والمؤسسات المدنية التي تقوم بأعمال تطوعية وخدمية من أجل مصلحة العامة؛ فكان يسمح بإقامة جمعيات التكافل الاجتماعي التي تؤسس على يد أي مَن يتمون للدين، وفي المقابل كان يحظر ويضع العقوبات أمام بعض الجمعيات التي تسعى وراء أهداف سياسية وتعمل كدُمى في أيدي الدول الأوروبية، وكتعبير عن إيمانه بالحرية الدينية وحرية الاعتقاد لكل فرد من أتباع الدولة العثمانية كان يقوم بمساعدة بعض الكنائس والمعابد اليهودية.

لم يكن عبد الحميد يميّز بين شعبه في المعاملة؛ فكان يسمح بترميم الكنائس وبناءها في الأماكن التي تتطلب هذا الأمر، حتى إن كنيسة "سانتا ماريا درابريس" (*Santa Maria Draperis*) -التابعة للمسيحيين الكاثوليك- والتي تقع على ناصية شارع "الاستقلال" في "بَك أُوغْلُو" (*Beyoğlu*) بإسطنبول بُنيت في عهده وبإذنه عام (١٩٠٤م)، والدليل على هذا وجود لوحة مرمرية منقوش عليها اسم "السلطان عبد الحميد" واسم رئيس بلدية إسطنبول "رضوان باشا" مُنَبَّتة على الواجهة الأمامية للكنيسة من الجهة المقابلة للشارع، وقد وُضعت أعلى الباب الأيسر للمدخل المكوّن من ثلاثة أبواب مبنية على شكل قوسٍ مُغلَقٍ بالقضبان الحديدية، وأصبحت كنيسة "سانت ماريا درابريس" الكنيسة الوحيدة من بين الكنائس التابعة للفاتيكان التي تتميز بتلك الصفة، وكان تقديم الدعم المادي والعيني لكنيسة "سان جيواشينو ان براتي" (*San Gioacchino in Prati*) التي أُنشِئت في الفاتيكان وإرسال الهدايا للبابا أمرًا مفيدًا جدًّا وذا مغزى عميق بالنسبة

للسلطان عبد الحميد؛ حيث إنَّ هذا الأمر يضع رؤية شاملة للعلاقات مع العالم المسيحي، كما سيفيد في استغلال نفوذ البابا على الدول الكاثوليكية في أوروبا وشعوبها.

كان السلطان عبد الحميد يتمتّع بشخصية مُحبّة لِفِعْلِ الخير، وقد ظهرت العديد من العادات والتقاليد الخيريّة في عصره مثل الولائم وموائد الطعام وحفلات الختان الجماعية؛ وذلك نتيجة للأهميّة التي أولاها لزيادة التطوّر الاجتماعي ورفع مستوى المعيشة وتطوير الروابط بين الدولة والمجتمع، فكانت الولائم وحفلات الختان تُقام في أماكن عدّة خلال شهور الصيف، وكان عبد الحميد يُرسل الذهب والأموال من ماله الخاص كهدية للأطفال، وكان من بين تلك الأنشطة والمساعدات الاجتماعية تقديم الفحم والخطب إلى العائلات الفقيرة في فصل الشتاء.

كان عبد الحميد دائماً ما يضع اللبنة الأولى في الحملات الخيرية والمشاريع التي تهدف لتقديم المساعدة للمحتاجين؛ فكان مثلاً يَحْتَدِي به الأعيان والأغنياء في بذل المال حيث كان يحثّهم على القيام بذلك، ويسخر كافة إمكانيات الدولة ونظارة الخزانة الخاصة لهذا الأمر؛ فيأمر رؤساء الضواحي بتحديد المشرّدين والمرضى والأرامل واليتامى والمحتاجين في الأحياء المختلفة من مدن الدولة، وتقديم المعونات لهم كالأموال والطعام والمشروبات والفحم، وكانت تلك المعونات تردّاداً خلال شهر رمضان وفصل الشتاء، وكان يهتم كثيراً برعاية المرضى المهضومة حقوقهم، ويخصّص كلّ عام جزءاً من ماله الشخصي للإفراج عن المحبوسين بسبب الديون، فكان القيام بأعمال خيريّة كهذه يهيئ المناخ لتوطيد العلاقة بين الدولة والشعب ويعمل على هدم المعتقدات الشائعة بين الناس بأن "رجال الدولة يهتمون بأنفسهم ومصالحهم الشخصية فقط ويُهْمِلُونَ عموم الشعب".

وقد تدرّث مسألة توزيع صدقات السلاطين أي (الصدقات السنيّة) في عهد السلطان عبد الحميد برداء المراسيم؛ فكانت توزّع على الفقراء باسم السلطان كلّ يوم جمعة في ضاحية مختلفة من ضواحي إسطنبول، وعلاوة على هذا يخصّص جزء من إيرادات البلديات بنسبة واحد من أربعين ويوزع على الفقراء في صورة مرتبات شهرية تُقدّر بثلاثين قرشاً لكل فرد، ومن ناحية أخرى كانت تُذبح إحدى وعشرون ذبيحة أيام الجمعة أيضاً باسم السلطان في الأحياء المليئة بالفقراء وتحت إشراف أحد خدام القصر، فتوزّع لحومها على الأسر المحتاجة وساكني الزوايا والأزقة والتكايا والدراويش وطلبة المدارس.

ولم تكن تلك المساعدات مقتصرة على الأسر المسلمة فحسب، بل كانت تقدم إلى الفقراء من أصحاب الطوائف الأخرى كاليهود والروم والأرمن بأمر من السلطان بهدف تأليف القلوب وتوحيد صفوف المجتمع العثماني، وكما كانت الهبات والعطايا تُقدّم إلى الرعايا غير المسلمين وتؤمن احتياجات المستشفيات والمباني والمؤسسات التابعة لهم؛ كانت "مستشفى حميدية للأطفال" ترسل يومياً إلى "مستشفى الروم" خمسا وسبعين أوقية^(٧) من الخبز وخمسين أوقية من اللحم، وإلى مستشفى "يدي كوله" الأرمنية ستمائة أوقية من الخبز ومائة وخمسين أوقية من اللحم، وعلاوة على هذا فقد كان يُخصّص شهرياً اثنا عشر ألف قرش كمنحة سلطانية.

* * *

ومن المؤلم أن الحادثة التي بدأت في الثالث عشر من أبريل/ نيسان (١٩٠٩م)، والتي تعرف تاريخياً بأحداث "٣١ مارس/ آذار"، قد تسببت في تغيير جذري للكثير من أساليب إدارة الدولة العثمانية؛ فقد

(٧) الأوقية (٤٠٠) درهم، أي ما يساوي (١٢٦٢) جرام، وأصلها أوقية أو وقية. (المترجم)

استولى "جيش الحركة" على الحكم بعد أن جاء من "سالونيك" إلى "إسطنبول" بهدف إخماد تمرد بسيط كان قد حدث، وانتهت في تلك الفترة العديد من العادات والأنشطة التي كانت تُعزّز وحدة الصف، وتؤمن التكافل الاجتماعي داخل المجتمع العثماني، ليس هذا فحسب، بل إنه بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد من الحكم ونفيه إلى "سالونيك" قُضي تقريبًا على كافة المؤسسات والجمعيات الخيرية التي تبقت كتذكاري منه، ومن هنا نرى سبب المعاناة والظلم الذي عايشه الكثيرون وعلى الأخص الذين اضطروا إلى النزوح والهجرة واللجوء إلى إسطنبول عقب هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان، وقد ظلت "مستشفى حميدية للأطفال" في تلك الفترة دون أية رعاية أو إشراف، وبعد أن كانت المستشفى في البداية تخضع لإشراف المالية نُقلت تبعيتها إلى البلدية لاحقًا، وخلال الفترات التي أعقبت حادثة "٣١ مارس/آذار" استُبعد الكثير من الشخصيات القريبة من السلطان عبد الحميد من مناصبهم؛ حتى إن "د. إبراهيم بك" الذي عمل ككبير للأطباء في تلك المستشفى لمدة عشر سنوات فُصل واستُبعد من طاقم عمل المستشفى، وغيّر هيكلها الوظيفي بدرجة كبيرة، وهكذا فإن خبرة السنين والانضباط والمحافظة على نظام العمل التي ظلت لسنوات طوال ضُرب بها عرض الحائط وذهبت سدى، ويبدو أن هذه المعاملة السيئة لـ "د. إبراهيم بك" لم تكن كافية بالنسبة لهم فقد مُنع من ممارسة الطب لمدة أربع سنوات، واعتبارًا من عام (١٩١٣م) عمل "د. إبراهيم بك" في جمعية "الهلال الأحمر" ثم في "مستشفى المهاجرين" التي افتتحت خصيصًا من أجل مهاجري حرب البلقان.



وعيه ونفاذ بصيرته

بينما كان السلطان عبد الحميد يقضي آخر سنوات حياته في جوٍّ من الهدوء والبساطة مع عددٍ قليلٍ جدًّا من الناس داخل قصر "بُكْلُزْبَكِي" الذي يحمل ذكرياتٍ من عمِّه السلطان عبد العزيز، كان يتذكر من حين إلى آخر الأحداث الزاخرة بالعبر والدروس المستفادة التي مرّت عليه خلال سنوات إمارته، ويقوم بعمل مصالحةٍ مع الماضي في عالمه الخيالي.

وقد بدأت معرفته وإلمامه بتقاليد وأعراف الدولة تتضح وهو في سنٍّ مبكّرة، وكان يتمتّع بشخصيّة قويّة ونفسٍ رفيعة ومثزّنة، وكان لماحاً إلى حدٍّ كبير، وقد كان لهذه الصفات -بالإضافة إلى قراءة الكتب عالية المستوى- دورٌ كبيرٌ في نموّ أفكاره السياسيّة والاجتماعية وتطوُّرها اعتباراً من فترة شبابه.

كان عبد الحميد يتابع التطورات التي تحدث في العالم من حوله عن كثب، ويدرك بالأدلة القاطعة وتحليلاته الشخصية التي لا تُخطئ مدى حجم أطماع الروس والإنجليز والفرنسيين في الدولة العثمانية ومؤامراتهم التي يحيكونها في هذه المنطقة من أجل تحقيق أهدافهم، فقد كان عبد الحميد يتواجد خلال اللقاءات التي يعقدها والده السلطان عبد المجيد مع مسؤولي الدول الأجنبية في "صالون الاجتماعات"؛ حتى يتمّ إعداده ويستعد للمهمة الكبرى التي سيعمل عباًها على عاتقه مستقبلاً.

لم يكن عبد الحميد يتخلى أبداً عن هيبته واعتزازه بنفسه أمام أي قوة أو أي شخص لا يثق به، فعلى سبيل المثال حدث ذات يومٍ خلال فترة حكم والده أن حضر اللورد "ستراتفورد كاننج (Stratford Canning)"

سفير إنجلترا إلى قصر "دُولْمَا بَاهْجَه"، فطلب السلطان عبد الحميد منه تقبيل يد السفير الإنجليزي كنوع من إظهار الأدب والاحترام، إلا أن عبد الحميد أكثر أبناء السلطان عبد الحميد وعيًا وفطنةً رفض تقبيل يد السفير الإنجليزي رغم إصرار والده عليه أن يفعل، وكأنه بذلك الأمر قد أبان عن السياسة التي سيتهاجها تجاه إنجلترا في المستقبل، وقد أدرك عبد الحميد في ذلك الوقت أن بريطانيا العظمى تشكل خطرًا كبيرًا على العثمانيين، ومن ثم فإن الجهود المضنية التي قامت بها هذه الدولة في السنوات التالية لتمزيق الدولة العثمانية وشق صفّ العثمانيين، والمكائد والمؤامرات التي دبّرتها في الأراضي التي يسكنها المسلمون من أجل تحقيق مصالحها ومآربها في الخلافة العثمانية كانت تجعله محققًا وعلى صواب في وجهة نظره هذه؛ وفي الواقع ناضل الإنجليز في عهد عبد الحميد بكل ما في وسعهم من أجل الاستيلاء على عاصمة الخلافة من أيدي العثمانيين ونقلها إلى مكان آخر سيخضع لتبعيتهم وسيطرتهم ولكنهم فشلوا في تحقيق هذا الأمر.

كان عبد الحميد يتمتع بقدر كبير من الوعي والإدراك وسرعة البديهة؛ فكان كل من يحاوره يقدر هذا الجانب من شخصيته ويعجب بذكائه، وخلال سنوات حكمه كان سفير أمريكا في "إسطنبول" آنذاك، وهو رجل غريب الأطوار يسأله أسئلة غريبة تتعلق بالإسلام، وفي إحدى المرات سأله قائلاً:

"إن المسلمين يتزوجون من بناتنا لكن لماذا لا يزوجونا من بناتهم؟".

تعجب عبد الحميد من هذا السؤال، وفكر قليلاً ثم أجاب على السفير قائلاً:

"نحن نؤمن بالزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، وندرك أن جميعها منزل من عند الله، لكن أحكامها في الوقت الحالي معطّلة وأحكام القرآن الكريم سارية، فلتؤمن بالقرآن الكريم وتصدق بالنبي محمد ﷺ وأنا أزوجهك ابنتي".

التزم السفير الأمريكي أمام رده هذا بالصمت المطبق ولم ينس بيت شفة.

وبالرغم من هذا كان عبد الحميد يتبنّى مبدأً واضحاً وهو مشاركة مَنْ يثقُ بهم قبل اتخاذ القرارات المهمة، وألا يخطو خطوةً واحدةً دون التفكير بدقة وعناية في المسائل المصيرية التي سيصدرُ فيها قراراً، وأصبح هذا المبدأ ملمحاً من ملامح شخصيته مذ كان أميراً، فكان لا يعبر عن أفكاره وعمّا بداخله قبل أن يفهم جيّداً وجهات نظر مخاطبيه، ويتشاور مع رجال العلم والدولة، فكان رجلاً ورعاً حكيماً ومتعقلاً وحذراً للغاية.

وعندما تولى العرش لم يتردد في الاستفادة من أصحاب الخبرة والكفاءات، فعلى سبيل المثال كان الشيخ "أبو الهدى الصيادي الحلبي (١٨٥٠-١٩٠٩م)" يحتلُّ منصب كبير مستشاريه لشؤون المناطق العربية، فكان هذا الشيخ الرفاعي الحلبي صاحب المؤلفات العديدة باللغة العربية من بين الشخصيات التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً، ويُعتبر أكبر شخصية عربية مشهورة بسياستها الإسلامية.

وكان عبد الحميد يتصف بالشجاعة والجرأة والإقدام، وكان يحب عمه السلطان عبد العزيز حباً جمّاً ويقدره للغاية، كما يُكنّى احتراماً كبيراً للسيدة "بزّونّيال هانم" والدة عمه السلطان والتي كانت تساعد على توطيد علاقته بعمّه، وكان عبد العزيز يعتني بعناية كبيرة بالأمرء خصوصاً بعبد الحميد ابن أخيه الذي يتمتع بالقدرة السياسية الكبيرة والذكاء الحاد.

وبعدما تولى عمه السلطان "عبد العزيز" مقاليد الحكم عاش عبد الحميد حياة هادئة ومنعزلةً مع عائلته؛ متنقلاً بين المزارع الموجودة في منطقة "كاغيت خانه" ومصيف "طَرَايَا" وقصر "مَاسَلَاق"، فكان يعيش في "القصر السلطاني" -المكوّن من طابقين عند طريق "يُيوكُ دَرَه" في "ماسلاق"، والذي بُني في عهد السلطان عبد العزيز- حياةً ممتزجةً بالطبيعة بعيدةً عن قصور إسطنبول، تخلو من كل جوانب السفاهة والمجون، وعلى جانبي المدخل في هذا القصر توجد العديد من الأعمدة تعلوها شرفةٌ كبيرة، كما كانت جدران الصالة وأسقف الغرف الموجودة به -ومن بينها حجرة المذاكرة، وحجرة النوم الخاصة بعبد الحميد- مطليةً بأزهى الألوان، ومزينة بالزخارف والنقوش، ويوجد في حديقة هذا القصر المبنّي من الطوب والمزخرف بالقرميد صالةٌ زراعيّةٌ تنتج نباتات قيّمة جداً، وقد قام عبد الحميد بصنع بعض من قطع الأثاث الخشبيّة الموجودة في هذا القصر بنفسه.



لمحة عن حياته العائلية

عاش عبد الحميد حياةً مليئةً بالمرح مفعمة بالحياة خلال سنوات إمارته؛ فكان يحبّ المبارزة بالسلاح وممارسة السباحة والرياضة وركوب الخيل والخروج في رحلاتٍ طويلةٍ إلى البراري، وابتعدَ عن العادات والسلوكيات السيئة كشرب الخمر، وبعد زواجه أصبح يقضي غالبية أوقاته مع عائلته وأولاده وقد حرص عبد الحميد على أن يوفر لبناته وأبنائه تعليمًا عاليًا سواء على المستوى الديني أو العلمي، وكانت أهم النقاط التي يضعونها دومًا في عين الاعتبار هي أن يكون كل واحد منهم مثلاً يحتذى به عامة الشعب، وعلى قدر المسؤولية التي يحملها، وأن يُجسّد بحقّ الشخصية الأصيلة للأسرة العثمانية.

تزوَّج عبد الحميد للمرة الأولى من السيدة "نازكًا" جارية زوجة أبيه "برشتو قادين أفندي"، وبعد جلوسه على العرش خلع عليها لقب "باش قادين أفندي (أي السيدة الأولى في القصر أو الزوجة الأولى)، أما "مشفقة هانم" فكانت تحتل مكانةً مختلفةً في حياته؛ فقد أمضى آخر عشرين عامًا من حياته بجانبها، فطوال السنوات التي عاشها بمنفاه في "سالونيك" الذي أرسل إليه بعد الإطاحة به من الحكم، وطوال فترة إقامته في قصر "بكلربكي" الذي نُقل إليه بعدما نشبت حرب البلقان، كانت "مشفقة هانم" أكثر إنسان ساندته ووقفَ إلى جواره؛ فلم تكن تفارقه مطلقًا.

لم يكن عبد الحميد مولعًا بالنساء، وعند النظر إلى صورته الخاصة يتبين أنه لم يكن عبوس الوجه لا يضحك كما يعتقد البعض؛ إذ كانت لديه جوانب مفرحة ومليئة بالسعادة والابتهاج إلى جانب الحزم والوقار والجدية التي انتهجها طوال حكمه للدولة؛ فكان يسعد كثيرًا بلعب أحفاده

وأبنائه ومَرْجِهِم في حداثق القصور والسرايا التي يسكنونها، حتى إنه في بعض الأحيان كان يتسلَّل فيما بينهم ويتبادلُ معهم الحيلَ والدعابات، ولم يتغير هذا الوضع سواء في جَوْسَق "مَاجَكَا" أو قصر "يَلْدِير"، أو جَوْسَق "آلاتِيني" في "سالونيك" أو في قصر "بَكَلَرَبَكِي".

وفي نفس الوقت كان عبد الحميد شخصًا مبجَّلًا وموقَّرًا وعطوفًا، يحمل مشاعر وأحاسيس رقيقة، فلم يكن يستدعي أو يُنادي على أحد مطلقًا بلفظة "أنت" حتى لو كان أولاده، وكان يحترمُ الجميع، ولا يرغب في أن ينحني له الناس في الأماكن التي يتواجد بها، وكان يعامل زوجاته وبناته وأبناءه بأسمى درجات الحب والحنان، فلم يكن يجرح أحدًا أو يكسر خاطر أحد.

ولم يكن يعرف الإسراف ولا التبذير سواء في حياته الخاصة أو العائلية، فكان يعيش حياة متواضعة بسيطةً لدرجة أنه عندما يتحدث عن قصره كان يشير ويرمزُ إليه رمزًا بكلمة "بيتنا"، واتخذ من نمط الحياة البسيطة المتواضعة مبدأً وعنوانًا له، وكان يهتم كثيرًا بصحته؛ إذ كان لوفاة أمه وأبيه بسبب مرض السل أثرٌ كبيرٌ عليه، فأثر أن يُضْحَيَ بهواياته من أجل صحته، ولعلَّ شغفه بالرياضة والسباحة ينبع من هذا الأمر.

أما فيما يتعلقُ بهندامه ونمطِ ملابسه فكان يهتمُّ به للغاية، ويُفضِّل في المقام الأول الملابس البسيطة المصنوعة من القماش المحلي، وكان يستخدم قماش بلدة "هركة" والمنتجات المصنوعة في ذلك الوقت في مصنع "دفتردار" (كان يطلق عليه قديمًا اسم مصنع "فَس حانة")، فكانت تُضفي عليه أناقةً خاصة، وكان يعشق اللون الرماديّ وكأنه اختصَّ وتميَّز به، وكانت ملابسه نظيفةً وأنيقةً وبعيدةً كُلُّ البعدِ عن مظاهر الرفاهية، وكان مفتونًا إلى حد كبير بالأناقة والهندام، والملابس التي أرسلها السفير

العثماني له من فرنسا بعدما أصبح سلطاناً تعكس وقاره ورزاقته، ولم يكن عبد الحمید يحبّ أبداً مظاهر التباهي والإسراف والتبذير؛ فكان يُحدّد نفقات بيته بميزانية محدّدة ومنظمة، وكلُّ شيءٍ في البيت يتمّ تحت نظره وإشرافه وتفتيشه.

وفي الوقت نفسه كان عبد الحمید تاجرًا ماهرًا، فقد حوّل أراضي جوسق "ماسلاق" التي خصّصها له والده السلطان عبد الحمید في سنوات إمارته إلى مزرعة، وكانت أراضي ذلك الجوسق تُطلّ بأكملها على النقطة التي يمتدّ فيها البوسفور ويتقاطع مع البحر الأسود، ودائمًا ما كانت تهب عليها الرياح القادمة من الشمال ونادرًا ما تهب عليها رياح الجنوب، ولهذا كانت صالحة وملائمة جدًا للزراعة.

انشغل عبد الحمید بأمور تلك المزرعة وقام بتربية الأغنام والأبقار فيها، كما كان يتاجر بتلك الحيوانات، علاوة على أنه كان على دراية كبيرة بأمراضها كأبيّ طبيبٍ بيطري، وكان يستورد في العام الواحد ما يقرب من ستمائة رأس من الأغنام من فصيلة "مريئوش" من مزرعة ولي عهد العائلة الملكية في إنجلترا الأمير "دانيال" (Daniel)، ويقوم ببيع أصوافها وألبانها والصغار منها، فقد اطلّع على مشاريع استغلال وتنمية الثروة الحيوانية خلال زيارته التي قام بها مع عمّه السلطان "عبد العزيز" إلى إنجلترا، ولاحظ اهتمام الناس هناك بهذه الأنشطة، وانبهر بالمراعي والمُروج الشاسعة والطبيعة الخضراء، وعلاوة على ذلك فقد كان يستورد من أوروبا نباتات الزينة وشتلات الورود والأزهار متعدّدة الأنواع، ويُرَبِّعُ بها حديقة القصر.

وكان عبد الحمید يقول:

"إنَّ سرَّ الثراء يكمن في المحاسبة الدقيقة والإنفاق بشكلٍ عقلائيّ".

وكان يمتلك خمسًا وستين ألفَ ليرةٍ لدى صراف الروم "طريفِي" وقت جلوسه على العرش، حتى إنَّه سدَّدَ الستين ألفَ ليرة التي صُرِفَتْ كنفقاتٍ لمراسم الجلوس على العرش من ماله الشخصي الذي اكتسبَهُ من التجارة خلال سنوات إمارته؛ فقد كان بارعًا في التجارة وكسبَ الأموال في حين أن غالبية الأمراء يعيشون حياة الاقتراض ودائمًا ما كان يُسدي النصحَ لعائلته، وأبنائه فيما يتعلق بهذا الأمر؛ ولكنه كان يحزن كثيرًا لأنهم لم يكونوا مُدبِّرين ومقتصدين مثله، وكانوا يُنفقون ما في أيديهم من أموال في غير موضعها، وخلال سنوات حكمه كان يشدُّ على الوزراء وقادة الدولة في كلِّ مناسبة على أهمية تخفيض النفقات والتمسك بالاقتصاد، وأتبع عبد الحميد سياسة الادِّخار والاقتصاد وتقليل النفقات، وعارض سياسة الاقتراض والإنفاق الزائد عن الحدِّ، ورغم عدم قبول من يُشكِّلون حملًا على عاتق الدولة وعدم رضاهم عما يقوم به فقد ألغى الضرائب غير المستحقَّة على البعض، وعمل على تخفيض نفقات القصر، وإجراء إصلاحات مالية، وتقليص جدول رواتب موظفي مؤسسات القطاع العام المتضخمة؛ فأراح ضميره تجاه أُمَّتِهِ وشعبه.

قام عبد الحميد بجهود كبيرة خلال سنوات حكمه من أجل تعريف فلاحي الأناضول بأساليب الزراعة الحديثة وكيفية الانتفاع بأراضي الدولة على الوجه الأكمل، ولم تكن تلك المشاريع حبرًا على ورق أو موضوعًا بشكل نظريٍّ فقط؛ فقد أمر بإنشاء مزارع الخيول والمزارع النموذجية التي تَسْتَخْدِم الآلات الزراعية الحديثة في مناطق مختلفة من الدولة العثمانية مثل: "حلب" و"سيواس" و"سالونيك" و"أدرنة" تحت شعار تطوير أساليب الفلاحة والزراعة، وأصدر أوامره بتوظيف بعض المهندسين الأجانب المتخصصين للعمل في وزارة الزراعة، وأرسل وفدًا إلى رومانيا لدراسة القمح والحبوب الرومانية ذات الإنتاج الغزير، وأمر باتخاذ الإجراءات

اللازمة لزيادة أعداد الطلاب المسلمين في معهد إنتاج الحرير في مدينة "بُورْصَه (Bursa)".

عملَ عبد الحمید بعدَ تولّيه الحكم على منع الإسراف والإنفاق الزائد عن الحدّ الذي كانت تعاني منه الدولة؛ وذلك عن طريق اتباعه سياسة التقشّف وتخفيض النفقات، فبدأ من جديد في تنظيم ماليّة الدولة وبنائها بدايةً من القصر؛ حيث قام بتخفيض نفقات القصر إلى أدنى حدّ، كما قلّص في هذا الإطار أيضًا إجراءات التشریفات والمراسم فأصبحت بسيطة للغاية، ورفع الامتيازات المخصّصة لأُمّهات السلاطين، وقام بتخفيض نفقاته الشخصية وتغطية ثلث نفقات قصر "يِلْدِيز" من عوائد أملاكه الشخصية، وحاول أن يضع على رأس الوظائف في النظام الإداري للدولة الصادقين والمخلصين الذين يفكرون في مصالح الناس والبلاد أكثر من التفكير في مصالحهم الشخصية.

أدار عبد الحمید خلال سنوات إمارته مصنعًا لصناعة الإسفيداج "كربونات الرصاص الثنائي ($PbCO_3$)" في أراضي جوسق "ماسلاق".

وقد كانت ثمة مبالغ محدّدة تُخصّصُ للأُمراء في إدارة الدولة العثمانية، ولأنهم كانوا ينفقون تلك الأموال ببذخ وفي غير موضعها فكانوا يتعرضون لكثير من الأزمات المالية، أما عبد الحمید فكان يعيش حياة رغبةً ومرفهةً بفضل الأموال التي يكتسبها من التجارة وبفضل اتّباعه سياسة التقشّف وحسن التدبير، وقد وصل إلى مستوى راقٍ من الناحية المادية بسبب اشتغاله بالتجارة خلال سنوات إمارته، والأجمل من هذا أنه كان يستخدم تلك الثروة التي منحه الله إياها في خدمة الدين والدولة ومساعدة الفقراء والمساكين خلال فترة حكمه.

لقد كان عبد الحميد في غاية الكرم ومحباً لمساعدة الغير؛ فكان يمدُّ يَدَ العون إلى الأمراء الآخرين ويساعد المحتاجين، وعلى الأخص أخاه الأمير "مراد أفندي"؛ فقد أقرضه عدة مرات، وما كانت تغيب عن ناظره أبداً علاقات أخيه "مراد الخامس" بجمعية تركيا الفتاة، وضياع الحكم من السلطان عبد العزيز يوماً بعد يوم بسبب أنشطة جمعية "تركيا الفتاة" والأطماع التي تدور حول فلك العرش العثماني.

حُبُّهُ لِلصَّيْدِ

كان عبد الحميد شغوفاً بالصيد أيام شبابه؛ فكان ماهراً في الرمي ببندقية الصيد، يطوف خلال رحلات صيده بسلسلة جبال وغيابات "إِستْرَانْجَا" (*İstranca*) -التي يمتدُّ طرف منها إلى مدينة "شِبُّقَا" البلغارية وطرفها الآخر إلى حدود مدينة إسطنبول- ومقاطعة "جَاطَلْجَا" (*Çatalca*)، وكان يخرجُ هو ومرافقوه إلى الصيد في أماكن تبعد عن مزرعته في "مَاشَلَاقْ" حوالي ثلاث أو أربع ساعات، حتى إن رحلات الصيد في بعض الأحيان كانت تستمر عدة أيام، يخرجون فيها إلى "دَرْبَنْدَلَرْ" (*Derbentler*) وبحيرة "جَكْمَجَه" (*Çekmece*) ومضيّق "إِزْمِيت" (*İzmit*)، وأحياناً ما كان عمه السلطان "عبد العزيز" وباقي الأمراء يشاركونهم في تلك الرحلات، كما كان عبد الحميد وعمه يخرجون معاً لصيد البط من بحيرة "جَكْمَجَه" بالمراكب، وفي إحدى المرات خرج الأمير مراد معهم للصيد وتمكن في ذلك اليوم من إصابة بطّة في البحيرة بمهارة فائقة فقدّمها إلى عمه، وعندما رأى مهارته عبّر له عن شكره وامتنانه، وأثنى على مهارته في الصيد.

صلى عبد الحميد الظهر في الحجرة المغطاة أرضيتها بسجادة مصنوعة في "هَرَكَه" والمزينة بالزخارف الدينيّة داخل جناح الحريم، ثم تناول طعام الغداء برفقة زوجته المخلصة "مشفقة قادين أفندي"، وبعد تناول الطعام تحرّك صوب حجرة العمل الموجودة في ناحية القصر المطل على البوسفور، وبعد قليل تبعته زوجته "مشفقة هانم" ودخلت عليه الحجرة، ثم أعقبتها في الدخول "علي أفندي" كبير صانعي القهوة وهو يحمل في يديه صينية القهوة المصنوعة من الفضة، وظلّ عبد الحميد وزوجته لفترة من الوقت يشاهدان الشواطئ الممتدة على ضفاف البوسفور ويتشاركان

سويًا ذكريات أيام السلطنة، وبعدها خرجت "مشفقة هانم" من الحجرة بدأ عبد الحميد كعادته يقرأ الكتب حتى العصر.

كان عبد الحميد يؤدّي صلاة الجمعة في المسجد الموجود بالطابق الثاني لـ "السَّلاَمُ لِك" ^(٨) برفقة العاملين بالقصر، فكان مسلماً راسخ العقيدة صحيحها، له آراؤه السديدة في الدين والعقيدة، متديّنًا إلى حدّ كبير ومتعلّقًا بربه، أثر أن يعيش حياة الزهد والتقوى، فلم يكن محبًا لمتع الحياة وملذاتها، يؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بانتظام، وبعد صلاة الفجر يتلو ما تيسّر له من آيات القرآن الكريم ويقرأ صحيح البخاري، ولا تطأ قدماه أيّ مكان ولا يُغادر مكانه دون وضوء.

كانت سجّادته عبارة عن بساط منسوج في مصنع "هَرَكَه"، يحملها معه بسهولة إلى أي مكان يذهب إليه، وسبّحته المصنوعة من حَبَرِ العقيق لا تُغادرُ جيبه مطلقًا، كانت هذه السبّحة والخاتم -الذي لم يخلعهما من إصبعه حتى وفاته- قد أحضرهما شيخ الحرم "أمين باشا" من مكّة وقدمهما هدية له في زمان إمارته، وعقب وفاته أخذت "مشفقة هانم" هذا الخاتم ولَبِسَتْهُ في أصبعها.

(٨) السَّلاَمُ لِك: مقر تواجد الحاشية أو رجال القصر، وهو مقر العمل أو الإدارة الخاص بالملك.



عدم توقيعه على أوراق الدولة بغير وضوء

وقد اشتهر السلطان عبد الحميد الثاني بأنه لا يوقع على أي من الأوراق الخاصة بالدولة إلا وهو متوضئ، حتى إن الكاتب الأول للديوان "أسعد بك" طَرَقَ باب حجرة السلطان في منتصف إحدى الليالي ليوقع السلطان على تقارير وأوراق في غاية الأهميّة، إلا أن الباب لم يُفَتَح فطَرَفَهُ عدّة مرات، وكان ينتظر والقلق ينتابُه، وبعد قليل فُتِحَ الباب وخرج السلطان عبد الحميد والبسمّة تُرَتِّلُ على وجهه موجّهاً حديثه إلى "أسعد بك" قائلاً:

"لا تؤاخذني يا ولدي فعندما طرقت الباب للمرة الأولى استيقظت من نومي، وأدركت أنك جئت لأمرٍ مهمّ فتوضأت على الفور، ولهذا السبب جعلتك تنتظر، فإنني طوال هذه السنوات لم أوقع على أيّة ورقةٍ من أوراق الدولة دون وضوء".

ثم أخذ عبد الحميد الأوراق، وقرأها بنظرة فاحصة ثم بدأ بالبسملة ووقع عليها.

وبينما كان عبد الحميد وزوجته "مشفقة هانم" يشربان القهوة سوياً في الحجرة الخاصة بالعمل بعد تناول طعام الغداء، تذكّر الفيوضات المعنوية التي كانت تتركها الصلوات في نفسه بأداء الصلاة جماعة في مساجد السلاطين المتعددة في إسطنبول خلال سنوات إمارته وكأنها كانت بالأمس، فكان عبد الحميد يتذكّر من حين إلى آخر تلك الأيام التي

يختلط فيها بالناس بكل سهولة ودون أية قيود، ويشعر بالشوق والحنين تجاهها، ولا يمكنه نسيان أداء صلاة التراويح في شهر رمضان وسط عامة المسلمين من أهل إسطنبول في مسجد "السليمانية" في جوّ روحاني مهيب، وكان يحبّ التسوّق وشراء حوائجه من المعارض التي كانت تُقام في ساحات مساجد السلاطين في تلك الأوقات.

كان عبد الحميد يجد متعةً كبيرةً في أن يحكي لأولاده ويقصّ عليهم بطرقٍ مختلفةٍ ذكريات الماضي الجميلة، وفي كلّ مرّةٍ من المرات لا ينتقل إلى حكاية أخرى دون أن يوضّح المغزى الحقيقي منها والدروس المستفادة التي يريد إيصالها لهم، فكان كثيرًا ما ينبّه عليهم بالألّا ينقطعوا عن الصلاة، وأن يواظبوا على الذهاب إلى المساجد وألّا يتعدوا عن استماع الأذان المحمدي، فكان الأمراء والأميرات في زمان حكمه يتعلّمون أركان الصلاة على يد الأساتذة المعيّنين في القصر، وكان الأذان يُرفع يوميًا للصلوات الخمس في حديقة قصر "بُكْلُزْبَكِي" -الذي يعيش فيه الآن قيد الإقامة الجبريّة- تمامًا مثلما كان يحدث في قصر "يِلْدِيز" خلال فترة حكمه، وكان عبد الحميد يُنصتُ إلى الأذان في احترامٍ وخشوعٍ تامّين، ومثلما كان يحرص على إقامة الصلاة في أوقاتها كان يرغب في أن يؤدي الجميع الصلاة دون تقصير، ويواظبوا على الذهاب إلى المساجد، وكان يُثني على حَفَظَةِ القرآن الكريم الذين يتمتّعون بصوت جميل في تلاوته.

كان الحاج "سليمان أفندي" موظفًا في مسجد "يِلْدِيز" وهو أحد القراء الحافظين للقرآن الكريم الذين ظهروا في تلك الفترة، حيث يختم القرآن الكريم في هذا المسجد الذي تقام فيه "مراسم الترحيب بالسلطان" حين يصلّي فيه الجمعة، ويؤدي فيه السلطان عبد الحميد صلاة الجمعة، وقد كان عبد الحميد يحبّ سماعه وهو يقرأ آيات القرآن الكريم بصوت

جمیل، حتیٰ اِنَّہ فی بعض الاحیان کان یطلب منه أن یقرأ علیہ الآیۃ کذا فی الصفحۃ کذا وأن َیکرّرها له مرّۃً أُخری، وقد عَیّن عبد الحمید الحاج "سلیمان أفندی" مؤذناً فی جامع "یلدیز" لإعجابه ببراعته وتمکّنه فی قراءة القرآن الکریم، وعندما توفي "نور الدین أفندی" مدیر الجناح الخاص بالأمانات المقدسة فی قصر "طوب قابی" قام عبد الحمید بتعیینه فی إمامة هذا الجناح الخاص براتبٍ شهریّ کبیر، وقلّده وسامَ الاستحقاق لنجاحه فی هذا المنصب.



اهتمامه بالعلوم الإسلامية

بقدر ما كانَ عبدُ الحميدِ رجلَ دولةٍ من الطراز الأولِ بقدرِ ما كانَ في الوقتِ نفسه عالماً بالعلوم الإسلامية وعلى دراية كبيرة بها؛ فقد أتمَّ دراسةَ كتبٍ كبيرةٍ مثل: صحيح البخاري وصحيح مسلم - من أولها إلى آخرها - على يدِ أساتذةٍ كبار؛ فكان يُشاركُ بنفسِه في مجالس العلماء، وفي بعض الأحيان كان يُبرزُ أخطاء العلماء الذين يشتركون في دروس التفسير، وكان تقياً ورعاً، وعلى دراية كبيرة بالتصوُّف، وينتسب للطريقتين الصوفيتين "القادرية" و"الشاذلية"، وكان يُطلَقُ على سيدنا "عبد القادر الكيلاني" مؤسس الطريقة القادرية ويقول عنه إنَّه "شيخه ومرشده"، ويُولي بالعمَلِ الاهتمام والعناية بقبره الموجود في بغداد الذي يُرسَلُ إليه كل عام العديد من الهدايا القيمة من قِبَلِ مُسلمي الهند؛ حيث رَمَّمه وأضاف إليه بعض الملحقات، وقد أضفى اتِّباعُ السلطان عبد الحميد للطريقة القادرية زهداً وتصوّفاً ونقاءً على روحه وحياته اليومية.

كان عبد الحميد متسامحاً بِفِطْرَتِهِ، صابراً عند الشدائد والمِحَن، فذاتَ يومٍ من أيام الشتاء الباردة في قصر "بِكَلَرَبَكِي" حيث كانت مصابيح الغاز مُطْفَأةً، وتبعث رائحة سيئة في المكان بسبب غازِ النفطِ، وكانت الحرارة التي تخرج من المدفأة غير كافية للتدفئة لعدم تماسك النوافذ بشكلٍ جيّدٍ؛ كان عبد الحميد يخفف عن نفسه وعمَّن بجواره قائلاً:

"أنا أنتمي إلى الطريقة القادرية، وأتباع طريقة سيدنا عبد القادر الجيلاني يتقبَّلون أيَّ شيءٍ ويرضون بقضاءِ الله وقَدَرِهِ،

فحتی الصبر علی الحرمان له أجرُهُ الخاص، فلنحمد الله علی حالنا ولنتضرّع إلى الله وندعه".

ومن مظاهر هذا الجانب من التصوف أنه كان یكتب قبل ذلك قولَ الله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (سورة القصص: ٢٨/٨٨) بخط جميلٍ لافتٍ علی لوحةٍ معلّقةٍ فی حجرةِ المكتب فی قصر "یلدیز".

شهدت فترة حكم عبد الحمید تقاربًا كبيرًا بین الطرق الصوفية والدولة بعد الصراعات والخلافات التي كانت دارت بین الدولة والطرق الصوفية وأدت إلى حظر الطريقة البكتاشية عقب حادثة تعرف بـ "الواقعة الخيرية" أو مذبحة الإنكشارية؛ فكان یبذلُ كلُّ ما فی وسعه من أجل توفير مصادر العیش للمتصوّفين وأتباع الطرق الصوفية، ويرى أن تقوية تلك الروابط وتعزیزها أمرٌ ضروريٌّ لبقاء الدولة.

تعرف عبد الحمید فی فترة شبابه علی شیخ يُدعى "محمد ظافر التونسي"، وانتسب علی يده إلى الطريقة المدنية الشاذلية، وقد كان الشیخ "محمد ظافر" رجلًا فاضلاً یبجّله ویحترمه كلُّ من فی القصر، و بناءً علی توصيةٍ منه أمرَ عبد الحمید بإنشاء مسجدٍ یحمل اسم "أرطغرل" -والد "عثمان غازي" مؤسس الأسرة العثمانية- فی حي "بارباروس"، وكان هذا المسجد الواقع علی مقربةٍ من مسجد "یلدیز" یضطلعُ فی الوقت ذاته بدورِ التكية، وعندما توفي الشیخ "ظافر" دفنَ فیهِ.

كما انتسب عبد الحمید إلى الطريقة القادرية علی يد "الشیخ عبد الله أفندي" أكبر شیوخ تكية "یحیی أفندي" الكائنة فی حي "یلدیز"، حیث كانت تُتلى فیها أدعيةُ "حزب البحر" للإمام الشاذلي، ویقرأُ كتاب صحیح البخاري عند وقوع الكوارث وانتشار الأوبئة والأمراض فی البلاد، وقد أمر عبد الحمید بطباعة كتاب صحیح البخاري طبعةً خاصةً فی مصر

أولاهها اهتمامًا كبيرًا وخاصًا، وقام بإرساله إلى كلِّ البلدان الإسلامية، وأهدى نسخةً من هذه الطبعة إلى كلِّ فردٍ في عائلته، وحذّر من بيع هذا الكتاب بمقابل ماديّ.

كان عبد الحميد يؤمن بأن أهمَّ الواجبات التي تقع على عاتق الجيش العثمانيّ هي إقامة شعائر الدين وحمايته والدفاع عنه، فكان يرغب في أن يكون جنودُ الجيش العثماني الذين خدموا الدين الإسلامي قرونًا عديدة ملتزمين ومتمسكين بعباداتهم، ففي زمن السلاطين العثمانيين كان يُختار من بين علماء الدين أئمة يُعيّنون في السفرِ والكتائب العسكرية، كانوا يبذلون قصارى جهدهم من أجل رفع الروح المعنوية للجنود عن طريق إقامة الصلوات في موعدها وتقديم المواعظ الدينية والأخلاقية والأدعية والابتهالات.

كان عبد الحميد يهتم بأن يؤدي جنود القوات البرية وأطقم السفن الصلوات في جماعة، وأن يدعوا بدعاء "النصر" عقب كلِّ صلاة، فقامت وزارة البحرية بإرسال تعليماتها إلى قباطين السفن بناءً على رغبته في هذا الأمر؛ فكان ثمة جنديّ عذب الصوت يصعد إلى المنصة أعلى السفينة، ويرفع الأذان ثم يُصلُّون خلف الإمام في جماعة، وإن كان الجو ملائمًا يتجمّع طاقم السفينة ويؤدّون الصلاة على ظهر السفينة وإن كان الجو شديد البرودة يؤدّون الصلاة في مستودع المدافع، وإذا كانت السفينة في حالة سير أي في غرض البحر يأمر الربان بتحويل السفينة تجاه القبلة، ويحافظ أثناء الصلاة على خطِّ السير نفسه.



حبه للنبي محمد ﷺ

كان السلطان عبد الحميد يُكِنُّ حبًّا واحترامًا كبيرين للنبي محمد ﷺ، فخلال سنوات حكمه كان يهْبُ على الفور لمنع أيَّة إيماءة - حتى ولو كانت صغيرة - تسيء إلى النبي ﷺ أو إلى الإسلام في الأعمال المسرحية التي تُعرَض على مسارح أوروبا، فلم يكن يتخاذل أبدًا في هذا الشأن، وقد كانت هناك سمة مشتركة بين كل السلاطين العثمانيين من أضعفهم إلى أقدرهم وأقواهم ألا وهي حب واحترام النبي محمد ﷺ.

فعلى سبيل المثال كتب الكاتب الفرنسي "مارك دي بورنير (Markide Bornier)" عملاً دراميًّا يحمل اسم "محمد"، وأُنفَع المسرح الحكومي الفرنسي "كوميدي فرانس" بضمِّه إلى قائمة عروضه المسرحية، وكانت هذه المسرحية التي بدأ الإعداد لها والتدريب عليها على خشبة المسرح في "باريس" تحوي مغالطات ومشاهد ضدَّ الدين الإسلامي والنبي محمد ﷺ، وما إن علم السلطان "عبد الحميد" بأنَّ هذه المسرحية المُشينة ستُعرَض على خشبة المسرح حتَّى انتفض كالأسد الرِّبَال مُسَخِّرًا كافة الإمكانيات الدبلوماسية؛ وأرسل تحذيرًا شديد اللهجة إلى فرنسا ذكر فيه:

"إذا قمتم بعرض هذه المسرحية التي تقدح في رسول الله ﷺ؛ فسأستخدِمُ صلاحيَّات الخليفة التي أتمتع بها، وسأحرِّضُ الهند وبلاد العرب وكلَّ العالم الإسلامي ضدَّكم!"

وبالفعل نجح السلطان عبد الحميد في منع هذه المسرحية من أن تُعرَض في فرنسا، وبالرغم من تلك الانتفاضة لسلطان الدولة العثمانية التي كانت تُشبِّه الأسد الجريح؛ تُرى هل كان هناك شعور في العالم الإسلامي آنذاك بأن الخليفة سيتمكّن من القيام بهذا الأمر؟! آه، ليت هذا

الشعور كان موجودًا؛ فعلى الرغم من وضع الدولة العثمانية آنذاك إلا أنَّ زئير الأسد المريض هذا أحدثَ دويًّا هائلًا في فرنسا ولم يتجرأ الفرنسيون على عرض تلك المسرحية، وعندما شاع هذا الحدث في أرجاء العالم الإسلامي بدأت رسائل التهنية والشكر تنهال على الخليفة من سائر بقاع العالم الإسلامي وخاصة من مسلمي الهند، وإثر هذا المنع قام "مارك دي بورنيير" بعدة محاولات أخرى لعرض تلك المسرحية في إنجلترا، لكن السلطان عبد الحميد كان له بالمرصاد ووقف أمام محاولاته هذه أيضًا كالجبل الأشم الشامخ؛ حيث إنَّ السلطان العظيم -الذي يسعى جاهدًا للنهوض بالأسد الجريح من كبوته- أرسل تحذيرًا شديد اللهجة إلى إنجلترا أيضًا، وبناءً عليه لم تُعرض هذه المسرحية في إنجلترا أيضًا، ونتيجة لتلك المواقف ارتفعت مكانة مقام الخلافة لدى المسلمين حبًّا ولدى غيرهم رهبةً ورُعبًا.



خدمته للحرمين الشريفين

أولى السلطان عبد الحميد خلال سنوات سلطنته أهمية خاصة بترميم الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وصيانتها، فهو سليل سلاطين آل عثمان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم خدماً للحرمين الشريفين والمدن المقدسة، ويبدون اهتماماً كبيراً بالمحافظة على عدم إنشاء أية مباني مرتفعة حول الكعبة المشرفة، ويرسلون أحجار الألماس التي يُقدَّر كلُّ منها بثمانين ألف قطعة ذهبية إلى حضرة رسول الله ﷺ؛ ويكفيهم من هذا أن يشعروا بالسعادة الروحية عند رؤيتها وهي تشعُّ بريقاً ونوراً، ويهتمون اهتماماً فائقاً بالمحافظة على المكان الذي توجدُ الرأية الشريفة فيه في قصر "طوب قابي" حتى لا يقوم أحدٌ بتدنيسه.

وهو حفيد السلطان "محمود الثاني" عاشق رسول الله ﷺ الذي قام بإعادة بناء القبة الخضراء على قبر النبي ﷺ، وأمر أيضاً بتجديد وتزيين "مسجد قباء" الذي شرفه النبي ﷺ بالسجود على أرضه؛ فجمع لهذا الأمر أمهرَ خطاطي ذلك العصر، وأوكل إليهم هذا الأمر، وكدليل على الاحترام والتقدير أمرهم بأن يضعوا فوق طُغرائه الصغيرة طغراء كبيرة باسم سيّدنا محمد ﷺ محاطة من الأعلى والأسفل بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله".

وهو ابن السلطان "عبد المجيد" الذي جدّد الروضة الشريفة في المدينة المنورة ورَمَّمها، وبمجرّد علمه بأن طغراءه الشخصي سيوضع على جدران المسجد النبوي أمر برفعه في الحال قائلاً:

"من أكون حتى أُنْقَشَ اسمي على جدران قبر رسول الله ﷺ!!
 فإن كان ولا بدّ أن تضعوا طغرائي فلتضعوها بحيث تكون عند
 موضع قدميه ﷺ".

وهو خليفة لشعبٍ يضُمُّ أناسًا رقاق القلوب مرهفي الأحاسيس؛ حيث
 كانوا يشترون الكعك عند توديع حجاج بيت الله الحرام فيهبون نصفه
 إلى الحجاج الذاهبين لأداء مناسك الحجّ، والنصف الآخر يذخرونه
 لأنفسهم؛ يرجون بهذا أن ينالوا أجر نصف الكعك الذي يحمله الحجاج
 معهم إلى الأراضي المقدسة، فلقد كان الشعب العثماني يحافظ على تلك
 العادات والخصال بشكل جوهري بالرغم من حالة الانكسار والركود
 والتفكك والنكبات التي سادت خلال الثلاثة عقود الأخيرة، وعلى ضوء
 هذا الإدراك؛ كان عبد الحميد يسعى جاهداً وبإخلاص تام إلى خدمة
 العالم الإسلامي، والدليل على هذا الاهتمام غير المحدود من قبل عبد
 الحميد أنه مدّ خطوط السكك الحديدية حتى المدينة المنورة كي يتمكن
 الحجاج من السفر إلى الحجاز بكل سهولة ويسرٍ وراحة، وعمل أنشطة
 وفعاليات في كافة المجالات من أجل تقوية وتدعيم أواصر الأخوة بين
 المسلمين كافة.

كان عبد الحميد دائم التوكل على الله؛ فعندما أُطِيعَ به من العرش عام
 (١٩٠٨م) بذريعة حادثة رجعية مزيفة تكلّم وكأنه وليّ من أولياء الله قائلاً:
 "الله ﷻ هو من قدر هذا الأمر!".

وبالرغم من وجود قوّة كبيرة بين يديه تنتظر أوامره بالتدخل أو
 التحرك -وهي متمثلة في الثكنات العسكرية الموجودة في إسطنبول- فقد
 فضّل أن يتنازل عن السلطة وعن عرش السلطنة دون أي صدام أو تدخل
 عسكريّ قائلاً:

"لا أريدُ أن تراق دماء الإخوة!".

وهكذا كانت هذه الصفات والشمائل التي يتصف بها عبد الحميد سبباً في أن تطلَّ ذكراه في القلوب، وأن يُترَحَّم عليه بالدعاء له بأن يُسَكِّنه الله فسيح جناته كلما ذُكِرَ في مجالس المنصفين.

* * *

كان قصر "بُكْلُزْبَكِي" المزود بأرضيات خشبيّة مقاومة للرطوبة ومغطاةً بسجاجيد مستوردةٍ من مصر، يستضيفُ سلطاناً في حالة عزلةٍ وقيد الإقامة الجبرية، فكان عبد الحميد يحاول استغلال أوقاته في قراءة الكتب داخل الصالون المطلّ على البحر أو في حجراته المتواضعة الموجودة في الطابق الأول من جناح الحريم، وفي العبادة والتأمل، وفي العمل بورشة النجارة الموجودة في قُبُو القصر.

وكسائر القصور العثمانية في إسطنبول كان التسرُّ هو السمة المشتركة بين سائر حريم قصر "بُكْلُزْبَكِي"، وكانت الحجرة المخصّصة لـ"والدة السلطان" تقع في الطابق الثاني من جناح الحريم ناحية البحر، أما الصالون الموجود في مدخل جناح الحريم فكان مزئياً بزخارف رائعة، والصعود منه إلى الطابق الأعلى يتم عن طريق سلالم مزدوجة الاتجاه.

وقد زُيِّنَ جناحاً الحريم والرجال في قصر "بُكْلُزْبَكِي" على النسق التركي والشرقي إلى جانب الطراز الغربي، ويعتبر جناح الرجال أكثر ثراءً من جناح الحريم من ناحية الزخارف والنقوش والتجهيزات، ويشتمل هذا القصر على ستّ وعشرين حجرة وستة صالونات، ويحتوي على العديد من التحف والآثار النفيسة مثل: ثريات بوهيميا الكريستالية التي تعتبر كل واحدة منها ثروة على أقل تقدير، وساعات الحائط الفرنسية الصنع، والشمعدانات المصنوعة في منطقة "بِيكُوز"، والأواني المصنوعة

من الخزف والصيني والمزهرّيات المصنوعة في "يلديز" وفرنسا والصين واليابان وفي مدينة "سفريز" الفرنسية التي لا يضاهيها أيّ جمال، وقطع الأثاث الأصلية والمذهبة المستورد غالبيتها من أوروبا، والألواح الخشبية، والسجاجيد النفيسة، وأثمن الستائر الأطلسية الحريرية وأغلاها، إلا أنّ أيّاً من هذه التحف الفخمة التي لا مثيل لها الموجودة في القصر لم يكن يجذب انتباهه؛ فقد كرّس نفسه كليّاً في آخر لحظات حياته للعبادة والاستعداد للقاء ربه عز وجل، وقد قام الرسام "ماسون بك" بأمر من السلطان "عبد العزيز" بتزيين حجرات القصر وقاعاته بأروع الألوان الزاهية والنقوش والرسومات التي تُبهر الأبصار منذ الوهلة الأولى بجمالها ودقة عملها، وفي الحقيقة كان السلطان "عبد العزيز" قد أولى أهمية كبيرة لأن تكون الزخارف مبهرة، والتحف الموجودة في أجنحة الرجال والحريم متناسقة ومتماثلة؛ فعندَ النظر إلى أي مكانٍ في القصر -يميناً أو يساراً- تظهر الزخارف والتحف متشابكةً مترابطةً، فهناك تناسق وتماثل كبير يسود أرجاء القصر.



رحلاته إلى أوروبا

اصطحب السلطان "عبد العزيز" ابني أخيه الأمير "عبد الحميد" والأمير "مراد" معه في رحلاته المشهورة إلى أوروبا عام (١٨٦٧م) والتي اشتملت على زيارة إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وأستراليا، كما اصطحبهما أيضًا في رحلته إلى مصر عام (١٨٦٤م)، وتحرك الوفد العثماني يوم الجمعة الموافق الحادي والعشرين من حزيران عام (١٨٦٧م) من إسطنبول على متن سفيتي "السلطانية" و"بَرْتَوِيَّالَه" (*Pertev Piyale*) متجهًا إلى فرنسا أولًا ثم إلى إنجلترا وأستراليا، وفي الحقيقة كانت تلك الزيارة متأخرة بعض الشيء؛ فقد طاف قيصر روسيا "بطرس الأكبر" أوروبا بأكملها قبل ذلك في أزمان مبكرة من القرن السابع عشر، وشاهد الأنشطة الصناعيّة على أرض الواقع، وطَبَّقَ ما رآه وما تعلَّمه هناك في بلاده، وعندما مرض السلطان "عبد الحميد" في "فيننا" متأثرًا بتقلبات السفر ومشقّاته استضافه إمبراطور النمسا الذي وطد أواصر الصداقة معه خلال السنوات التالية حيث أقام في قصر "شتون برون" (*Schönbrunn*)، وعندما استرد عبد الحميد عافيته من جديد عاد إلى إسطنبول بعد أربعة عشر يومًا من مغادرة عمّه، وقد أثارت علاقة الأمير "مراد" بأمراء وأميرات تلك الدول التي زارها واشتراكه في حفلات الرقص والغناء حفيظة السلطان عبد العزيز، أما عبد الحميد فكان على عكس أخيه الأكبر تمامًا؛ إذ حاز على تقدير عمّه بوقاره ورؤيته الدقيقة وحكمه الموضوعي على ما شاهده هناك، وعندما جلس على عرش الدولة العثمانية بعد هذه الرحلة بتسع سنوات بدأ يطبق

ما استفاده من التجارب والعبر والأشياء التي رآها خلال رحلته هذه إلى أوروبا، ولقد اجتذب ذكاء عبد الحميد الحادّ وقوّة ذاكرته وامتلاكه قدرةً سياسيّةً فائقةً انتباه السلطان "عبد العزيز"؛ وهذا ما جعل السلطان يسمح لعبد الحميد بأن ينشأ في بيئة أكثر تحرراً.

وخلال رحلته إلى أوروبا بصحبة عمّه سنَحَتْ له الفرصة على أرض الواقع أن يلمسَ نمطَ الحياة لدى المجتمع الأوروبي وعاداته وتقاليده وأصول التشريعات ومستويات التطوّر التي وصلوا إليها في المجال الصناعي والتكنولوجي بكلّ مجالاته وتفصيله، ولأَحْظَ أنَّ فرنسا -ولا سيّما "باريس" - تُعْتَبَرُ ملهى كبيراً، ولم يعجبه المناخ العام لهذه المدينة وأدرك أن هذه الدولة لا تُشكّلُ بأي حال من الأحوال نموذجاً يحتذى به العثمانيون من الناحية الأخلاقية، ورأى أنَّ الطلاب المبعوثين هناك لن يتمكنوا من تحصيل العلوم على الوجه المطلوب.

وقد أقيمت في "باريس" مراسم احتفال مهيبة من أجل الوفد العثماني وكان إمبراطور فرنسا في ذلك الوقت هو "نابليون بونابرت"، ولاحظ عبد الحميد أن "نابليون" شخص متكبرٌ للغاية فعلى سبيل المثال كان يمدّ إصبعه السبابة عند مصافحة الأمراء المرافقين للوفد، وقد جلس السلطان عبد العزيز على يسار "نابليون" والإمبراطورة على يمينه وعبد الحميد وأخوه مراد جلسا خلفه، وكان بعض من الجنود الذين يمرون من أمامهم لتحتيهم يصيحون قائلين: "عاش الإمبراطور"، والبعض الآخر: "عاشت فرنسا"، والبعض الآخر: "عاشت الجمهورية"، ومجموعةً أخرى تمرّ من أمام الوفد العثمانيّ دون إصدار أي صوت، باختصار كانت هناك حالة من الفوضى والهرج وكانت الأصوات تختلط وتتداخل بشكلٍ عشوائي، ولم يرضَ حتى الإمبراطور الفرنسي عن هذا الوضع ولم يرد التحية الواجبة

للجنود، أما السلطان عبد العزيز فقد تبادلَ التحية مع الجنود الفرنسيين الذين يرددون "عاش السلطان عبد العزيز"، وبالنسبة لعبد الحميد فلم يعجب أيضًا بالجنود الفرنسيين حينها.

أما إنجلترا فقد كان يعتبرها دولة الصناعة والزراعة والسكك الحديدية والثروة حيث توجد بها مظاهر السلطنة والعظمة كافة، فقد قُدِّمَت الأَطعمة إلى الوفد العثماني في أطباق وأوعية ذهبية.

ولفت انتباه عبد الحميد ثراء اليهود الذين كانوا يشكّلون ثلاثين بالمائة من بارونات مجلس اللوردات البريطاني، ومقارنة بألمانيا وأستراليا كان اليهودُ يتمتّعون بنفوذ كبير داخل هذه الدولة؛ ففي لندن كان هناك العديد من اللوردات اليهود الأثرياء الذين حصلوا على عضوية المجلس عن طريق أموالهم و ثرواتهم، حتى إن الملوك كانوا يزورون بيوتهم ويقضون معهم أوقاً ممتعة، ولم يتمكن عبد الحميد في ذلك الحين من إخفاء إعجابه أمام توافد الإنجليز يوم الأحد على الكنائس حاملين في أيديهم نسخاً من الإنجيل مجلدة بشكلٍ أنيقٍ ومطليةً بماء الذهب، وكانوا بمجرد رؤيتهم شخصاً أجنبياً يسير في الشارع يعطونه من فورهم نسخة من الإنجيل ويصرون على أن يأخذها، وقد كُتِبَت على غلاف الإنجيل جملة "أدعوك إلى الدين الحق!".

لقد أثرت هذه الزيارة التي قام بها خلال سنوات إمارته بشكل مباشر على نظرته إلى الإنجليز أثناء سنوات حكمه؛ فكان يخشى منهم بشكل أكبر من أيّ شعبٍ آخر بما في ذلك الروس؛ إذ ظهرت روحُ العداوة من البريطانيين تجاه عبد الحميد بسبب منحه حق امتياز خط سكك حديد بغداد للألمان، إلا أنه كان -بالرغم من كل شيء- يتعامل معهم بسياسة ودبلوماسية، ويتجاوز عن بعض مواقفهم وتصرفاتهم على مضض حتى

إنه كان يحاول دائماً تطوير العلاقات بينه وبين المبعوثين الإنجليز في إسطنبول، وأن يكونوا أصدقاء.

وقد أعجب عبد الحميد بألمانيا من ناحية التُّنْظُم العسكريَّة والإداريَّة، كما أقيمت مراسم استقبالٍ وترحيبٍ كبيرةٍ بالسلطان العثماني في مدينة "كوبلنر" مقرَّ إقامة ملك بروسيا "فيلهلم الأول"^(٩)، وهنا اتَّضح له الفرق الشاسع بين الجنود الألمان والجنود الفرنسيين؛ فحينما كان يمرُّ الجنود أمام ملك بروسيا كانوا يديرون رؤوسهم ناحيته بدءاً من أكبر ضابط وحتى آخر جنديٍّ وينظرون في عين الملك وكأنهم يقولون بتلك النظرات: "فلتأْمُرْنَا يا قائِدُنَا فنحن فداؤُك"، وكانت أسلحتُهم وأحذيتُهم تبرقُّ وتلمعُ على نحوٍ آخَاذٍ، والملابس التي يرتدونها تبدو في حالةٍ رائعةٍ ومتناسقةٍ، وسراويلهم ناصعة البياض كالثلج، وأثناء مرور الجنود من أمام السلطان بخطوات منتظمة كانوا يردِّدون "يحيا السلطان عبد العزيز"، وقد أعجِبَ عبد الحميد بطريقة عرضهم المنظمَّ والجادَّ، وترك هذا الانطباع أثره في ذاكرته، وخلال سنواتٍ حكمه تأثَّرَ عبد الحميد بما رآه في ألمانيا؛ فأوفد الضباطَ إلى تلك الدولة من أجل الدراسة، وعَمِلَ على تحديث الجيش العثمانيّ طبقاً للنظم العسكريَّة الألمانيَّة، وخلال فترة حكمه كان صديقاً حميماً للإمبراطور الألماني وللاُمير "بِسْمَارِك"، وكان يقول عن "بسمارك": "لا يوجد من هو أبرعُ منه في السياسة ولن يوجد".

كان عبدُ الحميد خلال سنوات إمارته يتابعُ عن كثبٍ ما يُكتبُ في الصحافة الأجنبية، ويتَّبَعُ على الأخصَّ أهداف الدول الغربية وأطماعها في المجتمع العثماني والإسلامي والوسائل التي تنتهجُها من أجل

(٩) فيلهلم الأول: وُلِدَ في برلين في (١٧٩٧م)، تُوجَّع في عام (١٨٦١م) ملكاً على "بروسيا" ثم أصبح في سنة (١٨٧١م) أول قيصر ألماني في الرايخ الثاني، بعد توحيد ألمانيا على يد "أوتو فون بسمارك"، وتمتد فترة جلوسه على عرش الرايخ الثاني من عام (١٨٧١م) حتى وفاته في عام (١٨٨٨م). (المترجم)

الوصول إلى ذلك، وبعد اعتلائه عرش الدولة العثمانية استمر في متابعة الصحف المشهورة التي تصدر في أوروبا وكان يأمر بترجمتها، حتى إنه كان يدعو مراسلي بعض الصحف الأوروبية في إسطنبول إلى القصر فيمدحهم ويثني عليهم، ولاحظ أن هذه السياسة بدأت تؤتي ثمارها، فكان هؤلاء المحررون يكتبون مقالات في صالح الدولة العثمانية في جرائدهم، ويشكلون رأياً عاماً إيجابياً، ومن ناحية أخرى فقد كان هناك صحفيون يُستزصون ويشترون بالأموال أو بتخصيص راتب شهري كي يقوموا بنشر أخبار إيجابية لا سلبية بحق الدولة العثمانية.

* * *

كان الصيادون وأصحاب المراكب من سكان البوسفور يمرون يومياً بزوارقهم من أمام قصر "بكلزبكي"، وفي كل مرة يذكرون بكل سرور وحبور كيف أنهم كانوا يعيشون في أمانٍ وهدوءٍ خلال فترة حكم عبد الحميد، ويتحدثون مع بعضهم عن حجم الدمار والخراب الذي خلفته الحرب العالمية وحرب البلقان التي نشبت بعد الإطاحة بعبد الحميد من الحكم وأثر هذا الدمار على الأمة والدولة.

وفي ناحية القصر المطلّة على "البوسفور" كانت ستائر النوافذ الموجودة في واجهة المبنى مسدلةً في أغلب الأوقات.

وكان الصيادون الذين يُجَدِّفون بصعوبةٍ ضد التيار متجهين من حي "كوزجُونْ جُونْ" (Kuzguncuk) إلى حي "جَنَكَلْ كُونْ" (Çengelköy)، أو سكان إسطنبول الذين يتنزهون بالمراكب بمحاذاة شاطئ البوسفور يؤلون وجوههم شطر القصر حينما يمرون من هناك، ويقولون في كل مرة: "يا ترى هل يمكننا رؤية السلطان عبد الحميد ولو لمرة واحدة"، وفي حال اقترب بعض منهم من القصر بدفع من تيار الماء كان يخرج

على الفور الجنود المكلفون بحراسة الجوسقّين الصغِيرين الملاصقين للساحل ويطلبون منهم الابتعاد عن المكان، ويُطلق على تلك الجواسق البحرية المبنية على رصيف القصر الممتد بمحاذاة ساحل البوسفور والتي تُثير الإعجاب بتصميماتها الرائعة اسم "جواسق الحريم والرجال"، والسبب في هذه التسمية هو وجود باين كبيرين بجوار هذين الجوسقّين مباشرة يؤدّيان إلى أجنحة الحريم والرجال في القصر، وفي مقدمة كل من هذين الجوسقّين يوجد رواقٌ يستند على صفيْن من الأعمدة، وكُلُّ صفٍّ منهما مكوّن من ستّة أعمدة، وطوال فترة إقامة عبد الحميد الجبرية في قصر "بُكْلُزْبَكِي" لم يكن يُسمح له برؤية الناس أو مقابلتهم، على الرغم من أنه كان تولى عرش السلطنة قبل أربعين سنة، وكان ذلك في يوم الأربعاء الحادي والثلاثين من أغسطس/آب (١٨٧٦م)، وأقيمت له مراسم احتفال مهية خلفاً لأخيه الأكبر السلطان "مراد الخامس" الذي لم يستمر في الحكم سوى ثلاثة وتسعين يوماً فقط.



فترة حكم أخيه الأكبر "مراد"

إنَّ الباشوات المستبدِّين الذين استولوا على السلطة إثر إطاحتهم بالسلطان عبد العزيز من الحكم بانقلابٍ عسكريٍّ دَبَّروه، وتسببوا في استشهاده داخل قصر "فرية" في "أورطه كُوي" دفعوا بولي العهد الأمير "مراد" إلى سدة الحكم في الثلاثين من مايو/أيار (١٨٧٦م) تحت اسم السلطان "مراد الخامس"؛ ظنًّا منهم أنه لن يكون حِجْرَ عثرةٍ في طريقهم وأنه سيُعلنُ المشروطة، وكان لدى مراد رغبة شديدة في أن يصبح سلطاناً حيث تلقى قسطاً كبيراً من التعليم خلال سنوات إمارته، ورافق عمّه السلطان "عبد العزيز" في رحلاته إلى مصر وأوروبا، إلا أنه سقط من نظر عمّه بتصرفاته الطائشة غير اللائقة بمكانته والتي كان أظهرها في إنجلترا وفرنسا، وقد كان مراد يرتبط بعلاقات وثيقة مع شخصيات بارزة في ذلك الوقت مثل "نامق كمال" و"ضياء باشا"، وكانت ليالي المتعة -بصفة خاصة- التي يقضيها مع "نامق كمال" قد مهّدت الطريق لتحقيق رغبته في أن يصبح سلطاناً خلفاً لعمّه، وقد حذّر عبد الحميد "نامق كمال" -والذي وصفه بأنه رأس الفساد- من مَعَبَّةِ هذا الأمر قائلاً:

"اعلم يا كمال بك أنك ستسبَّبُ في موت أخي معنوياً وعقلياً".

كما قدم النصيحَ لأخيه مراراً وتكراراً قائلاً له:

"ستفقد صحتك يا أخي، وسوف تندم على ذلك أشدَّ الندم".

وهكذا اتصل الأمير "مراد الخامس" بمن يسمون أنفسهم جمعية "العثمانيون الجدد" عن طريق هؤلاء الأشخاص، ولهذا السبب أصبح في نظر تلك الجمعية المرشح الوحيد لخلافة عمه عبد العزيز.

كان عبد الحميد وأخوه "مراد أفندي" الذي يكبره بعامين يلعبان سوياً في سنّ الطفولة ولما بلغا سنّ الشباب أصبحا صديقين، وقد اهتمّ السلطان "عبد المجيد" اهتماماً كبيراً بتربيتهما؛ فكان يدعوهما كلّ يوم جمعة إلى حضرته قبل أداء صلاة الجمعة ويُسدي إليهما النصائح والتوجيهات.

بدأت تنهار الحالة النفسية للسلطان مراد الخامس الذي تأثر بما عايشه من حوادث مفاجئة كالانقلاب العسكري على عمه وما أعقبه، وأصيب باضطراب عقليّ بعدما علم بتفاصيل مؤامرة خلّع عمه من الحكم وقتله، فكان يتأمل هذا الأمر قائلاً لنفسه:

"لقد قطع عمّي يمينه شرايين ساعده الأيسر، فكيف يمكن له أن يقطع شرايين ساعده الأيمن بيده اليسرى المقطوعة الشرايين!!".

ولم يتمكن المسؤولون والنخبة والمثقفون في ذلك الوقت ممن قدموا الدعم إلى الصدر الأعظم "محمد رشدي" ورئيس العسكر "حسين عوني باشا" و"مدحت باشا" من بلوغ أمانيتهم، فبمرور الأيام كانوا يتعدون عن "مراد الخامس"، إلى أن انكشفت حقيقتهم أمام الشعب.

وكانت الحادثة المربكة التي وقعت في العاصمة العثمانية إسطنبول في الخامس عشر من حزيران/يونيو عام (١٨٧٦م) سبباً في تفاقم حالة الاضطراب العقليّ التي يعاني منها "مراد"، ففي تلك الليلة قام المُقدّم "حسن الشركسي" -أخو زوجة السلطان "عبد العزيز" ومرافقه العسكري- باقتحام اجتماع مجلس الوزراء المنعقد لبحث مسألة عصيان جزيرة

"کریٹ (Girit)"، ثم سحب مسدّسه وقتل رئيس العسكر "حسين عوني باشا" ووزير الخارجية "راشد باشا" وبعضاً من الموظفين الموجودين هناك، وبالرغم من مطاردته لـ"مدحت باشا" إلا أنه نجا من الموت في اللحظات الأخيرة باختبائه في خزانة بالمطبخ، وقد أُلقي القبض على المُقَدِّم "حسن الشركسي" وهو مصابٌ بجروح عديدة، وأُعدِم في اليوم التالي على مرأى ومسمع من الناس في ميدان "بايزيد".

وعلى إثر تلك الحادثة ازدادت حالة السلطان "مراد الخامس" سوءاً، وبدأ يعاني من اضطرابات نفسية عند ذهابه بالسيارة إلى مراسم أداء صلاة الجمعة؛ فقرّرت عصابة الأربعة الإطاحة به من العرش، وبدؤوا في نشر أخبارٍ مبالغٍ فيها عن الحالة المؤسفة للسلطان، وطبقاً لبعض هذه الأخبار المغلوطة والملفقة فإن السلطان مراد كان يتصرّف تصرفات غريبة؛ فكان عندما يرغب في النزول لأسفل من على السلالم يصعد لأعلى، وأنه يقفز في بركة الماء الصناعية الموجودة في الحديقة ويحاول ركوب تماثيل الخيل الموجودة بها، ويقوم بتصرّفات غريبة عند معانقة وتقبيل الوزراء الموجودين في حضرته، ولا يستطيع أحد السيطرة عليه، وحتى يضمن المجلس الحاكم (الذي يتولى إدارة البلاد مؤقتاً) أن تلقى هذه الأخبار القبول والانتشار بين الناس ويُصدّقونها فقد مُنِع السلطان مراد من الذهاب إلى مراسم الجلوس على العرش بحجة أن هناك اشتباهاً في محاولة اغتياله، ومن المشاركة في مراسم أداء صلاة الجمعة بعد مدّة لنفس السبب، وبهذا الشكل انتشر بين الناس أنه ربما تكون هذه الادعاءات صحيحة، وفي النهاية وبالرغم من أن حالته لا ترقى إلى الجنون، وبالرغم أيضاً من تقرير دكتور "ليدرز دورف (Leidersdorf)" طبيب الأمراض العقلية والعصبية الإنجليزي -الذي حضر إلى إسطنبول لفحص حالته- الذي ورد فيه: "أن السلطان مراد سيبراً من المرض إذا

استراح لبضعة أسابيع؛ فقد تَمَّت الإطاحة به من عرش السلطنة، وعرض المجلس تقرير الطبيب على الصحافة قائلاً: "لقد استقرّ لدينا أن السلطان أُصيب بمرضٍ عقليّ".

تولى السلطان مراد الحكم لمدة ثلاثة وتسعين يوماً فقط عقب مقتل عمّه عبد العزيز إثر انقلاب عسكري دون أن تُجرى له مراسم تقلد السيف، حتى إنه لم يتم تنصيبه على عرش أجداده التاريخي كما كانت تجري العادة في مراسم بيعة السلاطين، وتمت الإطاحة به متذرعين بمرضه النفسي واضطرابه العقلي، وكانت الإطاحة به بناءً على فتوى صادرة من شيخ الإسلام "خير الله باشا" مستنداً فيها على التقرير المذكور الذي تمّ تحريفه من قبل المجلس، فلم يُعطِ القَدْرُ فرصةً أكبر في الحكم للسلطان "مراد" الذي لا يعكس ببعض تصرفاته وأحواله القيم والمبادئ التي تمثلها الأسرة العثمانية في آخر أنفاس الدولة العلية، وفي تلك الأثناء كان "مدّحت باشا" والصدر الأعظم "رُشدي باشا" يلتقيان بولي العهد الأمير عبد الحميد أفندي -ذي الشخصية الناضجة أكثر من أخيه مراد- في قصر "ماشلاق" - فقد كانا يرغبان في معرفة رأيّه تجاه الحكم بالمشروطة، وقد التقى عبد الحميد بهما للمرة الأولى في قصر "ماشلاق"، وأوضح لهما أنه لا يمكنه التحدّث عن المجهول، وأنه سيحدد موقفه طبقاً لما يفرضه الواقع والزمان، تماماً مثلما يقود الربانُ سفينته فإنه يتحرّك وفقاً لما يستلزمه الوضع، وبالمثل فإنه عندما يتولى دفة الحكم سيُطبّق أي نوع من أساليب الحكم يرى فيه مصلحة البلاد وسلامتها، وأنه مقتنع في الوقت الحالي بحكم المشروطة.

التقط "رشدي باشا" بفطنته وذكائه على الفور المعنى الذي يقصده عبد الحميد بهذا الردّ الدبلوماسي القصير، وسعد كثيراً بهذا الردّ.

أمضى السلطان "مراد الخامس" سنوات حياته بعد الإطاحة به من العرش مع عائلته في قصر "جِراغان" (Çırağan)، وكان مصابًا بمرض السكر، وفيما بعد استردّ قواه العقلية نوعًا ما، ولكنه عاش لمدة ثمانية وعشرين عامًا قيد الإقامة الجبرية وتحت حراسة مشددة بسبب الإجراءات والتدابير التي اتخذها عبد الحميد وفشلت جميع المحاولات التي قام بها "علي سُعاوي"، والمحاولات التي قام بها قادة المحفل الماسوني "عزيز بك" و"كانتي سكاليري" (Kleanti Skalyeri) من أجل إعادة السلطان مراد مرة أخرى إلى سدة الحكم، وكان السلطان "مراد الخامس" يقضي سنوات ما بعد حكمه في القراءة بشكل منتظم وفي تربية أحفاده وتثقيفهم، وتوفي السلطان "مراد الخامس" في التاسع والعشرين من أغسطس/آب عام (١٩٠٤م) بسبب الأعراض السيئة التي خلفها المرض في جسده، ودُفن في قبر والدته الواقع بجوار مسجد "يني جامع".

تولييه السلطنة

تلقى السلطان عبد الحميد نبأ وفاة أخيه الأكبر "مراد الخامس" بحزنٍ شديد، وبكى عليه كثيراً، وأرسل وفداً إلى بنات أخيه "خديجة وفهيمه وفاطمة سلطان" لِنَقْلِ تعازيه إليهن، وفي الحقيقة فإن عبد الحميد احتضن بنات أخيه الثلاث بعد اعتلائه العرش العثماني وشَمَلهنَّ برعايته، وعاملهنَّ معاملةً بناتِه وقام بتزويجهن، ولكنه في السنوات التالية لم يلق نفس الوفاء والإخلاص مِنْهنَّ؛ فقد تمَّ تسميُم أفكارهن بالأخبار والادعاءات الكاذبة ضده.

وكان عبد الحميد قد التقى مع أخيه المخلوع عدة مرات، فكان المسكين يضحك من تلقاء نفسه بغير سبب، وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرغب في أن يعيش أخوه حرّاً طليقاً ولكنه بعد حادثة "علي سُعاوي" الذي حاول أن يعيد السلطان "مراد" مرة أخرى إلى سدة الحكم وجد نفسه مجبراً على أن يكون يقظاً كلَّ اليقظة وأن يتخذ الإجراءات الاحترازية، بمعنى أن تلك الحادثة قد نَبَهَتْهُ وجعلته حذراً وشاخص العينين دائماً، فلو أنه ترك أخاه حرّاً طليقاً لما نَعِمَ هو بالراحة والهدوء ولا نَعِمَ أخوه أيضاً، وكان عبد الحميد يدرك أنَّ أخاه "مراد الخامس" إنسانٌ طيب القلب، إلا أنه لم يكن يضع في عين الاعتبار ما هو معقول وما هو غير معقول، وتلك كانت نقطة ضعفه، حتى إنه -بسبب نقطة الضعف هذه- لم يكن يخطر على باله عدم لياقة اشتراكه في المحفل الماسوني وهو خليفة المستقبل، وحجم المصيبة التي ستنتج عن ذلك، وخلال زيارته إلى أوروبا مع عمه السلطان عبد العزيز -بصفته ولي للعهد- التقى "مراد" في لندن بالأمير

"أدوارد" ولي عهد إنجلترا، وعقب عودته إلى بلده بادر بالانضمام إلى الماسونية وأدى قَسَمَ الولاء.

كان الصدر الأعظم "رشدي باشا" و"مَدَحَتْ باشا" نصيرا المشروطية اللذان لَعَبَا دورًا مهمًا في التغيّرات والتطورات التي طرأت على عرش السلطنة عام (١٨٧٦م) قد أظهرًا دعمهما لعبد الحميد في أن يصبح سلطانًا؛ ولكن شريطة إعلان ما يسمى الدستور والعمل وفقًا للقوانين التي تصدر من مجلس النواب، كما قام كلٌّ من "فتحي باشا زاده" و"دَامَاتْ (Damat) جلال الدين باشا" والقائد العام للجيش العثمانية "رديف باشا" أيضًا بجهود كبيرة حتى يتولّى السلطان عبد الحميد الحكم.

وقد أعلن "رشدي باشا" و"مَدَحَتْ باشا" عن مطالبهما خلال زيارتهما لعبد الحميد في قصر "مَاشَلَاقْ"، وأصبح الطريق إلى السلطة ممهّدًا بعدما أخبرهما بأنه يؤيّد إعلان الدستور، وقد سطر عبد الحميد اسمه في التاريخ بصفته السلطان العثماني الرابع والثلاثين وخليفة المسلمين التاسع والتسعين، وبعدها أصبح سلطانًا أوفى بما وعد به، وتمتّعت الدولة العثمانية للمرة الأولى في عهده بالحكم الدستوري بقبوله المسودة التي أعدّها "مَدَحَتْ باشا" مستندًا على الدستور البلجيكي، وبدأ مجلس النواب فعالياته بناءً على نتيجة الانتخابات، وكان عبد الحميد خلال السنوات الأولى لحكمه يعمل على الاستفادة من كل رجال الدولة ولكنه مع الوقت لم يجد بداً من أن يبعد المعارضين لسياساته وأن يشكل هيكلًا إداريًا ووظيفيًا يرتبط به بشكل مباشر.

* * *

أعقب فتح القسطنطينية عمليّاتُ إعمارٍ وبناءٍ واسعة في مدينة إسطنبول، وأنشئ بها مسجد يحمل اسم الصحابي الجليل "خالد بن زيد

أبي أيوب الأنصاري عليه السلام " وضرب على قبره الكائن بجوار المسجد ضريح حمل اسمه أيضًا، وطوال فترة ما بعد فتح القسطنطينية كان سيفُ الفتح المقدّس يُقلّد إلى الأمراء الذين يتولون عرش الدولة العثمانية، ويتم ذلك من قِبَل شيخ الإسلام ونقيب الأشراف وشيوخ المولوية في ذلك الوقت عند ضريح "أبي أيوب الأنصاري" الذي يعدُّ أهم مركز روحي في المدينة، وقد اكتشفَ حضرة العلامة "آق شمس الدين" قبر مُصَيّف رسول الله صلى الله عليه وآله بعد عصورٍ من وفاته صلى الله عليه وآله، وقلّد السلطان محمد الفاتح -الذي يعتبر أحد تلاميذته- السيفَ ومَنطقه حول خصره ودعا له، وقد استُمدّت مراسم عملية تنصيب سلطانٍ جديد للعرش العثماني فيما بعد ممّا فعله الشيخ "آق شمس الدين" في ذلك اليوم.

لم يكن جميع السلاطين العثمانيين يتقلّدون نفس السيف خلال تلك المراسم المهمة التي تسمى "تقليد السيف"، فكان بعضهم يتقلّد سيف النبي صلى الله عليه وآله والبعض الآخر يتقلّد سيف "سيدنا عمر رضي الله عنه" أو سيف "سيدنا عثمان رضي الله عنه" أو سيف السلطان "ياووز سليم"، وبعد مراسم تقلّد السيف في مسجد "أبي أيوب الأنصاري" كان السلطان الجديد يزور أضرحة أجداده الموجودة في شبه الجزيرة التاريخية في إسطنبول وعلى رأسها قبر السلطان محمد الفاتح، وقد ظلّت مراسم تقلّد السيف تقام في جو احتفالي مهيب ومبهج حتى أفول نجم الدولة العلية من على مسرح التاريخ.

وقد أقيمت مراسم البيعة للسلطان عبد الحميد داخل قصر "طوب قابي" بحضور كبار رجال الدولة، وبناءً على اجتماع هيئة الوكلاء (مجلس الوزراء) الذي عُقد يوم الأربعاء الثلاثين من أغسطس/آب (١٨٧٦م) في دائرة "قبة آتلي" أي قاعة الديوان الملكي بقصر "طوب قابي"؛ فقد نُقل

عبد الحمید من قصر "دُولْمَا بَاهْجَه" إلى منزل زوجة أبيه "بَرَسْتُو قَادین" أفندي" في حي "نِشَان طَاشِي (Nişantaşı)"، وأمضى الليلة هناك، وقد حالت الحوادث السياسية والاضطرابات في تلك الفترة العvisية دون بقاء ولي العهد عبد الحمید في قصر "بُكُلُزْبَكِي" وهو الذي سيتم تنصيبه سلطاناً على عرش الدولة العثمانية في اليوم التالي، ولذا فكروا في اتخاذ هذا الإجراء.

واجتمع العلماء وكبار رجال الدولة والوزراء داخل قاعة الديوان الملكي (قبة آلتی) في يوم الخميس الحادي والثلاثين من أغسطس/آب (١٨٧٦م)، وجيء بعبد الحمید من منزل "نِشَان طَاشِي" تحت حراسة مشددة إلى قاعة البردة الشريفة في قصر "طوب قابي"، ثم تلا أمين الفتوى "قَارَه (Kara) خليل أفندي" نص فتوى الخلع التي أصدرها شيخ الإسلام "حسن خير الله" في حق السلطان "مراد الخامس"، وفي النهاية قام كُلُّ من الصدر الأعظم "رشدي باشا" وشيخ الإسلام بدعوة السلطان عبد الحمید إلى الجلوس على العرش، ثم بايعاه بالخلافة هما أولاً ومن بعدهما كل الشخصيات الرفيعة الموجودة هناك أمام باب السعادة الموجود في قصر "طوب قابي"، وأثناء الإعلان عن صعود السلطان "عبد الحمید" إلى العرش بإطلاق المدافع قذائفها كان يجري نقل السلطان "مراد" إلى قصر "جِرَاعَانْ"، وبعد انتهاء مراسم البيعة دخل عبد الحمید إلى قاعة الاجتماعات والمقابلات الرسمية "عرض أوضاعي (Arz Odası)"، وبعد مدة خرج ونزل إلى الساحل، ثم توجه إلى قصر "دُولْمَا بَاهْجَه" تُقْلُهُ سفينة السلطنة، وفي تلك الأثناء كانت أصوات مدافع الأسطول العثماني تُدَوِّي في الهواء تحية للسلطان الجديد، وعُلِّقت الزينات في العاصمة لمدة ثلاثة أيام بلياليهن مبتهجةً بجلوسه على العرش.

كانت مراسم تقلد السيف تقام بشكل عام بين اليوم الثاني والسابع من جلوس السلطان على العرش، وقد أقيمت مراسم تقلد السيف للسلطان عبد الحميد في اليوم السابع من جلوسه على العرش الذي يوافق من أيلول/سبتمبر (١٨٧٦م)، وكانت مراسم مهية وضخمة جداً، وقد اهتم أهالي إسطنبول الذين عانوا كثيراً من الاضطرابات خلال السنوات الأخيرة اهتماماً كبيراً بالمراسم والاحتفالات، حيث كان الناس يصطفون بأعداد غفيرة على طول الساحل من "بشكطاش" وصولاً إلى منطقة "أيوب" وكأنه يوم الحشر، وكانت البيارق والأعلام ترفرف فوق كل شبر في المدينة.

تحركت سفينة السلطنة وعلى متنها عبد الحميد متخذة طريقها في البحر وسط السفن الحربية والبواخر حتى وصلت إلى منطقة "أيوب سلطان" عن طريق خليج القرن الذهبي، ثم نزل السلطان عبد الحميد إلى رصيف مرفأ "أيوب" المفروش بالسجاد الأحمر وسار على قدميه عبر الطريق المسمى "طريق السلطنة" حتى وصل إلى ساحة ضريح "أبي أيوب الأنصاري عليه السلام"، فاستقبل هناك بحفاوة بالغة من قبل العلماء والشيخوك كبار رجال الدولة من المدنيين والعسكريين وعلى رأسهم شيخ الإسلام، ثم دخل إلى الضريح بكل أدب وتواضع وجلس في المكان المخصصاً له، وأعقبه في الدخول كبار رجال الدولة والمسؤولون رفيعو المستوى.

وبعد دخول السلطان عبد الحميد إلى ضريح الصحابي الجليل "خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري عليه السلام" قرأ ثلاثة من الأئمة سورة الفتح، وفي النهاية قلّد عثمان أفندي شيخ مولوية "يني قابي" (Yenikapı) عبد الحميد سيف سيدنا عمر عليه السلام وسط مراسم احتفالية مهية شارك فيها العلماء وعامة الشعب وكبار المسؤولين العسكريين والإداريين وكبار رجال الدين، وبعد الدعاء الجماعي صلى عبد الحميد ركعتين ثم تضرّع إلى ربه بالدعاء،

وقام شیوخ الطرق الصوفیة و نقیب الأشراف الذین ینحدر نسلهم من الإمامین الحسن والحسین ابنی علی علیه السلام - حفیدی النبی صلی الله علیه و آله - ومعهم شیخ الإسلام الذی یمثل أكبر سلطة دینیة فی الدولة العثمانیة بالدعاء للسلطان الجدید راجین أن یوفقه الله فی عمله، وبهذا اكتسب حکم عبد الحمید الشرعیة وأصبح سلطاناً للدولة العثمانیة.

وبعد مغادرة مسجد "ایوب سلطان" تحرک عبد الحمید - كما جرت العادة - بالعربة الملكية التي یجرها أربعة من الخیول صوب شبه الجزيرة التاریخیة عن طریق باب أدرنه الموجود على أسوار إسطنبول البریة.

إن اتخاذ السلاطین العثمانيين للقب "سلطان البر والبحر" کان یدلّ علیہ مجازاً بسلوکهم طریقاً مختلفاً فی الذهاب والعودة إلى مراسم تقلّد السیف، فكان الذهاب إلى المراسم یرکب عن طریق البحر والعودة منها عن طریق البر، وقام عبد الحمید برفقة موكب تقلّد السیف بزيارة مقابر السلطان "محمد الفاتح" والسلطان "یاوز سلیم" وقبر والده السلطان "عبد المجید" وقبر السلطان "سلیمان القانوني" حیث یدفنون فی رحاب مساجد السلاطین المختلفة، كما زار مقابر السلاطین الموجودة فی باحات مسجد "آیا صوفیا" و"السلطان أحمد" ودعا لهم، وبهذا کان عبد الحمید یفتخر أمام الناس كأسلافه الذین سبقوه إلى الحکم بامتداد الأسرة العثمانیة وبتاریخها المشرف، ثم توجه إلى قصر "طوب قابي" من أجل الاحتفال الرسمي بمبايعته بالجلوس على العرش، وبعد إجراء مراسم الاحتفال التي أقيمت أمام باب السعادة فی حضرة الراية المقدسة التي صنعها العثمانيون من أجزاء من راية الرسول صلی الله علیه و آله المسماة بـ"العقاب"؛ أصبح عبد الحمید الثاني السلطان الشرعي للبلاد، ومن هناك توجه إلى قصر "دولما باهجه" بواسطة سفينة السلطنة.

كانت الأطعمة في قصر "بُكْلَرْبَكِي" تُطهى في المطابخ الموجودة في حديقة القصر الخارجية؛ إذ اتُخذَ هذا الإجراء الاحترازي حتى لا تشبَّ النيران داخل القصر الذي تُكوّن الأخشاب الجزء الأكبر منه، وكانت المُوْنُ ومستلزمات المطبخ فحسب هي ما يتم تخزينه في القصر داخل القبو الخاص بالمطبخ.

وكان طعام الغداء في ذلك اليوم عبارةً عن حساءٍ وسمكٍ باربوني وسلطةٍ وقطائف بالقشدة، حيث كان عبد الحميد يحبُّ تناول السمك، وقد قام كلُّ من كبير الخزنة "عثمان بك كيلرجي باشي" (Kilercibaşı) المسؤول عن توفير المُوْن وتجهيز الأطعمة ومساعدِه "حسين أفندي" بإعداد مائدة الطعام، وكانت العادات المتبعة في قصر "يَلْدِيز" هي نفس العادات المتبعة في قصر "بُكْلَرْبَكِي"، حيث كانت أطعمة الغداء تقدم في الساعة الحادية عشرة طبقاً لإعدادات القصر وتقاليده.

وإلى جانب "مشفقة هانم" كانت ابنته "نعيمة سلطان" واحدة ممن يشاركونه الطعام في الحجرة المخصصة للطعام داخل جناح الحريم، وقد صنع عبد الحميد بنفسه وبمهارة وإتقانٍ أحد الكراسي المترابطة حول مائدة الطعام الكبيرة الموجودة في الحجرة، وصُنِعت باقي الكراسي على نفس نمط وتصميم هذا الكرسي، وقبل عدة أيام وبينما ينظر عبد الحميد من نوافذ قصر "بُكْلَرْبَكِي" وقعت عيناه على القصور الصيفية الممتدة بطول الساحل في "أورطه كُوي" فتذكر ابنته "نعيمة سلطان"، ووالد زوجها المجاهد "عثمان غازي باشا".



المجاهد عثمان غازي باشا بطل معركة "بلفن"

كان "عثمان غازي باشا" البطل العثماني المشهور قائد جبهة "بلفن" خلال الحرب العثمانية الروسية المعروفة باسم حرب الثلاث والتسعين - وذلك لتوافق وقوعها في عام (١٢٩٣) رومية - والتي نشبت بين أعوام (١٨٧٧-١٨٧٨م)، وكانت الشجاعة والبطولة التي أظهرها في الدفاع عن مدينة "بلفن" في بلغاريا محل تقدير وإعجاب من العالم أجمع؛ حيث أرسلت الخطط العسكرية التي نفذها في "بلفن" قواعد جديدة في تاريخ وعلم الحرب العالمي؛ فقد أحكم "عثمان باشا" سيطرته على "بلفن" في البداية، وبعد ذلك وبالرغم من قيام الجيش الروسي والروماني بشن ثلاث هجمات لاستعادة المدينة إلا أنهم لم يتمكنوا من اختراق الدفاع الأسطوري الذي أبدته قوات "عثمان باشا"، وبعد فترة طويلة من المقاومة والصمود سقطت مدينة "بلفن"، وجرح عثمان باشا وسقط أسيراً، وقد أبدى الروس إعجابهم بخطة عثمان باشا الدفاعية وأظهروا له احتراماً وتقديراً كبيرين حتى إن القائد الأعلى "جراندوق نيقولا (Grandük Nikola)" ردَّ إليه سيفه الخاص، وقال:

"إن الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يستحق أن يحمل هذا السيف بحق هو أنت يا عثمان باشا!".

واستقبله قيصرُ الروس بحفاوة بالغة، وقد أُبلغ "عثمان باشا" أنه بإمكانه الذهاب إلى أي مكان يريده داخل الدولة الروسية؛ فقام بجولة في الولايات التركية التي تخضع للسيطرة الروسية، وكانت تُقام له حفلات استقبالٍ ووداعٍ في كل مكان يذهب إليه.

عاد "عثمان باشا" إلى إسطنبول على إثر الجهود التي بذلها السلطان عبد الحميد، واستقبله الشعب بحفاوة بالغة، وقَبِلَه عبد الحميد من جبهته والدموع مغرورقة في عينيه ودعا له قائلاً:

"يَبْضُ الله وجهك في الدنيا والآخرة كما بَيَّضَتْ وجهي أمام العالم أجمع!".

كان عبد الحميد يُكِنُّ احترامًا وحبًّا كبيرين لـ "عثمان باشا" الذي يَتَّصِفُ بإخلاصه لدينه ووطنه، حتى إنَّه زَوَّج ابنته من ولديه، وتوفي "عثمان باشا" يوم الجمعة الخامس من أبريل/نيسان (١٩٠٠م)، وأُقيمت له جنازة مهيبَّة، ودُفِنَ في مقابر مسجد "فاتح" بجوار قبر السلطان محمد الفاتح، وأصيب عبد الحميد بصدمة كبيرة بسبب الموت المفاجئ لبطل "بلغن"، وتركت وفاته حزنًا شديدًا وأثرًا عميقًا سواء في الدولة أو القصر، وقد حافظ "عثمان باشا" حتى وفاته على منصبه قائدًا للديوان برتبة "مُشير" وهي أعلى وظيفة في القصر، ولم يَقم عبد الحميد بإلغاء هذا المنصب ولكنه لم يَعيِّن فيه أحدًا.



القصور والنُزل الساحلية

بدأت الأسرة العثمانية مع بداية القرن الثامن عشر الميلادي في قضاء شهور الصيف فحسب في قصور "بَشْكُطَاشْ"، وبعد ذلك أصبحت تقضي فيها باقي شهور السنة، وَهُجِرَ قصر "طوب قابي" شيئاً فشيئاً مع الزمن، وكانت أميرات الأسرة العثمانية بعد الزواج من الباشوات وكبار رجال الدولة في ذلك الوقت يُقِمْنَ في القصور الساحلية المقامة على طول السواحل الممتدة من بلدية "بَشْكُطَاشْ" حتى حي "كُورُو جَشْمَه" (Kuruçeşme).

ويقع النُزل الساحلي الذي يحمل اسم "قصر أسماء سلطان" قرب مسجد "أورْتَه كُوي (Ortaköy)" الذي أنشأه السلطان عبد المجيد، و"أسماء سلطان" هي شقيقة "محمود الثاني" و"مصطفى الرابع" والابنة الصغرى للسلطان "عبد المجيد الأول" الذي قام ببناء مسجد "بَكْلَرَبَكِي" على سواحل "بَكْلَرَبَكِي" من أجل أمه "رابعة سلطان"، وبعد زواجها من القبطان البحري "حسين باشا" قائد القوات البحرية خصص لها هذا القصر الساحلي ذا الواجهة الضخمة والمطل على البوسفور.

أما القصر الساحلي الخاص بـ"نعمة سلطان" ابنة السلطان "عبد الحميد" فيقع على مقربة من قَصْرِ "أسماء سلطان" حيث يقفُ شامخاً على البوسفور ببهاءه وعظَمَتِهِ، وقد قدّمه عبد الحميد هديةً لـ"عثمان غازي باشا" الذي عُيِّنَ مشيراً للديوان عقبَ عودته عزيزاً من "بلغن"، ولهذا السبب يُطلَقُ عليه أيضاً اسم "قصر عثمان غازي باشا"، وفي عام (١٨٩٨م) تزوّجَتْ "نعمة سلطان" التي يلقبُها والدُها عبد الحميد بـ"ابنة

جلوسي على العرش " من "كمال الدين باشا" الابن الثاني لـ "عثمان غازي باشا"، وكانَ زفافُها في هذا القصر، وقبل ذلك كان "نور الدين باشا" الابن الأكبر لـ "عثمان غازي باشا" قد تزوّج من "زكية سلطان الابنة الثانية لـ عبد الحميد" في حفلٍ زفافٍ أسطوريٍّ، وارتدت "نعيمة سلطان" للمرة الأولى بين الشعب العثماني وعامة القصر فستان زفاف من القماش الأبيض بدلاً من اللون الأحمر المتعارف عليه والشائع في ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين بدأ هذا النمط من فساتين الزفاف ينتشر بين الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية في البلاد.

وقد قام السلطان عبد الحميد بدعوة كلّ رجال الدولة والوزراء إلى الديوان الملكي لحضور حفل زفاف ابنته "نعيمة سلطان" التي أقيم لها حفل زفاف مهيب، وقدّمت لهم موائد الطعام الفاخرة، وقام شيخ الإسلام بعقدِ قران "نعيمة سلطان" على "كمال باشا"، ومثلما كانت الهدايا تنهال على "نعيمة سلطان" من كل جانب كان عبد الحميد يقوم بتوزيع الهدايا والعطايا المختلفة على المشاركين في مراسم الزفاف، وأرسل "عثمان باشا" تاجًا لزوجته ابنة "نعيمة سلطان"، ومنحَ عبد الحميد وسامَ المجيدة إلى أهل العريس، ولم تكن واحدةً من زوجات الوزراء قد حصلت على هذا الوسام من قبل.

وبعد العرس دعا عبد الحميد ابنته "نعيمة سلطان" إلى حضرتها، وقدّم لها بعض النصائح، ودعا لها بالتوفيق في حياتها ثم قبلها من جبهتها، ولأن العادة كانت ألا تغادر العروس مرتديةً فستان زفافها فقد ركبت نعيمة سلطان عربتها وهي ترتدي ملابسها العادية، وغادرت إلى القصر الساحلي الواقع في "أورطه كُوي"، وبعد مغادرتها نُحِرت الذبائح ووُزِعت على الفقراء والمساكين.

نُفِيتْ نعيمة سلطان إلى خارج البلاد عام (١٩٢٤م) مع باقي أفراد الأسرة العثمانية، وأصبح القصر مهجورًا، ثم استُخدم لفترة من الوقت كدارٍ للأيتام ثم كمخزن للتبغ، وقد توفيت نعيمة سلطان عام (١٩٤٤م) في جمهورية ألبانيا، وعقب وفاتها تمت مصادرة هذا القصر الساحلي وانتقلت ملكيته إلى الدولة، وبعد سنواتٍ استُخدم في التعليم وتحول إلى مدرسة إعدادية تحمل اسم "عثمان غازي باشا" الذي كان يُطلقُ اسمه أيضًا على القصر، ومما يدعو للأسف الشديد أن هذا القصر الساحلي تعرّض لحريقٍ كارثيٍّ مدبرٍ مع بداية الألفية الثانية، ولم يتبق منه إلا هيكل المبنى الخارجي، ومنذ ذلك الحين أصبح شاهدًا على التاريخ وسط حنين واشتياق إلى أيام الماضي العريق.

ويقع قصر "خديجة سلطان" الساحلي على الطريق الواصل بين "أورطه كوي" (Ortaköy) و"كوزو جشمه" (Kuruçeşme)، وهو بجانب قصر "نعيمة سلطان" مباشرةً، ولقد تكفل السلطان عبد الحميد بابنة أخيه وزوجها من "واصف بك"، وأهدى هذا القصر الواقع في "أورطه كوي" إلى ابنة أخيه الكبرى "خديجة سلطان".

وبينما كان عبد الحميد يستمتع بالنظر إلى سواحل "أورطه كوي" في ذلك اليوم وقعت عيناه على القصر الساحلي لابنته "زكية سلطان"، وقد تعرّض هذا القصر الساحلي الفخم الذي يقع بجوار قصر "خديجة سلطان" لحريقٍ مدبرٍ أيضًا في أوائل أربعينات القرن العشرين وتحول إلى رماد.

وعندما نُفِي أفراد الأسرة العثمانية إلى خارج البلاد عام (١٩٢٤م) سافرت "زكية سلطان" إلى فرنسا وأقامت في إحدى عُرف الفنادق الصغيرة في مدينة "باو" (Pau) الفرنسية.

لم تتمكّن هذه السيّدة التعيسة الحظّ من أن ترى مرّةً أخرى قصرها الذي كانت ترعاه كحبة عينها، وبعدما عانت من آلام الغربة وحياة المنفى توفيت عام (١٩٥٠م) داخل حجرة الفندق الذي كانت تُقيم فيه بفرنسا، ودُفنت في مكانٍ غير معروف.

لقد رحل عبد الحميد عن الدنيا دون أن يرى النهاية المؤسفة لتلك الآثار العظيمة التي تعتبر تذكّاراً من الأسرة العثمانية، ودون أن يشهد مصاعب الحياة المفجعة وتقلّبات الدهر التي ألّمت بأهله وأقرب الناس إلى قلبه، وقد كانت قصة حياة كل واحدة من بنات الأسرة العثمانية اللائي أمضين جزءاً كبيراً من حياتهن في قصور "أورطه كوي" مليئة بالأحزان التي لا يمكن تخيلها، واختلطت بين جنبات هذه القصور الساحلية العظيمة والعواطف والحبّ مع صراعات السلطة ومشاعر الفخر ومشاعر الحزن والألم.

ها هو يعيش الآن معزولاً عن العالم وحيداً في قصر صيفي فخيم على سواحل "البوسفور" في منطقة "بكلزبكي"، فعظمة سنوات السلطنة وقوّتها لا تعدو كونها جزءاً من الماضي، فكانت ذكريات تلك السنوات تُعشّ ذاكرته من حين إلى آخر، ولكن هيهات هيهات؛ فلا يُمكن استعادة الماضي مرّة أخرى... لقد رضي بحكم القدر واستسلم له، فكانت أهُم غاية في حياته منذ ذلك الحين هي أن يُسلم روحه إلى بارئها مؤمناً صابراً محتسباً، ويبدو على أيّة حال أنه كان لا يريد أن يطوي صفحة هذا العالم دون التصالح والتوافق مع الماضي، لذا فإنه عندما كان يشاهد قصور "أورطه كوي" الواقعة على الساحل المقابل لقصر "بكلزبكي" قبل عدة أيام لم يتمكن من نسيان "عثمان غازي باشا" والدفاع عن "بلفن" و"حرب ٩٣" والأوقات العصيبة التي مرّت خلال إعلان المشروطة، والأزمات التي حاصرت البلاد خلال مدة تولّيه الحكم.

كانت الأوضاع العسكرية والسياسية والمالية للدولة العثمانية عند تولي عبد الحميد الحكم سيئةً إلى حدٍّ كبيرٍ؛ فكانت كلُّ بقعةٍ من بقاع الدولة تغلي كالمرجلٍ، فالأوضاع هذه تشبه أوضاع الدولة الإسلامية أيام سيدنا "علي بن أبي طالب عليه السلام"، فقد قال "بديع الزمان سعيد النورسي" عن سيدنا "علي عليه السلام":

"...إِنَّ أَحَدَ أَسْبَابِ تَأْخُرِ خِلاَفَةِ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ عليه السلام كَرَمَ اللَّهُ وَجْهَهُ هُوَ مَا يَأْتِي:

لقد هبَّت أعاصيرُ الفتنِ في أوساطِ أُمَّةِ الإسلام التي تضمُّ ملأً ونَحْلاً متباينةَ الفكرِ، والتي يحمل كلُّ منها بذورَ الفرقة إلى ثلاث وسبعين فرقة - مثلما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وآله -^(١٠) فكان ينبغي وجود شخصيةٍ قويَّةٍ فذَّةٍ، مهيةٍ الجانب، ذات شجاعةٍ فائقةٍ وفراصةٍ نافذةٍ ونسبٍ عريقٍ أصيلٍ من أهل البيت ومن بني هاشم، كي يثبت أمام هذه الفتن، فمثل هذه الشخصية الفذَّة؛ كانت تتمثل في علي الكزار عليه السلام، فلقد ثبت فعلاً أمام تلك الأعاصيرِ الهوجاء.. "^(١١).

لا ريب أن عبد الحميد تولَّى الحكم في فترةٍ تحملُ ظروفًا مشابهة لظروف سيدنا علي كرم الله وجهه مليئةً بالفتنة والفساد، وقد كان الجميع يقدِّره ويحترمه لذكائه ودهائه وسياساته الحكيمة، وبالرغم من أن هناك من يصورون حنكته السياسية بأنها مجرد وهم، بل ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك ويعمل على إظهاره في صورة الجبان الخائف؛ إلا أنه في الحقيقة كان كنزاً للدولة العثمانية، وربما يكون هو الوحيد بين السلاطين العثمانيين الذي ارتقى سُدَّةَ الحكم في ظروف غاية في الصعوبة والتعقيد.

(١٠) انظر: سنن الترمذي، الإيمان، ١٨؛ سنن أبي داود، السنة، ١؛ سنن ابن ماجه، الفتن، ١٧.

(١١) بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، دار النيل، القاهرة (٢٠١١م)، ص ١٢٩ - ١٣٠.

وبعد أن تُوفي "محمد أمين عالي باشا" -أحد كبار الدبلوماسيين الذين تربّوا على يد "مصطفى رشيد باشا" - في أيلول/سبتمبر عام (١٨٧١م) اشتعلت حدة الصراع بين القصر و"الباب العالي"، وبدأت سلسلة متواصلة من الأزمات الخارجية والداخلية تواجه الدولة العثمانية، وبدأ بوضوح يظهر ما يعرف بعصر "قحط الرجال" في الدولة، وتزعزع الاستقرار السياسي في الدولة العثمانية على يد مَنْ كانوا يسيطرون على الحكم في ذلك الوقت من أمثال "محمود نديم باشا" و"مدحت باشا" و"حسين عوني باشا" قائد الجيش الذي اتضح لاحقاً أنه كان يتلقى الرشاوي، وعلى عكس الحكم الرشيد لـ"علي باشا" و"فؤاد باشا" فقد أساء هؤلاء الأشخاص لسُعة السلطان "عبد العزيز" بسوء إدارتهم، وتولى "مدحت باشا" و"محمود نديم باشا" -الذي ينتمي لأسرة بكتاشية- بعض المناصب لفترة من الوقت خلال السنوات الأولى من حكم عبد الحميد، ولكن عبد الحميد تخلص منهم بعد توليه الحكم في أول فرصة سنحت له.

لم تتمكن الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز من سداد ديونها الخارجية على إثر استفحال أزمته المالية؛ فقام "محمود نديم باشا" بإعلان حالة الإفلاس المالي للدولة العثمانية عام (١٨٧٥م)، وطلب تأجيل دفع الديون، فقبِلَ هذا القرار الاضطراري بردة فعل قوية في أوروبا، وأثار الرأي العام الغربي ضد الدولة العثمانية، وأصبح الشعب والجيش يعانيان من أزمات مالية واضطراب وعدم استقرار، واندلعت الثورات في جزيرة "كريت" (*Girit*) وفي البلقان بتأثير من الحركة السلافية التي تقودها روسيا القيصرية، ودارت رحى الحرب ضد الدولة العثمانية في "صربيا" و"قره داغ" (*Karadag*)، وظل الجنود العثمانيون مكتوفي الأيدي في "كريت"، وانقضت الدول الغربية على العثمانيين في "كريت" كالكابوس المُطبق، ولم تكن تنوي أن تتركها أو تخرج منها مطلقاً.

لم تكتفِ روسيا بتحريض المجتمعات السلافية في البلقان على الثورة فحسب، بل راحت في ظلّ تلك الاضطرابات تُعدُّ العُدّة للحرب طمعاً في الاستيلاء على الجزء الأكبر من الدولة العثمانية، وطالبت الدول الأوروبية الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات عاجلة متذرعة بمشكلة البلقان، وكان الفرنسيون والإيطاليون يشطّحون بأنظارهم طامعين في أراضي الدولة العثمانية في شمال إفريقيا؛ فكانت مصر وتونس مسرحاً لوقوع أحداث جللٍ وخطوبٍ مؤلمةٍ في كلّ لحظة، وبدأت دعوات الغربيين تؤتي ثمارها، وانتهجت أساليبٌ عدائيةٌ ضدّ الجنود العثمانيين، وأصبح الطريق ممهداً لهزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وهكذا فإنّ عبد الحميد تولّى سُدّة الحكم في فترةٍ حرجيةٍ كانت الدولة فيها منهارةً ومتهالكةً وعلى وشك السقوط، فبمجرّد تولّيه الحكم واجه العديد من المشكلات والنوازل الخطيرة، وفي ظلّ تلك الظروف كان ليهود "الدونمة" في الأناضول أنشطة كبيرة، وربما كان معظمهم قد غيّر اسمه ولكنّ ضمائرهم ونفوسهم المريضة لم تتغيّر مثقال ذرّة؛ فكان الحقد والكراهة الذي تراكم في نفوسهم لسنوات كافياً لإشعال فتيل الفتن وإثارة الفوضى في كلّ مكان، وربما كانت تلك الجمعية السريّة أكبر أعداء الدولة العثمانية وأكثرها تأثيراً.



جهوده في سبيل إنتقاذ الدولة

عَمِلَ عبد الحميد على اتِّباعِ سياسةٍ فعَّالةٍ ومتوازنةٍ بقدرِ الإمكان على الرغم من كل تلك الجوانب السلبية، فلم يكن ممكناً حلُّ المشكلات والقضايا المتراكمة منذ سنوات في لحظة واحدة؛ إذ إنَّه لم يكن أحدٌ يملكُ عصاً سحريةً، ولم يكن عبد الحميد يقبَلُ مطلقاً وصفَ "الرجل المريض" الذي التصقَّ بالدولة العثمانية، فقد كان عازماً على تقويتها واستعادتها لمكانتها الحقيقية بين الدول مهما كَلَّف الأمر، ومن أجل هذا الهدف فقد دعا في أوَّل فرصة سنحت له أعضاء الحكومة وجموع موظفي "المابين"^(١٢) على المائدة، وعبَّر في مَعرض حديثه لهم عن وجود حاجة ماسَّةٍ للتكاتف والوحدة الوطنية.

وأقيمت المراسم من أجل السلطان عبد الحميد في اليوم الخامس عشر من جلوسه على العرش داخل قاعة البردة الشريفة التي تُعدُّ أهم مكان في قصر "طوب قابي"، وعقب هذه المراسم توجه إلى الترسانة البحرية في حيِّ "قاسم باشا"، وجلس مع البحَّارة والملاحين، وتناول معهم الطعام؛ إذ كان يرغبُ في أن يقتربَ من رجال الجيش والأسطول، وأن يلتحمَ بهم حتى يستميلَ قلوبهم نحوه، ويضمنَ كامل ولائهم له، وفي تلك الأيام ذهب أيضاً إلى وزارة الحرب، وتناول الطعامَ مع القادة والضباط بشكلٍ جماعيٍّ، ثم ألقى على مسامع الجنود خطاباً، ولم يكن تناول السلطان الطعامَ مع الآخرين بهذا الشكل أمراً شائعاً من قبلُ.

(١٢) "مابين": تُشيرُ إلى القسم الواقع في القصر السلطاني فيما بين الحرم [جناح الحرم] وما بين الدوائر الخارجية، وهو المكان الذي كان يقضي السلطانُ فيه وقته، إن لم يخرج من القصر، ويسمى العامل في دائرة المابين "ما بينجي".

كان عبد الحمید یذهب إلى المساجد المختلفة من حين إلى آخر، ويختلطُ بعامة الشعب؛ فيُصَلِّي معهم في صفٍّ واحد، وكان يذهب أيضًا في تلك الأيام إلى متنزه "كاغذخانة" (Kağıthane) في إسطنبول، فلم يكن يتوانى عن كسب حبِّ الناس ورضاهم، فكانت أساليبُ تعامله مع الناس وأترابه منهم وتواصله معهم وتنظيمه مآدب الطعام مع قادة الجيش وبناءه روابط قويّة مع الجنود؛ تنال رضا الجيش والشعب معًا، وساهم هذا الأمرُ بصفةٍ خاصّةٍ في رفع الحالة المعنويّة داخل الجيش؛ فحقّق جيش الدولة العثمانية انتصاراتٍ كبيرةً على الجبهة الصربيّة، وبينما كان الجنود العثمانيون على وشك الدخول إلى "بلجراد" تدخلت الدول الكبرى، وبناءً على التحذير الذي أطلقته روسيا من أجل إنهاء حالة الحرب على الفور أبرمت اتفاقيةً لوقف إطلاق النار بين الدولة العثمانية وصربيا لمدة ثلاثة أشهر.

كان عبد الحمید يبذل كلّ ما في وسعه حتى يقوى إيمانُ الجنود ويترسّخ في أعماقهم، وتعمّر قلوبهم بحبِّ النبي ﷺ والامثال لأوامر الله ﷻ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان يرسل إلى الحجّ مئات من الموظفين المدنيين والجنود على نفقته الشخصية سنويًا تحت إشراف أحد العلماء، حتى إنه كان يقيم دورًا خاصة للضيافة في مكة المكرمة والمدينة المنورة من أجل استضافة هؤلاء الحجّاج خلال فترات توقفهم أثناء رحلة الحجّ.

إعلان المشروطة

كانت إنجلترا وروسيا تتابعان عن كثب جهود عبد الحميد من أجل إعادة بناء الدولة العثمانية والنهوض بها من جديد، وقد طالبت إنجلترا بمناقشة "المسألة الشرقية" خلال مؤتمر -التَّرْسَانَة- الذي سينعقد في إسطنبول، وأراد عبد الحميد أن يرد على ضغوط روسيا والدول الأوروبية بمناورة سياسية؛ فقام بعمل حملة دبلوماسية قبل يوم واحد من انعقاد هذا المؤتمر -التَّرْسَانَة- الذي ستعرض فيه الدول الغربية اقتراحات تحمل مطالب وشروط مجحفة تُعَرِّضُ استقلال الدولة العثمانية للخطر؛ حيث وافق في الثالث والعشرين من ديسمبر/كانون الأول (١٨٧٦م) الموافق لليوم الرابع عشر بعد المائة من اعتلائه العرش على العمل بالمشروطة، والدستور الذي يُعَدُّ أَوَّلَ دستورٍ للدولة العثمانية آخذًا في الاعتبار الضغوط الخارجية والميول والاتجاهات الفكرية الداخلية، وبهذا الأمر أوفى عبد الحميد بالوعد الذي قطعه على نفسه من قبل لـ "مِدْحَتِ بَاشَا" ورفقائه بأن يعلن العمل بالمشروطة، ووضع الدستور، ولكن الدول الأوروبية تجاهلت تلك الخطوة ولم تضعها في الاعتبار، وبعد انتهاء المؤتمر جددت مطالبها الدولة العثمانية بعمل إصلاحات لصالح الرعايا المسيحيين.

كان رَفُضُ تلك الاقتراحات كاملةً في لحظة يعني أن تبقى الدولة العثمانية وحدها في مواجهة روسيا، لذا ارتأى عبد الحميد الموافقة على قبول الاقتراحات المذكورة تهدئة لحدة الأوضاع وامتصاصًا للغضب؛ إذ كان يحاول في تلك الفترة الدقيقة والحرجة أن يخطو خطوات حذرة باتباع سياسة متوازنة في الداخل والخارج.

وبعد إعلان المشروطة تحقق للمرة الأولى العمل بالدستور الذي نصّ على تشكيل برلمان يتكون من مجلسين منفصلين، وقد افتتح المجلس العثماني (البرلمان) في التاسع عشر مارس/ آذار عام (١٨٧٧م) بمراسم ضخمة ومهيبة داخل صالون المعايذة بقصر "دُولْمَا بَاهْجَه" شارك فيها السلطان والأعيان والنواب والوزراء والعلماء والقادة العسكريون والمدنيون.

ويتكون هذا المجلس من هئتين منفصلتين هما: "مجلس الأعيان" الذي يُعَيَّنُ رئيسه وأعضاؤه من قِبَلِ السلطان مباشرةً، و"مجلس النواب" الذي يتم اختيار أعضائه عن طريق الانتخابات، وقد نصّ الدستور على أن يتشارك المجلس والسلطان في إدارة البلاد، كما كفل الحقوق العامة والحرّيات واستقلال القضاء.

كان عبد الحميد يضع نصب عينيه المصالح العليا للبلاد والأمة؛ ولهذا أعلن المشروطة والانتقال إلى نظام الحكم الدستوريّ بنية طيبة، إلا أن طبول الحرب بدأت تُقرع وتلوح أماراتها في الأفق بين روسيا والدولة العثمانية بعد رفض الحكومة العثمانية في العاشر من أبريل/ نيسان عام (١٨٧٧م) المقترحات التي قدمتها روسيا القيصرية من أجل إجراء إصلاحات في دُولِ البلقان.

وقد ألقى "مِدْحَتُ بَاشَا" خطبةً حماسيةً في مجلس النواب بشأن الحرب ضد روسيا استمال بها إلى صفه نواب المجلس غير المسلمين، ظناً منه أن الإنجليز سيقدّمون الدعم للدولة العثمانية ضد روسيا، كما أنّهم مسبقاً من سيصوّت ضد الحرب على روسيا بالخيانة العظمى وعدم الولاء للوطن، وفي النهاية أقرّ مجلس النواب رفضه لقرارات مؤتمر الترسانة، وهكذا سادت أجواء الحرب والتعبئة ضد روسيا.

وفي الحقيقة كان "مِدْحَتُ باشا" يسعى بشتى السبل ومختلف الفرص إلى خلع السلطان عبد الحميد عن العرش؛ لأنه كان يرى أنه يشكل خطراً على مستقبله السياسي؛ نظراً لاهتمام السلطان الكبير بمتابعة شؤون الدولة عن قرب، ولعل سبب اجترأ "مِدْحَتُ باشا" إلى هذا الحد أنه كان محل ثقة الرأي العام ومحط إعجاب الناس بسبب بعض الإصلاحات التي قام بها في الولايات التي عُيِّن والياً عليها.

كان "مِدْحَتُ باشا" يخطط للقضاء على الأسرة العثمانية تماماً؛ فكان يلتقي في منزله برجال الدولة المؤيدين له ومنهم "نامق كمال" و"رشدي باشا" و"ضيا باشا"، ولم يكن يتردد في أن يناقش تلك الفكرة معهم، حتى إنه في مرة من المرات تجرأ إلى درجة أنه قال:

"ماذا يحدث لو استبدلنا آل عثمان بآل مدحت؟".

كما لم ولن يسقط من الذاكرة أن "مِدْحَتُ باشا" خلال فترة صدارته العظمى التي استمرت لفترة قصيرة عيّن ولاية من النصارى والأقليات على ولايات ذات أغلبية مسلمة، وضم الطلاب الروم المسيحيين إلى المدرسة الحربية التي تعتبر أساس الجيش العثماني المسلم.

وبعدما ارتقى "عبد الحميد" العرش خلفاً لأخيه الأكبر "مراد الخامس" اضطر إلى تعيين مِدْحَتُ باشا -العقل المدبر لتغيير السلطنة- في منصب الصدارة العظمى، ولم يكن اتخاذ قراراً كهذا أمراً خاطئاً في ظل ظروف تلك الفترة؛ فقد كان الرأي العام يرغب في ذلك أيضاً لثقة في "مِدْحَتُ باشا".

كان عبد الحميد على اطلاع دائم بما يدبره "مِدْحَتُ باشا" وأتباعه من مؤامرات ودسائس بفضل جهاز استخباراته السري، وقد بلغ السيل الزبا من تلك الصفقات التي عقدها "مِدْحَتُ باشا" مع الغرب، ومحاولات

القضاء على الدولة العثمانية؛ حيث عزله عبد الحميد في نهاية الأمر من منصب الصدارة العظمى في الخامس من فبراير/شباط (١٨٧٧م)، ثم نفاه إلى أوروبا طبقاً للمادة (١١٣) من الدستور العثماني التي تُعطي السلطان الحق في النفي السياسي خارج البلاد، وذلك بسبب ما قام به "مِدْحَتُ باشا" من إجراءات تضرُّ بالمصالح العليا للبلاد، ومحاوَلته تنصيب نفسه وصياً وأمراً على السلطان عبد الحميد.

كان "مِدْحَتُ باشا" يربطُ بقاءَ دولةٍ عريقةٍ كالدولة العثمانية بشخصه، وعلى الرغم ممّا كان يقولُ من أنه لو أُبعدَ عن القصر "فليرحم الله هذه الأمة"؛ إلا أن الدولة لم تتقوَّض -كما كان يدّعي- بعد نفيه، ولم يلهث الشعبُ وراءه، ولم يثُر من أجله أحدٌ، وقد نُفي "مِدْحَتُ باشا" إلى مدينة "برنديزي (Brindisi)" الواقعة على السواحل الجنوبية لإيطاليا، وأمضى سنةً وثمانية أشهر خارج البلاد.

وعلى الرغم من عزل "مِدْحَتُ باشا" من منصب الصدارة العظمى فقد رفض مجلس النواب قرارات مؤتمر "الترسانة"، وأصبحت الدولة العثمانية في مواجهة حتميةٍ مع روسيا، وفي الرابع والعشرين من يناير/كانون الثاني (١٨٧٧م) أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية إثر توتر العلاقات بين البلدين، وبناءً على القرار الذي اتخذهُ مجلسُ النواب الذي يشكل فيه النواب غير المسلمين نسبةً لا بأس بها أعلنت الدولة العثمانية أيضاً الحرب على روسيا، وعلى الرغم من معارضة عبد الحميد لتلك الحرب التي تُعرَف تاريخياً بـ "حرب ٩٣"؛ دخلت الدولة العثمانية تلك الحرب بإصرار وضغطٍ من رجال الدولة أمثال "محمود باشا" و"رديف باشا" مما تسبَّب في حدوث كارثة كبرى بالنسبة للدولة العثمانية، وعلى الرغم من النجاح النوعي الذي حققه كلٌّ من "عثمان غازي باشا"

في "بلفن"، و"أحمد مختار باشا" على الجبهة الشرقية خلال هذه الحرب التي استمرت ستة أشهر؛ فقد مُنيت الدولة العثمانية بهزيمة نكراء في نهاية الحرب، ووصل الجيش الروسي الرَّاحِف إلى مشارف مدينة إسطنبول بعدما عَبَر "أِدِرْنَه" و"البلقان"، واستشهد خلال هذه الحرب عشرات من المسلمين الأتراك، واضطرَّ ما يربو عن مليون شخص إلى النزوح من البلقان إلى إسطنبول بشكلٍ فوضويٍّ وعشوائيٍّ وهم في حالةٍ مزريةٍ عبر الطرق الموحلة والمستنقعات والوديان.

وعلى الجانب الآخر مُنيت الدولة العثمانية بهزيمة نكراء على الجبهة القوقازية، واحتلَّ الروس أراضي كثيرةً من بينها "أَرْزُورُوم" (Erzurum)، ووصلت الأزمة الاقتصادية في البلاد إلى منعطفٍ خطيرٍ متأثرةً بالهزائم العسكرية المتتالية، وعانى الشعب معاناةً كبيرةً بسببِ تفشَّى الأوبئة وانتشار الفقر.

وعندما تصدَّرت عمليَّات الاضطهاد والتعذيب والانتهاكات الوحشية التي قام بها البلغار ضدَّ المسلمين الأتراك في البلقان صفحات الجرائد والصحف الأوروبية اتَّخذَ عبد الحميد كافة الإجراءات الممكنة، وحاول بقدر المستطاع أن يمنع الصحف التي تصدر في إسطنبول وباقي الأقاليم وخارجها من النشر في تلك المسألة؛ لأنه كان يخشى من غضبة الأهالي المسلمين وردة فعلهم الانتقامية ضدَّ غير المسلمين، وحتى لا تستخدم الدول الغربية والرأي العام هذا الأمر ضدَّ الدولة العثمانية، ففي ظلِّ ظروف تلك الفترة لم يكن التفكير بهذه الطريقة أمراً خاطئاً.

وقد تسببت "حرب ٩٣" في إحداثٍ تغييرٍ شاملٍ في الحياة السياسية داخل الدولة العثمانية، وسادت حالة كبيرة من التخبط والارتباك مجلس النواب الذي يُعتبر صاحب القرار الأوحَد في إدارة البلاد، فلم يتمكن

النواب من إقرار أيّ قانونٍ ولا من الإجماع أو التوافق على أيّ قضية، ولهذا قرر عبد الحمید أن يُحكّم قبضته على كافة مقاليد الحكم حتى يُنقذ الدولة من الأزمات التي تعصف بها؛ فقام في يونیة/حزیران (١٨٧٧م) بتعليق جلسات مجلس النواب لمسؤوليته الكاملة عن الزجّ بالبلاد في الحرب مع روسيا، وبعد تعطيل المجلس أصبح عبد الحمید صاحب السلطة الوحيدة في إدارة البلاد، وبإدخاله إنجلترا في الأمر ضمن وقف إطلاق النار وإنهاء الحرب مع روسيا.

وفي تلك الأثناء نجح عبد الحمید في وقف إطلاق النار وإنهاء الحرب الروسية العثمانية بوساطة إنجلترا في هذا الأمر، وقد اجتمع مجلس النواب مرّةً أخرى في نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٨٧٨م)؛ حيث قام النواب بتوجيه اتهامات وانتقادات لاذعة لسياسة الحكومة خلال تلك الحرب على الرغم من أن هذا المجلس الذي يضم عددًا لا يُستهانُ به من الأعضاء من الأقليات غير المسلمة يعتبر مسؤولاً مسؤوليّةً كاملة عن "حرب ٩٣" التي تسببت في خسائر فادحة للدولة العثمانية، حتى إن بعض النواب وجّهوا اللوم وألقوا بالمسؤولية كاملة على عاتق السلطان عبد الحمید الذي نجح في إنهاء الحرب وإيقاف آتونها المُحرّق.

وفي الثالث عشر من فبراير/شباط عام (١٨٧٨م) قام عبد الحمید بحل وإلغاء مجلس النواب إلى أجل غير مسمى بعدما استمر نحو عشرة شهور وعشرة أيام؛ وذلك ليضع حدًا للمناقشات التي جرت في المجلس بشأن إقامة أقاليم مستقلة تتمتع بحكم ذاتي مثل إقليم أرمينيا وبونطس وكردستان، ومحاولات استهداف سلامة أراضي الدولة العثمانية ووحدةها، وقد استند عبد الحمید في اتّخاذ هذا القرار على الحق الذي يكفله له الدستور، وفي الوقت الذي علّق فيه العمل بالدستور أمر باستمرار

مجلس الأعيان المعين أعضاؤه من قِبَلِ السلطان، والذي لا يملكُ أيّة صلاحيات حقيقية في الحياة الإدارية والتنفيذية، وكانت الكلمات التي قالها المستشار الألماني "بسمارك" (*Bismarck*) تنطبق تمامًا على حال مجلس النواب العثماني حيث قال:

"إنَّ حكمَ شعبٍ يتألَّف من قومياتٍ وأديانٍ ومذاهبٍ شتى عن طريق المشروطة يُعدُّ كارثةً كبرى، فالمجلسُ يُضَيِّرُ أكثر مما ينفع ما لم تكن الدولة تَجْمَعُ أُمَّةً واحدةً وتتألَّف من شعبٍ واحد (ذات وحدة قومية مشتركة بين الجميع)".

وبعد تفعيل وقف إطلاق النار بين الجانبين كانت روسيا ترغب في الاستفادة القصوى من كونها الدولة المنتصرة عند عقد الاتفاقية مع الدولة العثمانية، وفي الثالث من مارس/ آذار عام (١٨٧٨ م) أُبرمت معاهدة "سان ستيفانو" التي أملت شروطها القوّات الروسية المتمركزة في بلدة "يشيل كوي" بإسطنبول، وقد فقدت الدولة العثمانية بموجب التوقيع على تلك الاتفاقية التي حملت شروطاً مجحفة وكارثية أجزاء كبيرة من أراضيها في القوقاز والبلقان، وأُجبرت على تقديم تنازلات سياسية وعسكرية بالإضافة إلى دفع تعويضات كبيرة عن الحرب.

وخلال زيارة البطريرك الأرمني "نارسس" (*Narses*) للقائد الروسي "نيكولا" (*Nikola*) في مقر قيادته بـ"يشيل كوي" طلب منه نيابة عن البطريركية أن تتدخل روسيا لمساعدة الأرمن من أجل إقامة إمارة "أرمينيا المستقلة" في شرق الأناضول، فكان هذا المشهد مثيّرًا للدهشة نظرًا لأن الشخص الذي اضطلع بهذا الأمر هو أحد أتباع الدولة العثمانية، وكان عبد الحميد يتابع كل هذه المحاولات عن قرب.

وربما كان لدى الروس الجرأة على احتلال إسطنبول في ذلك الوقت، إلا أن عبد الحميد أعاق هذا الأمر بمناورة غاية في الذكاء والدهاء، فحينما وصل الجنود الروس إلى "يَشِيلْ كُوي" اقترح الباشاوات على السلطان قائلين:

"يجب أن نتقل إلى "أسكودار" (Üsküdar) يا مولانا".

ولكن عبد الحميد ردَّ على هذا الأمر قائلاً:

"فلتذهبوا أنتم إلى أيِّ مكانٍ تريدونه أما أنا فلن أبرح مكاني هذا فإذا قدر الله لي أمراً سأراه حتماً!".

ثم أصدر تعليماته إلى "فؤاد باشا" لتشكيل الألوية العسكرية سرّاً في إسطنبول، ولم يكن الروس على علم بهذا الأمر؛ إذ لو اطلَّعوا على هذا لكانوا سيحاولون دخول إسطنبول، ومن ناحية أخرى التقى عبد الحميد بالفائد الروسي نيقولا - عن طريق الوسطاء - وتمكن من إقناعه بالهدنة.



اتباعه سياسة متوازنة في العلاقات الدولية

استغل عبد الحميد موقف الدول الأوروبية المعارض لاتفاقية "سان ستيفانو" استغلالاً جيداً؛ فقد كانت تلك الدول قلقةً للغاية من تزايد النفوذ الروسي وعلى الأخص إنجلترا التي كانت ترى أن روسيا تشكل خطراً عظيماً على تأمين طريق مستعمراتها في الهند، وقد ارتأى عبد الحميد منذ اليوم الأول لتوليّه سدة الحكم أن مصلحة البلاد تقتضي اتباع سياسة متوازنة في العلاقات الدولية، فاتفق مع إنجلترا التي كانت تعارض النفوذ المطرد لروسيا ووصولها إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط، وبموجب هذا الاتفاق تمّ تجميد معاهدة "سان ستيفانو" بشرط منح حق إدارة قبرص إلى إنجلترا بشكل مؤقت.

وفي الرابع من حزيران/يونيو (١٨٧٨م) صدّق عبد الحميد الذي استنفذ جميع الطرق الدبلوماسية للاتفاق المتعلق بمنح إنجلترا حق إدارة جزيرة "قبرص" وذلك بعد أن حصل على ضمانات بألا تُمسّ حقوق سيادة السلطان العثماني بأيّ ضرر، وعلى الرغم من أن إنجلترا لم تقدم للدولة العثمانية الدعم اللازم الذي وعدتها به خلال مؤتمر "برلين" الدولي المنعقد في الثالث عشر من تموز/يوليو (١٨٧٨م) فقد استعادت الدولة العثمانية جزءاً من الأراضي التي فقدتها خلال "حرب ٩٣" بموجب معاهدة "برلين"، وحال هذا الأمر دون سيطرة روسيا على كافة مقدّرات الدولة العثمانية.

وقد مهّدت التطورات التي وقعت في قبرص الطريقَ أمام الدول الاستعمارية الأخرى للمضيّ قدماً في هذا الاتجاه؛ فكانت لدى النمسا أطماع في البوسنة والهرسك، وفرنسا في تونس، وإنجلترا في مصر، وخلال السنوات التي أعقبت "حرب ٩٣" احتلّت إنجلترا مصر عام (١٨٨٢م)، واحتلّت فرنسا تونس عام (١٨٨١م)، وفُقدت تلك الأراضي خلال السنوات الأولى لحكم عبد الحميد.

وبعدما أحكم عبد الحميد سيطرته الكاملة على حكم البلاد حاول أن يتفادى الصدام مع أية دولة أخرى؛ حيث اتّبع سياسةً خارجيةً دقيقة للغاية جوهرها التوازن في العلاقات مع الجميع، ولم يعد القرار الأخير في السياسة الخارجية في يد "الباب العالي" كالسابق، بل انتقل إلى قصر يِلْدِيزَ ممثلاً في شخص السلطان عبد الحميد.

وقد أنشأ عبد الحميد مقرّاً جديداً داخل قصر "يِلْدِيزَ" من أجل إعادة تأسيس السياسة الخارجية الثابتة والمتوارثة من جيل إلى جيل، وبدأ يتابع يوماً بيوم كل ما يحدث في العالم من أحداث وتطوّرات من خلال هذا القصر، وتبنّى سياساتٍ واضحةٍ ووضع نصب عينيه أهدافاً محدّدةً تتمثّل في خلق حالةٍ من الاستقرار والسلام في الدولة، وأن تحلّ الاتفاقات الاقتصادية محلّ الاتفاقات السياسية حتى يتمكن من النهوض بالدولة العثمانية عسكرياً واقتصادياً من جديد، وكان التقارب في المجالات الاقتصادية مع دولة كالألمانيا المعارضة كلاً من روسيا وفرنسا وإنجلترا الذين يحتلون العديد من الدول الإسلامية، ويحاولون محو الدولة العثمانية من صفحات التاريخ دليلاً على دهائِه وحنكته السياسيّة.

ونتيجة للسياسات التي تبناها والإجراءات التي اتّخذها عبد الحميد فشلت ألعيب الدبلوماسية الغربية وفسدت مخططاتهم، ولهذا السبب أطلق عليه المجتمع الأوروبي لقب "السلطان الأحمر" (*le sultan rouge*).

لم تكن أيّة دولة في تلك الفترة تتقدّم سياسيًا بالاعتماد فقط على القوة العسكرية والجغرافية السياسية؛ وكان عبد الحميد يُدرّك تمامًا ما تقوم به الدول الكبرى في ذلك الوقت من تقوية شوكتها وزيادة نفوذها بشكل أكبر عن طريق عقد تحالفات سياسية فيما بينها وفقًا لمصالحها، فكان يتحرّك وفقًا لهذا المنظور آخذًا في الاعتبار هذا التوازن الدقيق في العلاقات والمصالح.

وبعدما أُغلق مجلس النواب أحكم عبد الحميد سيطرته الكاملة على إدارة وحكم الدولة العثمانية التي كانت تتعرّض لمخاطر الانهيار وشبح التمزيق، وبهذا انتهى عصر المشروطية الأولى في الدولة العثمانية بعد تجربة قصيرة لم تثمر عن شيء.

وفي واقع الأمر لم تكن الدول الكبرى تؤيّد افتتاح مجلس النواب العثماني دعمًا لمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكن لتمكّن من التدخل بشكل أكبر وأسهل في شؤون الإدارة والحكومة عن طريق نواب المجلس من الأقليات الذين يسعون لخدمة مصالح تلك الدول؛ فقد كان نواب الأقليات في المجلس يقومون بمحاولات وجهود تهديد وحدة الأراضي العثمانية عبر التعاون والتواصل مع الدول الأوروبية، حيث ظهر في ذلك الوقت بعض النواب يطالبون بضرورة التخلي عن جزيرة "كريت"، و"تصاليا" (*Teselya*)، و"يانا" (*Yanya*) لصالح اليونان، وآخرون يقترحون تشكيل دولة "أرمينيا" المستقلة، وكانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية التي تستخدم داخل المجلس منذ أولى جلساته في حين لم يكن خمسون بالمائة من النواب يتحدثون اللغة التركية كلغة أمّ، وربما لو كان هذا المجلس هو المكلف بعقد اتفاقية "برلين"؛ لكان من المحتمل إقامة دويلات جديدة من رحم الدولة العثمانية في الشرق الأوسط والأناضول

مثل "صربيا" في البلقان، و"رومانيا" و"قره داغ"، ولهذا فقد عبّر المستشار الألماني "بسمارك" عن موقفه تجاه تلك الاتفاقية بعبارات واضحة قائلاً:

"نحن لم نعقد معاهدة "برلين" من أجل الدولة العثمانية، ولكننا نتواجد هنا لأنّ معاهدة "سان ستيفانو" ليست في صالح الدول الأوروبية".

واستمرّ المشهد السياسي الذي تحددت ملامحه مع إغلاق مجلس النواب عام (١٨٧٨م) على نفس الوتيرة لمدة ثلاثين عاماً وحتى إعلان المشروطة الثانية عام (١٩٠٨م)؛ فقد حُكمت الدولة العثمانية حكماً فردياً منذ ذلك الحين وحتى عام (١٩٠٨م)، وفُرضت بعض القيود على الحياة السياسية والصحفية خلال فترة الحكم الفردي لعبد الحميد الذي اتخذ موقفاً مناوئاً لما ظهر من تيارات وحركات فكرية في تلك الفترة كانت تبني شعارات لإنقاذ الدولة وتحريرها على نحو لا يتفق وما كان ينتهجه هو في سبيل ذلك، كما نفى عبد الحميد بعض الأدباء والمفكرين بحجة أن الموضوعات التي يتناولونها في أعمالهم ومؤلفاتهم والأساليب التي يستخدمونها تُحرّض على العصيان والتمرد.

وبالرغم من كل هذه الإجراءات لم يتمكن من القضاء على محاولات مؤيدي نظام المشروطة، فمع بداية القرن العشرين ظهرت احتجاجات بقيادة جمعية "الاتحاد والترقي" مطالبةً بالانتقال مرة أخرى إلى حكم المشروطة، ولم تكن الدولة قادرة على التصدي لحركات التمرد المتزايدة التي اندلعت في البلقان؛ فطالب المعارضون لسياسة عبد الحميد بإعلان المشروطة، وأنه لا سبيل لإنقاذ البلاد سوى الملكية الدستورية.

وقد وصفت جمعية "الاتحاد والترقي" وجمعية "ترکيا الفتاة" (Jön Türkler) فترة حكم عبد الحميد بـ"عصر الاستبداد"، فهناك العديد

من الأسباب التي جعلتهم يُطلقون هذه التسمية على فترة حكمه؛ فعقب إغلاق مجلس النواب عام (١٨٧٨م) أنشئ للمرة الأولى في تاريخ الدولة العثمانية جهاز مخابرات يعمل على نطاقٍ واسعٍ في كافة أرجاء الدولة، وإن جاز التعبير كان عبد الحميد يعرف كل الأحداث الجارية في البلاد بفضل تلك المخابرات، فقد كان ذا شخصية شكاكة إلى حدٍ كبيرٍ، وربما تسببت الروايات البوليسية الشهيرة "شارلوك هولمز" التي كان يقرأها باهتمام بالغ وحادثة استشهاد عمه عبد العزيز الذي اغتيل في ملابس غامضة في ازدياد مخاوفه وشكوكه ولجؤه إلى إنشاء هذا الجهاز ومواقفه بشكل عام خلال تلك الفترة.

وبالطبع لا يمكن تجاهل تأثير الحادثة التاريخية المعروفة بـ "حادثة جراغان" التي وقعت في العاشر من مايو/أيار (١٨٧٨م)؛ حيث قامت إنجلترا بعدما شعرت بالقلق إزاء سيطرة عبد الحميد الكاملة على زمام الحكم بتحريض "علي سعاوي" -أحد منتسبي جمعية العثمانيين الجدد- من أجل تهريب "مراد الخامس" وإعادة تنصيبه مرة أخرى سلطاناً للدولة، وتعيين "مدحت باشا" في منصب الصدارة العظمى، كما أنه من الضروري ألا يُغفل وصول الجيش الروسي في تلك الفترة إلى مشارف مدينة "شيل كوي" واتخاذه إياها مقراً لقواته إثر هزيمة الدولة العثمانية في "حرب ٩٣"؛ فطبقاً للهدنة التي عُقدت بين الجانبين كان للجيش الروسي الحق في اقتحام تلك المدينة لحماية الرعايا المسيحيين إذا حدثت أية أحداث طارئة في المدينة.

كان "علي سعاوي" موالياً للإنجليز مثل "مدحت باشا"، كما كان يرتبط بعلاقات وثيقة مع مهاجري البلقان، وقد استفاد "علي سعاوي" ذو الطبيعة الميالة للعنف من الحالة المعنوية للمهاجرين، واستخدمهم

فی تنفیذ "اقتحام جَرَاغان" الذی دُبِّر من أجل تهريب السلطان السابق "مراد الخامس" من القصر، وقد كان "علي سعاوي" يؤمن تمامًا بأنه لا سبيل لإنقاذ الدولة العثمانية وتحريرها إلا بمساعدة الإنجليز.

وكان "علي سعاوي" يتلقَّى دعمًا ماديًّا من "مصطفى فاضل باشا" الأمير المصري الذی یرعى أعضاء جمعية "تركيا الفتاة" في أوروبا ويتكفَّل بهم، علاوة على أنه كان متزوجًا من سيدة إنجليزية.



اقتحام "جِراغان"

وقد سمح لـ"علي سَعاوي" كباقي أعضاء تركيا الفتاة بالعودة إلى أرض الوطن خلال السنوات الأولى من حكم السلطان عبد الحميد؛ حيث عاد "علي سَعاوي" إلى إسطنبول بعد تسع سنوات من مغادرتها، وبعد عودته عَمِلَ مديراً لمدرسة "غَلَاطَة صَرَائِي" مدّةً من الوقت، وبعدها قام عبد الحميد بعزله من هذا المنصب مما جعله يُكْرَهُ شديداً له ويُناصبه العداء البالغ.

وقد أعدَّ "علي سعاوي" خطةً للقيام ببعض الأعمال المخزية بالتعاون مع بعض المتمرّدين؛ إذ هجم على "قصر جِراغان" من ناحية البرّ والبحر، إلا أنّ محاولة الانقلاب المؤسفة هذه أُجْهَضت على إثر تدخل "حسن باشا" قائد شرطة "بَشْكَطَاش" في الوقت المناسب، وخلال الاشتباكات التي وقعت أثناء تلك الحادثة قام حسن باشا بضرب "علي سعاوي" بعضاً على رأسه فأرداه قتيلاً، كما قُتل على يدِ الحرس ثلاثة وعشرون من منقّذي الهجوم، وعلى إثر هذه الحادثة أغلقت جريدة "بَصِيرَت" نهائياً؛ فقبل وقوع هذا الهجوم بأيام قلائل كتب "علي سعاوي" عدّة مقالاتٍ بتلك الجريدة حتى إنه أشار إلى نيّته القيام بهذا الهجوم في إحدى مقالاته التي كتبها قبل الحادثة بيوم واحد، وقد مهّدت تلك الحادثة الطريقَ أمام تطبيق الرقابة على الصُحف.

كان "حسن باشا" قائد شرطة "بَشْكَطَاش" ضابطاً متطوّعاً يتمتّع بشخصيّة جادّة وكريمةٍ وصادقةٍ، وقد كان يضعُ توقيعهُ على شكل الرقمين العربيين (٧—٨) وبينهما خطٌّ، وذلك أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ولهذا فقد اشتهر بلقب "حسن باشا (٧—٨)".



قصر "يلديز"

فضَّلَ عبد الحميد خلال سنوات حكمه التي تجاوزت ثلاثين عامًا الإقامة في قصر "يلديز" الواقع على تلال "بَشْكَطَاش" واتخاذَه مقرًّا للحكم بدلًا من قصر "دُولْمَا بَاهْجَه" الواقع على شاطئ البوسفور، وقد انتقل للإقامة في هذا القصر في السابع من أبريل/نيسان عام (١٨٧٧م).

وقد أغلق عبد الحميد مجلس النواب عام (١٨٧٨م)، وعلّق العمل بالدستور بنقله مقرَّ الحكم من "الباب العالي" إلى هذا القصر لمدة محدّدة، وشيئًا فشيئًا عزَّزَ من إشراف القصر على النظام الإداري والوظيفي في الدولة، وحتى لا يلقي مصير عمّه عبد العزيز وأخيه مراد كان يتوخّى أقصى درجات الحيلة والحذر، وكان من الضروري أن يتبع سياسة كهذه في ظلِّ ظروف تلك الفترة إعلاءً لمصلحة البلاد، ولم يكن أمامه سوى تطبيق المركزية في الإدارة في كافة أرجاء البلاد؛ فلم يعد هناك دبلوماسيون كبار ممن يملكون الآراء السياسية والتحليلية الحكيمة التي ترسم السياسة العالمية وتحدّد مستقبل الدولة وحاضرها، حيث كانت قوى وجماعات الشرِّ المختلفة التي ترغب في الهيمنة على الدولة العثمانية تسعى لتحقيق ذلك الهدف وتحتجّن الفرصة للانقضاض على الحكم.

إنَّ عبد الحميد لم يكن إنسانًا معاديًا للحريّات العامّة ولا مستبدًّا بفطرته، ولكن الحوادث العظام التي وقعت عام (١٨٧٨م) هي التي دفعته لإقامة وتعزيز الحكم الفرديّ، فلو لم تكن ظروف تلك الفترة بهذا الشكل ولو لم يكن مضطرًّا لمواجهة أعدائه منذ الأيام الأولى لحكمه لربما كان ممكنًا تخفيف تلك الإجراءات الاضطرارية كالرقابة على الصحف،

واستخدام صلاحية النفي، وتشكيل جهاز المخابرات مما كان يُثير حفيظة الشعب، ويشكل مادة دسمة لمن يرغبون في تشويه صورته أمام الرأي العام، وربما لم يلجأ لمثل هذه الأساليب من الأساس، كما أنه اضطر لعزل ونفي رجال الدولة الفاسدين ممن لم يكن يُجدي معهم أي نصح ولم يتخلوا عن فسادهم وإفسادهم.

وبعدما انتزع عبد الحميد العديد من صلاحيات الحكومة، ونقل الأعمال التي كانت تتم في "الباب العالي" إلى قصر "يِلْدِيز" ازدادت الأعمال الحكومية الروتينية داخل هذا القصر أكثر من ذي قبل، وبهذا أصبح "يِلْدِيز" مقرًا رسميًا للإدارة بدلًا من "الباب العالي".

وفي تلك الأثناء انتقل الوزراء والوكلاء ورجال الدولة والخدم والموالي المقرَّبون من السلطان للإقامة في أماكن في محيط قصر "يِلْدِيز"، كما أنشأ في محيط قصر "يِلْدِيز" -الذي شهد على العديد من الأحداث المهمة خلال الفترة الممتدة من الحكم العثماني وحتى عصر الجمهورية- العديد من المباني؛ منها معسكرات "أورخانية" و"أزطغر" ومباني الشرطة التي يترأسها "حسن باشا" المتوفى عام (١٩٠٥م) قائد شرطة بشكطاش وأحد الشخصيات التي تركت أثرًا كبيرًا في تاريخ إسطنبول.

كما أمر عبد الحميد بتأسيس مركز للمعلومات في قصر "يِلْدِيز" بهدف متابعة الأحداث السياسية العالمية والتطورات العسكرية والصحافة الدولية عن كثب، فكانت المنشورات التي تصدر في الصحف الخارجية حول الدولة والشعب العثماني والتقارير التي تصل إلى القصر من القنصليات الخارجية تُجمَع في هذا المركز، ثم تُقيَّم وتُصنَّف لتُعرض على السلطان، وقد اكتسب أرشيف "يِلْدِيز" الذي يحوي مجموعات من الوثائق تعود إلى عصر عبد الحميد أهمية كبيرة للغاية ليس لسنوات حكم

عبد الحمید فحسب، بل لأنه مصدرٌ مهمٌ للغاية لا يزال یحفظُ أسرارَ التاریخ العثماني، وسینفضُ الغبار عن الكثير من الحوادث الغامضة ویفكُّ طلاسَمَ العدید منها.

وقد كان عبد الحمید یهتمُّ اهتمامًا كبيرًا بالتشاور وتبادلِ وجهات النظر مع الشخصیات الأكفاء وعلى الأخصّ في مجال السياسة الخارجية، وقد كانت كلُّ دولةٍ ترغبُ في الحصول على النصیب الأكبر في الدولة العثمانية نظرًا لما تملكُهُ من موقعٍ إستراتيجيٍّ وامتلاكها حقول البترول والمعادن، ولكن تطبيق تلك السياسة الموجهة لم یكن أمرًا یسیرًا ألبتة، فقد كان عبد الحمید یحاول أن یستفید من تضاربِ المصالح بین تلك الدول، فكان دائمًا ما یُغذّي روحَ التنافس بینها ویتحركُ طبقًا للتوازنات الدولية.

وحتى یخلق توازنًا في العلاقات لمواجهة روسيا وفرنسا وإنجلترا كان یتقاربُ مع ألمانيا التي كانت تسیر نحو قَمَّةِ نموها وتقدُّمها الاقتصادي والعسكري یومًا بعد یوم، علاوةً على أنه كان یستخدِمُ الخلافَ كسلاحٍ تهديدٍ في وجه تلك الدول الثلاث التي تملك مستعمراتٍ یعيش بها كثيرٌ من السكان المسلمين، وقد عبر الدبلوماسیون الغربیون عن السياسة التي اتَّبعها السلطان عبد الحمید في تلك الفترة؛ حيث كانت الدول الاستعمارية الكبرى تبتلع الدول الصُّغرى وتحاول محوَّها من الخريطة بقولهم "كان عبد الحمید الثاني یُجيدُ مصارعةَ الذئاب".

كان عبد الحمید یعملُ على تدعيم العلاقات ومَدِّ جسورِ التواصل مع المناطق الجغرافية التي لا تتبع لسلطةِ الدولة العثمانية وتعيش فيها أعدادٌ كبيرة من المسلمين مثل آسيا الوسطى وتركستان الشرقية وإفريقيا، وبفضل تلك السياسات أصبح صاحبَ كلمةٍ مسموعةٍ، وحازَ مكانةً كبيرةً في شتى بقاعِ العالم الإسلامي.

إن التطوّرات الجديدة التي حدثت على الساحة السياسية العالميّة مع نهاية القرن التاسع عشر كانت تنعكس بلا شكّ على الدولة العثمانية مباشرةً، فبعد إجراء الانتخابات العامة في إنجلترا جاءت النتيجة بهزيمة حزب "المحافظين" المؤيّد لوحدة الأراضي العثمانية، وترأس السلطة حزب "الأحرار الليبرالي" الطامع في تقسيم الدولة العثمانية، وترأس هذا الحزب اللورد "جلادستون" (Gladstone) صاحب السياسات المتشدّدة، حتى إنه صعد ذات مرّة منصّة مجلس اللوردات ويده نسخة من القرآن الكريم، وذكر في معرض حديثه تلك الكلمات التي علّق في الأذهان:

"إذا لم نأخذ وننتزع هذا الكتاب من يد الأتراك أو لم نتمكن من إبعادهم عنه وقطع صلّتهم به فلن يمكننا هزيمتهم أبداً".

كان "جلادستون" يرغب في أن يفرض هيمنته وسيطرته على كامل أراضي الدولة العثمانية وعلى رأسها مصر من أجل تأمين الطريق إلى مستعمرات بلاده في الهند، وكان يقول:

"إنه لا يمكن للأتراك حلّ المسألة الشرقية إلا بالتخلي عن أوروبا بكامل سلاحها ونفوذها وقوتها".

كما أن "جلادستون" يُعبّر على رأس من كانوا يُحرّضون الأرمن بشدّة من أجل الثورة ضد الدولة العثمانية.

وقد حقّقت سياسته إنجلترا الدقيقة التي اتّبعتها في مصر في تلك الفترة نجاحاً كبيراً؛ حيث أثقل رجال الأعمال الإنجليز والرأسماليون الغربيون مصرَ بالقروض والديون والأعباء الماليّة الزائدة، ونتيجة لذلك حصلوا على امتيازات كبيرة في مصر ممّا جعلها تقف فريسةً للاحتلال الإنجليزي عام (١٨٨٢م)، إلّا أنّ احتلال إنجلترا لمصر لم يكن وضعاً

شرعياً ولا قانونياً لأنها كانت تابعة للدولة العثمانية، ولم تعترف أيّة دولة باحتلال إنجلترا لمصر.

وخير دليل على هذا هو التطوّرات التي حدثت لدى وصول الأميرالاي (العقيد) "رشدي باشا" في الخامس عشر من فبراير/شباط عام (١٩٠٦م) برفقة كتيبتين من الجيش إلى "العقبة" الواقعة شمال شرق البحر الأحمر، ومن ثم إلى "طابا" بناءً على الأوامر الصادرة من عبد الحميد، حيث طالبت إنجلترا التي حشدت جنودها وحركت أسطولها في البحر المتوسط في "مالطا" تجاه مصر بضرورة إخلاء الجنود العثمانيين المنطقة خلال عشرة أيام، إلا أن عبد الحميد رفض هذا الطلب قائلاً:

"هل سأخذ الإذن من حكومة إنجلترا من أجل إرسال الجنود إلى إحدى ولاياتي".

ونتيجةً للمحادثات التي عُقدت بين الوفد المصري والعثماني تقرّر بقاء مدينة طابا تحت السيادة المصرية ومدينة وميناء العقبة تحت السيادة العثمانية، وبهذا منع السلطان عبد الحميد الإنجليز من احتلال منطقة العقبة التي ازدادت أهميّتها الإستراتيجية مع إنشاء مشروع سكك حديد الحجاز.

أقام عبد الحميد علاقات متوازنة مع إيطاليا وألمانيا لمواجهة أطماع روسيا وفرنسا وإنجلترا في الدولة العثمانية، فقد كان عازماً بذكاؤه الحادّ وبُعد نظره على هزّ عرش إنجلترا في مصر وباقي مستعمراتها، فكان يتبع سياسة متوازنة في العلاقات الدولية، وكان يعرف مَنْ هم أصدقاؤه ومَنْ هم أعداؤه، ويدرك تماماً أفكارهم وسياساتهم، كما كان يُنفق الكثير من الأموال من أجل عمل حملات دعائية معادية لبريطانيا العظمى في مصر والسودان مستغلاً مقام الخلافة وكونه خليفة المسلمين لتحقيق هذا

الهدف، كما كان يُعزّزُ من قوّة الحاميات العسكرية الموجودة في شبه جزيرة سيناء ومضيق إيران.

حتى إن الثورات القوميّة التي قامت في الجزائر وأفغانستان وتونس كانت نتاجاً لمجهوداته، كما كان رجالُ الخليفة يغذونَ روح العداء ضدَّ الإنجليز وأطماعهم لدى الحجاج القادمين إلى الحجاز من الهند وأفغانستان ووسط آسيا وتركستان الشرقية، وكان عبد الحميد يأمر بإرسال وفود من الشيوخ والسادات وال دراويش، ويصطحبون نسخاً من المصحف الشريف، وكتباً دينيّة إلى تلك المناطق بهدف تقوية فكرة الاتحاد الإسلامي وتعزيز نفوذ الدولة العثمانية والقضاء على تأثير الدول الأوروبية فيها، غير أنّه كانت هناك مشكلة مهمة تتمثل في قلة عدد رجال العلم المتميزين بعلمهم والمطلعين على ظروف تلك الفترة والملمين باللغات الأجنبية.

الاتحاد الإسلامي

لا شك أن سياسة الاتحاد الإسلامي التي تبناها عبد الحميد، فضلاً عن اتباعه سياسة متوازنة ومتغيرة تجاه الدول الأوروبية، تعتبر أحد أهم الجوانب التي تميز فترة حكمه وأكثرها استمرارية؛ فقد اتخذ قراراً بأن تتبنى الدولة سياسة الاتحاد الإسلامي التي تستند على استخدام مقام الخلافة كسلاح فعال في وجه الدول الاستعمارية التي تمتلك مستعمرات يعيش فيها ملايين المسلمين، وكقوة فاعلة تسهم في الارتقاء بأخلاقيات المسلمين، وفي سبيل هذا كان لا بد للدولة أولاً من أن تعيش في سلام وأمان بعيداً عن الانقسام وأن تكون قوية من الداخل.

كان عبد الحميد يؤمن بأن الدولة العثمانية دولة إيمانٍ ودينٍ وأنها ستظل كذلك فإذا انهار هذا الوعي الديني ستهز الدولة، كما كان يُدرِك أن الأشياء التي يمكنه فعلها -بوصفه خليفة- هي في الحقيقة محدودة جداً، لهذا لم يستخدم هذه القوة مطلقاً كسلاح عدائي تحريضي ولكنه استخدمها كسلاح ردع وتهديد، وفضّل أن يستغل هيبة مقام الخلافة على الساحة السياسية الخارجية للحفاظ على عزّة الإسلام والمسلمين، كما أولى اهتماماً كبيراً بإحياء الأوقاف والمؤسسات الإسلامية، وأكد على ضرورة الاستفادة من القوة المعنوية لمقام الخلافة بأقصى درجة، وأنه لا بد وأن يتقدّم لقب الخلافة على لقب السلطنة فهذا اللقب سيمكنه من تحريك المسلمين في كل العالم بكلمة واحدة، وبدأت مسألة الخلافة مشكلة كبرى تهدد الإنجليز الذين يخضعون لحكمهم مائة وخمسين مليون مسلم في آسيا، حتى إنهم أثاروا مسألة اختيار خليفة آخر من داخل العالم الإسلامي بغية إضعاف سياسته هذه وتحطيم مقام الخلافة،

ونشروا أخباراً عن الخليفة الجديد بواسطة عملائهم السريين المتخفين في زي رجال الدين والمنتشرين بين العامة، وعلى نحو آخر كان الإنجليز يثيرون النعرات العرقية والنزعات القومية بين العرب ويحرّضونهم ضدّ الدولة العثمانية، وقد أدرك عبد الحميد تلك الأنشطة السريّة للإنجليز؛ فكان يولي أهميّة كبيرةً للولايات العربية التابعة للدولة العثمانية ويكافئ حكامها الأكفاء البارزين.



علاقة الصداقة بين عبد الحميد والإمبراطور الألماني

وقد ربطت صداقة وطيدة بين عبد الحميد والإمبراطور الألماني "فيلهلم (Wilhelm) الثاني" ونتيجة لذلك فقد تَطَوَّرَت العلاقات العسكرية والسياسية مع ألمانيا، ويَتَضَحُّ هذا الأمر في زيارة الإمبراطور الألماني للعاصمة العثمانية مرتين خلال عامي (١٨٨٩م) و(١٨٩٩م)، فكانت ألمانيا التي تأتي متأخرة في سباق الدول الاستعمارية ترى أنَّ الدولة العثمانية هي الأنسب لها من الناحية الاقتصادية كسوقٍ لترويج منتجاتها، وعلى ضوء تلك العلاقات قال "فيلهلم الثاني" في خطاب له أثناء زيارته للقدس: "إنَّه صديق للمسلمين وحليفٌ مقربٌ لهم"، كما كان الكتاب والمفكرون الألمان يباركون هذا التقارب الروحي بين البلدين ويؤيدونه عن طريق كتاباتهم ومقالاتهم التي تشيد بالأتراك وتمتدحهم في الكتب والمجلات المحليّة.

وقد استقبل عبد الحميد الإمبراطورَ الألمانيَّ بحفاوةٍ بالغَةِ عند رصيف قصر "دُولْمَا بَاهْجِه" المغطّى بالسجاجيد الحمراء خلال كلتا الزيارتين، كما استقبلت بنائه الإمبراطورة الألمانية بالورود، فتعرفت الإمبراطورة بسيدات القصر واحدة تلو الأخرى، وقد تأثرت كثيراً بالاستقبال الحارّ وكرم الضيافة المنقطع النظير الذي لقيته في إسطنبول، كما لم تمنح من ذاكِرتِها طوال حياتها مراسم الاستقبال الرسمي التي أُقيمت من أجلها تحت أضواء الشمعدانات الفضيّة والمصابيح والثريات، وكدليلٍ على عمقِ الصداقة والمودّة بين عبد الحميد والإمبراطور أهداهُ عبد الحميد حديقته الخاصة الواقعة على سواحل "طرايا" والتي كان قضى بها فترة من طفولته.

كان السلطان عبد العزيز قد أهداه جوسق "طرابيا" الخشبي في فترة سابقة، ومنذ ذلك الحين بدأ شغفه بالقوارب والرحلات البحرية؛ فكان يستخدم المراكب الشراعية للتنزه في البحر خلال شهور الصيف على مدار خمس أو ست سنوات.

وفي أحد الأيام دعاه عمه عبد العزيز إلى نزهة في البوسفور على متن السفينة السلطانية برفقة الأمراء، وخلال تلك النزهة مرّت السفينة أمام جوسق عبد الحميد، فطلب السلطان "عبد العزيز" أن يُلقِي نظرة على هذا الجوسق فبادره عبد الحميد قائلاً:

"إن زيارتكم لجوسقي شرف كبير بالنسبة لي، وإذا سمحتم سأنزل أنا أولاً لأمر بعمل التجهيزات لتشريفكم".

فنزل إلى الشاطئ على متن زورق صغير، ثم ذهب إلى الجوسق بالسيارة، ولما وصله أمر بإعداد وتجهيز واجبات الضيافة والاستقبال لعمه، وبعد قليل وصل السلطان إلى الجوسق وأبدى إعجابه الشديد به، وشاهد أيضاً الحيوانات التي يربّيها ابن أخيه، ثم تنزه في حديقة القصر، إلا أنه لم يعجبهُ القصر المبنّي بالأخشاب، وطلب أن يعاد بناؤه بالحجارة، ولكن عبد الحميد انزعج من هذا الأمر نظراً لأنه لا يحب البناء بالحجارة، وبالرغم من طرحه وجهة نظره بأن القصر الخشبي أفضل إلا أنه لم يتمكن من إقناع السلطان، وبعد عدة أيام جاء الخبر بضرورة إخلاء القصر، وبالفعل هُدم القصر في ذلك الحين، ولكن لم تتم إعادة بنائه مرة أخرى فظل على حالته هذه، وعندما ارتقى عبد الحميد العرش بسنوات قدّم هذه الأرض إلى ألمانيا على سبيل المجاملة اللطيفة كي تُنشئ عليها سفارة لها، وفي عام (١٨٨٥م) قام المعماري البلجيكي "جنارا (Cingra)" بإنشاء مباني صيفية تابعة للسفارة الألمانية على أراضي تلك الحديقة التي أهداها

عبد الحمید للإمبراطور الألماني، كما أهدي الإمبراطور الألماني لعبد الحمید سبیل مِیاه ذا قباب يعرف بین الناس باسم "صناییر ألمانيا"؛ ويقع فی میدان السلطان أحمد، وقد بُني هذا السبیل فی ألمانيا ثم نُقل ورُكِب فی مكانه فی إسطنبول خلال زیارة الإمبراطور لها عام (١٨٩٩م).

* * *

كان قصر "بَکْلَرَبَکِی" يحتوي على مكتبة متواضعة، وذات يوم سأل السلطان عبد الحمید عما إذا كان "دیوان السلطان جَم (Cem)" موجوداً فی المكتبة أم لا؟ وعندما علم بعدم وجود هذا الديوان الذي كان أمر بطبعه طباعةً فاخرة عام (١٩٠٤م)، وإرسال نسخة منه إلى كُلِّ من إنجلترا وألمانيا وأمريكا طلب أن يحضروا نسخة منه؛ فبقدر ما كان عبد الحمید یحبُّ السلطان محمد الفاتح كان أيضاً یحبُّ ابنه السلطان "جَم" كثيراً، وكان یحزن حزناً شديداً كلما تذکر أنه توفّي بشكل مؤلم بعيداً عن وطنه. كان عبد الحمید شغوفاً جداً بشؤون الطباعة والنشر، حیث أمر بإحضار ماكينات الطباعة الحديثة إلى تركيا، وطبع الآثار الديوانية المختارة وإرسال بعض النسخ منها إلى الدول الغربية، كما أمر بترجمة المئات من الكتب فی مختلف المجالات وتوزيعها مجاناً، وإهدائها إلى الطلاب فی حفلات التخرج.

وخلال الأربعة عشر عاماً الأولى من حکم عبد الحمید طُبِع ونُشِرَ حوالي أربعة آلاف کتابٍ من بینها مائتا کتابٍ دينيٍّ، وكانت أغلب الكتب التي تمت طباعتها باللغات الأجنبية هي الكتب الفرنسية، حیث كانت الفرنسية هي اللغة السائدة فی ذلك العصر، ومن إحدى المزايا التي تُذکَر لعبد الحمید أنه كان یجيدُ الفرنسيةَ إلا أنه لم یکن يتحدثُ بها، وكان یستعين ب مترجمٍ فی مقابلاته مع المسؤولين الفرنسيين.

كان أيضًا يهتم كثيرًا بالعلوم المختلفة من السياسة إلى الفن ومن العلوم الشرعية إلى العلوم الطبيعية، ويدعو رجال العلم الأجانب والكتّاب سنويًا إلى إسطنبول ويمنحهم الأوسمة والنياشين والهدايا، كما كان يمتلك بمكتبته الخاصة بعض الكتب المتعلقة بالاحتلال الفرنسي وموسوعة "لاروس" الشهيرة التي نُشِرت في ذلك الوقت بالإضافة إلى بعض الكتب المتعلقة بالأمراض المعدية (الوبائية)، فقد أمرَ بترجمة هذه الكتب بعد انتشار وباء الكوليرا في إسطنبول عام (١٨٩٢م) واتخاذ التدابير اللازمة لمكافحتها، وكافأ "لويس باستير" (*Pasteur*)، ومنحه النيشان العثماني المرصع ذا المرتبة الأولى بعدما أرسل مساعده "شانتيمز" (*Santimes*) بناءً على طلب عبد الحميد أثناء مكافحة الوباء، كما أثنى على "شانتيمز" ثناءً كبيرًا وأغدق عليه الهدايا.

وقد أمر عبد الحميد بترجمة العديد من الكتب المنشورة في أوروبا بخصوص الحرب الروسية اليابانية التي نشبت مع بدايات القرن التاسع عشر، وكانت ترجمة الكتب تتم داخل مكتب الترجمة الذي أُُنشئ خصيصًا في قصر "يُلدِيز" وكان يضم ستّة مترجمين كانوا يُترجمون أيضًا الكتب الخاصة بالسلطان عبد الحميد مساءً في منازلهم بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية، وفي المقابل كان السلطان يمنحهم الأموال نظير هذا العمل، أما المثير في الأمر فهو وجود ترجمات خاصة بعبد الحميد فقط في مكتبة "يُلدِيز"، وكان يطلب أن تُقرأ عليه هذه الأعمال التي قام المترجمون بترجمتها خصيصًا له؛ فكان يُنصتُ بعنايةٍ وانتباهٍ كبيرين.

ويُخطئ من يظن أن عبد الحميد لم يكن يعرف شيئًا عن الأحداث الخارجية أو عما يدور حوله بسبب عدم خروجه من القصر والحديقة المحيطة به، فقد كان شغفهُ واهتمامهُ بالكتب عمومًا وكتب الجغرافيا

وفنّ التصوير وكتب الرحلات والرحالة خاصّة؛ يجعله يشاهد ما يدور في العالم وهو جالس في مكانه، بل إنه كانت لديه معلومات دقيقة ومفصّلة عن أماكن لم يزرها أو يزرها من قبل، وكانت قراءة الروايات البوليسية على رأس هواياته، وكان يتابع ما يصدر منها على الساحة العالمية بشغف بالغ، حتى إنه كان يرسل التلغرافات إلى السفارات الموجودة في "برلين" و"لندن" و"باريس" لطلب بعض الكتب ومعرفة بعض المعلومات، كما كانت مكتبة "يلدیز" تحوي قسمًا خاصًا بالروايات البوليسية الفرنسية المترجمة.

ومع بدايات القرن التاسع عشر وخلال الأيام التي تلت إعلان المشروطية الثانية أمر عبد الحميد بترجمة احترافية للعديد من الروايات البوليسية الأجنبية الشهيرة إلى اللغة العثمانية مثل روايات الكاتب "سير آرثر كونان دويل" (*Sir Arthur Conan Dolye*) (بطله الشهير: شارلوك هولمز)، و"موريس لوبلان" (*Maurice Leblanc*) (بطله الشهير: أرسين لوپين/الضّ الضيف) وغيرهما من الكتاب المشهورين آنذاك كاملة، ونتج عن هذه الترجمة مجموعات قيّمة جدًا من الكتب.

حتى إنه خلال زيارة الكاتب "كونان دويل" وزوجته إسطنبول عام (١٩٠٧م) التقى بهم السلطان عبد الحميد، وتوطدت العلاقات بينهما، فأهدى السلطان عبد الحميد نيشان المجيدية لـ "كونان" ونيشان "شفقت" لزوجته.

كان عبد الحميد مولعًا بالروايات الجنائية والبوليسية إلى حدّ كبير؛ حتى إنه ذات مرة قرأ في إحدى الروايات المترجمة عن الإنجليزية أن إصبع الإبهام يكون أطول لدى القتلة بشكل خاص بحيث يصل إلى العقلة الثانية في إصبع السبابة، وقد دفع هذا الأمر عبد الحميد إلى أن

يأمر بالتقاط الصور لكل القتل في السجن ليتحقق من هذا الأمر بنفسه، وبالفعل وجد أن إصبع الإبهام لديهم جميعاً كان طويلاً إلا أن شكل الأيدي يختلف من شكل لآخر ولا يُشبه بعضها البعض.

وقد فقدت معظم تلك الروايات البوليسية القيمة أثناء أعمال النهب التي لحقت بقصر "يلديز" بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد من العرش، وعلى الرغم من حادثة النهب المفزعة هذه التي لحقت بالقصر إلا أنه تم إنقاذ قرابة ستمائة رواية بوليسية مترجمة ترجمة خاصة ومكتوبة بخط اليد ولا يوجد منها سوى نسخة واحدة، ويوجد خمسمائة وخمس من هذه الروايات البوليسية في مكتبة جامعة إسطنبول بينما توجد أربع وستون رواية في أرشيف الرئاسة.

كان عبد الحميد يقضي من ساعتين إلى ثلاث ساعات يومياً بعد الظهر في مكتبة "يلديز" الخاصة، وقد وصل به عشقه للمكتبة أنه كان يجري بعض مقابلاته الرسمية بها أحياناً، وبخلاف الروايات البوليسية كان عبد الحميد يقوم بقراءة الكتب التاريخية وغيرها من الكتب المتنوعة التي كان يداوم على قراءتها في المكتبة خلال ساعات النهار، وبعد تأديته صلاة العشاء كان يخلد إلى الراحة إلا أنه كان لا بد وأن يقرأ كتاباً بنفسه أو يطلب من نديمه أن يقرأه عليه قبل نومه.

وفي الليالي التي لم يكن يتواجد بها عبد الحميد بالـ "حرمك" كان "عصمت بك" -أخوه من الرضاة ومسؤول الملابس- أو "أمين بك" يقرؤون عليه الكتب، وأغلبها من الروايات البوليسية، وقد كان يعتمد كثيراً على "عصمت بك" الذي ينحدر من عائلة عريقة، ويوفر له كل سبل الراحة، وفي المقابل لم يكن "عصمت بك" يستغل اعتماد السلطان عليه وثقته فيه بشكل سيء، وفيما بعد كان "الحاج محمود أفندي" أو كاتب

الشفرة الخاصة "عاصم بك" هم من يقرون عليه الكتب، وقد داوم عاصم بك على قراءة الكتب لعبد الحميد ليلاً إلى أن وافته المنية، وكان عاصم بك يستغرق في القراءة للسلطان ليلاً حتى يشير له عبد الحميد قائلاً: "كفى، فلتستريح"، وفي بعض الأحيان كان يواصل القراءة حتى يستغرق السلطان في النوم ثم يخرج من الحجرة في هدوء تام، ثم يأتي الخازن دار الثاني فيغلق الباب، وقد أوضح عبد الحميد سبب تفضيله الاستماع إلى الروايات البوليسية ليلاً قائلاً:

"كانت هوايتي ومتعتي الرئيسة هي الاستماع إلى الموسيقى، والعمل في ورشة النجارة الخاصة بي، ولم أكن أشعر بأي تعب أو إرهاق وأنا أقوم بهذه الأمور، وعلى الرغم من أنني عشت حياةً مفعمةً بالحيوية والنشاط خلال فترة شبابي فإنني أجد نفسي الآن تتأبني حالة من الاسترخاء والهدوء، وإن هذه الروايات البوليسية تُشبه الأغاني التراثية الهادئة التي تُحكى للأطفال فهي تساعد على النوم بسهولة، وتذهب عني التعب فكنْتُ أستمعُ حتى نصفها وفي النصف الآخر أكونُ قد استغرقتُ في النوم، كما أنني لم أكنُ أدعهم يقرؤون لي الكتب الفكرية التي تثيرُ الفكرَ حتى لا يطيّر النومُ من عيني".

كان عبد الحميد دقيقاً جداً بخصوص الكتب، وكان "عصمت بك" بعد انتهائه من قراءة كل كتاب يقرؤه للسلطان يدوّن خلف الكتاب ملاحظاته موضحاً في أي تاريخ انتهى من قراءة هذا الكتاب للسلطان، وكان عبد الحميد يُفضّل النوم أثناء قراءة الكتب له إلا أنه لم يكن مغرمًا بالنوم كثيراً، فقد كان يعمل بقصر "يلدیز" حتى ساعات متأخرة من الليل، كما أنه لم يكن يمانع في أن يتم إيقاظه من نومه في أي وقت إذا كان هناك أمرٌ يتعلّق بمسائل الدولة المهمة، بل إنّه يأمرُ بإيقاظه من النوم على الفور إذا استدعت الضرورة.

كانت مكتبة قصر "يلديز" الفريدة تتكوّن من أربعة أقسام رئيسة تحتوي على كتبٍ متنوّعةٍ جُلِبَتْ من جميع أنحاء العالم، حيث يوجد بها العديد من الكتب القيمة باللغات الأجنبية تتعلق بالجغرافيا والتاريخ العثماني، وقد أمر بترجمة هذه الكتب -التي كُتِبَ بعضها بخط اليد- ترجمة خاصة من خلال دفع حقوق التأليف الخاصة بالمؤلفين، كما كانت مكتبة "يلديز" تتلقى كلّ الصّحف والمجلات الهامة والمنشورات الدورية التي تصدر في أوروبا حيث يتمّ فحصها والاطلاع عليها، ثم تُحفظ في الأرشيف.

كان عبد الحميد يطلب من موظّف المابين "أمين بك" أن يقرأ له خلال ساعات النهار بعض الآثار التاريخية المهمّة، وكان يستمع إليه بعناية؛ فقد كان يحظى بتقدير السلطان وإعجابه؛ فلديه مقدرة فائقة على الترجمة الفورية من الفرنسية إلى التركية بشكلٍ سلسٍ وسريع، ولذا كان عبد الحميد يطلب منه أن يتواجد بجانبه خلال عمله بالمكتبة وخلال مراسم تحية الجمعة، وبينما يتواجد السلطان في المسجد كان يكلف ابنه الأمير "برهان الدين" بأن يقدّم التحية لبعض السفراء الأجانب، ويطلب من "أمين بك" أن يُرافقه ويكون إلى جواره.

وكانت الروايات والقصص التي تُترجم من أجل قصر يلدیز يسمح بقراءتها في جناح الحريم، وبعدما تنتقل هذه الكتب من يد إلى أخرى كانت تُعاد وتُسلّم إلى المكتبة، وكانت المكتبة تضمّ قسمًا خاصًا بالآثار العربية والفارسية، ومما لا شك فيه أنّ أقيم تلك الآثار هي المخطوطات التي ترجع إلى عصور تاريخية قديمة، حيث كان يوجد بها بعض الدواوين والمخطوطات والكتب القيمة التي لا تُقدّر بثمنٍ وترجع إلى عهد الفاتح؛ فعلى سبيل المثال كانت هذه المكتبة تضمّ كتبًا لمعلمي السلطان محمد الفاتح العلامة "آق شمس الدين" و"مولا جوراني (Gürâni)".

ومن المؤكد أنَّ مَنْ لم يعرف قيمةَ شخصيّةِ عبد الحمید لا يُنتَظَرُ منه أن يُقدِّرَ قيمةَ مكتبتهِ الفريدةِ من نوعها، فخلالَ عمليةِ نهبِ قصر "يلدیز" أراد الكثير من ذوي الرُتبِ والمسلحين الاستيلاء على تلك المكتبةِ الزاخرة بالآثار والمؤلفات القيّمة، إلا أنَّ "صبري بك" رئيس المسؤولين عن الكُتبِ بالقصر تصدّى -على الرغم من عدم وجود أيٍّ من الحرس- لعصابات البلقان الموجودة داخل جيش الحركة بشجاعةٍ قائلاً:

"لن تتمكّنوا من الدخول إلى هنا إلا بعد أن تُمزقوني إرباً إرباً".

وبموقفه النبيل الشجاع هذا استطاع "صبري بك" أن ينقذ المكتبةَ من هؤلاء اللصوص.

كان عبد الحمید يهتمُّ اهتمامًا كبيرًا بالمكتبات؛ فقد ساعدَ على النهوض بالعديد من المكتبات الوقفيّة، لذا كان كثيرًا ما يُشيد بما قام به "صبري بك" حتى في غيابه، وقد أُسِّسَتْ في عهدهِ "المكتبة العثمانيّة العامة" التي تُعرفُ بـ "مكتبة بايزيد الحكومية"، وزُوِّدَتْ بثلاثةِ آلافِ كتابٍ، وهي تحتوي على ما يُقَرَّبُ من عشرةِ آلافِ مخطوطة.

جامع "بَكْلَزْبَكِي"

كان عبد الحميد عادةً ما يستيقظ مبكرًا خلال إقامته بقصر "بَكْلَزْبَكِي"؛ حيث كان يجد في ساعات الصباح الجوّ الهادئ الملائم الذي يُشجّع على التفكير والتأمل، وكان صوت الأذان بجامع "بَكْلَزْبَكِي" المتواجد بالقرب من القصر يصل إلى غرفة نومه الواقعة بالطابق الأول بجناح الحريم في الناحية المطلّة على المسجد.

وفي صبيحة أحد أيام الربيع سمع عبد الحميد من حجرته صوت مؤذن عذب يرفع الأذان لصلاة الفجر، فقام من فراشه بعد أن سمّى الله واتجه ببعض الخطوات نحو نافذة حجرته حيث يمتزج صوت الأذان العذب بأمواج البحر، فقد كان بإمكانه رؤية المسجد والمؤذن من شرفة غرفته من بين الأشجار الواقعة أمام نافذته، وعندما كان يشاهد هذا المسجد الرائع الذي يحظى بموقع مميز بين المباني الممتدة على الساحل وما فيه من دقة الصنع والزخرفة خطرَ على باله مؤسس المسجد السلطان عبد الحميد الأول والسلطان أحمد.

كان السلطان عبد الحميد الأول قد أمر عام (١٧٧٨م) ببناء جامع "حميدية الأول" المعروف بين العامة في إسطنبول باسم جامع "بَكْلَزْبَكِي" تخليدًا لذكرى وفاة والدته "رابعة شَرْمِي سلطان"، وقد أنشئ هذا المسجد بنفس مكان البردة الشريفة في قصر "إِسْتَفْرُوز" القديم بعد أن تمّ هدمه.

وقد أنشئت في عهد الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين" كنيسةً على ساحل البحر بمنطقة "بَكْلَزْبَكِي" التي كانت تُعرف قديمًا باسم "إستفروز"، ووُضِعَ عليها صليبٌ كبير، أما في العهد العثماني وتحديداً في عهد

السلطان أحمد الأول فقد أنشئ فوق الأراضي الواسعة التي تضم قصر "بیلر بئی" في الوقت الحالي قصر خشبي يُعرف بقصر "إستفروز"، وكان السلطان "أحمد الأول" مؤسس مسجد "السلطان أحمد" (المسجد الأزرق) يحب هذا القصر للغاية حتى إنه أمر بنقل "البردة الشريفة" إليه لدى زيارته إياه.

كان السلطان أحمد الأول على قدر كبير من التدني؛ حيث أمر بصناعة قالب من الذهب لآثر قدم النبي ﷺ، وكان يفتخر بحمل هذا الأثر على رأسه في الأعياد والمناسبات، حتى إنه في الأوقات التي كان يأتي فيها إلى قصر "إستفروز" كان يحضر معه البردة الشريفة -بردة الرسول ﷺ المحفوظة داخل صندوق ذهبي بقصر "طوب قابي" - إلى قصر "إستفروز"؛ لأنه لم يكن يقوى على فراق المتعلقات الخاصة بالنبي ﷺ، كما أمر أيضًا بإنشاء غرفة خاصة للبردة الشريفة بقصر "إستفروز" وبصناعة صندوق من الفضة لوضع به البردة أثناء نقلها إلى هذا القصر.

وبعد هدم قصر "إستفروز" أمر السلطان عبد الحميد الأول ببناء مسجد "حميد الأول" بنفس مكان غرفة العبادة الشريفة وفاءً لروح أمه "رابعة سلطان"، وأن يلحق بالمسجد حمام ودار للمواقيت، وقد زينت الحوائط الداخلية لهذا المسجد باللوحات الخزفية العثمانية والأوروبية التي تعود لفترات متفاوتة كي تمنح منظرًا رائعًا جذابًا، وعلقت بقبته ثريا كريستالية غاية في الجمال، كما أن المنبر وكرسي الوعظ في هذا المسجد يختلفان في صناعتهما عن نظيريهما في المساجد الأخرى للسلطين؛ حيث زينّا بالصدف واللؤلؤ المصنوع في إسطنبول.

ويعتبر مسجد "بكلربكي" الواقع على شاطئ البوسفور واحدًا من الآثار العثمانية التي لا تُقدّر بثمن، وعندما أنشئ هذا المسجد كان يضم

مئذنةً واحدةً فقط إلى أن أمر السلطان محمود الثاني -ابن عبد الحميد الأول مؤسس المسجد- بإضافة مئذنة أخرى وقاعة ملكية (ركن ملكي) ومدرسة للجامع تخليداً لروح جدته.

كان السلطان عبد العزيز يذهب من قصر جراغان إلى جامع "بكلزبكي" بالقوارب السلطانية لأداء صلاة الجمعة وإلقاء التحية على الشعب، وكان في بعض الأحيان أيضاً يصطحب معه البردة الشريفة إلى هذا الجامع.

إن روعة البناء والزخارف وجمال المآذن في هذا المسجد وألوانه التي تبهّر العيون توحى وكأنه قصر أنشئ من أجل امرأة، وفي الحقيقة لم يكن تشييه الشاعر الأشعة المنعكسة على الماء من القناديل المعلقة بالمآذن بجواهر تتلألأ فوق الماء إلا وصفاً دقيقاً وتشخيصاً للواقع.

إسطنبول في عهد عبد الحميد الثاني

وبينما كانت منطقة "بَيْلَرُبَيْ" تنعم بالهدوء والسكون في تلك السنوات كانت منطقة شبه الجزيرة التاريخية وعلى الأخص حي "أمين أونو" (Eminönü) تعجُّ بالحركة والنشاط، ولم يكن عبد الحميد قد رأى تلك الأماكن منذُ زمن، والحقيقة أنه كان شغوفًا بأحوال هذه المنطقة ومتغيّراتها، فمع بداية القرن العشرين كانت إسطنبول تحافظُ تمامًا على هويّتها العثمانية على الرغم من المتغيّرات التي حلّت بها؛ فقد كانت منطقة شبه الجزيرة التاريخية المحاطة بالأسوار من ناحية البر والبحر تمثل الهوية الإسلامية لإسطنبول؛ حيث يوجد بها الكثير من المساجد الكبيرة والصغيرة على رأسها مسجد السلطان أحمد، وآيا صوفيا، والفتح، والسلمانية التي تنطلق مآذنها بالأذان خمس مرات في اليوم، وكانت أحياء محمود باشا، و"أمين أونو"، و"بايزيد" والسوق المغطى أهمّ مراكز التجارة بها حيث كانت مختلف البضائع تأتي إليها من أنحاء الدولة العثمانية كافة.

أما نواحي "عَلْطَة" و"بَيْ أُوغْلُو" و"شيشلي" فكان يسكنُ فيها الكثير من الروم واليهود والأرمن، وتمثّل هذه المناطق الوجه الأوروبي من إسطنبول؛ حيث كان راغبو الأناقة يقصدون محل "ماير للملابس" بـ"عَلْطَة"، أما مكتبة "زويتش" (Zewich) فلم تكن مكانًا لبيع الكتب فحسب؛ بل كانت أيضًا مكانًا لعرض اللوحات الفنية وبيعها، ووجهة مهمة للفنانين من كلّ مكان.

كما تُذكرُ اللوحات الزيتية الأكثر قيمةً وجمالاً من بعضها البعض المصنوفة بانتظام ومهارة على جدران قصر "بِكَلَرْبَكِي"؛ تُذكرُ عبد الحميد

برسام القصر "فاوستو زونارو" (Fausto Zonaro)، وقد كان عبد الحميد على علم بلوحاته حتى قبل أن يُصَبِّحَ رسامُ القصر؛ فلوحته الشهيرة المسماة "هجوم" تسببت في شغف السلطان وتطلُّعه إلى رؤية المعرض الدائم الذي افتتحه زونارو في ورشته في حي "أقاراتلر" (Akaretler)، وعلى حين كان زونارو يحاول أن يقول للموظف القادم من القصر: "زيارة صاحب الحِشْمَةِ والعِظْمَةِ شرفٌ كبيرٌ بالنسبة لي"؛ أشكته الموظف قائلاً: "هل تنتظر أن يأتي عظمته وفخامته إلى معرضك ويتجوَّله؟ ألا تعلمون أنه يخرج من القصر مرةً واحدةً في العام فقط فيذهب إلى "الخرقة الشريفة" كي يتبرَّك بها؟"، وأبلغ نفس الموظف أيضاً زونارو بما يجب فعله؛ إذ سُنِّقِلَ لوحة "هجوم" وغيرها من الرسوم إلى القصر، ثم تُعاد مجدداً إلى المعرض بعد أن يشاهدها جلالته السلطان.

وقد تسببت اللوحة المسماة "فوج فرسان أرطغرل فوق الجسر" التي رسمها زونارو عام (١٩٠١م) في قبوله رسماً للقصر، وكان عبد الحميد مهتماً حتى النخاع بأن تعود الدولة العلية إلى سابق عهدها وقوتها وأيام مجدها؛ فكان يُنفذ العديد من الاستثمارات والمشاريع الواسعة الشاملة في مجالات التعليم والمواصلات والاتصالات حتى يستطيع تحقيق هذه الغاية المثالية، وكي يُحيي ويُعشِّه الهياج والحماس الذي كان في السنوات الأولى من تأسيس الدولة العثمانية؛ جلب التركمان من قصبة "سويوت" - حيث عاش أرطغرل غازي أبو عثمان غازي ودُفِنَ هناك - إلى العاصمة، وأمر بتشكيل فوج فرسان أرطغرل.

إنَّ السلطان عبد الحميد الذي تربى على حبِّ جدِّه السلطان محمد الفاتح طلب من الرسام "زونارو" (Zonaro) أن يرسم لوحةً فنيَّةً تتعلَّقُ موضوعها بـ "فرسان أرطغرل" شريطة أن تكون جميع الخيول ملوَّنة

باللون الأبيض، ولكن اللوحة قبل تقديمها إلى السلطان مرّت بفحص سريع من قبل "منير باشا" الصديق المقرب لـ "زونارو" وأكثر شخصيات القصر أدبًا ورقّةً، وبعدما رأى "منير باشا" هذه اللوحة التي كانت تحوي رسمًا لفرسان أرطغرل وطفل صغير عاري القدمين يُمسك بيد أمّه طلب من "زونارو" إجراء بعض التغييرات عليها حيث قال:

"إن السلطان عبد الحميد لا يحب الفقر مطلقًا، ولا يُمكنه أن يتخيل أن هناك أناسًا حفاةً، ألا يمكنك أن تجعل هذا الطفل يرتدي حذاء جميلًا".

ولكن "زونارو" رفض هذا الاقتراح، ولم يقبل بأي تغيير في اللوحة، وقدمها إلى السلطان كما هي، فلما رآها السلطان أبدى إعجابه الشديد بها. وبعد ذلك بفترة طويلة حضر رئيس المجلس الفرنسي "م. باولو ديستشنال (M. Paul Deschanel)" إلى إسطنبول بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء عبد الحميد العرش، وقد أقيمت مراسم احتفال بهذه المناسبة لم يُر مثلاً من قبل.

وقد أقيمت مراسم الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لجلوس السلطان عبد الحميد الثاني على العرش هذا العام في جوسق "شاله (Şale)" المبني داخل حديقة قصر يلدیز، ويُعتَبَر هذا الجوسق مقرًا خاصًا بالعلاقات الخارجية حيث كان السلطان عبد الحميد يستضيف فيه ممثلي الدول الأجنبية ويُقدِّم لهم وجبات الضيافة، وقد شارك بهذا الاحتفال النواب والوزراء وكبار القادة وشيخ الإسلام والبطاركة وكبير الحاخامات والسفراء، وبعدما قُدِّم إلى الضيوف ما لذ وطاب من الطعام إكرامًا لهم انهالت الهدايا على السلطان عبد الحميد من كل جانب، فتلقّى الهدايا من رؤساء وملوك الغرب والشرق والوجهاء والوزراء والأمراء والأميرات

وحتى من أبنائه وزوجاته ومواليه، وبعد انتهاء الحفل عرض عبد الحميد تلك الهدايا على أسرته، وقد حافظ على تلك الهدايا الثمينة القيّمة في القصر باعتبارها ملكاً للشعب إلا أنّها نُهبَت أثناء عملية نهبٍ وسلبٍ ما في قصر "يلديز".

وبعد تناول الطعام في جَوْسَق "شاله" كان عبد الحميد يقومُ بجولةٍ مع رئيس المجلس الفرنسي "م. باولو ديستشنال" في معرض اللوحات الذي أعدّه بقصر يلدِيز، وبينما كانا يتجولان وقَفَ باولو منبهراً أمام لوحة "زونارو" التي سُمِّيت بـ"فوج فرسان أرطغرول فوق الجِسْر" فأبدى إعجابه الشديدَ بها قائلاً:

"يا لها من لوحةٍ رائعة!".

وعندما سمع عبد الحميد هذه الكلمات قال له على الفور:

"إذا فهي لك!".

وقد عبر "باولو" رئيس المجلس الفرنسي عن عميق شكره وامتنانه لهذه اللقطة الطيّبة من السلطان.

وفي اليوم التالي أرسل عبد الحميد هذه اللوحة إلى السفارة الفرنسية، إلا أنّه حين رأى مكانها في المعرض فارغاً استدعى "زونارو"، وطلب منه إعادة رسم هذه اللوحة من جديد، لكنّ "زونارو" هذه المرّة أخذ في اعتباره ملاحظات منير باشا التي ذكرها له من قبل؛ فأجرى بعض التغييرات على اللوحة؛ إذ استغنى عن الطفل عاري القدمين وعن الغجريات والبُذو، واستبدلهم برسم رجالٍ من إسطنبول في غاية الأناقة، علاوة على أنّه أضاف إليها رسمَ نفسه وزوجته، وقد نقلت هذه اللوحة في السنوات التالية من قصر "يلديز" إلى قصر "دُولْمَا باهْجَه".

أصبح "زونارو" رسّامَ القصر إلا أنه لأسبابٍ ما لم يتمكن من رسم صورةٍ للسلطان عبد الحمید؛ إذ قيل له أن هذا الأمر ممنوع، ولأنه لم يستطع أن يفهم سبب هذا المنع فقد أراد أن يريح باله من التفكير في هذا؛ فكتب رسالةً إلى السلطان عبد الحمید عبّر له فيها عن رغبته في رسم صورةٍ له.

وبينما كان عبد الحمید يسترخي في غرفته بقصر "بُكْلَرْبَكِي" صباحًا بعد أداء صلاة الفجر في ظل أجواء الربيع الصافية الهادئة، تذكّر رسالة "زونارو" فارتسمت على وجهه ابتسامةٌ خفيفةٌ، والحقيقة أن "زونارو" استطاع بأسلوبه الذكيّ وبتلك العبارات التي ذكرها في خطابه إقناع عبد الحمید برسم صورته، حيث ذكر في خطابه:

"إن جدّك العظيم السلطان محمد الفاتح استدعى الرسّام البندقي "جنتيلي بليني (Gentile Bellini)" إلى قصر إسطنبول بواسطة دبلوماسي جمهورية البندقية كي يرسم صورته، وأنا أيضًا من أهالي البندقية، وفي خدمتكم دائمًا؛ فأرجو من فخامتكم إظهار الرضا والقبول عن طليبي".

وقد قبل عبد الحمید طلب "زونارو" بالفعل؛ فأمره خلال إعلان المشروطة الثانية أن يرسم صورته بثلاثة أوضاع مختلفة، وقد وقف السلطان عبد الحمید في الصورة الثالثة بضع دقائق فقط، وبالتالي ظهر وجهه مقطب الحاجبين يبدو عليه القلق.

ولم تكن أعمال "زونارو" تقتصر على الأعمال التي يطلبها منه السلطان فحسب؛ فقد رسم لوحة للدراويش وشيوخ الطريقة الرفاعية لأنه كان يعلم بمحبّة السلطان عبد الحمید لهذه الطريقة، غير أنّه في تلك اللوحة رسم رجلًا يُصلي خلف الشيخ وطلابه، وكان "زونارو" سعيدًا جدًا بلوحيته هذه، إلا أن "كامل بك" -أحد شعراء ذلك العصر- حين رأى

تلك اللوحة أثناء زيارته "زونارو" في ورشته إذ كان ما زال يعمل على رسمها، وسأله "زونارو" عن رأيه فيها صارحه برأيه فيها قائلاً:

"لا يُمكنُ أبداً أن يؤدّي أيُّ مسلم الصلاة والناس يقفون أمامه، أعتقدُ أنَّك لا تريد أن ترسم صورة مضحكة وغريبة كتلك التي رسمها الرسام الفرنسي "جيروم" (Gerome)! فقد قام "جيروم" برسم الأحية أمام المصلّين وهم يؤدّون صلاتهم، وكأنه يريد تصويرنا نحن المسلمين على أننا لا نصلي إلى الله بل إلى الأحية، كان هذا أمراً سخيفاً بالنسبة لنا، فكلّما رأينا هذه اللوحة يتبنا الضحك والسخرية، ونعتقد بأن ذلك الرسام أراد أن يقدم كاريكاتيراً مسيئاً عن ديننا..."

وأمام جواب "كامل باشا" هذا شَعَرَ "زونارو" بالخجل، ولم ينبس ببنت شفة، وشرع بعد مغادرة كامل باشا في مسح هذه اللوحة بعد أن كان سعيداً جداً بها قبل مجيئه.

كانت مواكب الصُرة تُنظّم إلى الحجاز دون أيّ تأخير على مرّ قرون عديدة لدى العثمانيين؛ حتى صارت تقليداً ثابتاً لديهم، فكانت تُرسل فيها أستار الكعبة والكسوة الشريفة السوداء التي تُسدّل على الكعبة من خارجها والستر الداخلي الأحمر، وأستار الروضة المطهرة الخضراء، وكانت الأستار القديمة التي تُستبدل بالحديثة تُجلب كتذكاري، وقد اهتم السلطان عبد الحميد اهتماماً عظيماً بتقليد الصرة في سني سلطنته؛ فلم يخل عليها بدعمه المادّي ولا المعنوي.

كان "زونارو" يرغب بشدة في أن يُشاهد عن قُرب مراسم توديع مواكب الصُرة التي تُنظّم في القصر، وقد أذن له بذلك بعد أن راجع الموظفين المعنّين بهذا الأمر، وكانت مراسم التوديع هذه تتم في حديقة قصر "يلدیز" في ساحةٍ تستطيع أن تتجوّل فيها الإبل التي تحمل سنوياً

هدایا السلطان إلى قبر سیدنا رسول الله ﷺ فی المَدینة المنورة، وقد تابع "زونارو" مراسم تودیع موكب الصرة إلى الحجاز، وفي الأيام التالية لذلك رسم "زونارو" لوحة خاصّة خلّد فیها هذا الحدث التاريخي المهم ثمّ قدمها إلى السلطان، فلم یکتفِ السلطانُ کریّم بإرسالِ الشکر فحسب إلیه هذه المِرّة، بل طلب منه أن یخبره بما یرید أن یكون هدیّته جزاء هذا العمل، وبناءً علیه طلب "زونارو" منحةً دراسيّة لابنه فی مدرسة "غلاطة سراي" الثانویة، وقد لبّی السلطان له هذه الرغبة.

وذات مرّة طلبَ السلطان عبد الحمید من "زونارو" أن یرسم صورةً للسلطان محمد الفاتح أيضًا، فلما انتهى زونارو منها قدمها إلیه بواسطة "عارف بك"، ولكن عارف بك الذي قدّم اللوحة للسلطان خرج من حضرته مرتعشًا یلتقطُ أنفاسه بصعوبة، وسأل زونارو قائلاً: "أین الفاتح؟ ماذا فعلت؟ إن السلطان حین رأى صورةَ الفاتح ظنّ وكأنه رأى صورته هو"، وفي الحقيقة إنّ السلطان عبد الحمید حین رأى اللوحة عبّر عن حیرته متسائلًا: "أهذا هو جدي الفاتح، أم أنّه أنا؟"، فهذا زونارو من روع عاكف بك الذي قدّم علیه قائلاً له: "اهداً یا سیدی!" ثم قال له ما یأتی:

"أبلغوا جلالّة السلطان عبد الحمید أنني درشتُ ملامح السلطان الفاتح ودقّقْتُها من اللوحة الأصلية التي رسمها الرسام البندقي "جنتل بليني" في معرض "لاجارڊ" بالبندقية، فإن كان سلطاننا عبد الحمید یُشبه الفاتح فلا عجب فی ذلك، أليس الفاتح أحدُ أجداده؟".

وقد بدأت النهاية الفعلية لسقوط الدولة العثمانية مع سيطرة الاتّحاديین الكاملة على مقالید الحكم فی البلاد بعد حادثة ٣١ مارس/ آذار وخلع السلطان عبد الحمید؛ فبرغم عوامل القصور والخسائر التي لحقت بالدولة العثمانية صاحبة العظمة والعراقة؛ فقد تعرّضت خلال

العشر سنوات التي أعقبت خلع عبد الحميد وسيطرة الاتّحاديين إلى أحداث جسام وتطوّرات خطيرة لم تشهد مثلها من قبل؛ إذ خاضت حروباً كثيرة نتجت عنها نتائج كارثية وعواقب وخيمة، حيث انهارت الدولة العريقة من جراء الأطماع والأهواء الشخصية لقادة "الاتحاد والترقي" الذين كانوا خاضعين للمحافل الماسونية.

كانت تلك الحقبة قاتمة السواد، مليئة بالمعاناة والحزن إلى درجة أن الحياة فيها تعني الحرب والنضال مع ظروف الحياة السيئة، حيث عمّ الجوع والفقر والبؤس أرجاء البلاد؛ فقد كان الجنود العثمانيون على الجبهة السعودية ينهضون في الصباح الباكر، ويعصرون الأعشاب الصحراوية الخضراء الرطبة والمبلّلة بالندى في مناديلهم، ثم يعصرون تلك المناديل داخل زمزمياتهم وقارورات وزجاجات المياه، ليتقوتوا بها.



حادثة "٣١ مارس/آذار"

أثار زعماء "الاتحاد والترقي" الأجواء بسياساتهم الخرقاء عديمة الخبرة؛ فقد استدعوا "وحدات القناصة" (*Avcı Taburları*) من "سالونيك" إلى معسكر "طاش قشلة" (*Taşkışla*) في إسطنبول كي تساعدهم في الإجراءات التي سيقدمون عليها، وكان قادة هذه الوحدات التي تعرف بـ "حارسة الحرية وحامية المشروطة" ينتمون إلى جمعية "الاتحاد والترقي"، وكان هؤلاء الجنود يفتخرون بأنهم جاؤوا إلى إسطنبول كحماة للانقلاب؛ إذ كانت "وحدات القناصة" تتواجد في إسطنبول كصمام أمان وعنصر توازن وقوة مضادة للقوات الموالية للسلطان عبد الحميد في "يلديز" وما حوله.

وفي الثامن والعشرين من مارس/آذار (١٩٠٩م) تمركزت "وحدات القناصة" في قصر "يلديز" بدلاً من الجنود العرب والألبان الذين أخذوا من القصر بحيلة ذكية ولعبة متقنة، فكان لـ "كتائب القناصة" دورٌ كبيرٌ في تلك الحادثة التي سميت بحادثة "٣١ مارس/آذار"، وكان يوجد في القصر أيضاً "فرقة المعية": "سوغوتلو" (*Söğütlü*) (القوات الخاصة) التي أسسها عبد الحميد من أبناء قبيلة "قارا كجيلي" (*Karakeçili*) القاطنة في نواحي إقليم "سوغوت"، وترتبط هذه الفرقة بالسلطان ارتباطاً وثيقاً، وتدين له بالولاء، وهي المسؤولة عن أمنه وسلامته، وكان قائدها "محمد بك" أقام لسنوات في الغرفة المجاورة لحجرة نوم السلطان، وكان عبد الحميد يخاطبهم قائلاً: "يا أبناء بلدي".

وقد كانت المواقف السلبية لبعض الجمعيات السياسية في المدينة والجرائم البشعة التي حدثت في العاصمة خلال الفترة التي استدعى فيها الاتحاديون الطامعون في السلطة "وحدات القناصة" إلى إسطنبول تزيد المناخ اشتعالاً وتؤجج المشهد بالنار أكثر فأكثر؛ حيث كان الاتحاديون يغتالون معارضتهم دون أي ترددٍ، ويُشيعون مناخ العنف والإرهاب في البلاد، وكان السخط الشعبي يزداد بمرور الوقت؛ فتفشى القلق بين الناس وأخذوا يصبون اللعنات على الاتحاديين، فقد اغتيل "إسماعيل ماهر باشا" في الطريق العام، كما اغتيل "حسن فهمي بك" رئيس تحرير جريدة "سُربستِي" (Serbesti) (الحرية) الذي كان ينتقد جمعية "الاتحاد والترقي" بشدة في السادس والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م) أثناء سيره على كوبري "غلاطة"، كما قُتل الصحفي "أحمد صميمي" في نفس الليلة في "بأعجه قَابي"، ولم يُقبض على أيٍّ من مُنفذي تلك الجرائم.

وقد أبعدت الحكومة تحت ضغط الاتحاديين الضباط غير المؤهلين من الجيش وسرّحتهم، وفَقَدَ العديد من الموظفين أعمالهم بسبب الإجراءات التي تمّت في هيكُل النظام الوظيفي، وقد أسفر هذا الوضع عن ظهور أزمة جديدة تضاف لما كان يجتاح البلاد من أزمات شديدة.

وبالتأكيد كان هناك العديد من العوامل الأخرى التي أدّت إلى وقوع حادثة "٣١ مارس/آذار" -التي لم يكشف عنها النقاب كليّةً حتى الآن- كتصرفات بعض الاتحاديين الذين تبيّن انتماء بعضهم إلى الحركات الماسونية المخالفة للقيم المعنوية للشعب، وكذلك عدم استقرار الأوضاع في "كرت" و"البلقان"، ومعارضة "ميزانجي مراد" (Mizancı) الحادة الشديدة في صحيفته "ميزان" والتي لاقت صدًى واسعاً بين أفراد الشعب، وتعاون "الاتحاد والترقي" مع المخابرات السرية الإنجليزية وبحثهم

عن ذرائع من أجل خلع عبد الحمید عن العرش، وفي تلك الأثناء برزت بعض الصحف والمجلات التي أثارت المشاعر الدينية للشعب ضد الاتحادیین، وحرضت الشعب والجيش على الثورة.

وكان "بديع الزمان سعید التُّوزسي" واحداً من الشخصیات التي عايشت عن قرب تلك الأحداث التي وقعت في العاصمة العثمانية آنذاك، والحقیقة أن التُّوزسي رجل الدعوة والعلم الذي جاء من شرق تركيا إلى إسطنبول عام (١٩٠٧م) وأمضى عمره مدافعاً عن أخوة ووحدة المسلمين والأتراك والأكراد، كان لديه هدف سام يتحرى تحقيقه.

ففي الوقت الذي كان فيه العديد من الشيوخ والمعلمين الأكراد يعرضون أنفسهم ويصطفون ويتسابقون حتى يتمكنوا من الحصول على المنصب والمكانة والذهب والأموال؛ رفض التُّوزسي كل هذا، وطلب من عبد الحمید افتتاح جامعة في مدينة "وان (Van)" لتعليم اللغة العربية والتركية والكردية.

وقد ذكر التُّوزسي أن حادثة "٣١ مارس/آذار" اندلعت وتطوّرت بنسبة تسعة وتسعين بالمائة لمجابهة ظلم واستبداد وانتقام حكومة "الاتحاد والترقي"؛ فالحرية والمشروطة لدى الاتحاديين ما هي إلا حلقة من مسلسل السفاهة والفجور الذي كانوا يتبنّونه، دون مراعاة للحدود والضوابط التي تقتضيها آداب الشريعة الغراء، علاوة على أن الاتحاديين لم يُوفّروا حالة من الاستقرار السياسي بعد سيطرتهم على مقاليد الحكم حيث كانوا يرغبون في أن ينزعوا من السلطان جميع صلاحياته، كما أن بعض إجراءاتهم قُوبلت باستهجان ومعارضة داخل الجيش؛ فقد ظلم الجنود والضباط المتطوعون المؤهلون من خلال تسريحهم من الجيش.

ومنذ إعلان المشروطة وخلال فترة التسعة أشهر التي مرّت حتى تاريخ اندلاع حركة التمرد لم تُبلِ الصُحفُ بلاءً حسنًا، ولم تتعاطَ مع الموقف بشكلٍ جيّدٍ، بل كانت تقوم بالتحريض والإثارة لتزيد الأمور اشتعالًا والطينَ بلاءً، وكانت الجمعيات والأحزاب تعجّ بالفدائيين والمتعصبين المتأهين لأيّ شيء؛ فوسط نشوة النصر تغيرت تصرفاتُ أغلبية من لعبوا دورًا في إعلان المشروطة، وأصبحت تتّسم بالظلم والاستبداد، حتى إن عدوى الحرية المطلقة من القيود المتعارضة مع القيم العسكرية فَشَّتْ بين الجنود، ممّا فتح الطريق أمام تخلُّل الانضباط والنظام العسكري ومبادئ السمع والطاعة داخل الجيش، وفي تلك الأجواء المسمومة والمشحونة قام بعض الأشخاص ممن لا يفهمون صحيح الدين وأحكامه ومفهومه الشامل بِبَذْر بذور الفتنة والشقاق التي تسببت في حالةٍ من الفوضى والاضطراب وهم يحسبون بذلك أنهم يحسنون صنعًا، حيث كانوا يقولون:

"نحن نسير في الاتجاه الصحيح، ونقوم بخدمة الدين ونطالب بالشرعية".

ونتيجة لكل هذا سقطت إدارة الدولة في أيدي بعض الجهلاء الذين ليست لديهم أيّة دراية ولا حنكةٍ سياسيّة، وبالإضافة إلى كل هذا ازدادت المؤامرات وعمليات التحريض التي تقوم بها الجماعات المتطرّفة في الخارج والجماعات السريّة في الداخل من أجل تدمير كيان الدولة.

ونتيجةً لازدياد حالة الفوضى وغياب الأمن والاستقرار وتحريض معارضي الاتحاد والترقي وَقَعَتْ حادثة " ٣١ مارس/آذار" في إسطنبول؛ إذ تسبّبت الاضطرابات والتطوّرات التي حدثت بعد إعلان المشروطة

في زعزعة نفوذ السلطنة والخلافة، وفتحت الطريق أمام شيوع حالة من الفوضى والعصيان.

وفي ليلة الثاني عشر - الثالث عشر من أبريل/نيسان عام (١٩٠٩م) - توافق "٣١ مارس/آذار" بالتاريخ الرومي - أعلن جنود "كتائب القناصة" التي استدعاها الاتحاديون من "سالونيك" إلى إسطنبول لحماية المشروطية حالة التمرد في "طاش قشلة" ضد قادتهم؛ حيث شلّوا حركتهم وجردّوهم من سلاحهم، ثم حبسوهم، وقد تلقى هؤلاء المتمرّدون الدعم من مجموعة صغيرة ترغب في العودة إلى ما قبل إعلان المشروطية وليست لديها أيّة خلفيّة اجتماعيّة، وبعد أن نهب هؤلاء المتمرّدون مخازن السلاح انتشروا في شوارع المدينة، وفي تلك الأثناء ظهر بعض الأشخاص - لا يُعرف من أين جاؤوا؟- يقولون للجنود:

"لا تتوقفوا أيها الأبطال، الشريعة تضع من بين أيدينا!".

وكانت حالة من الاضطراب قد بدأت تعمّ قصر "بلديز" عند منتصف تلك الليلة بعد ورود أخبار من الخارج تفيد بحدوث حركة تمرد، واستدعى السلطان عبد الحميد الكاتب الأول "جواد بك" للوقوف على الحادث واستقيظ الجميع خوفاً وقلقاً؛ حيث كانت تتردّد في القصر عبارات مثل: "الجنود قادمون، الجنود يريدون الشريعة!"، كما كان يسمع دويّ طلقات رصاص، وسيطر الخوف على الجميع، وكان عبد الحميد من ناحيةٍ يتحدث مع الكاتب الأول وموظفي المابين لمحاولة فهم ما يجري، ومن ناحيةٍ أخرى يحاول تهدئة وطمأنة الحريم.

وقد تحدث عبد الحميد في تلك اللحظات وقد أصابه الحزن وارتسم على وجهه الأسى قائلاً:

"لقد حدث ما كنتُ أخشاه، ألم أقل: "إنَّه صراعٌ على المصلحة"، لقد تحقق مراد الأعداء، فقد تمرد الجنود وعصوا الأوامر، وتحولوا لجنودٍ إنكشاريين!".

كانت تلك الكلمات تُلخِّص حقيقةً ما يحدث في العاصمة العثمانية.

حتى إن "الجمعية العلمية العثمانية" التي تضمُّ في هيئتها أكبر علماء تلك الفترة لم تؤيِّد هذا التمرد، وأعلنت أن المشروطية والشورى لا يتعارضان مع أحكام الشريعة الإسلامية، وأقرَّت بمجلس النواب، وفي الحقيقة لم يكن للمعاهد الدينية ولا للشريعة الغراء أيُّ دخل في حركة التمرد هذه.

وعلى الرغم من رفض العلماء لهذا الأمر وعدم رضاهم عنه احتشد في ميدان "السلطان أحمد" الجنود المتمردون الذين قاموا بأعمالٍ شغبٍ هنا وهناك بعد أن انضمَّ إليهم بعض الأفراد من الأهالي والعديد من طلبة المدارس الطائشين الجهلاء، وظلوا يهتفون قائلين: "نريد الشريعة!".

كان هؤلاء المتمردون الذين توجَّهوا إلى مبنى مجلس النواب قرب جامع "آيا صوفيا" يطالبون بعزل الصدر الأعظم "حسين حلمي باشا"، ورئيس مجلس النواب "أحمد رضا بك"، ووزير الحربية "علي رضا باشا"، ونفي الاتحاديين إلى خارج البلاد، وإعادة الضباط المتطوِّعين الذي تمَّ تسريحهم إلى وظائفهم على الفور، والالتزام الصارم بتطبيق أحكام الشريعة في البلاد.

وخلال حالة الفوضى وأعمال الشغب التي وقعت في ذلك الوقت قُتل وزير العدل "ناظم باشا" عن طريق الخطأ، وكان المستهدف بالقتل هو رئيس المجلس "أحمد رضا بك"، كما قُتل عن طريق الخطأ أيضًا الأمير "شكيب أرسلان" (*Şekip Arslan*) نائب المجلس عن اللاذقية،

وكان المقصود هو "حسين جاهد بك"، كما خربت بعض مقار الصحف المحيطة؛ فقد تسببت في تفجر الوضع وحدوث هذا الانقسام الكبير في العاصمة العثمانية تلك الأساليب والأعمال التحريضية والاستفزازية للإدارة عديمة الخبرة والتي كانت تظهر بصور مختلفة يوماً بعد يوم.

وقد كان لحادثة "٣١ مارس/آذار" بالغ الأثر في مجلس النواب؛ حيث لم يذهب النواب الاتحاديون إلى المجلس في تلك الأيام بحجة اضطراب الأوضاع في المدينة ووجود خطر على حياتهم، حتى إن بعضهم هرب خارج إسطنبول، بينما اختبأ آخرون في المدينة؛ إذ كان الضباط والنواب الاتحاديون يتعرضون للهجوم من قبل المتمردين في أي مكان يتواجدون فيه، وعمت حالة من الفوضى وانعدام النظام في أرجاء المدينة؛ ونتيجة لقتل وزير العدل "ناظم باشا" في تلك الفترة العصيبة المعقدة انزلت الأمور إلى منعطفٍ خطيرٍ لا يبشرُ بالخير.

كان عبد الحميد يتوقع حدوث شيء كهذا في أية لحظة بسبب سياسات الاتحاديين، وكان يبذل كل ما في وسعه حتى لا تتفاقم الأمور ولا تنزلق إلى هذا المنعطف الخطير، وقد تلقى برقية من الصدر الأعظم "حسين حلمي باشا" تحتوي على معلومات مفصلة عن حركة التمرد، كما ذهب "علي جواد بك" إلى ميدان "آيا صوفيا" يوم "٣١ مارس/آذار" لمعرفة ما يجري هناك، وشاهد بنفسه حالة هؤلاء الجنود المخدوعين وهم يرددون "الدين يضيع من بين أيدينا"، ثم عاد، وأخبر السلطان بما رأى.

اختارت حكومته "حسين حلمي باشا" طريق التفاهم والتراضي مع المتمردين، حيث قَدَّم أعضاء الحكومة استقالاتهم واحداً تلو الآخر، ولكن المتمردين كانوا يرغبون في عزل "حسين حلمي باشا" وإعادة الضباط المفصولين إلى الجيش مرة أخرى، لذا قام عبد الحميد في أواسط شهر

فبراير/شباط (١٩٠٩م) بعزل "حسين حلمي باشا" من الصدارة العظمى، وعيّن مكانه وزير الخارجية الأسبق "توفيق باشا"، كما تولى المشير "أدهم باشا" قائد انتصار "حرب اليونان" وزارة الحربية، وفي تلك الأثناء أرسل عبد الحميد كاتب الديوان الأول "جواد بك" للتفاوض مع المتمردين، كما أصدر أمراً سلطانياً بأنه سيتم العفو عن المتمردين في حال تراجعهم عن تمردهم، وما لبث أن عاد "جواد بك" بالأخبار المبشرة قائلاً:

"لقد توصّلت إلى اتفاق معهم والحمد لله".

ومع عجز القوّات الحكومية ومجلس النواب عن مواجهة تلك الأوضاع وحلحلة الأزمة الطارئة؛ فقد نجحت المبادرة التي قام بها السلطان حيث هدأت الأوضاع إلى حدٍّ ما؛ إذ كان عبد الحميد يسعى جاهداً لاستعادة السيطرة على الأوضاع مرةً أخرى، حتى إنّه أبلغ الصدر الأعظم "توفيق باشا" عن استعدادِه للتنازل عن العرش لصالح أخيه "محمد رشاد" إذا اقتضت الضرورة ذلك، وذلك رغبةً منه في ألا يلحق بالأمّة والشعب أيُّ أذى بسبب هذه الحادثة، وطلب تشكيل لجنة لتقصّي الحقائق حول تلك الحادثة.

وعلى الرغم من أنّ عبد الحميد كان يرغب في أن يعرف الناس أنه ليس له أيُّ يدٍ في تلك الحادثة، كان يحاول أن يستخدم كلّ نفوذه وإمكانياته من أجل تهدئة الأوضاع وإخماد التمرد؛ فقد تعرّض لسيلٍ من الاتّهامات الظالمة والقاسية بعد حادثة "٣١ مارس/آذار".

والحقيقة أن هذه الحادثة ظلت غُصّةً في صدر عبد الحميد وأبنائه، على الرغم من أن الاتّحاديّين أنفسهم مثل: "طلعت باشا"، و"ابن الأمين محمود كمال إنال" -الذي كُلف لاحقاً بتصنيف أرشيف قصر "يلديز"- و"أحمد رشيد بك" -الذي عمل لسنوات طويلة في سكرتارية المابين

وكان يتولى وزارة الداخلية أثناء حادثة "اقتحام الباب العالي" الشهيرة عام (١٩١٣م) - و"علي رضا باشا" وزير الحرية في ذلك الوقت قد أقروا واعترفوا فيما بعد بأن عبد الحميد بريء من هذه التهمة، وأنه ليس له أي دخل في تلك الحادثة، كما سيتضح بعد ذلك الدور الذي لعبته المخابرات الإنجليزية في تلك الحادثة وكيف أنها استغلت بعض الأشخاص لصالحها، وعلى الرغم من كل تلك الحقائق فهناك من يرون هذا الدليل "مغالطة تاريخية".

وبعد أن أحس الجميع بحالة من الارتياح إثر هدوء الأوضاع وتوقُّف التمرد؛ اندلعت في اليوم التالي حركة التمرد التي لم تُعرف حقيقتها ولا سببها ولا المتسببين بها، إلا أن الحقيقة الواضحة هي أن عبد الحميد ليست له أية علاقة بتلك الحادثة، وإذا كانت هناك إمكانية للاستفادة من هذا الوضع لصالحه فإن السلطان عبد الحميد لم يكن ليتدنى إلى هذا المستوى.

وفي النهاية وحينما لم تتمكن جمعية "الاتحاد والترقي" من السيطرة على الأوضاع ساقطت قوات الجيش الثالث المربطة في "سالونيك" - والتي تعتبر مركز القوة الحقيقي - نحو إسطنبول، وبالإضافة إلى تلك القوات تأسس جيش قوامه خمسة عشر ألف جندي يتألف من عصابات "بلغاريا" و"صربيا" و"الروم" و"مقدونيا" و"ألبانيا" و"يهود سالونيك" من أجل إخماد حركة التمرد التي قامت في العاصمة واستمرت أحد عشر يوماً، وقد كان لحركة التمرد هذه أثرٌ وصدى كبيرٌ في البلقان، وعندما لم تُغلن أية جهة مسؤوليتها عن أحداث التمرد صار عبد الحميد هدفاً سهلاً للمنال.

وفي ليلة السابع عشر والثامن عشر من أبريل/نيسان (١٩٠٩م) استولت طلائع جيش "الحركة" تحت قيادة "حسين حسني باشا" قائد

قوات الرديف في "سالونيك" على محطة قطار "يَشِيلْ كُوي" (Yeşilköy)، ثم جاء "محمود شُوكْتْ باشا" من "سالونيك" إلى "يَشِيلْ كُوي" وتسَلَّم قيادة الجيش، وقد اسْتُدْعِيَ "أنور بك" الذي جاء على الفور من "برلين" إلى "سالونيك" وتولى رئاسة أركان الجيش، ودخل "أنور بك" مع "محمود شوكت باشا" إلى إسطنبول.

ونتيجة لاتفاق الجيش ومجلس النواب المجتمع في "يشيل كوي" على حماية المشروطية، بدأت قوات "جيش الحركة" في ليلة الثالث والعشرين والرابع وعشرين من أبريل/نيسان عام (١٩٠٩م) تتوغَّل في إسطنبول من ناحية "طوب قابي" و"أَدْرَنَه قَابِي"، ولما كان "محمود شُوكْتْ باشا" على معرفة بوجود وحدات خاصة في إسطنبول تدين بالولاء للسلطنة ولمقام الخلافة؛ فقد أرسلَ برقيةً إلى القصر وكذلك إلى "الباب العالي" أكدَّ فيها أن هذه الخطوة ليست موجَّهة ضدَّ السلطان أو مقام الخلافة، كما شدَّدَ رئيس المجلس "أحمد رضا بك" بشكلٍ صارمٍ على النواب بضرورة ألا يردِّدوا كلمة "الخلع" على ألسنتهم إلى أن تتم السيطرة على الوضع بالكامل قائلاً: "حينما يأتي وقت الحديث عن هذا الأمر سأخبركم" وهو يقصد بذلك ذكر الخُلْع.

وقد استولى جيشُ الحركة الذي كان يُحكِّم سيطرته على المدينة تدريجيًّا على مخافر الشرطة الواقعة في طريقه، كما قَتَلَ بعض رجال العلم والزهاد الصالحين ممن صادفهم في الطريق، والحقيقة أن التنظيم الحقيقي لحادثة "٣١ مارس/آذار" لم يكن له قائد ولا قاعدة ولا فكر مباشرٌ وصريحٌ، ثم احتلَّ جيشُ الحركة وزارةَ الحربِ بعد ذلك، ولم تصمد المقاومة التي وقعت في معسكر "تقسيم" و"طاش قشلة" ولا صراعات الشوارع أمام قذائف مدافع جيش الحركة التي استهدف الأبنية

بشكلٍ مباشر، واستسلم المتمردون، فقد كان يحدث قتالٌ ومصادماتٌ بين أفرادٍ وعناصر الجيش، وكانت أصوات المدافع تُدَوِّي بكلِّ قوَّة في كافَّة أرجاء القصر، وتَهْزُ زجاج النوافذ بشدة، وكان هذا الوضع يصيب الجميع بحالة من الخوف والهلع، وكان جميع من في القصر يرون العرش والتاج أشياءً فانية وزائلة فكانوا يتضرَّعون إلى الله ﷻ أن يحفظهم ويحفظ السلطان، وكان الأسى والحزن يعتصر قلوب الأمراء والأميرات، فقد كانت حادثة خلع السلطان عبد العزيز وقتله التي استمعوا إليها في طفولتهم من عمال القصر كبار السن لا تزال مستقرَّة في أذهانهم؛ لذا كانوا يخشون من تكرار نفس السيناريو المرير، فكانت أصوات الصراخ والويل والدعاء ترتفع في كلِّ جنبات القصر.

وعلى الرغم من أن القادة في معسكرات إسطنبول عرضوا على عبد الحميد أن تقوم القوات الخاصة -تعتبر من أقوى الوحدات العسكرية- بسحق جيش الحركة، إلا أن موقفه الذي تبناه منذ البداية لم يتغيَّر؛ حيث رفض استخدام "القوَّات الخاصة" في مقاومة جيش الحركة قائلاً:

"أنا خليفة المسلمين، ولا أسمح أبداً لمسلم بإراقة دم مسلم، لا أسمح من أجل شخص أن يضيع ألف شخص، لا يمكن أن يتقاتل الإخوة".

وهكذا لم يقبل مطلقاً أن تقوم الوحدات العسكرية في إسطنبول وعلى رأسها الجيش الأول بالتصدي لجيش الحركة أو مهاجمي قصر "يَلْدِز"، بل أصدر أوامره لهم قائلاً:

"حذار! أن يُطلق الجنود الرصاص، فإن أطلقوا الرصاص فليطلقوه عليّ أنا أولاً!".

بالإضافة إلى ذلك فقد أصرَّ عبد الحميد على إرسال أمين الفتوى في مشيخة الإسلام وقادة الفرقة الأولى والثانية إلى معسكرات الجنود من أجل إقناعهم بعدم مقاومة إخوانهم في جيش الحركة ونصحهم بالألّا يوجّهوا أسلحتهم نحو إخوانهم مطلقاً، وبهذا حال دون إراقة الدماء بين الإخوة في مقرّ الخلافة العثمانية.

كان جيش الحركة يُضَيِّقُ الخناقَ تدريجيّاً حول محيط قصر "يِلْدِيز" ذي الحوائط المرتفعة والمحصنة والأبواب الحديدية المُحكمة الضخمة، فضرَبَ طوقاً أمنياً وحِصاراً خانقاً على قصر يِلْدِيز، وقد انزوى أهل القصر إلى عُرفِهم وأوصدوا الأبواب على أنفسهم، ولم يُعْذْ هناك من يُحْضِرُ الأطعمة ومستلزمات الإعاشة للمحاصرين في القصر، وكان الجميع يحاول أن يقتات ويدبّر أمورَه على ما يملكه من طعام ولوازم إعاشة.

فلم يسمحوا بدخول أيّ شيءٍ من الخارج إلى القصر، حتى ولو القليل من الخبز، وقُطِعَت الكهرباء والمياه والغاز عن القصر، وفي تلك اللحظات الحرجة حَضَرَ سفير روسيا في إسطنبول إلى الديوان السلطاني، وقال:

"إنني أحمل تحيات قبصر روسيا إلى السلطان، لقد سَمِعْتُ أن جلالته مريض، ومهما كانت مطالبه فسَتُنَفَّذُ دون أن يمس أحدٌ شعرةً من رأسه، وأنا في انتظار أوامر جلالته" (والسفير يُلَوِّحُ من خلال عرضه هذا إلى إمكانية حماية وتسفير السلطان خارج البلاد كلاجئٍ سياسي).

وحينما عرض "جواد بك" هذا الأمر على عبد الحميد فزع جداً وأجابه قائلاً:

"أترى عرض القيصر يا "جواد بك"؟ حاشا لله أن أفعل أمراً كهذا! أنا راضٍ تماماً بقضاء الله وبأيِّ مصائب ستحل عليّ، وسيكون قبري حيثما وُجِدَ قبرُ أجدادي، إنني أفضل الموت على هذه الإهانة!".

ثم قال لـ "جواد بك":

"أبلغ سيادة السفير عميقَ شكري وامتناني على تحية القيصر الروسي واهتمامه، وأخبره أنني لستُ مريضاً كما سَمِعَ، وأنني سعيدٌ لاهتمامه ولما أظهره من المودة والصدقة".

كما حضر أيضاً ذلك اليوم سفراء إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأعلنوا رسمياً أن بلادهم مستعدة أن تليي رغبات السلطان وأنها رهنُ إشارته، وقد أجاب عبد الحميد على السفراء بنفس الردِّ قائلاً:

"حتى لو كنتُ أعلم أنني سأعرضُ لنفسي مصير عبي عبد العزيز وأنهم سيَقْطَعون لحمي إرباً إرباً، فلن أفكر أبداً في اللجوء لدولة أجنبية، إن هروبي من وطني عارٌ كبيرٌ، بل إن أكبر أنواع الانحطاط والخسّة أن يقوم سلطان مثلي خدَمَ البلادَ لمدة ثلاثين عاماً بعملٍ مشينٍ كهذا، أنا راضٍ ومستسلمٌ لقضاء الله وقدره".

وكُلّما كان موقفه النبيل هذا يتردّد على أسماع حريم القصر؛ كلّما كنَّ يدركن حجم الأزمة التي يَمُزْنَ بها أكثر، وبالفعل التزم حرس القصر بأوامر عبد الحميد بعدم إطلاق النار في وجه إخوانهم، وسلّموا القصرَ لجنود جيش الحركة دون إطلاق رصاصةٍ واحدةٍ، ودون إراقة نقطة دم واحدة.

وحينما هاجم الجنودُ القصرَ وأحكموا عليه الحصار وقطعوا صلته بالخارج؛ أضدّر عبد الحميد بثباتٍ شديدٍ ورباطة جأشٍ أوامره قائلاً:

"فلترفع راية التسليم لجيش الحركة فوق القصر!".

إلا أن أحداً لم يرضَ أن يرفع راية التسليم، غير أن "شركس محمد علي بك" أحد العاملين بالقصر تولّى هذه المهمة في النهاية، وبعد قليل رُفِعَت راية التسليم فوق جوسق "تعليم خانة"، وحينما رأى أهل القصر هذا المشهد أدركوا أن كل شيء قد انتهى.

وكان حراس الليل والبوابون الألبان والأغوات الخدام والبستانيون وحاملو موائد الطعام وحتى أغوات الحريم ممن كان يُوثق في إخلاصهم قد ذهبوا وتركوا القصر منذ مدة طويلة خوفاً على حياتهم، ولم يبقَ أحدٌ في قصر يلدیز العظيم سوى النساء والأطفال، وقد أُصيبَ بعضهم بأزماتٍ عصبية، والبعض الآخر أُغميَ عليه من الخوف والرعب، وبدأ القصرُ يتعرّض لأزمة إنسانية ومعيشية وغذائية.

وقد استدعى عبد الحميد الكاتب الأول "علي جواد بك"، وأمره بأن يجد حلاً لهذه الأزمة، إلا أنه أُصيبَ بالدهشة والحزن من لا مبالاة "جواد بك"، وعلّق على هذا قائلاً:

"لقد شعرتُ بالانكسار وخيبة الأمل التي يشعر بها الإنسان عندما يتخلّى عنه الناس في الأيام الحرجة وفي أوقات الشدة!".

كان عبد الحميد يظهرُ أمام أسرته ثابتاً وصامداً وصابراً ومتوكِّلاً على الله، وكان يقول لهم: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، إلا أن النساء ولا سيما الأميرات لم يكنَّ يتحكَّمْنَ في أعصابهنَّ، وكنَّ يجهشنَ بالبكاء.



جيش الحركة ينهب قصر "يلديز"

كان اليوم الذي سيطر فيه جيش الحركة على قصر يلدیز شاهداً على واحدةٍ من أكثر الحوادث خزيًا في التاريخ؛ فقد نُهب القصرُ وسُرقت محتوياته بالكامل، ولو أنَّ عبد الحميد كان أمرَ قوَّات الجيش الأول بمقاومة جيش الحركة غير المنظمِّ لكان من المؤكَّد أنها ستهمزه وتقضي عليه بكل سهولة، لكنَّه قد رفضَ تمامًا اقتراح "خليل بك" الألباني -أحد قادة سلاح البنادق- بأن يتدخلَ لمواجهة جيش الحركة القادم من "سالونيك"، ولم ينسَ عبد الحميد مطلقًا الكلمات التي قالها هذا المخلص الوفيُّ وهو جاثٍ على ركبتيه حتى وافته المنية، وكان دائمًا ما يتذكَّر هذا الألباني الشجاع الشهم ذا القلب الرقيق الطيب.

فقد توسل "خليل بك الألباني إلى السلطان عبد الحميد قائلاً:

"فلتسمحوا لي فخامتكم وتأذنوا لي بالتحرك ومواجهتهم، فما نبت لحمي إلَّا من خيركم ولو سكتنا على اعتداء هؤلاء الشُرذمة الأوغاد على عرشكم وتاجكم؛ فإننا لن نخجلُ أمام ضمايرنا فقط، بل سيلحق بنا العارُ والخزيُّ أمام شعبنا وأمتنا".

إلا أنَّ عبد الحميد تحكَّم في إرادته، وتصرَّف بما يقتضيه العقل وليس المشاعر؛ فلم ينجرف إلى نقطة لا تراعي حرمةَ الدم بين الإخوة وتساعد في إراقة الدماء، ولم يرغب في أن يزداد الأمر صعوبةً وتعقيدًا، فكان متوكلًا على الله راضيًا بقضائه، ولم يكن موقفُ حريم القصر يختلف عن هذا، واختار أن يكونَ مرتاح الضمير على مواجهة الظالمين بنفس سلاحهم، فكان يتضرع إلى الله تعالى قائلاً:

"الهم إنني راضٍ عن "خليل بك" والمخلصين أمثاله وعن قاداتي وجنودي فأرَضَ عنهم يا رب العالمين!".

وفي النهاية التَّزَمَتِ الوحدات العسكرية النظامية في إسطنبول بأوامر عبد الحميد، وسلمت أسلحتها، وعلى هذا فقد سيطر جيش الحركة على مقاليد الحكم في إسطنبول في الخامس والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م)، أي سيطرت أفكار وتوجهات الاتحاديين على إسطنبول، وكانت هذه هي المرة الثانية التي يستولى فيها "الاتحاد والترقي" على السلطة تحت قوة الجيش وحمايته، فقد كان الكثير من الناس يعتبرون أنَّ الجيش هو جمعية "الاتحاد والترقي".

وبعد تلك الحادثة أعلن "محمود شوكت باشا" الأحكام العرفية في إسطنبول، ثم تعرَّض زعماء هذا التمرد ومحركوه ومؤيدوه ومن يُعتَقَدُ أنهم لعبوا دورًا فيه لمحاكماتٍ استثنائية في "المحاكم العسكرية"، وحُكِمَ على العديد منهم بالإعدام، وعلى جانب آخر قرر الاتحاديون القضاء على حالة الانقسام السياسي السائدة داخل الجيش، فحدثت تعديلات وتصفيات على نطاق واسع في صفوف ضباط الجيش، كما لوحِظت هذه التصفيات والهيكلُ الوظيفية بشكلٍ بارزٍ في جميع مناحي إدارة الدولة.

كما اجتمع مجلس النواب ومجلس الأعيان (الشيوخ) في "يَشِيلْ كُوي" (Yeşilköy) قبل ليلة واحدة من دخول جيش الحركة إلى إسطنبول، وأعلنوا تأييدهم للتدخل العسكري وأنه أمرٌ مشروعٌ، وقد ترامى هذا الأمر إلى مسامع عبد الحميد، فكان مستريح النفس وراضياً تمام الرضا عن التصرف الذي تبناه والجهود التي قام بها خلال حادثة ٣١ مارس/آذار، ولم يكن قلقاً أبداً من أنه سيتمُّ خلعه عن العرش، ولو لم يكن قد أحسنَ استغلالَ مقام الخلافة ونفوذ السلطة لربما زادت الاضرابات والفوضى؛

فقد حاول بكل ما أوتي من قوّة أن يحول دون زيادة الاضطرابات والفوضى في كافة أنحاء البلاد وعلى رأسها إسطنبول مستغلًا قوة مقام السلطنة ومقام الخلافة، ومع أن عبد الحميد كان يفكر في الخدمات التي سيقدمها إلى أمته ودولته بعد ذلك، إلا أن الأحداث لم تجر كما تخيل وأراد، وبدأت بعض الافتراءات والادعاءات الكاذبة تتردّد في الأفق مثل فرية "أنه طلب الحماية من النمسا لشخصه ولا استمرار سلطنته وحكمه، وأنه قدّم لها تنازلات في العديد من المسائل من ضمنها قضية البوسنة والهرسك"، ولكن الواقع أنه لم يتدنّ مطلقًا إلى هذا الحدّ، ولم يطلب حماية الأجانب والدول الأجنبية، فلو كان صاحب شخصيّة كهذه لكان بوسعه الهرب خلال تلك الأيام العصيبة التي تلت ٣١ مارس/آذار، أو لطلب حماية إحدى الدول ولجأ إليها، وبدلاً من أن يكون مضطرب النفس وقلقاً خائفاً على حياته كان متوكّلاً على الله مهيباً نفسه للرضا بما سيحكم به القدر، محافظاً قدر المستطاع على رباطه جأشه وثباته.

وقد أسندت محكمة "ديوان الحرب العرفي" (المحكمة العسكرية) التّهم الباطلة والملفّقة إلى الأبرياء، حتى إنها أصدرت أحكاماً بإعدام بعضهم دون أيّ دليل؛ حيث راحت جمعية "الاتحاد والترقي" تشيع حالة من التخويف والإرهاب في المدينة من أجل الحفاظ على سلطتها، وكان "خليل بك الألباني" -الذي طلب من عبد الحميد التصدي لقوات جيش الحركة- واحداً من بين من أُغْدِمُوا شتقاً بعد أن سيطر جيش الحركة -الذي شبّهه عبد الحميد بـ"الأبطال الخائفين أو الخائفين في صورة أبطال"- على الحكم في إسطنبول.

كان الرائد "أنور بك" -الذي لُقّب بـ"بطل الحرية" بعد أن خرج متمردًا إلى الجبل في "مقدونيا" مع "نيازي بك" - أحد القادة الذين جاؤوا إلى إسطنبول مع جيش الحركة، وكان الحاج أحمد أفندي والد "أنور بك" واحدًا ممن جرى البحث عنهم وسط حالة من الفوضى والاضطراب وانعدام الأمن التي شهدتها إسطنبول، وقد اختبأ الحاج أحمد أفندي في منزل صديقه "فوستو زونارو" رسام القصر في عهد عبد الحميد، وبعد يوم من إحكام جيش الحركة سيطرته على العاصمة ذهب الحاج "أحمد أفندي" و"زونارو" إلى منزل "أنور بك"، وأثناء جلوس "أنور بك" أمام "زونارو" ليرسم له لوحة أخبره أن السلطان عبد الحميد سيخلع عن العرش خلال ثلاثة أيام، مما يعني أنهم كانوا يدبرون هذا الأمر منذ مدة طويلة، إلا أن "زونارو" لم يخبر السلطان عبد الحميد بهذا السر قبل أن يتم خلعه.

* * *

قام المرتزقة والمجرمون وأفراد العصابات المنتمون إلى جيش الحركة بعد أن استولوا على قصر "يلديز" بنهب وسلب كل ما هو غالٍ ونفيس في القصر؛ فكانوا يسرقون كل ما تطالهُ أيديهم، فخلال تلك الحادثة المخزية التي تُمّت بعشوائية وغوغائية؛ وقعت "حفلة سرقة ونهب" -بحسب وصف الشاعر "توفيق فكرت" في قصيدته المسمّاة بنفس الاسم - وقد وصلت أعمال السلب والنهب التي تعرّض لها قصر يلدیز درجةً دفعت بعضًا من أعضاء جمعية "الاتحاد والترقي" إلى استنكارها.

كان عبد الحميد قد احتفظ بعناية كبيرة بالحلى والمجوهرات، وأطقم الذهب والفضة، والألباس، والياقوت والزمرد، والنجف والثريات، والتحف وغيرها الكثير من الهدايا القيمة التي أهديت له طوال سنوات حكمه

داخل خزانة خاصة ذات أدراج حديدية أنشئت خصيصًا في قصر يلدیز، ولم تكن تلك الحلى والمجوهرات هي التي تعرضت للسرقة فحسب، بل قام الغوغاء والهملج المرتزقة التابعون لجيش الحركة أيضًا بنهب وسرقة سائر القصر المصنوعة من القطيفة والمحمل، والثريات الكريستالية الفائقة الجمال، والسجاجيد المصنوعة في بلدة "هَرَكَه" (Hereke)، واللوحات القيمة، والأبواب ذات النقوش المبهرة، والشمعدانات والمباخر وأطقم المطبخ المصنوعة من الفضة، وأطقم الشوك والملاعق، والأرائك والمقاعد والكراسي المصنوعة من شجر الجوز و"الماهو غاني"، والأسيرة والوسائد والمفروشات واللحف والبطاطين المصنوعة من الريش، حتى إنهم استولوا على جزء كبير من أحجار الرخام المزينة بالحلي والتي تُستخدَم من أجل منع اصطدام النوافذ؛ وحينما تعذّر عليهم من الباب إخراج السجاجيد النفيسة والكبيرة الحجم الموجودة في جوسق "شاله"؛ قطعوها إربًا إربًا وسرقوها قطعةً قطعة.

وخلال الأيام التي أعقبت سرقة قصر يلدیز ومحتوياته القيمة النادرة أراد الاتحاديون الاستيلاء على الثروة الخاصة بعبد الحميد والتي كان جمعها على مدار سنوات واحتفظ بها داخل مكان خاص في ورشة النجارة للاستعانة بها في الأوقات الصعبة التي تمرّ على البلاد، وبالفعل تمكّنوا من الحصول على هذه الأموال والمجوهرات بعد أن أخبرهم نديم السلطان "نادر آغا" بمكانها تحت ترهيب وتخويف شديدين، وفي النهاية استولت وزارة الحربية على هذه الثروة الطائلة، وقد تصرف زعماء عصابة "الاتحاد والترقي" وعلى رأسهم "محمود شوكت باشا" -الذي تحول في تلك الأيام إلى طاغية ومستبد- في تلك الأموال كيفما شاؤوا، كما عُرضت التحف والآثار النادرة المنهوبة من قصر يلدیز للبيع في المزادات العلنية.

وحينما قرّر المتواطئون على سرقة ونهب قصر يِلْدِيْز إجراء عملية جرد وإحصاء لمحتويات القصر بعد مدّة؛ وجدوا أن مكتبة يِلْدِيْز العامرة بالكتب والآثار النادرة التي لا مثيل لها في العالم لم تُنهب، كما أصيبوا بحالة من الذهول والدهشة أمام المنظر الذي رأوه لدى دخولهم إلى الجناح الخاص بعبد الحميد الذي نعتوه بـ"السلطان الأحمر"، وادّعوا أنه يتلذذ بإقامة الدماء ويعيش حياة الرفاهية والملذات، فلم يجدوا أمامهم تلك الصورة التي تخيلوها لحجرة السلطان، ولكنهم وجدوا حجرة مظلمة خافتة الإضاءة ذات سقف منخفض مفروشة ببساطة بالغّة، في أركانها خزائن وأدراج مليئة بزُرم من الأوراق، ومضجع بسيط مما كان يستخدم في المستشفيات في ذلك العصر للاسترخاء، ومقلاة للبيض في أحد الأركان، ف شعر أصحاب الضمائر الحية منهم بحالة من الحزن والأسى وهم يشاهدون تلك الحجرة، وقد لفتت انتباه الجميع الآلات والأدوات المتطوّرة الموجودة في ورشة النجارة التي تُعبّر هواية خاصة ومتعة بالنسبة لعبد الحميد.

وهكذا فإن العصابة المسكينة التي حُشيت أدمغتها بادعاءات أن عبد الحميد يعيش حياة الرفاهية والمتع والملذات والبذخ مع حريمه في قصر يِلْدِيْز، ومُلئت أذهانها بتلك الأكاذيب على مدار سنوات حكمه لم تجد تلك الحجرة الملكيةّ الفخمة التي كانت تأمل وتتمنى أن تراها في جناحِه الخاص.

راح هؤلاء المعتدون الذين أدركوا حينها أن الباشاوات في عهد عبد الحميد يعيشون حياة أكثر رفاهية وترفاً من عبد الحميد نفسه يمشون في حجرة عبد الحميد وهم في حالة صدمة وذهول مما يرون، ولكن هيهات

فلم یکن من بینهم عاقل أو منصف، بل کان هناك أشخاص متحمسون ومتلهفون لإبعاده عن إسطنبول دون مراعاة لمكانته وهیئته.

وكما سیُتضحُ بجلاءٍ فإن إعلان المشروطة الثانية وإعادة العمل بالدستور وافتتاح مجلس النواب لم یكن كافياً لتهدئة المتعطرسین والمستبدین فی جمعیة "الاتحاد والترقی"، وترضية مراكز القوى داخلها، ولكن كانت الغاية الحقيقية الكبرى لعصابة الاتحادیین هی خلع عبد الحمید الذی كانوا یرونه حجرَ عثرةٍ أمام طموحاتهم فی الحكم والسیطرة على كافة مقالید الدولة، وقد منحت حادثة "٣١ مارس/آذار" التي وقعت ضدَّ الحكم المشروطی للاتحادیین الفرصة على طبق من ذهب لمن یرغبون فی الاستفادة وتوظيف هذا الموقف لصالحهم بحجة حماية أمن البلاد وسلامتها من أي عصیانٍ أو تمرّد.

خلع عبد الحميد عن العرش

وقد مارست تلك القوات الباسلة! التي تدخلت في الموقف إبان حركة التمرد، وسيطرت على السلطة في العاصمة ضغوطاً كبيرة على مجلس النواب من أجل إصدار قرارٍ بعزل عبد الحميد عن العرش، حيث تدخل قائد جيش الحركة "محمود شوكت باشا" في الحياة السياسية والنيابية، وأرسل برقية إلى رئيس المجلس "أحمد رضا باشا" جاء فيها:

"إن الجنود يشعرون بحالة من الغضب الشديد تجاه عبد الحميد، وأرجو أن يتخذ مجلسكم قراراً في هذا الشأن وأن تبلغوني فور وصولكم للنتيجة".

ويا للعجب فهذا هو "محمود شوكت باشا" الذي عينه عبد الحميد قبل ذلك في تنظيم الأسلحة القديمة، وقد أقام صداقةً وطيدةً مع كبير مرافقي السلطان "جوهراً آغا" أثناء عمله في تلك الوظيفة، وكان يوصل عن طريقه التقارير المخبرانية إلى داخل القصر، ولكن كل شيء تغير في لمح البصر إبان حادثة ٣١ مارس/آذار؛ حيث كان "جوهراً آغا" -رجل البر والخير الذي أقام مسجداً في حي "عمرانية" ومدرسةً ووفقاً بالأموال التي اكتسبها- واحداً ممن أُعدِموا بسبب ارتباطهم برجال المخابرات، كما كان تدمير وإتلاف "محمود شوكت باشا" و"باقي أبطال الحرية" -على حد زعمهم- مئات التقارير المخبرانية من بين أوراق قصرٍ يلدیز أمراً مثيراً للدهشة والحيرة، وعلى الرغم من كل هذا فقد كان عبد الحميد حينما يتحدث في السنوات التالية عن "محمود شوكت باشا" يتسم، ويقول:

"لقد كان رجلاً عسكرياً من الطراز الأول، وكان أحد رجالاتي".

وفي النهاية اتَّخَذَ المجلسُ قرارَ خلع السلطان عبد الحميد بناءً على طلب "محمود شوكت باشا" وعصابة "الاتحاد والترقي"، وهكذا كان أهمُّ تطوُّرٍ حدثَ بعد قمع حركة التمرد هو القرار الذي اتخذه "المجلس الوطني العام" الذي ضمَّ أعضاء مجلس النواب ومجلس الأعيان وكان يقضي بعزل عبد الحميد عن العرش في السابع والعشرين من أبريل/ نيسان (١٩٠٩م)، وتعيين أخيه "محمد رشاد" سلطاناً للدولة العثمانية، وكان من بين النواب الذين وافقوا على هذا القرار أولئك الذين لم يرغبوا في عبد الحميد وكانوا يؤمنون بأنه هو المدبّر لحادثة ٣١ مارس/ آذار، وهناك أيضاً من وافقوا على هذا القرار ممن يرغبون في إنقاذ حياة السلطان؛ حيث كانوا يستمعون إلى الإشاعات ويعتقدون أنه سيقتل إذا لم يُخلع عن العرش.

تلقَّى السلطان عبد الحميد خبر مناقشة المجلس لمسألة عزله عن طريق مُوفدٍ خاص جاء إلى القصر صبيحة أحد الأيام، ففي تلك الصبيحة الربيعية التي تفتَّحَ باسمِها فَوْاحًا عَطْرًا نديًا؛ كان عبد الحميد قد أدَّى صلاةَ الفجر ولم يغمض له جفن طوال الليل، فهو يواصل التفكير والأرق والقلق على مستقبل الدولة العلية بعد أن سقطت في قبضة حفنة من السياسيين عديمي الخبرة والكفاءة، وبعد أدائه صلاة الفجر تضرع إلى الله أن يحفظ الأمة والبلاد والعباد، ثم تمدَّد على أريكته لينعمَ بنسيمٍ من الراحة، لكنه لم يتمكن من النوم فانتصب من سريره المتواضع، وجلس مُردِّدًا البسملة.

وبمجرد أن قرعَ عبد الحميد الجرس الموجود على طرف سريره دخلَ خادمُه المخلص "مرتضى أفندي" الحجرة، فألقى عليه السلام، وعبرَ له عن حُزنِه وألمِه لما آلت إليه حالته قائلاً:

"عظمتُكم تُزهقون أنفسكم بما يزيد عن الحاجة، والأمة والبلاد في حاجة إليكم، فجلالُكم لم تأكلوا شيئاً منذ أيام، ولم تَذُقْ أعينكم النوم، وهذا مضرٌّ جدًّا بصحتكم".

فكان عبد الحميد يستمع إليه شارد الذهن ومستغرقاً في التفكير، وكان "مرتضى أفندي" يقول: "إنَّ الأمة في حاجة إليك"، ولكن المغيَّين ذهنيًّا والسائرين في درب عصابة الاتحاديين التي كانت تُضَيِّقُ الخناق حوله يوماً بعد يوم وتزرعُ بذورَ الفتنة والشقاق بين الأمة والشعب كانوا يصيحون في الشوارع:

"يسقط يسقط السلطان الأحمر!".

فقد انساقوا وراء جمعية "الاتحاد والترقي" ووراء الإنجليز.

وعلى الرغم من أن "مرتضى أفندي" أبلغَ عبد الحميد بأن طعام الإفطار جاهزٌ إلا أنه لم يكن لديه شهية لتناولِ أيِّ شيءٍ، وتحت إصرار "مرتضى أفندي" ارتدى عبد الحميد ملابسه، وتحرك نحو غرفة الطعام، ولكنه شعر بالقلق عندما سمع صوت كاتب الديوان الأول "جواد بك" يأتي من الطابق السفلي؛ فتوجه على الفور إلى السلالم نحو الطابق السفلي، فلما وصل منتصف الطريق قابله "جواد بك" وكان يبدو وكأنه يُخفي شيئاً ما، فبادره عبد الحميد بالسؤال: "لعل الأمر خير!" لمعرفة ماذا يجري، فرد عليه "جواد بك" بأن هناك مُوفدٌ حضر إلى القصر يرغب في لقاء جلالته، وفي الحقيقة لم يكن "جواد بك" يرغب في أن يلتقي السلطان بهذا الموفد ظناً منه أنه يعمل تحت إمرة الاتحاديين وأنه غير موثوق به، فأخبره بأن السلطان يأخذ قسطاً من الراحة وعليه أن يخبره بما يريد إبلاغه للسلطان، ولكن عبد الحميد الذي كان مستسلماً لقضاء الله أصر على لقاء هذا الموفد، وردَّ عليه قائلاً:

"لِتَتَّخِذُوا التَّدَابِيرَ الْأَمْنِيَّةَ الْلازِمَةَ فَأَنَا أَرْغَبُ فِي لِقَائِهِ".

ثمَّ صعدَ إلى الطابقِ العلويِّ، وحينما أحضرَ "جواد بك" هذا الموفدَ إلى حضرةِ السلطانِ كان عبد الحميد قد انتهى لتوّه من طعام الإفطار، فدخلَ هذا الموفدُ على السلطان وألقى عليه السلام ووقف في مكانه منتظرًا، وكان "جواد بك" أيضًا يَقفُ بين السلطانِ والموفدِ.

كان عبد الحميد متشوقًا وقلقًا لمعرفة ما سيقوله هذا الموفدُ الذي حضرَ في وقتٍ غير متوقَّعٍ، فبادره متسائلًا:

"لعلَّه خيرٌ إن شاء الله يا بني! ما هي الأخبار التي جعلتك تأتي في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح؟".

فنظرَ إليه الموفدُ وهو تبدو عليه علامات الحزن والتأزم، ثم قال:

"للأسف يا مولاي فالأخبار التي أتيتُ بها ليست خيرًا".

ثم أخرجَ من جيبه خاتمًا وأعطاه إلى "جواد بك"، ثم سلَّم هذا الأخيرَ الخاتمَ للسلطان، وبعد أن نظرَ السلطان إلى هذا الخاتم فكَّرَ لبرهةٍ، ثم رفعَ رأسه وأمرَ جواد بك قائلاً:

"فلتتركنا بمفردنا، وتنتظر عند الباب ولا تسمح لأحدٍ بالدخول".

كان هذا الخاتم علامة على أن هذا الموفدَ موثوقٌ به، وبعد أن خرج "جواد بك" من الحجرة وأغلقَ البابَ وعلاماتُ القلقِ ترتسم على وجهه؛ التفتَ عبدُ الحميد إلى الموفدِ، وطلبَ منه أن يقول له ما عنده، فبدأ الموفدُ يتحدَّثُ بحماسة قائلاً:

"يا مولاي، لقد حصل جهاز المخابرات على معلومات مفادها أن "أحمد مختار باشا" سيعرض اليوم على المجلس اقتراحًا بعزل جلالتيكم من العرش وأن المجلس ينوي قبولَ هذا الاقتراح!".

صمت عبد الحميد لبرهة أمام هذا الكلام ولم يُحَرَكَ ساكنًا، ثم عقَّب قائلاً:

"لعله خيرٌ، فلن يصيبنا إلا ما كتبَ الله لنا".

وبعد قليل خرجَ الموفدُ من الحجرة بعد أن أذنَ له عبدُ الحميد بالانصراف، ثم نَزَلَ على السلالم بسرعة، وغادر القصر دون أن يتفوّه بأية كلمة لـ"جواد بك" الذي كان ينتظر خارج الحجرة، وبعد قليل قُرع الباب، ودخل "جواد بك" إلى الحجرة وألقى التحية على السلطان، وأخذ ينظر إليه بقلبي شديد، فقد كان متشوّقاً لمعرفة ما دارَ بينهما، ودون أن يجعله عبد الحميد ينتظر أكثر من هذا أخبره بأن مجلس النواب على وشك أن يتَّخذ قراراً بحلِّه، وكان أكثر ما يثير الدهشة والعجب في هذا الأمر أن شخصاً مثل الغازي "أحمد مختار باشا" هو من تقدّم بهذا الاقتراح إلى المجلس، ثم اقترح "جواد بك" أن يتمّ تقصّي وتحريّ صحّة هذا الخبر جيّداً فربما يكون خبراً كاذباً لإثارة الفتنة، ولكن عبد الحميد أخبره أنه ليس ثمة حاجة للقيام بهذا الأمر؛ فهذه المعلومات من مصادر موثوقة.

أدرك "جواد بك" أن هذه الخطوة موجهة ضدّ شخص السلطان؛ فاقترح عليه أن يُصدّر الأوامر لتشديد الإجراءات الأمنيّة واتّخاذ التدابير اللازمة في محيط القصر، ولكن عبد الحميد لم يُلْقِ بالاً لهذا الاقتراح، ولم يُعزّه انتباهه، وردّ عليه قائلاً:

"ليس هناك داعٍ لهذا الأمر، فليأتوا على الرحب والسعة، وليصطحبوني ويعتقلوني إن أرادوا، لقد بذلْتُ كلَّ ما في وسعي طوال تلك السنوات من أجل حماية أمن وسلامة البلاد والعباد، وسأسلِّم البلاد بمثل ما وجدتها عليه، وكما أتينا سنذهب، ولا داعي لإثارة المشكلات والمتاعب، ولن أقايض حياة جنديٍّ مسلمٍ بحياة جنديٍّ مسلمٍ آخر".

فلم یجد "جواد بك" ما یقوله إزاء هذا الموقف، ولكنّه اتخذ بعض الإجراءات الاحترازیة من تلقاء نفسه.

وبینما كان هذا الحوارُ یدور بین السلطان عبد الحمید و"جواد بك"؛ صعد "أحمد مختار باشا" النائبُ فی مجلس الأعیان إلى المنصة، واقترح خلع السلطان عبد الحمید منوّهاً إلى أنه هو و"أحمد رضا بك" رئیس مجلس النواب قد تناقشا مع "محمود شوكت باشا"، وأن قصر یلدیز تحت السيطرة الكاملة للجیش، كما أشار إلى أنه فی حالة موافقة المجلس على هذا الاقتراح لا بدّ وأن یستند قرارُ الخلع إلى فتوى من شیخ الإسلام، إلا أن هذا الأمر كان صعباً للغاية؛ لأن إیجاد رجل دین یصدر فتوى تتضمّن هذا القرار ویضع توقیعہ علیها لم یكن بالأمر الیسیر، ولكن التهديدات والضغوط التي مارسها "طلعت باشا" من أجل إقناع شیخ الإسلام وأمین الفتوى قد یسرّت هذا الأمر.

وقد كتب الشیخ "محمد حمدي أَلْمَالِلي" (١٨٧٨-١٩٤٢م) النائب عن مدينة "أنطاليا" فی أول مجلس تمّ تشکیله برغبة الشعب فی عهد المشروطية الثانية الدیاجة الأولى لفتوى الخلع، وهو الذي قام بإقناع "نوري أفندي" المعارض لخلع السلطان عن العرش، وهكذا لعب دوراً مهماً فی هذا الشأن عن طریق كتابة مسودة الخلع، ومن المؤكد أن هناك عدّة أسباب فی ظلّ ظروف تلك الفترة دفعت هذا المفسّر الكبير الذي استثمر ذكاءه وعلمه ومنطقه على نحو جید إلى أن یقوم بهذا الأمر، وربما كان على رأس هذه الأسباب الخوف من قتل السلطان، وإغلاق المجلس، وخطر انزلاق الدولة إلى حالة من الفوضى الخلاقة، فمع الأخذ فی الاعتبار بالوضع القائم وظروف تلك الفترة اختار "محمد حمدي" أخفّ الضررین فی تلك المسألة.

وقد أصبح السيد "محمد حمدي أَلْمَالِي (Elmalılı)" الذي اختار أخفَّ الضررين معلِّمًا دينيًا بعدما اجتاز اختبارات الوعظ عام (١٩٠٥م)، وبدأ في إلقاء الدروس الدينية وحلقات الوعظ في مسجدي "بايزيد" و"شاه زاده باشي"، وكان يُدافع عن نظام الحكم المشروطي على أمل أن يكون وسيلةً لأن تصل البلاد إلى مستوى من الرقي والحضارة والتمدن والعلم الحديث، ومثله كمثل مثقفي هذا الوقت، كان يهتف ويصفقُ لجمعية "الاتحاد والترقي" التي تمثل أفكار "الحرية"، وفي الواقع أن الجميع كانوا يهللون ويصفقون بنوايا طيبة من أجل إعلان المشروطية، فقد كان الناس يتصوِّرون أنَّ الأمة والبلاد ستقدِّم وتزدهر بفضل إعلان المشروطية.

كان المعلِّم "محمد حمدي أَلْمَالِي" و"شيخ الإسلام" موسى كاظم أفندي" و"إسماعيل حقي أفندي" ورئيس مجلس الأعيان "مصطفى عاصم أفندي" ووزير الأوقاف "حمدي أفندي" و"شيخ الإسلام" مصطفى صبري أفندي "أعضاء في الشعبة العلمية لجمعية "الاتحاد والترقي"، وكانت الشعبة تحاول من أجل إخراج نظام حكم مشروطي يتوافق مع قيم الشريعة الإسلامية بدلاً من نظام الحكم المشروطي الغربي المحض، وكان الهدف الحقيقي من وراء دعم "محمد حمدي أَلْمَالِي" وأمثاله لجمعية "الاتحاد والترقي" في الفترات الأولى هو ترسيخ مبادئ المشروطية والحرية وحمايتها بقوة الدين.

وعلى الرغم من جهود عبد الحميد من أجل تطبيق سياسة الوحدة الإسلامية ورغبته في أن تسود روح الأخوة والوحدة والتعاون بين جميع المسلمين فقد أُتهم في فتوى الخلع بمنع كتب الشريعة وحرقها! كما أُسندت إليه اتهامات باطلة كتحميله المسؤولية عن حادثة ٣١ مارس/آذار وتحريف الكتب الدينية والإسراف في الإنفاق من خزانة الدولة وإعدام

العديد من الأبرياء، والحقيقة أن كل هذه الاتهامات ليست إلا محض بهتانٍ ومجرّد افتراء.

وفيما يتعلق بفتوى خلع عبد الحميد فقد عُقد اجتماعٌ في حجرة رئيس مجلس النواب "أحمد رضا بك" بمشاركة شيخ الإسلام "ضياء الدين أفندي" والوزراء والصدر الأعظم وبعض النواب بالإضافة إلى أمين الفتوى "نوري أفندي" للتباحث في فتوى خلع عبد الحميد، وقد حاول نائب المجلس "مصطفى عاصم أفندي" والنائب "محمد حمدي المأللي أفندي" إقناع أمين الفتوى "نوري أفندي" بالتوقيع على نصّ فتوى الخلع، لكنهم لم يتمكنوا من إقناعه مطلقاً؛ فقد طلب "الحاج نوري أفندي" أن تتم دراسةً وبحثُ مسألة خلع السلطان بتأنٍ وعقلانية، وأن يتم تقييم الأدلة التي تدين السلطان والأدلة التي تصبُّ في صالحه بموضوعية وحياد تامٍّ للتأكد من صحة الاتهامات، لكنهم هددوا "الحاج نوري أفندي" وأسكتوه وأبلغوه بأنه مكلفٌ فقط بالتوقيع على نصّ فتوى الخلع وأنه ينبغي ألا يتدخلَ في أيّ شيءٍ آخر.

كان "الحاج نوري أفندي" يعيش آنذاك في حي "فاتح" بإسطنبول، وقد ذهب وفدٌ من المتمرّدين وبعض مسانديهم إلى منزل "الحاج نوري أفندي"، وطرقوا عليه البابَ غيرَ أنه لم يكن يرغب في الخروج لمقابلة هذا الوفد وهو ما أعلنه صراحة، إلا أنه اضطرَّ إلى فتح الباب لهم بعد إصرارهم الشديد.

ثم تحدّث إليهم قائلاً: "لقد أعددتُ استقالتِي، هاكم خذوها"، ثم أردف قائلاً:

"إن خلع السلطان شرٌّ وأمرٌ غير مبشّرٍ بخير، لقد خلّغنا السلطان عبد العزيز قبل ذلك، ولم نستطع أن نُسقطَ عن كاهلنا

عبء ومسؤولية المهاجرين بعد الحرب الروسية العثمانية حتى الآن، لقد تحمّلت عبء أطفال المهاجرين على كاهلي حتى ضُغِفْتُ ولم أعد أتحمّل، لقد خلّغنا السلطان عبد العزيز من قبل، ولكننا لم نتخلّص من تبعات ذلك الأمر حتى الآن، فكروا في عاقبة هذا الأمر أيضاً، وتخيّلوا حجم الكارثة التي ستلحق بنا، اعرضوا على السلطان أن يتنحى، فعسى أن يُقبل على هذا العرض بإرادته، ويتخلّى عن الحُكْم بإرادته ويعزل نفسه بنفسه".

ولكن "محمد حمدي المماليكي أفندي" قام في النهاية وبناءً على إصرار أعضاء الوفد بكتابة مسودة الفتوى بصيغتين إحداهما: التخلّي عن السلطنة، والأخرى: الخلع عن العرش.

كان الحاج "نوري أفندي" يدرك جيّداً المخاطر التي يمكن أن تتعرّض لها الأمة والدولة حال خلع عبد الحميد عن العرش؛ لذا رفض مجدّداً التوقيع على فتوى الخلع بدعوى أن ما أُسِنِدَ فيها من اتهامات إلى السلطان عبد الحميد ليس صحيحاً، بل إنها اتهامات باطلة بالمرة، ولم يرتكب السلطان أيّاً منها، وأنه -أي نوري أفندي- لا يرغب في أن يكون عرضةً للمحاسبة والمساءلة المعنوية عن هذا الأمر.

وبناءً على هذا تحدّث أعضاء الوفد إلى الحاج "نوري أفندي" قائلين:

"إذا صدّقت على فتوى الخلع فسيتم خلع السلطان عن العرش دون أن يصاب بأذى ودون إراقة للدماء، ولكنك إن لم تفعل فستسيلُ الدماء، فإن أردت ألا تكون مسؤولاً عمّا سيحدث وألا تراق دماء الأبرياء حتى وإن كنت ترى من داخلك أن هذا أمراً خاطئاً فإن التوقيع على هذه الفتوى هو أسلم طريق حتى لا تتحمّل تبعات ما سيحدث، أترغب في أن يُدّاس السلطان بالأقدام في الشوارع أم ترغب في إنقاذ حياته؟!"

وحینما سمع الحاج "نوري أفندي" هذا الكلام خارت عزمته، وقال
جزعاً لأعضاء الوفد الذين كانوا ينتظرون توقيعه:

"كان يجب أن تقتلونني حتى أوقع على تلك الفتوى، ولكنني
سأوقع عليها حفاظاً على حياة السلطان وحقاً لدماء الأبرياء،
ولكن اعلموا أن ما تفعلونه خطأ كبيرٌ لن يعود بالخير عليكم".

ثم أخذ الفتوى ووقع عليها والألم يعتصره من الداخل، وفضلاً عن
قرار الخلع فقد طلبوا أن يمثّل عبد الحميد أمام محكمة "ديوان الحرب"،
ولكن حكومة "حسين حلمي باشا" التي كانت عُيِّنَتْ حديثاً لم توافق على
هذا الأمر.



الحسرة والندامة

وعلى الرغم من أن دافع "حمدي أفندي" كان إنقاذ حياة السلطان إلا أن "حمدي أفندي" عاش طوال حياته نادماً على كتابته مسودة الخلع، حتى إن نجله "مختار يازر" (Muhtar Yazır) حينما سأله ذات مرة عن كواليس هذه الواقعة وملابساتها أجابه وهو في غاية الحزن والألم قائلاً: "جريمة، إنها حقاً جريمة، لا تسألني عن هذا الأمر مرة أخرى يا ولدي!".

وقد ذكر "مختار يازر" نقلاً عن مذكرات والده قوله:

"إن أكبر خطأ ارتكبته في حياتي هو مشاركتي في خلع السلطان عبد الحميد".

إن سيطرة جمعية "الاتحاد والترقي" على زمام الحكم في البلاد بالظلم والقهر والاستبداد قد تسببت في تنفير العديد من الشخصيات التي كانت تؤيدهم قبل ذلك، فها هو الفيلسوف "رضا توفيق" الذي كان معارضاً شرساً لعبد الحميد يكتب قصيدة في حقّه ويُقرّ فيها ويعترف بأنه ورفاقه في "الاتحاد والترقي" قد ارتكبوا جُرمًا في حقّ عبد الحميد حيث ذكر فيها أن الاتحاديين هم من تلطخت أيديهم بالدماء، وحسب تعبير "رمضان أوغلو سامي أفندي" الذي عاصر تلك الفترة فإن قيمة أرواح الناس وسط هذه الصراعات السياسية المقيتة لم تكن تساوي شيئاً؛ حيث كان كل من يعارض "الاتحاد والترقي" يتعرض للتنكيل أو القتل أو الذبح.

وحینما تَکْشَفُ الوجه الحقیقی للاتّحاد والترقی بدأ الأدباء والعلماء ممن كانوا على علاقةٍ قویّةٍ بالجمعية فيما مضى أمثال: "مصطفى صبري أفندي" و"حمدي أفندي" و"خيرت أفندي" و"بابان زاده نعيم بك" و"محمد عاكف أرْضُوي" الانفصالَ عن "الاتّحاد والترقی"، حیث أدرك هؤلاء الأشخاص الأوضاع السيئة التي آلت إليها الدولة العلیّة، والمصائب التي نالت من الشعب العثماني، والمشكلات التي أحاطت بالدولة؛ فانضمّوا إلى صفوف المعارضين لـ "الاتّحاد والترقی"، وعملوا على توعية الناس بالحقیقة.

والواقع أن هؤلاء الأشخاص العقلاء كانوا يتخذون من السياسة أداةً لخدمة الأمة وتحقيق أهدافها؛ فما كانوا يرغبون في الانخراط في الصراعات السياسية العقيمة، بل كانوا يتصرّفون وفقاً للمبادئ والقيم، فكانوا يذكرون الحقائق التي يؤمنون بها في كل مكان، ويمثلون الأخلاقيات والقيم الحقیقية للإسلام؛ فالعديد من قادة هذا العصر وعلمائه أمثال "محمد عاكف" و"محمد حمدي أفندي (يازِر)" و"شيخ الإسلام" موسى كاظم" و"بديع الزمان سعيد النُورسي" قد هلموا ورحبوا بإعلان الحكم المشروطي وسيادة الحرية، فكانت الغاية الحقیقية لمن ساروا وراء هذه الأفكار هي ترسیخ دعائم الحرية والحكم المشروطي بالقوة المؤثرة للدين؛ فكانوا يتصوّرون أن الدولة ستنهض وتتقدم بفضل إعلان المشروطية، والحقیقة أن الاتّحاديّين كانوا يرغبون في أن يستغلّوا أهداف هؤلاء الأشخاص النبيلة لصالحهم، فخلال الأيام التي أعقبت إعلان المشروطية تشكلت الشعبة العلمية داخل جمعية "الاتّحاد والترقی"، وكانت هذه الشعبة تضم "شيخ الإسلام موسى كاظم" و"إسماعيل حقي" ورئيس مجلس الأعيان "مصطفى عاصم أفندي" و"محمد حمدي أفندي" الذي عُيِّنَ وزيراً للأوقاف فيما بعد، و"مصطفى صبري أفندي" آخر شیوخ

الإسلام في الدولة العثمانية، وبهذا الشكل انضم أيضاً "محمد عاكف" إلى جمعية "الاتحاد والترقي" ظناً منه أنه سيثري العلوم والأفكار والفنون. ولم يمضِ الكثير على إعلان المشروطة حتى أدرك "محمد عاكف" والعلماء - بل الأمة جمعاء - الوجه الحقيقي لجمعية "الاتحاد والترقي"؛ فالصورة الوردية المتفائلة التي ظهرت مع خلع عبد الحميد سرعان ما تمرّقت على عكس المتوقع، ومما لا شك فيه أن ضعف المعارضة كان واحداً من أهم الأسباب التي أدت لعدم ظهور نظام سياسي واجتماعي واقتصادي مثالي، وحينما أدرك "مصطفى صبري أفندي" الوجه الخفي للجمعية بدأ يناضل ضدها، ووصفها بأنها "منبع الفساد"، فقد كان يدافع عن أفكاره ويناضل من أجلها حتى النهاية بعزيمة لا تلين حيث كان يقول:

"ما هذه الجمعية إلا العوبة في يد الماسونيين واليهود وزمرة من أعداء الإسلام والدولة العثمانية، ولن تجلب هذه الجمعية إلا الخراب، ويجب علينا أن نبتعد عنها".

وقد انتقل "صبري بك" إلى صفوف المعارضة بعدما رأى بنفسه خطايا الاتحاديين، حيث انضم إلى حزب "الحرية والوفاق" الذي أسسه الأمير آلاي "صادق باشا" وأصدقائه.

إن سبب انضمام "صبري بك" ومن معه إلى حزب "الحرية والوفاق" هو رغبتهم في عدم تشتيت قوى المعارضة بإنشاء حزب جديد خاص، ولكنه ندم بعد ذلك أشد الندم على انضمامه إليه، ولما لم يجد ما يصبو إليه في هذا الحزب انفصل عنه على الفور، وتحدث معبراً أكثر من مرة عن أنه لا يوجد أي فرق يذكر بين "الاتحاد والترقي" و"الحرية والوفاق" حيث قال:

"لقد انضممنا إلى حزب "الحرية والوفاء" المعارض للاتحاديين ظناً منا أنه يضم أناساً مخلصين لوطنهم يعملون على خدمته ولكننا انفصلنا عنهم بعد ذلك، لأننا لم نر أي فرق جوهري يذكر بينهم وبين الاتحاديين؛ فجميعهم تقريباً يعملون من أجل الأطماع والمناصب والمكاسب الشخصية".

وبعدما أحكم الاتحاديون قبضتهم على كافة مقاليد الحكم بعد "اقتحام الباب العالي" عام (١٩١٣م) اضطر "مصطفى صبري باشا" إلى مغادرة البلاد.

وقد أصيب "محمد عاكف" وغيره من العلماء والأدباء بخيبة أمل كبيرة بعد أن كانوا يعتقدون أن الدولة ستتحرك وستنتهي مشاكلها بإعلان المشروعية، وفيما بعد أصبح الكثيرون ممن دعموا الاتحاديين وشاركوا في خلع عبد الحميد يعبرون عن ندمهم وأسفهم مُقِرِّين بأنهم ارتكبوا خطأً جسيماً، وأصبح من كانوا ينتقدون عبد الحميد ويكتبون مقالاتٍ ضده بالأمس يُدركون أهمية المشاريع والأنشطة والإنجازات التي حققها خلال الفترة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، حتى إن بعضهم صار ينظم أشعاراً ويكتب كتباً ومقالات تعبيراً عن شعوره بالندم والأسف لما قام به في حق عبد الحميد.

وقد دفعت الظروف "محمد عاكف" الذي قطع صلته بالاتحاديين وعارضهم بشدة إلى السفر إلى مصر، وظل هناك عشر سنوات بداية من عام (١٩٢٦م) حتى عام (١٩٣٦م)، وكان شيخ الإسلام "مصطفى صبري أفندي" يزور القاهرة بين الحين والآخر حيث كان يلتقي بـ "عاكف" ويمزج معه لمعارضته عبد الحميد فيما مضى قائلاً:

"هلم يا عاكف بك" نحن ننتظر منك شعراً يفوق شعر "رضا توفيق بك!".

ومن المعلوم أن "رضا توفيق" كان من أشدّ معارضي عبد الحميد،
 وحينما رأى الخراب والضعف الذي أصاب الدولة بعد خلع عبد الحميد
 نظم قصيدته الشعرية المشهورة "استمدادًا من روحانية عبد الحميد
 (Abdülhamid'in Ruhundan İstimdad)"، وشعر بالندم حينما رأى ما صنعه
 "أنور باشا" و"طلعت باشا" و"جمال باشا" بعد خلع عبد الحميد، حتى إنه
 قال في وصفه لهم:

"لقد أصبح "الحمار" مسؤولاً عن السلاح و"الكلب" مسؤولاً
 عن الأختام و"البغل" مسؤولاً عن الأموال".

وهو يقصد بالحمار "أنور بك" وزير الحربية، وبالكلب "طلعت باشا"
 وزير الداخلية، وبالبغل "جمال باشا" وزير المالية.

وقد طلب "مصطفى صبري أفندي" من "محمد عاكف" أن ينظم شعراً
 كشعر "رضا توفيق بك" يعبر فيه عن ندمه وأسفه تجاه عبد الحميد، ولكن
 القدر لم يمهلهم ليقوم بهذا الأمر، وربما كانت هذه الأفكار دارت في
 أعماق وجدانه.

وبالقطع كان هناك مخلصون ومتدينون ومحبون لوطنهم بين صفوف
 الاتحاديين، إلا أن أغلب كبار المسؤولين في الجمعية كانوا يخضعون
 لتأثير الماسونيين وتحولوا -دون أن يدركوا- إلى مجرد آلة لتحقيق
 سياساتهم الوضيعة، حتى إن الذين أدركوا تلك الحقيقة المخزية كانوا
 ينفصلون عن "الاتحاد والترقي" حتى لا يقعوا فريسةً سائغةً في أيديهم
 ولا يقعوا في خطر كهذا، ولكن ما يؤسف له أن هذا حدث بعد فوات
 الأوان؛ فقد حقق الاتحاديون مآربهم، واستولوا على الحكم، وسيطر
 الماسونيون المنضمون لصفوف الاتحاديين وأعداء الإسلام المبهورون
 بالغرب على الحكم في العاصمة العثمانية، وأبعد المخلصون والمتديّنون

المحبُّون لبلدِهِم الذین دَعَمُوا الاتِّحاديِّین من صمیم قلوبِهِم، وكما یقول هؤلاء الأشخاص بدأ الاتِّحاديُّون الماسونيُّون یستغلُّون نفوذَهُم وتأثیرَهُم الحقیقی من أجل "تغریب الدولة"، وساروا تدريجیًّا نحو تحقیق هذه الأهداف، وفیما بعد دفعت هذه الفئَةُ الدولة العلیَّة إلى أتون الحرب العالمیة الأولى عام (١٩١٤م)، وتسبَّبت فی التضحیة بالملایین من أبناء الوطن، وتجرَّعت الأمَّة مرارةَ هذا الألم من أعماقِها فی تلك الأيام.



تبليغه قرار الخلع

حكم السلطان عبد الحميد الدولة العثمانية التي كانت على وشك السقوط بحكمة ودراية وحنكة بالغة طوال ثلاثة وثلاثين عامًا، وبذل كل ما في وسعه من أجل إطالة عمرها؛ ولكن قيمته وما قام به من أجل الأمة لم يُعرف ولم يُقدَّر حق قدره؛ فخلع من العرش، وباعتماد التوقيع على قرار خلعِه هذا قُضي على العقبة الأخيرة في طريق القضاء على الدولة العثمانية.

ومما يدعو للأسف أن الاتحاديين أبلغوا السلطان عبد الحميد بقرار خلعِه بطريقة مهينة للغاية تُثْم عن محاولة الإذلال، فلم يكن بين الوفد الذي كلفه مجلس النواب ومجلس الأعيان بتبليغ السلطان قرار الخلع أي نائب مسلم تركي، وهذا أمر مخزٍ وشائن للغاية إلى جانب أسلوب صياغة قرار الخلع، وأسبابه المليئة بالافتراءات والأكاذيب، حيث أُدعي أن هذا الوفد الذي حضر إلى قصر "يَلْدِيز" بعد ظهر يوم السابع والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م) لِيُسَلِّم السلطان فتوى خلعِه يمثِّل كافة أطياف الدولة العثمانية ولكنه كان يتألف من:

١- اليهودي "إيمانويل قراسو" (*Emanuel Karasso*) نائب المجلس عن ولاية "سالونيك" - التي بدأت فيها حركات التمرد المعادية لعبد الحميد- الذي هرب إلى إيطاليا مع نهاية الحرب العالمية الأولى بأمواله الطائلة التي تربحها من المناقصات وأكل الأموال ظلمًا وبهتانًا.

٢- الألباني "أسعد طوبطاني" (*Esat Toptani*) نائب المجلس عن "درّاج" (*Draç*) الذي أحسن السلطان عبد الحميد معاملته أثناء عمله

مساعدًا للسلطان، فقد نجح في تلك الفترة في إخفاء رغبته في استقلال ألبانيا عن الدولة العثمانية، والذي خان الاتحاديين خلال حرب البلقان.

٣- الجورجي "عارف حكمت باشا" الذي عمل مساعدًا للسلطان عبد الحميد لسنوات طويلة، ونشأ في كنفه، ورقاه السلطان إلى رتبة فريق أول بحري.

٤- الأرمني "آرام أفندي" نائب مجلس الأعيان وأحد زعماء العصابات الأرمنية المعادية لعبد الحميد.

وقد تلقى القصرُ تلغرافًا يُفيدُ قدومَ هذا الوفدِ لمقابلةِ السلطان، وكان كبارُ القادة والمسؤولين في القصر في انتظارِ هذا الوفدِ الذي سيبلغ السلطانَ بقرارِ الخلع، وكان الجميعُ في حالةِ حزنٍ وقلقٍ، وسادت حالةُ من الترقُّبِ والانتظارِ لقدومِ هؤلاء الأشخاص الذين يحملون الخبرَ المفجعَ الذي يُنبئُ بسقوطِ الدولةِ العليةِ العثمانيةِ وانهارها.

دخل أعضاء الوفدِ إلى حديقة القصر وبصحبتهم مجموعة من الجنود يترأسهم الأمير آلاي "غالب بك" تحسُّبًا لأيِّ مقاومةٍ يمكن أن يتعرضوا لها من جنود القصر، ولكنهم لم يواجهوا أدنى مقاومةٍ على عكس ما توقعوا، ووقفت العرباتُ أمام باب القصر الرئيسي، واستقبلَ الموظفون المختصُّون أعضاء الوفدِ ثم اصطحبوهم إلى دائرة المايين الصغير في قصر بِلْدِيْز، وكان كاتب المايين الأول "علي جواد بك" في انتظارهم أمام الصالون الموجود به عبد الحميد.

كان عبد الحميد حزينًا ومشغولَ البال، وكان الأمير "عبد الرحيم أفندي" يقفُ إلى جواره، وقد أيقنَ أنه ما باليد حيلةً، فاستسلم لقضاء الله وقدره وهيأ نفسه للرضا بكلِّ ما قدره الله، ولم يفقدَ إيمانه بعدالةِ

المولى ﷺ، فلم يسعَ عبد الحميد أبداً وراء مصلحة أو منفعة شخصية؛ بل كانت أسمى غاياته طوال سنوات سلطنته هي خدمة دينه ووطنه وأمته والمسلمين أجمعين، وللأسف ها هو الوفد الذي جاء لتبليغه بقرار الخلع الذي أصدره "المجلس الوطني" ينتظر أمام باب الصالون الصغير الموجود في دائرة المابين.

وبعد قليل قُرِعَ البابُ برفقٍ، ودخلَ كاتب المابين الأول "جواد بك" إلى الصالة، ثم ألقى التحية على السلطان وأبلغه قائلاً:

"لقد حضرَ وفدٌ من المجلس الوطني ويرغبون في مقابلتكم يا مولاي السلطان".

فارتسمت بسمه حزينه على وجه عبد الحميد، وسأله عن أسماء أعضاء الوفد، وحينما علم من "جواد بك" ماهيتهم، قال والبسمه الحزينه ترسم على وجهه وكأنه قد ضرب بالسياط:

"ألم يجدوا أشخاصاً آخرين غير هؤلاء لإبلاغ سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين بقرار خلعه!".

ثم أطبق صامتاً وتسارعت حدة أنفاسه، وكأنه بهذا الصمت يتنحب ويصرخ من داخله، ولكنه تمالك أعصابه وتحامل على نفسه، ثم نظر إلى "جواد بك" وقال:

"إنها إرادة المولى ﷺ، إئذْنْ لهم بالدخول، لنر ماذا لديهم؟".

دخل أعضاء الوفد وفي مقدمتهم الكاتب الأول "جواد بك"، فوقفوا أمام السلطان وألقى كلُّ منهم التحية عليه، فكان مشهداً غريباً وهزلياً للغاية، حيث كان عبد الحميد يشعر بأحاسيس متضاربة ومشاعر مختلطة ولكنه حافظ على وقاره ورباطة جأشه أمام الوفد، ثم ردَّ عليهم التحية وأشار إليهم ليبدؤوا بالحديث، فبدأ "أسعد طوبطاني باشا" الواقف

في مقدّماتهم يتحدّث بلهجته الألبانية بأسلوب تشوّه الوقاحة واللامبالاة، وبعد أن ذكر عدّة جُمَل قال:

"الأَوْصَح لك القرار يا مولاي؛ لقد عزّلتك الأمة، ولكنك آمنٌ على روجك وأموالك وأولادك!".

إن ذكر أسعد باشا لكلمة "العزل" بكلّ وقاحةٍ وسوء أدبٍ واستخفافٍ أمام السلطان بدلاً من كلمة "الخلع" بقوله "لقد عزلتك الأمة" كان ذا مغزى ومعنى كبير.

وتحوّلت البسمة الحزينة المرتسمة على وجه السلطان إلى جدّةٍ وصرامةٍ، وساد الصمتُ لبُرْهَةٍ، ثم نظر عبد الحميد إلى وجه "أسعد باشا" وإلى باقي أعضاء الوفد ورد بصوته الجمهوري وبكل ثقة وثبات قائلاً:

"أعتقد أنكم تقصدون أن تقولوا: إنّ الأمة قد خلعتني، فأنا سلطان الأتراك وخليفة المسلمين، وإن كان هناك أحد يجب أن يخلعني فهو الشعب التركي والمسلمون، أما أنتم فأحذكم يهودي، وثانيكم أرمني، وثالثكم ناكّر للجميل!".

ثم ردّ قول الله تعالى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وكان مَنْ بالخارج يسمع صدى صوت هذه الكلمات، وأمام هذه الكلمات القويّة التي لم يكونوا يتوقّعونها أخذ أعضاء الوفد ينظرون إلى بعضهم البعض في حيرةٍ ودهشةٍ.

وبعدما ساد الصمتُ لبرهةٍ استأنف عبد الحميد حديثه، وسأل أعضاء الوفد قائلاً:

"حسنًا، ما الأسباب التي تستندون إليها في خلعي؟".

وفي تلك اللحظة فتح "عارف حكمت باشا" فتوى الخلع التي كان يمسكها بيده وراح يقرأها قائلاً:

"إذا قام زيد وهو خليفة للمسلمين بإخراج بعض المسائل الشرعية المهمة من كتب الشريعة وإحراق الكتب المذكورة..."

وما إن ذكر "عارف بك" تلك الكلمات حتى غضب عبد الحميد وقال بصوتٍ جهوريٍّ مرتفعٍ:

"يا للعجب! أيُّ كتبٍ شرعيةٍ تلك التي تتهمونني بإحراقها، حاشا لله أن أقوم بمثل هذا العمل! حسبي الله وكفى!".

وبعد تلك الكلمات الخاطفة خيم الصمت على المكان، وأحنوا رؤوسهم، وتوقف "عارف بك" عن القراءة لمدة، ثم استجمع قواه وشجاعته، واستأنف قراءة الفتوى مرة أخرى حتى وصل إلى نهايتها.

وبالطبع كان لدى عبد الحميد الكثير ليقوله إزاء تلك الاتهامات الباطلة كتهمة حرق ومنع الكتب الدينية وقتل الشباب، غير أن التحدث مع هؤلاء المساكين الواقفين أمامه الذين تملؤهم الرغبة بالانتقام والتشفي لم يكن ممكناً؛ فما هم إلا دُمى في يد مَنْ أرسلوهم، والحقيقة أن عبد الحميد لم يحرق طوال سنوات حكمه سوى الكتب الدينية المحرفة للماسونيين ويهود "الدونمة"^(١٣)، ولكنه لم يكن في موقفٍ يجعله يفند هذه الاتهامات واحدةً تلو الأخرى ولا أن يُقدّم كشف حسابٍ لهؤلاء الدُمى؛ إذ لو كانوا يستندون على أدلة قاطعة لهذه الاتهامات لما كانت فتوى الخلع مبهمةً وملتبسةً بهذا الشكل، ونظرًا لأن شيخ الإسلام "ضياء الدين أفندي" يعلم جيّدًا أن تلك الاتهامات لا يمكن إثباتها قانونيًا فإنه لم يُقجم نفسه في إصدار هذه الفتوى، ولكنه كتب فتوى غامضةً كهذه

(١٣) الدونمة: هي طائفة من اليهود من أتباع "سباتاي سوي" الذي ادّعى أنه المسيح، لكنه أسلم بعد أن تم القبض عليه في عهد السلطان محمد الرابع، فتبعه قسم من اليهود الذين عرفوا لاحقًا بـ "السبتين" أو "الدونمة"، وكلمة "الدونمة" (Dönme) كلمة تركية معناها العائد أو المرتد، وقد اختارها الأتراك وأطلقوها على هؤلاء اليهود المتظاهرين بالإسلام، حيث أضمرُوا اليهودية في نفوسهم. (المترجم)

تسحبُ وتتقلبُ ويمكنُ حملُها على كافة الوجوه والمعاني؛ حتى يمكنه التملُّص من الضغوط والإفلات من قبضة الاتحاديين، ولم يُقدِّر أحدٌ ما قام به عبد الحميد من خدمات جليلة للدولة العثمانية وللمسلمين سوى المولى عز وجل ثم أمة الإسلام التي أدركت تلك الخدمات إدراكًا تامًّا، ومهما حاول أعداؤه تسفيه أو نكران أو محو ما قام به من خدمات للدولة العثمانية من الذاكرة فلن ينجحوا في ذلك.

وبعد أن استمع عبد الحميد إلى الفتوى الصادرة بحقه حتى نهايتها، وأدرك أنه لا يوجد في الفتوى قرار قاطع وصريح بخلعه، سأل بصوته الجمهوري:

"من أي منصب صدرَ هذا القرار؟".

فأجابه "حكمت باشا" بصوتٍ منخفضٍ ومرتعش:

"من المجلس الوطني".

فصمت عبد الحميد لبرهة، ثم قال باندهاش:

"يا للعجب، المجلس الوطني!".

كان عبد الحميد محققًا في التعبير عن اندهائه؛ فقد اتَّخذَ قرارُ الخلع بالفعل في "المجلس الوطني" المزعوم، ولكن الحقيقة المؤلمة أنه عند اتخاذ هذا القرار لم يُسمح لأحدٍ ممن في قاعة الاجتماع والتصويت بمعارضة هذا القرار، فالكثير من الأشخاص الذين لم يرفعوا أيديهم للتصويت بالموافقة على هذا القرار قد صوّتوا لصالحه وكأنهم اقتنعوا فجأة بعد أن نظر إليهم "طلعت باشا" بنظراته الحادة، ولم يعترض أحدٌ في ذلك اليوم سوى نائب مجلس الأعيان "يورجي ياديس (Yorgiadis)"، ورافقه في ذلك أحدهم قائلاً:

"عارٌ عليكم أن تفعلوا هذا!".

وما إن قال ذلك الرجل هذه الكلمات حتى دَوَّتْ في القاعة هتافاتُ ضده فحواها: "اصمت أيها الخائن الوضيع المتخلف".

وكان عبد الحميد قد هَيَّأَ نفسه للانصياع لقرار المجلس حتى لا يفتح الطريق أمام صراعات ونزاعات داخلية، وحتى يدفع الضرر عن الدولة والأمة ويمنع انجرافها نحو الهاوية، وفي النهاية وجه حديثه إلى أعضاء الوفد قائلاً:

"لقد عملتُ لثلاثة وثلاثين عامًا من أجل الأمة والدولة، ومن أجل سلامة البلاد والعباد، وإنني مسؤول عن ذلك أمام الله تعالى، إنني أسلمكم البلاد كما تسلمتها، لم أُفْرِطْ أبدًا في شيء من أراضيتها لأَيِّ أحدٍ كان، وما فعلت ذلك إلا لنيل رضا الله تعالى والفوز به، وما حيلتي فقد أراد أعدائي تشويه كل ما قدمته من خدمات لبلادي، ونجحوا في ذلك".

وبعد أن قال عبد الحميد تلك الكلمات المحزنة تقدَّم بِقَدَمِهِ اليمنى خطوة للأمام، ثم دعا قائلاً:

"اللهم عليك بأعدائي، اللهم اجعل الدائرة عليهم والعنهم لعناً كبيراً!".

التفت عبد الحميد مرة أخرى إلى "حكمت باشا"، وسأله قائلاً:

"وما هو مصيرنا الذي ارتآه مجلسكم؟".

كان المجلس كان قد اتخذ أيضًا قراره بهذا الشأن، وهو نفي عبد الحميد إلى "سالونيك" وعدم السماح له بالبقاء في إسطنبول، وكان عليهم أن يبلغوه بهذا القرار.

وحينما عرف السلطان عبد الحميد الثاني بقرار المجلس هذا طلب السماح له بأن يقضي ما تبقى من عمره مع أولاده وأحفاده في قصر

"جراغان (Çırağan)" الذي عاش فيه أخوه "مراد الخامس" حتى وفاته عام (١٩٠٤م)، وذكر أنه يمكنه الانتقال إلى هناك من صباح الغد، وتمنى ألا يُسبَب هذا الأمرُ أئمةً مشكلاتٍ، ولكن "عارف باشا" ردَّ عليه ردًّا قاطعًا بقوله:

"لقد أبلغت بأن أخير جلالتكم بأنكم ستنعمون بالراحة في "سالونيك" وأنكم ستذهبون إلى هناك في حماية الجنود".

إلا أن الجهود التي بذلها "جواد بك" والفريق "حسني باشا" رئيس الوفد العسكري المكلف باصطحاب عبد الحميد إلى "سالونيك" في هذا الشأن لم تُسْفِر عن شيءٍ ولم تنجح، ولم يَسْمَحْ له مجلسُ النواب بقضاء بقية عمره في إسطنبول.

وفي نهاية الحوار لم يجد عبد الحميد ما يقوله لأعضاء الوفد سوى قوله:

"حسنًا أيها السادة، يمكنكم الذهاب".

فتح "جواد بك" الباب من أجل توديع الوفد بعد أن أشار له عبد الحميد بذلك، ثم توجه عبد الحميد إلى الداخل، وما إن دخل إلى القاعة الكبرى حتى رأى الأمير "عبد الرحيم أفندي" ملقًى على الأرض من شدة الحزن؛ فصاح على والدته "بيوسته (Peyveste) قادين أفندي" قائلاً:

"أسرعي لقد سقط ولدنا على الأرض فلتهتبي بأمره".

فهرعت إليه أمه المسكينة على الفور، وبعد ذلك طلب عبد الحميد من الجميع الذهاب إلى غرفهم ليستريحوا بعض الشيء وأن يحافظوا على ثباتهم ورباطة جأشهم، ثم أردف قائلاً:

"ربما يصطحبوننا من هنا غدًا أو بعد غد، لقد ذبلت وجوهكم وشحبت عيونكم، هيا فلتتوقفوا عن البكاء!".

ثم خرج الأمراء والأميرات الصغار من الحجرة بعد أن قبلوا يديه والدموع تنهمر من أعينهم، وأثناء توجُّههم إلى عُرفهم كانوا يمرُّون من بين خادِمات القصر العجائز والشابات اللائي كنَّ يبكين من شدَّة الحزن؛ فقد ترك الأمراء الكبار القصر، وذهبت الأميرات المتزوجات إلى منازلهن قبل ذلك خشية على حياتهن من طيش تلك الأحداث.

وهكذا فقد انتهى كلُّ شيءٍ وطويت مرحلةٌ من تاريخ الأسرة العثمانية، فقد خُلِعَ السلطان العظيم من العرش وحدث ما حَدَث، وبدأ العدُّ التنازلي لسقوط الدولة العثمانية؛ فَسَتَمَزَقَ هذه الدولة الكبيرة التي حاول عبد الحميد جمعَ شتاتها وتقويتها إلى أشلاء خلال بضع سنوات، وستدفعُ الأمة والدولة ثَمَنَ الظلم الذي تعرَّضَ له عبد الحميد باهظاً، أما عاقبة من ظلموه فستكون وخيمةً، ولكن سيأتي يومٌ تظهرُ فيه قيمته وقيمه ما قامَ به لصالح البلاد، وستوفيه الأجيال المخلصة حقَّه، وترفعُ قدره، وتذكره في كلِّ مكان.



نفيه إلى "سالونيك"

وبعدما غادر الوفد المكلف بإبلاغ عبد الحميد قرار الخلع، عَلم حريم القصر بما دار في هذا اللقاء، فاستبدَّ الحزنُ بزوجاته وأبنائه وبناته الأمراء والأميرات وبالخدم وندمائهم ومصاحبيه أيضًا، وكان كلُّ منهم يدخل من حين إلى آخر على السلطان ويتحدَّث معه ويبكي، وقد حاول عبد الحميد تهدئتهم ومواساتهم، ولكنه كان يعلم جيدًا أن هذه المحاولة عديمة الجدوى، ولكنه كان يخفُّف عنهم بأنهم ربما لو أخبروا الاتحاديين برغبتهم في البقاء بإسطنبول؛ فثمةَ بارقة أمل في أن يعدلَ الاتحاديون عن قرار إبعادهم عنها.

وأخيرًا جاء الخبرُ الذي ينتظره الجميع بفارغ الصبر؛ فقد وصل في الساعات التالية وفدٌ مكوَّن من "حسني باشا" و"هادي باشا" و"غالب بك" والضابط "فتحي أوقيار بك" (*Okyar*)، وكان الفريق "حسني باشا" قائدًا مهذبًا للغاية يكنُّ احترامًا كبيرًا لعبد الحميد، وقد أبلغ الكاتب الأول "جواد بك" عبد الحميد على لسان اللجنة وباسمها "أنه سيتم نقله إلى أحد القصور الصغيرة في "سالونيك"، وأنه يجب عليه أن يستعدَّ للذهاب إلى هناك في الحال"، ولكنه أصرَّ على موقفه قائلاً:

"كلا، لن أذهب إلى هناك وليفعلوا بي ما يشاؤون هنا في إسطنبول!"

فلم يكن أحدٌ قد رأى مثل هذا الأمر ولا سمع به في التاريخ العثماني حتى ذلك الحين، فالسلاطين الذين خُلعوا من العرش فيما مضى قد عاشوا في إسطنبول، ولم يُنقل أحدٌ منهم إلى مدينة أخرى.

وردّ عليه "جواد بك" قائلاً:

"لا تستمروا في العناد والإصرار وارزقوا بأولادكم، إن
وظيفتي تنتهي الآن وسأمضي أنا أيضاً، فهيا أسرعوا؛ لأن أعضاء
الوفد بالخارج ينتظرون ردّكم".

وعلى الفور التقى عبد الحميد بأعضاء الوفد، وتحدّث إلى "حسني
باشا" قائلاً:

"إنني أريد الموت هنا في إسطنبول، فهنا دفن أجدادي، إن
نقلكم إليّ أمرٌ يخالف المشروعية والدستور، لقد عاش أخي
المريض السلطان "مراد الخامس" لسنوات في قصر "جراغان" وأنا
أرغب في الإقامة هناك".

لكن "فتح بك" ردّ عليه قائلاً:

"إن الجيش سيتكفل بالحفاظ على حياتكم ويعمل على
راحتكم، لا تضطرونا لاستخدام القوة بأيّ حالٍ من الأحوال!".
ثم تحدّث "حسني باشا" إلى عبد الحميد بأقصى درجات الأدب
والاحترام والحنن يرتسم على وجهه قائلاً:

"إنني أحترم رغبتكم بالبقاء في إسطنبول، ولكنّ الجيش
اتّخذ قراراً قاطعاً في هذا الشأن، فكلّ شيءٍ مجهّز لاستقبالكم
في سالونيك".

وبعد هذا عاد عبد الحميد إلى القاعة مرة أخرى، واستبد الحزن بكل
من بقي في القصر، فلما رأى عبد الحميد الحزن على وجوههم ازداد
حزناً على حزنه، وأمر "جواد بك" أن يخبرهم بآخر أمنيّاته قائلاً:

"إنني مُعَبٌّ، وكَبُرَ سَيِّ لي بالسفر طويلاً، وأُقَسِّمُ
بالله أنني لا أطمعُ في أيّ شيءٍ ولا حتى في السلطنة ومستعدّ لأن

أَقْدَمَ كَافَّةَ الضمانات الشخصية، لذلك إن آخَرَ شيءٍ أطلبه من أمّتي أن أقضيَ البقية الباقية من عمري مع أولادي في أحد أجنحة قصر "جِزَاعَانَ"، ولا ينبغي أن يحرموني من رغبة بسيطة كهذه!".

إلا أن تصرّف جواد بك كان غريباً للغاية ومثيراً للعجب؛ فعلى غير المتوقع قد تصرّف بوقاحةٍ شديدة، واكتنفته اللامبالاة، فتجراً وهم بالرد على ما قاله "عبد الحميد" لكنّه أثر السكوت وخرج من الغرفة، وكان "جواد بك" بهذا التصرف يحاول استمالة جانب الاتحاديين والظهور أمامهم بمظهر لطيف عذب فهم أصحاب السلطة الجدد؛ فهو يُغازِلُهم بإزعاج السلطان عبد الحميد حتى لا يفقد منصبه.

فبعد وفاة كاتب المابين الأول "سريا باشا" في نوفمبر/تشرين الثاني (١٨٩٤م) تولى "تحسين باشا" هذا المنصب بدلاً منه، إلا أنه في الرابع من أغسطس/آب (١٩٠٨م) عقب إعلان المشروطية الثانية عُزِلَ "تحسين باشا" من منصب "كاتب المابين الأول" بدعوى أنه أحد رجال عبد الحميد، وبعد عزله حلّ محله "جواد بك" أحد أعضاء "الاتحاد والترقي" وهو محل ثقة "تركيا الفتاة"، وقد ظل "جواد بك" آخر من تولى منصب كاتب المابين الأول في عهد عبد الحميد في هذا المنصب حتى ليلة السابع والعشرين-الثامن والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م)، التي عُزِلَ فيها عبد الحميد ونُفِيَ إلى "سالونيك".

وبعد أن ذهب "جواد بك" إلى الوفد عاد إلى عبد الحميد مرة أخرى وأبلغه بعباراتٍ نابيةٍ غليظةٍ وبصوتٍ عالٍ على غير المعتاد قائلاً:

"أنتم مجبرون على الذهاب إلى "سالونيك"، وهناك وحدة عسكرية برئاسة الفريق "حسني باشا" تنتظركم حتى تصطحبكم أنتم وعائلتكم من القصر".

استبد الحزن بعبد الحميد إزاء التصرُّف غير اللائق والكلمات الخارجة عن حدود الأدب التي تحدث بها "جواد بك"، ويا للعجب! فهذا هو "جواد بك" الذي كان قد جثا على ركبتيه أمام السلطان عبد الحميد ليقبَل قدميه بعد أن أنعم عليه السلطان بحفنة من الأموال، ولكنَّ عبد الحميد نهَرَهُ على هذا الأمر، وأمره بالألا يُكرِّره ثانية.

فهذا الرجل الذي كان قريبًا من السلطان أثناء حكمه أصبح من الدَّ أعدائِهِ عند خلعِهِ من العرش، فقد تحدَّث إليه عبد الحميد ذات مرة أثناء حصار يَلْدِيرُ بكل دماثة خَلِقٍ وأدبٍ قائلاً:

"هل يُعْقَلُ! وأيُّ ضمير يرضى أن يُترك هؤلاء النساء والأطفال الأبرياء الموجودون في القصر في رعبٍ وخوفٍ ودون طعام، إذا تعلَّق الأمرُ بشخصي فلا بأس".

فردَّ عليه "جواد بك" قائلاً:

"لماذا لم تفكِّروا في هذه المصائب التي أصابتكم وتتهيَّؤوا لها من قبل؟"

فأجابه السلطان قائلاً:

"الله المستعان في وقتِ المحنة والشدائد، وإني على ثقة في أن دعوات قلبي المظلوم ستتحقق يوماً ما".

كانت ابنته الأميرة "شادية سلطان" شاهدةً على هذا الحوار ورأت أن عيني والدها قد اغرورقتا بالدموع، فاستبدَّ بها الحزن والذهولُ وكأنَّ أحداً قد طَعَنَها بخنجرٍ في قلبها، وصرخت في وجه "جواد بك" وزجرته ونهَرته بما تُكِنُّه في نفسها بلا ترددٍ.

ولما حان وقتُ ذهاب السلطان وعائلته إلى "سالونيك" جاءهم "جواد بك"، وقال:

"الوقتُ ضَيِّقٌ والمكان الذي ستذهبون إليه فيه كلُّ شيءٍ، إن المدافع قد تُوجِّهُ ضرباتها نحوكم، لذا فَمَنْ الأفضل أن تُسرعوا".

وهكذا لم يسمح لهم بأن يأخذوا أي شيء ولو حتى ملابسهم، وفي وسط حالة التعجل والاضطراب هذه كان الجميع يأخذ ما يقع في يده.

كان الوفد الذي سيصاحبه ومن معه من قصر يُلْدِيزُ حتى محطة قطار "سِرْكُجِي" (Sirkeci) ينتظر أمام الباب، وما يدعو للعجب أن عبد الحميد كان يتشارك نفس القَدَرِ مع عَمِّهِ "عبد العزيز"؛ فقد وصلَ "العثمانيون الجدد" -الذين لجؤوا إلى أوروبا من أجل إسقاط عبد العزيز- إلى مقاصدهم ونجحوا في خلع "عبد العزيز"، ولم يحدث أيُّ استقرارٍ سياسيٍّ عقب خلعِهِ عن العرش، بل على العكس فقد نشبت "حرب ٩٣" إثر ذلك، وفقدت الدولة العثمانية ما يقربُ من نصفِ أراضيها العريقة في البلقان.

وما يدعو للحُزْنَ أكثر هو أن العثمانيين الجدد الذين خلعوا عبد العزيز، و"تركيا الفتاة" التي خلعت عبد الحميد كانوا يَحْتُمُونَ بالدول الكبرى الراغبة في تمزيق الدولة العلية، فكان كلا الفريقين قد تلقى الدعم اللازم من الدول الغربية، وكانت تنظرُ إليهم تلك الدول على أنهم الأمل الذي سيُحَقِّقُ لها مآربها في الدولة العثمانية، فكان العثمانيون الجدد والشبان الأتراك الذين هيجوا الرأي العام وانتفضوا وثاروا من أجل إعلان المشروطة يعتقدون أن هذا الأمر سيُنقِذ الدولة العثمانية.

وقد نفَّذَ عبد الحميد مطالبهم مرتين خلال سنوات حكمه مع أنه كان معارضاً لها؛ حيث أعلنَ المشروطة للمرة الأولى عام (١٨٧٦م) والثانية عام (١٩٠٨م)، ومع الأسف اتَّضح فيما بعد أن هذا النظام السياسي غير ملائمٍ للدولة العثمانية وليس في صالحها، كما اتَّضح متأخراً أن تطبيق

النظام المشروطي في الدولة العثمانية ذات القوميات والأجناس والأديان المتعددة في تلك الفترة والتي سادت فيها أفكار الاستقلال والنزعات والنعرات القومية في كل مكان لم يكن سبيل الخلاص، أما الجانب الذي يدعو للحيرة والدهشة فهو عدم مقدرة جمعية "تركيا الفتاة" - التي اتخذت من الغرب مثلاً لها - على إدراك الحقائق التي رآها وعاشها عبد الحميد بين جدران قصر يلديز، حتى إنهم أغرقوا سفينة هذا الوطن الذي رواه العثمانيون بدمائهم، فقصت "تركيا الفتاة" على تجربة عبد الحميد الذي نجح في إطالة عمر الدولة العثمانية وإكسابها زخماً بسياساته الخارجية المتوازنة، ولم يُمكنهم أن يروا ويدركوا كيف أن الدول الغربية التي خدعهم واستخدمتهم كالعوبة كانت تُنجي الخلافات والتنافس الشديد جانباً وتتفق فيما بينها عندما يتعلق الأمر بالدولة العثمانية، ولكن الأمر الوحيد الذي لم تتوافق عليه روسيا والدول الأوروبية هو من سيكون له حصة الأسد من جسم الدولة العثمانية المفترسة، ومما يؤسف أن "تركيا الفتاة" والاتحاديين لم يدركوا تلك الحقيقة الجلية، وتحولوا بجهلهم وسذاجتهم إلى يبادق في يد الدول الأوروبية.

كانت الإمبراطورية العثمانية تضم في بنيتها شعوباً ومِللاً شتى، فكان نظام المشروطية في بلد ذات بنية اجتماعية متعددة الثقافات على هذا النحو يعني "الموت والفناء" بالنسبة للعنصر الأساسي في ذلك البلد، ولا سيما في ظروف ذلك العصر علاوة على أن الفكر الديمقراطي لم يكن قد تطور وتبلور بالمعنى الحديث بعد؛ فقد كانت دول العالم متعددة الشعوب والجنسيات تهاوى وتزول من على مسرح التاريخ تحت تأثير الفكر الدستوري والقومي، فمثلاً لم يكن في تلك الفترة نائب هندي أو إفريقي أو مصري في البرلمان الإنجليزي، ولا نائب جزائري في البرلمان الفرنسي، غير أن هذه الدول نفسها كانت تضغط من أجل إدخال نائب

یونانی، وأرمینی، وصریبي، وبلغاری، وعربی فی البرلمان العثماني، وذلك بدعوى أنها كانت ترغب بهذه الطريقة في فتح طريق الاستقلال لهذه الشعوب، غير أن غايتها الأصلية هي تمزيق الدولة العثمانية، وإزالتها من على ساحة التاريخ، ولهذا السبب كانت تساند المشروطية وتدعمها، ولذلك فقد حمت ورعت حركة العثمانيين الشبان، ثم حركة تركيا الفتاة في أول الأمر، وقد انخدع المنتسبون لِكِلتا المجموعتين أو الحركتين على مرأى ومسمع التاريخ إما على علم منهم أو على جهل، كما تسبوا في معاناة الملايين من أبناء الوطن الأبرياء، بالإضافة إلى أن معظم هؤلاء اضطرَّ إلى ترك البلاد بعد أن تمزقت الإمبراطورية.



قضية فلسطين

كلما كان عبد الحميد يتذكر الدور الذي لعبته القوى الصهيونية والماسونية في خَلْعِهِ لم يكن يجد أيَّ مبررٍ أو عذرٍ لمن ساعدوهم وعاونوهم، وبالتالي لم يكن يستطيعُ أو يستطيعُ أن يسامحهم، فقد عملَ طوالَ سنواتٍ حكمِهِ على تطبيق مشروع الوحدة الإسلامية، واستخدمَ ببراعةٍ وحنكةٍ مقامَ الخلافة الذي شعرَ بمسؤوليَّته وقيمتِهِ المعنويَّة من أجلِ الحفاظِ على سلامة الدولة ووحديتها، وعلى الرغم من وقوع الدولة تحت وطأة الأعباء والديون إلا أنه أدركَ جيِّدًا التوازنات الموجودة على الساحة السياسية العالمية حيث قام باستثمارات ومشاريع خدمية من أجل مستقبل الدولة العثمانية، وافتتح العديد من مشروعات المؤسسات التي لا تزال تقدِّمُ خدماتها إلى يومنا هذا في مجالات مختلفة كالتيعليم والمواصلات والتلغراف والاتصالات في كافة أرجاء البلاد، وخاصة في الأناضول.

وقد أثارت تلك الأنشطة والمشاريع حماسة الأمة، وساعدت في إطالة عمر الدولة، كما حال عبد الحميد بهذا دون حصول اليهود على ذرة ترابٍ واحدةٍ من أرض فلسطين على الرغم من عرض الصهاينة مبالغٍ ماليَّة مغرية جدًّا من أجل الاستيطان في أراضيها، فكان هذا سببًا كافيًا لقيام الصهاينة -الذين يعتقدون أن القدس الشريفة هي الأرض الموعودة لهم- ببذل كل ما يستطيعون من أجل خلع عبد الحميد.

وقد توافدت الهجرات اليهودية إلى الأراضي العثمانية خلال سنوات حكم عبد الحميد للعديد من الأسباب، وأدرك العالم أجمع حينها ما يحمله السلطان عبد الحميد في نفسه من أسمى معاني الرحمة والشفقة، فمع مطلع القرن العشرين كان اليهود القاطنون في الدول الأوروبية يُرسلون برقياتٍ إلى قصر يلدیز يطلبون فيها أن يحميهم السلطان العثماني ويمدّ لهم يد العون، وأن يسمح لهم بالإقامة في القدس وإسطنبول وممارسة شعائرهم الدينية بحرية، وألا يمانع في عملهم بالتجارة، كما طلبوا حماية السفراء والقنصليات العثمانية لليهود خارج البلاد، وفي مقابل هذا كلّه قدّم اليهود المقيمون في الأراضي العثمانية وعداً أن يكونوا رعايا وأتباعاً للدولة العثمانية وعبداً مخلصين للسلطان العثماني، وأنهم لن يخونوا هذا العهد برغم اختلاف ديانتهم، وأنهم سيدفعون الضرائب بانتظام ويؤدون الخدمة العسكرية في الجيش العثماني.

تُرى؛ لماذا إذاً كان اليهود يرسلون مثل هذه البرقيات إلى القصر العثماني؟ إن هذا لسؤال مهم؛ فعند النظر إلى تلك الفترة التي كتبت فيها هذه البرقيات يتّضح بالبداهة أنّه قد حدثت العديد من التطوّرات السلبية التي أثّرت على الحالة النفسيّة لليهود الذين عانوا كثيراً وتعرّضوا للظلم والاضطهاد على يد الحكّام والشعوب المسيحيّة في الدول الأوروبية، فمع وفاة القيصر الروسي "ألكسندر" عام (١٨٨١م) ازدادت حدّة العداء والاضطهاد ضدّ اليهود في روسيا ممّا دفعهم للهجرة منها أفواجاً أفواجا، كما أُسست في تلك الفترة جمعية "محبّي صهيون"، ومن هنا ظهرت فكرة الصهيونية وكانت غايتها هي توطين اليهود الذين تعرّضوا للاضطهاد في أوروبا داخل الأراضي الفلسطينية.

كانت الدولة العثمانية هي الملجأ الأول للشعب اليهودي الذي تعرض لكافة أنواع الظلم والاضطهاد في روسيا ورومانيا واليونان وأوروبا الشرقية مما جعلهم في ثمانينات القرن التاسع عشر يهجرون المدن التي عاشوا فيها، ولقد كانت مساعدة المظلومين والمهجرين واللاجئين من شيم الدولة العثمانية كما هو الحال على مدار تاريخها العريق، فقد اضطلعت الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على البلقان وأوروبا الشرقية بدور كبير في إيواء اليهود مدة طويلة في تلك الأراضي دون أدنى مشكلة تُذكر.

وفي حين ازدادت حدة العداوة والاضطهاد ضد اليهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في قارة أوروبا وخاصة دول أوروبا الشرقية، كانت الدولة العثمانية تتهجّج نهجاً مخالفاً عن أوروبا في معاملتها لليهود، والدليل على سماحتها تجاه اليهود ذلك المرسوم الذي صدر عام (١٨٦٥م) بشأن اليهود العثمانيين؛ إذ مهّد الطريق لزيادة التكافل الاجتماعي فيما بينهم لتنظيمهم كجماعة دينية، فكان حكام الدولة العثمانية الذين تسامحوا تجاه كلّ دين وعرق على مرّ العصور يقومون بكلّ ما هو ضروري لتأمين احتياجات اليهود المهاجرين، وفي حين كان بعض اليهود السفارديم الذين كانوا يعيشون في الدولة العثمانية منذ زمن يضعون العراقيل أمام اليهود المهاجرين الراغبين في ممارسة شعائريهم طبقاً لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة؛ فقد سمحت لهم الدولة بممارسة شعائريهم وأداء عباداتهم بحريّة تامّة.

كانت وجهة نظر عبد الحميد تجاه القضية الفلسطينية واضحة جداً؛ فقد كان يأمر سفراءه الرسميين ورجال المخابرات بجمع المعلومات عن الحركة الصهيونية وتقديمها بصفة دورية في صورة تقارير فتعرض

على المابين قبل تقديمها إلى "الباب العالي"، وفي النهاية سُمح لليهود الذين عوملوا معاملة سيئة للغاية من قبل المتطرفين الكاثوليك في أوروبا وتعرضوا للمذابح والقتل والاضطهاد والنبد والإقصاء من المجتمع -سُمح لهم- بالإقامة والاستيطان في المدن العثمانية عدا فلسطين، وقدمت لهم التسهيلات اللازمة.

وقد قامت الدولة العثمانية منذ اليوم الأول لحركة الهجرة اليهودية باتخاذ إجراءاتٍ وتدابيرٍ احتياطيةٍ خاصةٍ من أجل فلسطين، وتبنت المسألة الفلسطينية كسياسةٍ دوليةٍ، وفُرقت بين البعد الإنساني للهجرة والبعد السياسي؛ فقد شعر اليهود المضطهدون الذين هاجروا إلى الدولة العثمانية خلال الموجة الثانية من هجرتهم بالأمن في ظل الحكم العثماني، وكانت هجرتهم إلى الدولة العثمانية مرة أخرى بعد هجرتهم خلال حكم السلطان "بايزيد الثاني" قبل عصورٍ طويلةٍ خيرٌ دليلٍ على هذا الأمر.

وكدليلٍ على اهتمام الدولة العثمانية البالغ بفلسطين والقدس الشريف أصدر عبد الحميد مرسومًا في السابع عشر من مارس/آذار عام (١٨٨٠م) يقضي بالحد من عمليات التوطين المستمرة لليهود، إلا أن عدد المستعمرات الصغيرة التي نجح اليهود في إقامتها في فلسطين قبل تأسيس المنظمة الصهيونية قد وصل إلى عشرين مستعمرة صغيرة، وقد تسببت تلك المستوطنات في إحداث قلقٍ كبيرٍ لدى الدولة والإدارة.

إن العرض المغربي الذي قدّمه الزعيم الصهيوني "تيودور هرتزل (Theodore Herzl)" إلى عبد الحميد عن طريق الوسيط مرةً، وبثنيته مرةً أخرى -وهو أن يحصل اليهود على أراضي فلسطين مقابل سداد ديون الدولة العثمانية- يظهر مدى أهمية الأمر وخطورته، فهذا العرض الخيالي الذي تقدم به الصهاينة من أجل شراء أراضٍ في "القدس" و"يافا" يوضح

مدى نظرة اليهود الخاطئة للدولة العلية ورؤيتهم إياها دولة استعمارية كإنجلترا، ولكن أكثر من يدركون خطأ تلك النظرة هم اليهود أنفسهم ولا سيما الذين عاشوا في ظل الدولة العثمانية لعصور؛ إذ لا يمكن للدولة العثمانية أن تفصل فلسطين عن وطنها الأم أبداً.

كانت إنجلترا الطامعة في آبار البترول التي تم اكتشافها في الشرق الأوسط مع نهايات القرن التاسع عشر عازمة على حماية اليهود وتحريضهم ضد الدولة العثمانية، فقد كان اليهود خلال موجة الهجرة الأولى التي حدثت عام (١٤٩٢م) يُنظر إليهم بين الأمم الغربية على أنهم أعداء أوروبا، أما خلال موجة الهجرة الثانية أي بعد ذلك بأربعة قرون فقد اختلف الأمر على الرغم من أنهم قد عاشوا مشكلات مع مجتمعات شرق أوروبا؛ حيث صاروا متفاهمين مع دول غرب أوروبا، ويسعون إلى كسب دعمهم السياسي بشأن الاستيطان في فلسطين.

وعندما ازدادت موجات وحملات تهجير اليهود في أوروبا الشرقية اتخذت الدولة العثمانية قراراً في الرابع والعشرين من يونيو/حزيران (١٨٨٢م) يسمح لليهود باللجوء للدولة العثمانية شريطة أن يقيموا في الأراضي التي ستحددها الدولة -مثل شمال العراق بعيداً عن فلسطين- وألا يتجاوز عدد المنازل والأسر عن مائة أو مائة وخمسين منزلاً في المدينة الواحدة كحد أقصى، كما قدمت مساعدات مالية للمهاجرين الفقراء المحتاجين؛ ولكنهم مُنعوا نهائياً من الاستيطان في صورة جماعية في فلسطين، إلا أن اليهود وعلى الرغم من السماح التي حظوا بها في ظل الدولة العثمانية كانوا يرغبون في الاستيطان بفلسطين التي يعتبرونها الأرض الموعودة، كما أنهم يأملون في إقامة حكم مستقل وذاتي خاص بهم.

وقد بذل اليهود جهودًا كبيرة في سبيل تحقيق هذا الهدف خلال سنوات حكم عبد الحميد؛ فواصلوا عمليات الاستيطان في فلسطين بشتّى الطرق، ولكنهم لم يحصلوا نسبيًا على النتيجة التي كانوا ينشدونها، كما عمل أغنياء اليهود الأوروبيين على شراء الأراضي في فلسطين وتوطين المهاجرين بها، وعلى الرغم من حظر الحكومة لهذا الأمر إلا أن بعض موظفي المحليات والمتصرفيات وبعض عامة الناس باعوا أراضي لليهود في مقابل مبالغ مالية كبيرة، وبناءً على هذا اشترى عبد الحميد جزءًا من أراضي الدولة في هذه المنطقة كأملًا خاصّة به.

واعتبارًا من عام (١٨٩٦م) بدأ الأثرياء اليهود المناهضون لحركات التمييز العنصريّ ينظّمون أنشطةً دعائيّةً صهيونيّةً دوليّةً من أجل إقامة دولةٍ يهوديّةٍ في فلسطين، وكانت أبرزُ الشخصيات التي ظهرت وسط اليهود والتفتّ حولهم ووحدت صفوفهم في تلك السنوات المجري "تيودور هرتزل" مؤسس الفكر الصهيوني وصاحب كتاب "الدولة اليهودية"، وهو الذي أساء الأدب في حديثه عن المسجد الأقصى الذي عرج منه النبي ﷺ إذ قال: "سَتَخْلُصُ من هذا العَفْنِ عمّا قريب!!".

وقد ترأّس "تيودور هرتزل" الذي تبنّى القضية اليهوديّة طوال حياته المؤتمر الصهيونيّ الأوّل (مؤتمر بازل) الذي عُقدَ في التاسع والعشرين من أغسطس/آب (١٨٧٩م) بمدينة "بازل" السويسرية، وخلال هذا المؤتمر جُمعت الاعتمادات المالية اللازمة من أجل تنفيذ البرنامج المتفق عليه؛ حيث اتفقَ أولاً على أن يُطلب من الدولة العثمانية جزءً من أراضي فلسطين لإقامة حكمٍ مستقلّ، ثم الإعلان عن إقامة وطن قومي لليهود في تلك المنطقة بعد ذلك، وعلى الرغم من أن جدول أعمال المؤتمر قد تضمّن أفكارًا ومقترحاتٍ مختلفة؛ فقد تبلّورت فكرة إنشاء

وطن قومي لليهود في فلسطين خلال هذا المؤتمر الصهيوني الأول، وقد تحدث "هرتزل" عن ثقته في دعم يهود العالم، وأفصح عن حدود الدولة اليهودية الوليدة حيث قال:

"ستمتد حدودنا الشمالية حتى جبال قبدوقيا (وسط الأناضول)، والجنوبية حتى قناة السويس، وسيكون شعارنا فلسطين هي دولة سليمان وداود، لقد أُسست الدولة اليهودية خلال مؤتمر "بازل"، وأعلم أنني حين أقول هذا بصوت مرتفع سيضحك العالم أجمع، ولكن الجميع سيري أن هذا سيتحقق عاجلاً أو آجلاً".

كان "هرتزل" يُدرك جيداً أنه حتى يتم توطين المهاجرين اليهود في فلسطين وتأسيس دولة يهودية بها لا بد من إقناع عبد الحميد أولاً؛ فتحرك على الفور في سبيل تحقيق هذا الهدف وفي مخيلته إمكانية الضغط على عبد الحميد بورقة الديون الخارجية للدولة العثمانية.

فقد تناقلت الديون الخارجية على الدولة العثمانية للمرة الأولى عقب حرب "القرم" التي خاضتها ضد روسيا عام (١٨٥٤م)، ومع مرور السنوات كان حجم الدين يزداد، ولم تعد الدولة قادرة على سداد تلك الديون، وكان اليهود يرغبون في الاستفادة من الفرصة السانحة بإعلان الدولة العثمانية إفلاسها عام (١٨٧٥م) بسبب تناقل الديون الخارجية عليها.

وعلى الرغم من أن وتيرة الأنشطة الاستيطانية اليهودية في فلسطين قد تسارعت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي إلا أن الدولة العثمانية لم تُعَادِ اليهود، غير أن التصدي لموجات الهجرة اليهودية من مواطني الدول الأخرى كان يزداد صعوبةً عامًا بعد عام، وعلى الرغم من اتخاذ كافة التدابير الدبلوماسية والقانونية لِمَنْعِهِمْ؛ كان اليهود المهاجرون من روسيا وأوروبا الشرقية يلجؤون للدولة العثمانية بطرق غير شرعية.

وقد قدّم الصهاينة الراغبون في توطين اليهود في فلسطين عروضاً مغرية جداً إلى السلطان عبد الحميد؛ فقد عرضوا عليه سداد ثمانين بالمائة من ديون الدولة العثمانية الخارجية في الفترة التي تعرضت فيها مالية الدولة لأزمة كبيرة، ولكن حنكة عبد الحميد جعلته يعي تماماً مدى أطماع الصهاينة والقوى الاستعمارية في المنطقة، فقد كان مُدرِكاً إدراكاً تاماً للأهميّة الجغرافية لفلسطين؛ حيث تقع في منطقة حيويّة بين آسيا وأوروبا وإفريقيا، وكذلك الأهميّة الدينيّة لها حيث يوجد بها المسجد الأقصى قبلّة المسلمين الأولى، ومعراج النبي ﷺ، وكان يحملُ همّاً كبيراً وقلقاً في صدره حيث كان يقول:

"كيف ألقى ربي يوم القيامة بهذه الوصمة، وكيف سأُنظرُ إلى وجه أجدادي الأبطال وخاصة جدي السلطان سليم الذي ضمّ فلسطين والقدس الشريف إلى أراضي الدولة العثمانية".

فقد كانت لجده السلطان "ياووز سليم الأول" مكانةً خاصّة في قلبه، حتى إنه عبر للإمبراطور الألمانيّ "فيلهلم الثاني" عن مدى حبّه لجده السلطان "سليم الأول" خلال زيارة الإمبراطور إلى إسطنبول، ولهذا فإنه حينما عاد الإمبراطور إلى بلاده أمرَ بطبع "ديوان السلطان ياووز سليم" طبعة فاخرة، وأهداها إلى السلطان عبد الحميد.

كان عبد الحميد يسمح أيضاً بترميم وتجديد دور العبادة الخاصة بأصحاب الديانات الأخرى، فالقدس هي مهد الديانات السماوية الثلاثة، ومثلما عبر الأرمن في إسطنبول عن بالغ شكرهم لعبد الحميد لما قام به من أجلهم عبّر أيضاً بطريك القدس عن عميق شكره وامتنانه له؛ حتى إنه أرسل إليه مجسّماً مصغراً مصنوعاً من الصدف لمسجد "قبة الصخرة" كهدية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لجلوسه على العرش.

وفي حين كان عبد الحميد يهيئ مناخاً مناسباً لأصحاب الديانات المختلفة في القدس لممارسة عباداتهم وشعائرهم الدينية في حرية تامة لم يكن يميل إلى فكرة توطين اليهود في فلسطين حتى يظلّ العنصر العربي المسلم محافظاً على تفوّقه العددي الطبيعي فيها، وكان يتخوّف من أنه إذا سُمح لهم بهذا سيحققون السيطرة الكاملة على فلسطين في زمن قصير؛ فكان يتخذ كافة التدابير الاحترازية وكأنه يتنبأ بما يحدث الآن، كما كان يؤمن بأنه إذا ما أبدى ردّاً إيجابياً وموافقةً على العروض المغرية التي تقدم بها اليهود فسيكون بذلك قد وقّع بيديه على قرار يقضي بموت إخوانه المسلمين في فلسطين الذين يتمتعون بحمايته، واعتباراً من عام (١٨٩٥م) بدأ يُعزّز بشدة عن مخاوفه وقلقه البالغ إزاء هذه القضية؛ فأمر باتخاذ كافة التدابير العسكرية وتعزيز خطوط الدفاع في فلسطين للتصدي لأي اعتداء محتمل، وكانت مطامع الصهاينة تنصبّ على أراضي فلسطين وليس أي مكان آخر، وكانوا عازمين على نيل ما يرغبونه بكل ما أوتوا من قوة، وراحوا يُقدّمون عروضاً مغريةً مماثلة إلى القصر في فترات متفاوتة، ولكنهم دائماً ما كانوا يغضبون ويصطدمون بعبد الحميد الذي تحدث عن هذا الأمر قائلاً:

"لا يمكنني أن أفرط في شبر واحد من هذه الأرض، لأن هذه الأرض ليست ملكاً لي، بل لأمتي، لقد جاهد شعبي في سبيل فتحها ورؤوها بدمائهم!".

وقد ظهرت نوايا الصهاينة الحقيقية برفضهم العرض الذي تقدم به عبد الحميد، وكان يتضمن موافقته على توطين يهود روسيا وشرق أوروبا المضطهدين في أيّة أرض عثمانية عدا فلسطين في مقابل تسوية ديون الدولة العثمانية، ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع على أرض فلسطين.

كان "هرتزل" قد زارَ إسطنبول خمس مرات فيما بين أعوام (١٨٩٦-١٩٠٢م)، وتقدم بعروض مغرية جدًا للدولة العثمانية وعبد الحميد في أوقات متفاوتة بوساطة الكونت البولوني "فيلبيد نيولينسكى (Philippde Newlinski)"، حتى استطاعَ في السابع عشر من مايو/أيار (١٩٠١م) لقاءَ السلطان عبد الحميد شخصيًا، وخلال هذا اللقاء عرض "هرتزل" مقترحاته عليه، وأبلغه أنه في حالِ سَمَحَ لليهود بالاستيطان في فلسطين، وخصَّصَ لهم مكانًا ومأوى خاصًا بهم فإنه يتعهد له بالآتي:

١- توفير دعمٍ ماليٍّ كبيرٍ للدولة العثمانية وتخفيفُ العبءِ عن مالية الدولة المُنهكة عن طريق ضخِّ الأموالِ النقدية في خزانتها.

٢- إقامة مشاريع واستثمارات صناعية عن طريق الشركة "العثمانية-اليهودية" التي سيتمُّ إنشاؤها في الأناضول، وبوساطة هذه الشركة سيتمُّ تسديدُ ثمانين بالمائة من الديون الخارجية للدولة العثمانية.

٣- عمل حملاتٍ دعائيةٍ في الصحافة الأوروبية من أجل تحسين صورة عبد الحميد والدولة العثمانية.

٤- التخلص من زعيم حركة "تركيا الفتاة" في أوروبا "أحمد رضا".

كان عبد الحميد قد أسَّس إدارة "الديون العمومية" بهدف تسوية ديون الدولة العثمانية، وتبنَّى سياسة مراوغة هرتزل مدَّةً من الوقت بعد أن قدم إليه هذا الأخير عروضًا مغرية؛ فقد كان لديه العديد من المخططات فلم يُعطهِ أيَّة وعودٍ بمنح أراضٍ لليهود خلال لقائه الوحيد بـ"هرتزل"، وفي نفس الوقت طلب تقارير مخبراتية دورية عن حركات الإسكان والأنشطة الاستيطانية والعقارات في فلسطين.

كان المهاجرون اليهود المقيمون في الأماكن التي تحدّدها الحكومة بعيداً عن فلسطين -كشمال العراق مثلاً- يرغبون في اقتناص أية فرصة للاستيطان في فلسطين، وبعد أن فشل "هرتزل" في محاولاته بدأ يميل إلى فكرة توطين اليهود في بلاد ما بين النهرين، إلا أن الأمر تعقد للغاية مع إصرار الجماعات الصهيونية على الاستيطان في فلسطين والقدس.

وقد استغل عبد الحميد هذه الأحداث؛ فقد وجد في شخص "هرتزل" قناة دعم قوية ستمكّنه من إقناع الدائنين الأوروبيين بتخفيض ديون الدولة العثمانية وإعادة هيكلتها، وبعد أن نجح عبد الحميد في هذا الأمر أدار ظهره لـ "هرتزل" ورفض حتى مقابلته، وقد مات "هرتزل" عام (١٩٠٤م) إثر أزمة قلبية حادة، ولكن الفكرة التي وضع بذورها والقضية التي تنبأ بها بدأت تُحقّق نجاحها بعد قرابة خمسين عاماً كما تنبأ بذلك من قبل، فكان يقول: "إن سطوة المال تفعلُ المحال"، وأقيمت الدولة اليهودية في فلسطين، حيث نجح الصهاينة تدريجياً في تحقيق ما يصبون إليه مستفيدين من إمكاناتهم المادّية والسياسية.



الإجراءات التي اتخذها من أجل حماية فلسطين

رفض السلطان عبد الحميد الثاني العروض المغرية التي تقدم بها الصهاينة، واتخذ موقفًا حازمًا إزاءها، فكان يتخذ كافة التدابير الممكنة حتى يمنع بيع أية أراضٍ من فلسطين لليهود، والحقيقة أن الاهتمام الكبير الذي أولاه بنفسه لقضية فلسطين يستحق كل الاحترام والتقدير، فوفقًا لما ذكره مفتي فلسطين "أمين الحسيني" -الذي عرّف عبد الحميد عن قربٍ وحارب على جبهة "جناق قلعة"- أن السلطان عبد الحميد الثاني أرسل مرسومًا سلطانيًا في تلك الأيام إلى متصرفية القدس شدّد فيه على:

"الأُتباع ذرّة رملٍ واحدة لليهود حتى لو دفعوا مقابلها قناطيرٍ مقنطرة من الذهب".

كما كان يُصدّر أوامر سلطانية لكافة الولايات بمنع توطين اليهود في فلسطين، وفي أكتوبر/تشرين الأول عام (١٩٠١م) وصلت تقارير مخابراتية إلى قصر بَلْدِيز تفيد بأن "نرسس" أحد قادة الجمعيات اليهودية في باريس اشترى أراضي شاسعة في ولاية بيروت عن طريق المجلس الخاص بتلك الولاية في مقابل مليون وسبعين ألف قرش، وفي الحال طلب عبد الحميد بحث هذا الأمر وتدارُسُهُ، وطبقًا لما ذكره مجلس "شورى الدولة" الذي بحث المسألة وأحاط بها تفتيشًا؛ فإنّه كان مسموحًا للأجانب بشراء الأراضي داخل حدود الدولة العثمانية بشكلٍ قانونيٍّ عدا أراضي الحجاز، وأن هذه الأراضي بيعت وفقًا لهذا القانون، وأنه أخذ تعهّد من "نُرسيس"

(Nersis) "بألا يقوم بتوطين اليهود في تلك الأراضي التي اشتراها، إلا أن هذا الإجراء لم يُرض عبد الحميد، ولأن عبد الحميد كان يعرف جيداً أن هذا النوع من الأنشطة يهدف إلى تمهيد الطريق لتوطين اليهود في تلك الأراضي فقد تحرّك على الفور من أجل إيقاف بيع الأراضي المذكورة.

كان عبد الحميد يؤمن بأن أيّ تنازل منه -حتى ولو كان بسيطاً- في مسألة توطين اليهود في فلسطين سيؤدّي إلى اختلال التوازن السكاني في فلسطين وفي القدس على وجه الخصوص؛ فقد كانت الدول الأوروبية وعلى رأسها إنجلترا تسعى وراء أهدافها في سرّيّة تامّة، ومع أواسط القرن التاسع عشر الميلادي تعهدت الدول الأوروبية بحماية اليهود المقيمين في الأراضي العثمانية وطردت يهود أوروبا من بلدانهم، وتبنّت قضية توطين اليهود في القدس الشريف وما حوله، وكانت تلك الدول تسعى للاستفادة من المجتمع اليهودي -الذي يسعى لإقامة حكم ذاتي له في فلسطين- كورقة ضغطٍ تُمارس طرَحها ضدّ الدولة العثمانية، ولكن وعي عبد الحميد بذلك المخطط واتخاذ التدابير اللازمة حيال هذا الأمر قد قلب حسابات الصهاينة والقوى التي تعاونهم رأساً على عقب، وعلى جانب آخر بذل عبد الحميد جهوداً مضيئة من أجل الحفاظ على الأراضي المقدسة وفلسطين وبلاد ما بين النهرين مستغلاً ببراعة سياسة التوازن في العلاقات؛ حيث اشترى حقول بترول "الموصل" بأمواله الخاصة، وسجلها ضمن أملاك الخزانة الخاصة بالسلطان مما أثار غضب القوى الاستعمارية وعلى رأسها إنجلترا.

كانت خطوة شراء عبد الحميد حقول البترول وتحويل ملكيتها لأُملاكٍ شخصيّة خطوةً مهمّة جداً، لأنه إذا ما تمّ احتلال المنطقة فإن الدولة المحتلة ستتمكن من الاستيلاء على ثروات الدولة وأُملاكها،

ولكن الأملاك الخاصة ستبقى ملكاً لصاحبها حتى لو وضعت تلك الدولة المحتلة يدها عليها، ومما يدعو للحزن أن من أول الخطوات التي اتخذتها جمعية "تركيا الفتاة" بعد خلع عبد الحميد عن العرش تحويل ملكية جزء من هذه الأراضي الخاصة به إلى ماليتة الدولة، وقد أصبح موضوع الأملاك الخاصة مثار تساؤلات وجدل طويل، وظل مطروحاً على الساحة حتى بعد سنوات.



الأراضي العثمانية المروية بدماء أبنائها لا يمكن بيعها بالأموال

استدعى عبد الحميد زعماء القبائل والعشائر (الكردية) في الأناضول إلى إسطنبول عام (١٨٩٢م)، ومنحهم الرُتبَ والرَّيَّ العسكريَّ والسلاحَ والعتادَ، وبهذا أسَّس "كتائب الفرسان الحميدية" التي ضُمَّت حوالي اثنين وعشرين ألفاً وخمسمائة جنديٍّ من أبناء المنطقة؛ والسبب في قيامه بهذا الأمر هو مواجهة الحركات الانفصالية الأرمينية التي ظهرت في الأناضول الشرقية وراحت تُشيعُ القتل في المسلمين بتحريضٍ من الدول الغربية وروسيا في تلك السنوات، وكان عبد الحميد يهدف من تأسيس هذه الكتائب إلى إصلاح وتقويم القبائل التي تسبَّبت في أعمال الفوضى في المنطقة، كما كان يهدفُ إلى تعزيزِ سيادةِ الدولةِ العثمانيةِ في مواجهةِ العصابات الأرمينية المسلَّحةِ، ولكن تشكيكه هذه الكتائب المسلَّحةِ المكوَّنة من أبناء العشائر أغضب الأرمَن، حتى إنَّ إنشاء تلك الأفواج والإجراءات التي اتَّخذها لتجفيف منابع الدعم المالي للمتمردين الأرمَن دَفَعَهُم إلى محاولة اغتيال عبد الحميد عن طريق قنبلة عام (١٩٠٥م).

كان عبد الحميد معادياً لكافة دعاوى الانشقاق والانفصال العرقي، وكان دائماً ما يولي اهتماماً كبيراً بالعشائر والأُسَرِ الكرديَّة التي كانت تميلُ نحو الانفصال في الشرق؛ فكان يُرْسَلُ إليهم الأثواب والخلع والعطايا، ويعملُ على ربطهم بالعاصمة وتدعيم صلاتهم بها، كما أمر بإنشاء مدرسة "العشائر السلطانية" في "إسطنبول" من أجل تعليم أبناء زعماء العشائر الذكور -الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسادسة

عشرة- وإعدادهم ليكونوا رجالاً مخلصين للدولة العثمانية، وبعد أن يتم تعليم الشباب الكردي وتأهيله في تلك المدرسة يتم تعيينهم في وظائف حكومية، وقد حالت تلك الأنشطة التي قام بها عبد الحميد وما شابهها في تلك الفترة دون استغلال القوى الداخلية والخارجية للعشائر الكردية لتحقيق مآربها.

وقد تضخمت الديون الخارجية العثمانية التي اقترضتها الدولة عشية حرب القرم مع مرور الوقت إلى حدٍّ مفرطٍ، وأصبحت عبئاً كبيراً أثقلَ كاهلَ الدولة، وكانت الخزانة العامة في أمّس الحاجة لوجود الأموال، وفي حين كان هناك من يرغبون في استغلال الموقف المالي السيئ للدولة العثمانية في الداخل والخارج، ويحاولون إجبارها على تقديم تنازلات؛ كان عبد الحميد يحاول إطالة عمرها باتباعه سياسةً غايةً في الدهاء والذكاء؛ حيث كان يهتمُّ اهتماماً كبيراً بمشاريع البنى التحتية، ويسعى إلى إعداد كادر بشريٍّ مدرب في كافة المجالات، ويأمر بافتتاح المدارس الحديثة حتى إنه كان يرسل الهدايا والعطايا إلى الطلاب في حفلات التخرج لتشجيع وتحسيس أبناء الوطن.

كما كان عبد الحميد يقوم بأنشطةٍ شاملةٍ ومكثّفةٍ من أجل تحديث الجيش العثمانيّ وتطويره، وبالطبع كانت هناك حاجة ماسّة للأموال من أجل القيام بتلك التحديثات، وكان من الضروري أولاً تحرير رقبة الدولة من عبء الديون الخارجية، وعلى الرغم من كلّ هذا رفض عبد الحميد العروض المغرية -التي تقدم بها إليه "هرتزل" - بوساطة "نيولينسكي (Newlinski)" قائلاً:

"إذا كان "هرتزل" صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه
بألا يخطو خطوات أخرى في هذا الموضوع، فإنني لا أقدر أن

أبيعَ ولو شبرًا واحدًا من هذه الأرض لأنها ليست ملكًا لي بل لأمتي، لقد جاهَدْتُ أمتي في سبيل الحصولِ على هذه الأرض ورَوَّتها بدمائها، وبذلك الدماء خُصبت الأرضُ وأثمرت، وسنُدوُ عنها حتى آخر قطرة دمٍ فينا، ولن نسمحَ لأحدٍ أن يغتصبها منا، لقد حاربْتُ كتائبُ جيشنا العظيم في حرب "٩٣" في سورِيَّة وفلسطين، واستشهد عدد كبير من أفراد جيشنا في "بلونه (Plevne)"، وصمدوا في ساحة القتال حتى لا تضيع حبة رمل واحدة من هذه الأرض، إن الأراضي التركية ليست ملكًا لي وإنما هي ملكٌ للشعب، لا أستطيع أبدًا أن أفرط في أي شبرٍ منها، فليُحَفَظِ اليهودُ بملايينهم فإذا قُسمَت الدولة يومًا ما - لا قَدَّرَ الله- فقد يحصلون على فلسطين دون مقابل، ولكن التقسيم لن يتم إلا على أجسادنا".

والحقيقة أنه بعدما خُلع عبد الحميد عن العرش على إثر حادثة "٣١ مارس/آذار"، اتضح جليًّا كيف أن القوى الصهيونية والمحافل الماسونية التي كانت تُكِنُّ عداً شديداً لعبد الحميد -بسبب موقفه من مسألة فلسطين- كان لها دورٌ كبيرٌ في خلعه، على قدرِ كِبَرِ الدور الذي لَعِبَتْهُ حركة الاتحاد والترقي، والإنجليز آنذاك.

ولكنه لم ينسَ فلسطين مطلقًا حتى وهو في منفاه، فهذه الكلمات التي ذكرها خلال حديثه مع طبيبه الخاص "عاطف بك" عام (١٩١١م) فيما يتعلق بمسألة بيع أراضي فلسطين لليهود، توضح جليًّا كيف أنه كان يتنبأ بإقامة دولة يهودية مستقلة قبلها بسنوات؛ حيث قال:

"إن قوة المال تصنع المحال، إن اليهود لن يشكلوا الحكومة في الوقت الحالي، ولكنها خطوة أولى على طريق هدفهم الأساسي، فسيعملون بجد من الآن، وربما بعد عدة سنوات أو

حتى بعد ألف سنة سَيَصِلُونَ إلى ما يصبون إليه، وأعتقد أنهم سينجحون في هذا بالفعل".

ومع الأسف فقد أثبت التاريخُ صحَّةَ تنبؤاته؛ فقد أُسِّست الدولة اليهودية بعد سبعة وثلاثين عامًا من مقولته الشهيرة هذه، وزُجَّ بالدولة العثمانية في حربٍ تلو الأخرى خلال السنوات التي أعقبتُ خلعه؛ فخلال سنوات حكم الاتحاديين الذين سيطروا على السلطة بشعارات وإدعاءات الحرّية والمشروطة سادت حالةٌ من الفوضى وانعدام الأمن أرجاء البلاد فضلًا عن الزجّ بالبلاد في اتون الحروب، وبدا للشعب وجهُهم الاستبدادي الحقيقي، وفي خضمّ حالة الفوضى والاضطراب التي سادت أرجاء البلاد ازدادت موجاتُ هجرة اليهود السريّة إلى فلسطين وتضاعفت عمليّات بيع الأراضي في تلك المنطقة.

وفي يناير/كانون الثاني عام (١٩١٤م) اتخذت حكومة "الاتحاد والترقي" قرارًا كارثيًا قضى على السياسة البارة والإجراءات التي تبناها عبد الحميد لسنوات في القضية الفلسطينية، حيث تمّ إلغاء القرارات والتدابير الاحترازية التي اتخذها عبد الحميد لمنع توطين اليهود في فلسطين بحجة أنها لا تصلح للتطبيق، حتى إن تعداد اليهود الشرقيين (السفرديم) الذي كان يُقدَّر بـ "خمسة عشر أو عشرين ألفًا قد ارتفع في غضون خمسة عشر أو عشرين سنة إلى مائة وخمسة وعشرين ألف يهودي نتيجة لهجرة اليهود الغربيين (الأشكيناز) إلى المنطقة، واستغلَّ اليهود الهوة والفراغ السياسي الذي حدث وتولّد نتيجةً للانسحاب الكامل للدولة العثمانية من تلك المنطقة، وبدؤوا يستولون بالقوة على أراضي الفلسطينيين وأملأهم وثرواتهم؛ مما أدى إلى صراعاتٍ ما زالت ممتدة حتى يومنا الحاضر.

إن موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى كانت تتَّم بتشجيعٍ من إنجلترا؛ إذ كانت هذه الهجرات تخدم مصالحها، فتتيجة للقاءات التي عقدتها إنجلترا مع زعماء وممثلي الصهاينة صدر في الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٧م) وعد "بلفور" (Balfour) الذي منح اليهود حق إقامة دولة يهودية في فلسطين، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى احتلت إنجلترا كافة الأراضي الفلسطينية بما فيها القدس، ودخل الجيش الإنجليزي إلى القدس بقيادة الجنرال "أللنبي" (Allenby)، وهناك ذكر جملة الشهيرة:

"لقد انتهت اليوم الحروب الصليبية".

كما احتل الجيش الفرنسي سورية عام (١٩٢٠م)، وحينما دخل القائد الفرنسي إلى الشام ذهب إلى قبر صلاح الدين، وركل نعشه بقدمه، ثم صاح قائلاً:

"ها نحن قد عدنا مرة أخرى يا صلاح الدين!".

لم يحتل الإنجليز الأراضي الفلسطينية بفضل معاركهم مع الجنود العثمانيين على الجبهة عام (١٩١٧م) فحسب، بل بفضل أجهزة المخابرات القويّة التابعة لهم، وكان الجنرال "أللنبي" قائداً للجيش الإنجليزي خلال العمليات العسكرية في فلسطين، وكان يؤمّن بأنه لا يمكن تحقيق نصرٍ حقيقيٍّ في المعركة دون المجازفة، فكان يعلم سالفاً بكلّ تحركات وأوامرٍ وخططٍ عدوّه أي الجيش العثماني بفضل جهازٍ مخابراتيّ قويٍّ، أو إن جاز وصح التعبير كان يعلم بكلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ عن الجيش العثماني وتحركاته، وكان بإمكانه القيام بحملاتٍ ومباغعاتٍ عسكرية مضادّة بدقة متناهية وثقةٍ و يقينٍ لا يترزح.

كان الجنرال "أللنبي" يستفيد من أسرى المعركة ومن التكنولوجيا الحديثة كذلك؛ فَبَفَضْلِ طائرات الاستطلاع كان يتمُّ التقاطُ صورٍ فوتوغرافيةٍ للخطوطِ الدفاعيةِ العثمانيةِ، وطبقاً لتلك الصور كانت تُوضَعُ الخطط والتكتيكات العسكرية الجديدة، وبالإضافة إلى ذلك كانت المخابرات الإنجليزية تلتقط وتكشفُ يومياً ما كان يُرسل إلى إسطنبول عبر مصر من برقيات وأوامر وإشارات وتقارير لاسلكية بشأن الوضع على الجبهات، وتَتَّخِذُ الإجراءات اللازمة حيال ذلك، وكانت التقارير الخاصة بالتطورات العسكرية على الجبهة تُرسلُ بانتظام إلى مقرِّ قيادة الجيش في وزارة الحربية الإنجليزية في لندن، وتتحركُ القوَّات الإنجليزية وفقاً للتعليمات والأوامر التي تصدر من هناك، وكان تقرير فكِّ الشفرات اللاسلكية التي ترسلها القوات العثمانية على مدار اليوم والليلة يوضع على مائدة إفطار "أللنبي" كلِّ صباح.

ومع سقوط القدس والأراضي الفلسطينية تحت الاحتلال الإنجليزي عام (١٩١٧م) ارتفع تعداد اليهود المستوطنين في المنطقة بشكلٍ كبيرٍ، ومنذ ذلك الحين رجحت الكفة لصالح اليهود، وفي النهاية تحول المسلمون إلى أقليةٍ عديدةٍ في القدس.

لم يكن عبد الحميد يناضل من أجل الحفاظ على وحدة الأراضي العثمانية وسلامتها ضدَّ القوى الصهيونية فحسب، بل كان يقاوم بدبلوماسيةٍ وبدهائه وذكائه في صمَّتِ دون استخدام المدافع والأسلحة ضدَّ الإنجليز والفرنسيين والأرمن والماسونيين، وضدَّ القوى التي ترغبُ في تقسيم الدولة العثمانية وتفتيتها، وتحقيق أطماعها ومصالحها في الأناضول والشرق الأوسط، وقد أدركت هذه القوى الطامعة في أراضي الدولة العثمانية أنه لن يمكنها تحقيق مآربها أو على الأقل سيكون من

العسيرِ عليها تحقيقها طالما ظلَّ عبد الحميد في الحكم، فكان من الحتمي إسقاط عبد الحميد وعزله، فلم يتوانوا ولو للحظة واحدة من أجل تحقيق هذا الأمر، وعلى الرغم من قول "هرترزل":

"يجب أن نتظر تفتيت الدولة العثمانية وسقوطها حتى يمكن للصهيونية تحقيق أهدافها".

إلا أن زعماء الصهاينة لم يتحملوا الانتظار وضاعفوا من أنشطتهم ومخططاتهم الهادفة للقضاء على الدولة العثمانية يومًا بعد يوم.

وبدأت القوى الصهيونية والماسونية تتوغل داخل الشرايين الرئيسة للنظام السياسي والعسكري والإداري في الدولة، وفي السنوات التالية اتخذ هذا التوغل الصهيوني الذي بدأ منذ ذلك التاريخ أبعادًا متفاوتة؛ حيث فتح الطريق أمام حركات التمرد والتدخلات السياسية غير الشرعية، وقد نجحت هذه القوى في استغلال الشخصيات الذكية والماهرة التي تنبأت لها بمستقبل مشرق ممن يعيشون داخل حدود الدولة العثمانية بشتى الوسائل من أجل تحقيق مصالحها، كما نجحت في تطويع المحافل الماسونية لخدمة أغراضها.

إن الأنشطة المتعددة الأبعاد والمتنوعة الأشكال التي نفّذها الصهاينة خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية بدأت تؤتي ثمارها في مياعدها، فقد أصدرت عصبة الأمم التي تأسست عقب الحرب العالمية الأولى قرارًا موجهاً عام (١٩٢٢م) بالوصاية والانتداب الإنجليزي على فلسطين، وفيما حثت إنجلترا بالوعد الذي قطعه على نفسها خلال الحرب بإعلان تأسيس الدولة العربية الكبرى؛ سعت بكل ما تستطيع إلى توطين اليهود الذين تعهّدت بحمايتهم في فلسطين، وبدأ صراعٌ مرير اشتدَّت حدُّته يومًا بعد يوم بين اليهود وعرب فلسطين الذين فقدوا

التفوق العددي والنفوذ والقوة، وخلال فترة ما بعد الدولة العثمانية حلت الفوضى والصراعات الدموية محل الهدوء والاستقرار في المنطقة، وبعد مرور أربعين عامًا على خلع عبد الحميد عن العرش تحققت أحلام "هرتزل" الذي ناضل بصبر وإصرار من أجل أفكاره وقضيته؛ إذ أعلن بعد الحرب العالمية الثانية عن تأسيس دولة الكيان الصهيوني على الأراضي الفلسطينية بدعم من إنجلترا وباقي الدول الغربية، وفي الرابع عشر من مايو/أيار (١٩٤٨م) وقف "ديفيد بن جوريون (David Ben Gurion)" أول رئيس للكيان الصهيوني تحت صورة كبيرة للزعيم الصهيوني "هرتزل" -الذي توفي قبل أربعة وأربعين عامًا- وأعلن عن تأسيس دولة الكيان الصهيوني.

أما إنجلترا التي فقدت هيمنتها وقوتها الدولية اقتصاديًا وسياسيًا عشية الحرب العالمية الأولى فقد انسحبت تمامًا من الشرق الأوسط عام (١٩٤٨م)، وذلك بعد أن هيأت البيئة الملائمة لإقامة الدولة اليهودية، وفي السنوات التالية أخذت "أمريكا" زمام القيادة العالمية من إنجلترا وتوقفت عليها، وأكملت الدور الذي بدأته إنجلترا، وأعلنت في كل مناسبة عن حمايتها لأمن إسرائيل من أجل السيطرة على حقول البترول الموجودة في الشرق الأوسط، وسادت حالة من الصمت الدولي إزاء عمليات التعذيب والمذابح والاستخدام المفرط للقوة في حق الشعب الفلسطيني، ومع مرور الوقت توسعت حدود إسرائيل وضمت معظم أراضي القدس وكانت كل الحروب بين العرب واليهود في القرن العشرين تنتهي بزيادة التوسع الإسرائيلي في فلسطين، وللأسف لم تستطع الأمة الإسلامية العريقة التصدي لهذا الأمر ولا الحيلولة دونه، وبالطبع كان التوسع والهيمنة الإسرائيلية يصبان في صالح الدول الأوروبية ويتمان بدعم منها، فكانت هناك مصالح مشتركة ومتفاوتة بين إسرائيل والغرب، وبدأ

كل طرف منهما استغلال الطرف الآخر، فنجحت إسرائيل في الاستفادة من حالة الضعف التي أصابت الغرب وحالة الشعور بالذنب والتعاطف التي شعر بها المجتمع الأوروبي تجاه اليهود نظرًا لما تعرضوا له خلال الحرب العالمية الثانية من أجل الوصول لأهدافها، وفي المقابل سيخضع اليهود مصالح الدول الغربية الكبرى للحفاظ على احتلالهم الأراضي الفلسطينية التي يملكها المسلمون في الأصل.

وقد أظهرت كل هذه الأحداث وأثبتت في الوقت ذاته مدى صدق وصحة المخاوف التي عبر عنها عبد الحميد قبل سنوات؛ فمنذ اليوم الأول من تأسيس دولة الكيان الصهيوني تحوّلت حياة الشعب الفلسطيني إلى جحيم لا يُطاق، ولم ينقطع أنينُ الأمهات الشكالي، وسالت الدماء أنهارًا، وربما من أجل استعادة حالة الاستقرار والسلام في تلك الأراضي لا بدّ من ظهور أناس يتقمّصون روح عبد الحميد وشخصيته وينتهجون السياسة التي تبناها.

وعلى الرغم من أن الدولة العليّة قد فقدت الكثير من قوّتها ونفوذها القديم إلا أنها اتّبعَت سياسةً التوازن في العلاقات في المنطقة وراعتهَا وحافظت عليها خلال حكم عبد الحميد، ودافعت عن حقوق المسلمين حتى النهاية.



أيامه الأولى في المنفى

كانت الجواسق والفيلات والمنازل الخشبية البسيطة المبنية وسط أشجار الصنوبر والشوح^(١٤) وأشجار الفاكهة المختلفة تصطف على المنحدرات الممتدة من حي "بُكْلُزْبَكِي" (*Beylerbeyi*) إلى حي "جَنْكُلْ كُوي" (*Çengelköy*)، وكان الباشوات وكبار رجال الدولة والموظفون الحكوميون خلال عهد عبد الحميد يسكنون في بعض هذه القصور، فمنذ القدم كان الباشوات وكبار رجال الدولة والشعراء والأدباء يفضلون الإقامة في نواحي "بُكْلُزْبَكِي" وأحيائه؛ لا سيّما في شهور الصيف.

وكان عبد الحميد يعشق الطبيعة الخلابة والمسطحات والمروج الخضراء، فكان عندما يحلّ الربيع يقف في نافذة حجرته بقصر "بُكْلُزْبَكِي" ويستمتع بالنظر إلى أشجار الكرز^(١٥) والبرقوق^(١٦) الموجودة على تلال الحي المُطَلّ على البحر، كما كان يتنزه في حديقة القصر الغناء المزينة والزاهرة بكافة أنواع الأشجار والزهور والورود، ويسير بخطوات هادئة على طول طرق الحديقة المتعرجة.

كان قصر "بُكْلُزْبَكِي" يتميّع بمميزاتٍ خاصّةٍ في آخر مراحل الدولة العثمانية تميّزه عن باقي القصور العثمانية، منها على سبيل المثال الحديقة

(١٤) الشوح: جنس شجري يتبع الفصيلة الصنوبرية ويضم ٤٥-٥٥ نوعاً. (المترجم)

(١٥) كرز: شجر ينمو في المناطق المعتدلة المناخ، أزهاره بيض، وتُطلق الكلمة أيضاً على ثمر ذلك الشجر، وهو ثمر يُؤكل يشبه البرقوق ولكنه أصغر منه، وقد يصنع منه بعض المشروبات، ويسمّى في المغرب "حبّ الملوك"، وفي مصر "كريز"، وفي الشام "كرز". (المترجم)

(١٦) البُرّقوق: شجر من الفصيلة الوردية، ينمو في المناطق المعتدلة، أزهاره بيض وردية، وثمره مختلف الألوان. (المترجم)

الواقعة على الأراضي المتعرجة خلف القصر مباشرة والمسماة بـ "حديقة السد (Set Bahçesi)" - لأنها ترتفع ناحية الأسوار كالسدود - وكانت غاية في الروعة والتنسيق، وكان عبد الحميد يعشقُ التَّنَزُّه داخل تلك الحديقة والجلوس تحت ظلال الأشجار العالية الضخمة الموجودة عند بركة المياه الكبيرة فيها.

وحول بركة المياه كان يوجد جوسق "صاري" أو المبنى الأصفر بالإضافة إلى مبنى الخيول (الإسطبل) المزين والمزخرف سقفه برسوماتٍ للخيول والحيوانات الأخرى، وكان يضمُّ خيولَ السلطنة فيما مضى، كما كان يوجد أيضًا جوسق السرداب (الجوسق المرمري) الذي يحوي نافورة ماءٍ أو صنابير متبقية من القصر الخشبي القديم، وتعكس تلك المباني الثلاثة قيمتها التاريخية وروعة بنائها وتصميمها الجمالي، ووسط الجوسق المرمري -الذي يعتبر مثالاً رائعاً على روعة بناء القصور العثمانية وتصميمها وأسلوب المساكن التركية التقليدية- يوجد إيوان مرمريّ تصطفُ على جانبيه العُرفُ كما يضمُّ مسبحاً، ويقعُ جوسق "صاري" الذي تمَّ تصميمه ليكون مكاناً للراحة في نفس اتجاه ومكان جناح الحريم، وهو يُطلُّ على البوسفور وتل "جامليجا (Çamlıca)" وبحر "مرمرة".

ويُعتَبَرُ "النفق والسرداب التاريخي الذي يمر من أسفل "حديقة السد" واحداً من أكثر أبنية القصر غرابة وروعة، حيث كان الزوار القادمون إلى القصر بعرباتهم التي تجرها الخيول يستخدمون هذا النفق، وقد نُقش اسم السلطان "محمود الثاني" جدُّ عبد الحميد على سبيل الماء الموجود وسط النفق، ويُعتبر هذا النفق طريقاً موازياً لطريق الساحل ومجرى يربط بين الحدائق والأسوار الشاهقة التي تحيط بالقصر، ومن المحتمل أن يكون

هذا النفق واحدًا من الآثار المتبقية من عهد السلطان "محمود الثاني" كالجوسق المرمري، كما أضاف عُمهُ عبد العزيز حديقةً للحيوانات وسطَ حداثق القصر تضمُّ العديد من الحيوانات من بينها الأسود، غير أنه لم يتبقَّ الآن الكثير من تلك الآثار الموجودة في هذا القصر الذي قضى فيه عبد الحميد آخر لحظات حياته.

وبرغم كلِّ شيءٍ فقد كان عبدُ الحميد صابراً وشاكراً لربِّه عزَّ وجلَّ، ويؤمن أن ما يصيبه من مصائب ما هو إلا ابتلاءات من ربِّه، وخلال الحرب العالمية حيث كانت أصوات المدافع تهزُّ كافة أرجاء البلاد كان عبد الحميد عقب كلِّ صلاةٍ يدعو الله من صميم قلبه أن يكتبَ لأُمَّتِهِ الصلاحَ والفلاحَ والنصرَ في الحرب، وكان لا يزال يحتفظ بذكریات منفى "سالونيك" الذي أقام فيه قبل بضع سنوات، وكان يشعر بنوبةٍ من الحزن الشديد كلما تذكَّر ذلك اليوم الذي نُفي فيه إلى "سالونيك" بعد خلعه بقرارٍ من المجلس.

قمع جيشُ الحركةِ حركةَ التمرد (واقعة ٣١ مارس/آذار) التي اندلعت في إسطنبول في الثالث عشر من أبريل/نيسان (١٩٠٩م)، وعلى الرغم من أن عبدَ الحميد لم يكن له أيُّ دورٍ في اندلاع حركة التمرد فقد قام مجلسُ النواب ومجلسُ الأعيان اللذان اجتمعا في جلسة مشتركة في "يشيل كوي" بإصدار قرارٍ يقضي بخلع عبد الحميد في السابع والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م)، وتولَّى العرشَ مكانه أخوه السلطان "محمد رشاد"، ونظرًا لوجود خطرٍ من إقامته في إسطنبول اتَّخَذَ المجلسُ قرارًا بنفيه إلى "سالونيك"، وعلى الرغم من أنه ذكر لهم رغبته في قضاء بقية حياته مع عائلته بقصر "جراغان" في إسطنبول، وأنه لن يتدخلَ بأيِّ شكلٍ من الأشكال في إدارة الدولة إلا أنهم لم ينفذوا له هذه الرغبة.

وفي تلك الليلة غادر عبد الحميد قصر "يَلْدِيز" تحت حراسة فرقة من الجنود بقيادة "علي أَوْيَاز" (Okyar) وبأمر من الفريق "حسن حسني باشا" الذي أظهر احترامًا كبيرًا لِعَبْدِ الحميد وأشفقَ عليه، غير أنه لم تكن بيديه حيلة سوى تنفيذ قرار الجيش، وقد جرى هذا الأمر بسهولة تامّة ودون أدنى معارضة من عبد الحميد، ثم اصطحبوه وبرفقته أربعة وعشرون فردًا إلى محطة قطار "سيركجي"، وركب القطار الذي توجّه مباشرةً نحو "سالونيك".

وفي تلك الليلة لم يتمكّن أحدٌ من أهل القصر من أن يجمع حاجاته الشخصية أثناء خروجه منه على عجلة من الأمر، إلا أن السيدة "مُشفقة قادين أفندي" فُطِنَتْ إلى أن تأخذ حقيبة كانت موضوعة فوق المنضدة التي في القاعة الصغرى، حيث كانت هذه الحقيبة تضم نسخة من المصحف الشريف، وهي واحدة من حقيبتين يحملهما عبد الحميد معه أينما ذهب، كما تمكّنت ابنته "شادية سلطان" من أن تمرّ قبل مغادرتهم القصر من أمام الجنود المتواجدين في ساحة القصر، واتجهت ناحية والدتها في الجناح المقابل فأخذت جزءًا من المجوهرات والحلى التي أهداها لها والدها وارتدّتها حول عنقها، وأخذت أيضًا الحقيبة الصفراء (وهي حقيبة يستخدمها والدها عبد الحميد كخزينة صغيرة ويصطحبها معه أينما ذهب، وهي في مسؤولية كبير المصاحبين)، وما إن وصلوا إلى "سالونيك" حتى أخبرها والدها السلطان أن هذه الحقيبة التي أخذتها مصادفة تحتوي على مجوهرات وحلى وأحجار كريمة، وفيما بعد أهداها عبد الحميد بعضًا من هذه الأحجار الكريمة أثناء زيارتها إياه خلال عيد الأضحى الأول له في قصر "بُكُلُزْبَكِي"، وذلك بعد أن نقل إلى إسطنبول عقب اندلاع حرب البلقان، حيث قال لها:

"یا بنیتی! فلتأخذي ما فی هذه الحقیة هدیة لك".

وعلى جانب آخر فقد ضاعت حقیة "عابد أفندی" التي تحتوي على بعض الأموال والمجوهرات، وحدث ذلك خلال نقله إلى "سالونیک" وسط حالة التعجل والفوضى التي حدثت آنذاك، وعلى الرغم من الطلبات التي تقدم بها عبد الحمید والمحاولات التي قام بها أيضًا، والتحرّيات التي أجراها "راسم بك" لم يتمّ العثور عليها.

ولم يُسمح لعبد الحمید بأن يصطحب معه كلّ زوجاته وأبنائه وخدمه، فلم يكن هذا الأمر ممكنًا وسط هذه الظروف، والحقیة أن الاتحاديین كانوا يرغبون فی أن يُنفى عبد الحمید إلى "سالونیک" بمفرده، ولكنهم لم ينجحوا فی هذا الأمر.

أما الذین لن يغادروا مع السلطان فقد أجهشوا بالبكاء وراحوا ينوحون قائلین: "لا تذهب یا مولانا السلطان ولتصحبا معك"، وفي تلك الليلة وما إن أظلم الليل حتى غادرَ عبد الحمید وعائلته قصر یلديز فی عربتین من طراز "لاندو" (lando)^(١٧)، تحت إشراف "حسني باشا" والفريق بحري "غالب بك"، وقد احتضنَ عبد الحمید ابنه الأصغر الأمير "محمد عابد أفندی"، وأجلس إلى جواره ابنه الصغير "عبد الرحيم أفندی"، أما زوجته فقد جلستا أمامه، بينما ركبت بعضُ سیدات القصر فی العربة الأخرى، ولما لم یبق مكان للرجال یجلسون فیهِ فقد جلسوا إلى جوار السائقین.

وفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م) وصلوا إلى محطة القطار، وكانت شوارع إسطنبول خالية من المارة، وحينما التفت الأسرة فی محطة قطار "سیركجي" أصبح واضحًا من الذي لم

(١٧) "لاندو (lando)": هي سيارة واسعة يمكن فتح سقفها وإغلاقه، وقد اشتق اسمها من كلمة "Landeau" الفرنسية (المترجم).

يتمكن من الخروج من القصر، وما يدعو للعجب! هو أن مبنى محطة "سيزكجي" التي تُعتبر نقطة انطلاق لسكك حديد الروملي قد اكتمل بناؤها خلال عهد عبد الحميد (١٨٩٠م)، وقد صمم المهندس المعماري الألماني "أ. جاسموند (A. Jasmund)" المبنى الخاص بهذه المحطة.

دخل عبد الحميد تحت حراسة أمنية مشددة إلى المحطة من الباب الرئيسي الذي يُشبه الأبواب التاجية للعصر السلجوقي، ثم ركب ومن معه من أسرته وخدمه القطار المتجه إلى "سالونيك" في صحبة الضباط والجنود، وما إن صعد الجميع القطار حتى أغلقوا عليهم الأبواب بالأقفال، وبدأ القطار الخاص المكوّن من عربة واحدة ذات سريرين بالحركة.

وكان الحزن والقلق والاضطراب يبدو واضحاً على عبد الحميد الذي نُفي من العاصمة، وعلى الرغم من فقدان عرشه وتاجه وقصره وجنوده وسلطته إلا أن المقربين منه حين رأوه للمرة الثانية رأوا كم أنه راض بقضاء الله صابراً على حكمه، وبعد أن دخلوا إلى المقصورة نظر عبد الحميد إلى ابنته "شادية سلطان" التي يبدو عليها الحزن والألم وتسيطر عليها مشاعر اليأس فتحدث إليها بكل ثقة ورباطة جأش قائلاً:

"إن كل ما يشغلني هو احتمالية أن تتعرض أمثالك من البنات والفتيات اللاتي ظللن في القصر للاعتداء عليهن، لو أن الأمر يتعلّق بحياتي أنا فلا بأس، فعلى الرغم من أن أجدادي قد قدموا خدمات جليلة للأمة والدولة إلا أن الكثير منهم تعرضوا لمصائب كبرى وانتهت حياتهم بضوّر مفاجئة، إن هؤلاء المعتدين لم يُقدّروا آل عثمان حقّ قدرهم، فهناك كثير من الجهلاء يصبحون بأعلى صوتهم منذ بدء المشروطية قائلين "وطنا العظيم" وهم لا يعرفون حتى معنى كلمة "وطن"، قد أكون أخطأت في أشياء دون

قصید، ولكن الله وحده هو المنزَّه عن الخطأ، وأنا بشر قد أخطئ
ولكنني مقتنع بما قدمته لأمتي".

إن الغاية الحقيقية التي جعلت الاتحاديين يرسلون عبد الحميد إلى
"سالونيك" هي مراقبته وإحكام السيطرة عليه، وقد صدرت تعليمات
مشددة إلى "فتحي أوقيار" (*Fethi Okyar*) وعمال القطار وسائقه بألا
يتوقف القطار في أية محطة حتى نهاية الرحلة، وكلما ابتعد القطار عن
إسطنبول كان عبد الحميد الذي كانت تُقبل الأرض في حضرتة وينحني
الناس على أقدامهم احتراماً له حتى الأمس يشاهد الأفق وينظر من نافذة
مقصورته بالقطار حزناً شاردَ الذهن مستغرقاً في التفكير، وقد أخذ القطارُ
طريقه مباشرةً دون أن يتوقَّف إلا في بعض المحطات من أجل التزوُّد
بالمياه، ووصل القطار "سالونيك" في الليلة التالية (الثامن والعشرين من
أبريل/نيسان ١٩٠٩م) بعد أذان العشاء.

وفي نهاية الرحلة لم يتوقف القطار في المحطة التي يجب أن ينزل
السلطان ومن معه فيها، بل توقف في مكان خلاء بعيداً عنها، ونزل
السلطان ومن معه على ضوء المصاييح اليدوية بمساعدة بعض الجنود،
وبعد أن ساروا وسط الظلام الدامس وفي مكانٍ تصلُ أعشابه حتى رُكبهم
نُقلوا إلى قصر "آلاتيني" (*Alâtini*) في "سالونيك" بواسطة عربات اصطف
على جانبيها الجنود الخيالة تحت إشراف قائد الحرس الخاص "فتحي
أوقيار"، وعندما وصل عبد الحميد ومن معه إلى قصر "آلاتيني" كان في
استقباله كلُّ من نائب قائد الجيش الثالث "هادي باشا" ورئيس بلدية
"سالونيك" "حقِّي بك" ونائب رئيس الشرطة "تحسين أوزر"، وانتظر عبد
الحميد أمام باب قصر "آلاتيني" حتى دخله أفراد العائلة أولاً، ثم دخل
هو الآخر وبدأ بصعود السلالم المرمية بخطوات وثيدة، وفي تلك الأثناء
أُذِّنَ لإصلاة العشاء.

وما إن دخل الجميع إلى القصر حتى أوصدت الأبواب، وكانهم انفصلوا عن العالم ودخلوا عالمًا جديدًا غريبًا، ووسط القاعة الكبيرة للقصر راحوا ينظرون ويتطلعون إلى بعضهم البعض وهم في حالة من الدهشة والحزن والغضب، فبعد كل هذا الخطر والتعب والمصائب والكوارث التي مرّت بهم أصبحوا مسجونين بين جدران هذا القصر الذي أغلقت نوافذه بأقفال ومتاريس خشبية، وبرغم كل هذا حاول الجميع استجماع قواهم؛ فعملوا على ألا يُظهروا تأثرهم وحزنهم أمام عبد الحميد، فلم يكن لأحد منهم أن يرضنّ عليه بالحب والعطف والحنان وسط مثل هذه الظروف القاسية، وقد كان أبناءه الذين هم المصدر الوحيد للتهوين والتخفيف عليه يهتمون بهذا الشأن اهتمامًا بالغًا؛ وقد عاشوا الأُبُهَّة والرُفاهيَّة ورغد العيش في كنفه حين كان في أوج سلطنته، أما اليوم فقد فقدَ والدهم عرشه وتاجه وملكه وماله، وعلى الرغم من كل هذا فقد كان والدهم بالنسبة إليهم غاليًا عزيزًا كغلاء الرُّوح يُكنُّون له عميق الحب والاحترام أكثر من ذي قبل.

وقد رافق عبد الحميد في منفاه بـ"سالونيك" من زوجاته: الزوجة الأولى (باش إقبال) "مشفقة قادين هانم"، والإقبال الثانية "سازكار هانم"، والزوجة الثالثة "بيوسته هانم"، والزوجة الرابعة "فاطمة بسند هانم"، والإقبال السادسة "صالحة ناجية هانم"، ومن أبنائه الأمير "عبد الرحيم أفندي" والأمير "محمد عابد أفندي"، ومن بناته: الأميرات "شادية سلطان" و"عائشة سلطان" و"رفيعة سلطان"، أما باقي زوجاته وأبنائه فقد ظلوا في إسطنبول، كما قام على خدمته وعائلته في قصر "آلاتيني" بـ"سالونيك"، أربعة خَزَنَة وثلاثة من مصاحبي السلطان وندمائهم وثلاثة من العمال وأربعة من الخدم.

إِنَّ بَعْضَ مَنْ كَانُوا أَكْثَرَ رِجَالِ عَبْدِ الْحَمِيدِ إِخْلَاصًا وَوَلَاءً تَنَكَّرُوا لَهُ وَتَخَلَّوْا عَنْهُ وَخَانُوهُ؛ وَلَكِنْ بَعْضُ الْحَزَنَةِ وَالْقُلْفَاوَاتِ^(١٨) وَالطَّبَاخِينَ وَالْمَوَالِي وَالْعَمَالِ أَبَوْا أَنْ يَتْرَكُوهُ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ الصَّعْبَةِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَعَامِلُونَ بَعْضَهُمْ بِاحْتِرَامٍ مَعَ مِرَاعَاةِ مَنَاصِبِهِمْ وَرُبَّيْهِمْ الْقَدِيمَةِ لَا يَتَوَانُونَ عَنْ احْتِرَامِ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَإِجْلَالِهِ، إِلَّا أَنَّهُ بَعْدَ حَيَاةِ الرِّغْدِ وَالْعِظْمَةِ وَالْفَخَامَةِ فِي قَصْرِ "بِلْدِيز" جَثِمَ عَلَى الْجَمِيعِ حَزَنًا لَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِسَبَبِ الْعَيْشِ فِي قَصْرِ "آلَاتِينِي" الَّذِي يَنْقُضُهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْإِمْكَانَاتِ.

وَبِفَضْلِ تَصَرُّفَاتِ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَمَوَاقِفِهِ الْوَاعِيَةِ الْمَحِيطَةِ تَأَقَّلَمَ الْجَمِيعُ عَلَى الْعَيْشِ دَاخِلَ هَذَا الْقَصْرِ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ، فَقَدْ احْتَضَنَ السُّلْطَانُ السَّابِقُ الَّذِي تَكَيَّفَ مَعَ هَذَا الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ حَوْلِهِ بِعُطْفٍ وَحَنَانٍ كَرِبٍ لِلْعَائِلَةِ مُتَغَاضِيًا عَنْ كُلِّ أَيَّامِ الْعِظْمَةِ وَالْفَخَامَةِ وَالسُّلْطَنَةِ، وَجَعَلَهُمْ جَمِيعًا عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَرَبَطَهُمْ بِرِبَاطِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ.

يَقَعُ قَصْرُ "آلَاتِينِي" عَلَى رِبْوَةٍ مَرْتَفَعَةٍ تُطَّلُّ عَلَى الْبَحْرِ فِي حَيِّ الْمَبَانِي الصَّيْفِيَّةِ بِ"سَالُونِيك"، وَيَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثَةِ طَوَاقٍ مَبْنِيَّةٍ بِالْقَرْمِيدِ وَالطُّوبِ الْأَحْمَرِ وَسَطَ حَدِيقَةٍ كَبِيرَةٍ، وَيَبْتَغِدُ مَسَافَةً قَلِيلَةً عَنْ مَحْطَةِ الْقَطَارِ، وَيَتَمَيَّزُ هَذَا الْقَصْرُ بِمَوْقِعِهِ الْمُمَيَّزِ وَيَحَاطُ بِجِدْرَانِ مَرْتَفَعَةٍ، وَمَالِكِ هَذَا الْقَصْرِ هُوَ الْيَهُودِي الْإِيطَالِي "جِيورْجِيو آلَاتِينِي" (Giorgio Alâtini) أَحَدُ أَشْهُرِ التَّجَارِ وَالْأَثْرِيَاءِ الْمَعْرُوفِينَ فِي "سَالُونِيك"، وَقَدْ ظَلَّ هَذَا الْقَصْرُ يُذَكَّرُ بِهَذَا الْأَسْمِ حَتَّى بَعْدَ تَخْصِيصِهِ لَاسْتِضَافَةِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، وَقَدْ عَاشَ فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ "رُوبِيلَان" (Robilan) بِأَشَا" قَائِدُ الشَّرْطَةِ الْإِيطَالِيَّةِ الَّذِي اسْتَدْعِيَ إِلَى "سَالُونِيك" مِنْ أَجْلِ تَنْظِيمِ الشَّرْطَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَتَدْرِيبِهَا، وَقَدْ اضْطُرَّ "رُوبِيلَانُ بِأَشَا" إِلَى مَغَادَرَةِ الْقَصْرِ عَلَى الْفُورِ عَقَبَ الْأَمْرِ الَّذِي صَدَرَ

(١٨) "قَلْفَهُ" (Kalfa): مصطلح عام في الدولة العثمانية يطلق على النساء اللاتي يعملن في خدمة حريم القصر. (المترجم)

له من "إسطنبول"، وأثناء مغادرته هذا القصر الذي يعتبر واحداً من أجمل مباني المدينة لم يترك سوى أشياء بسيطة كمائدة طعام صغيرة وعدة مقاعد ودواليب وخزانات خشبية وبيانو صغير، ولم تكن غُرَفُ القصر تحتوي على أية سجاجيد أو أغطية.

وبَعْضُ النظرِ عن الحُزْنِ والألم والمعاناة التي تركتها أيامُ المنفى والإقامة الجبرية في نفوس الجميع كان هذا المكان رائعا وجميلاً للغاية، فبعدما حُكِمَ على عبد الحميد وعائلته وَمُنْ معه بالإقامة الجبرية داخل هذا القصر اكتَنَفَهُ الهدوء؛ فكانوا يعيشون تحت مراقبة وحراسة مشددة ولا يُسَمَحُ لهم بقراءة الصُحف، وعلى الرغم من كلِّ هذا فقد كان للحياة في منفى "آلاتيني" جوانب إيجابية؛ أبرزها بقاءه إلى جوار أبنائه الذين ابتعدوا عنه كثيراً خلال فترة حكمه، واستماعه إليهم عن قرب ومواساتهم، حتى إن هذا الأمر أصبح متعتّه وتسليته الوحيدة، لكنه من ناحية أخرى كان يحزن كثيراً لعدم قدرته على الاشتغال في النجارة التي تعتبر هوايته ومصدر بهجته وسعادته؛ وذلك نظراً لِعَدَمِ وجود أدوات النجارة معه، فكان يقضي جلَّ وقته في قراءة القرآن الكريم والكتب الدينية مثل "صحيح البخاري" و"الشفاء الشريف" للقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ/١١٤٩م) و"دلائل الخيرات" للجزولي (ت: ٨٧٠هـ/١٤٦٥م)، وفي الدعاء والذكر والعبادة؛ وأحياناً كان يستغلُّ مجيء طبيبه الخاص "حسين عاطف بك" (١٨٦٩-١٩٢٤م) فيستغرق في الحديث معه، وكانت حالته النفسية تسوء في بعض الأحيان إلى درجة أنه كان يمنح الطبيب العطايا حتى يبقى إلى جانبه مزيداً من الوقت.

ومن الطبيعي أن أفراد عائلته ومواليه الذين كانوا يتحصرون على الأيام الخوالي كانوا يعانون ما كان يعانيه هو الآخر، ومع الوضع في الاعتبار

أن عبد الحمید كان في بعض الأحيان لا يزال يتصورُ نفسه سلطاناً يتَّضحُ كم كانت الحياة في "سالونيك" تشقُّ على نفسه وتثقل عليها.

وربما شعر عبد الحمید أنه في حاجةٍ ماسةٍ للدفاع عن نفسه أمام التاريخ والمستقبل؛ لذا بدأ في تلك الأيام يُملي مذكراته على الكاتب "علي محسن بك"، إلا أنه بمجرد أن تناثرت الأخبار حول كتابته خواطره حُسِّسَ "محسن بك" أحد عشر يوماً -في شهر رمضان- في سردابٍ وقبورِ القصر، واستولوا على الأوراق التي كتب فيها مذكراته، وبعد هذه الواقعة ظلَّ "علي محسن بك" مدَّةً من الزمن في "سالونيك"، ثم أُطلق سراحه، ولكن الاتحاديّين أبعدوه عن خدمة عبد الحمید، ولم يستطع عبد الحمید أن يحصلَ على تلك الأوراق القيمة التي كتب فيها مذكراته، كما أنه توقَّف عن كتابة مذكراته في "سالونيك".

وحينما نُفي السلطان عبد الحمید إلى "سالونيك" لم يحصلَ على أيّة أموالٍ أو إمكانيات ماديّة تكفّل له ولمن معه حياةً كريمةً، حتى إنه لم يُسمحَ لهم بأخذ متعلّقاتهم الشخصية أو ملابسهم أو أيّ شيءٍ، فَبَعْدَ مغادرة السلطان لقصر "يلديز" تعرّضت الأشياء والمتعلّقات الشخصية القيمة الخاصة به وبأهل القصر للنهب والسرقة، كما تعرّضت الخزينة الخاصة به للنهب أيضاً. أجل، لقد تعرّض كلُّ ما في القصر للسلب والنهب حتى الملابس والمتعلّقات الصغيرة، وفي النهاية لم يتمكن السلطان "محمد رشاد" الذي تولى الحكم ولا القوات المكلفة بحراسة القصر من أن تتخذ الإجراءات الضرورية للحيلولة دون وقوع هذا الأمر المفجع، هذا على الرغم من أن الأشياء التي سُرقَت هي أموال الأمة والشعب، وتقع مسؤولية الحفاظ عليها على عاتق السلطان والحكومة والجنود.

إن ما تعرَّضَ له وما عاناه عبد الحميد ومن معه لدى مجيئهم إلى قصر "آلاتيني" أمرٌ لا يمكن وصفه؛ فقد حُرِّموا حتى من المستلزمات الأساسية كالماء والصابون والسرير والشوك والملاعق، فحاولوا أن يتغلبوا على تلك الظروف الصعبة باستخدام بعض الأشياء المتفرقة المتبقية من أصحاب القصر وساكنيه السابقين، ولم يكن داخل هذا القصر أي قطع من السَّجَاد أو المفروشات أو الأغطية، وكان الطعام الذي قُدِّمَ إليهم في الليلة الأولى عبارة عن خبز ولحم بارد وزبادي، كما أُرْسِلَ والي "سالونيك" صبيَّةٌ عليها طعام ومثلجات؛ ولكن عبد الحميد رفض أن يتناول منها، غير أنَّ أبناءه لم يتحمَّلوا الجوعَ حتى إنهم تناولوا بأصابعهم المثلجات التي نُسيَّ إحضار الملاعق اللازمة لتناولها، وأثناء الطعام شكروا الله، ودعوه قائلين: "بارك الله لنا فيما رزقنا ولا حرمننا من نعمه"، ونظرًا لعدم توافر الملاعق والشوك والأكواب في القصر فإنَّ الكبار والصغار الذين لم يزيحوا عنهم وعشاء السفر ومشقَّته أكلوا ما استطاعوه بصعوبة.

وكان واضحًا أنه لم تكن ثمة أسِرَّة أو أغطيةٌ ينامون عليها، وحينما صعدوا إلى الطابق الأعلى وهم يمسكون الشموع بأيديهم لم يجدوا سوى بعض المقاعد وسرير قديم مصنوع من الحديد؛ فضموا الأريكتين الموجودتين في الطابق الأول إلى بعضهما لتتحوَّلا إلى سريرٍ حتى ينام عليه عبد الحميد الذي لم يتأفَّف أو ينزعج من هذا الأمر، وفي الواقع إنَّه لم يكن ينعم بنومٍ هاديٍّ، فكان ينام خمس ساعات على الأكثر يوميًا، أما الآخرون الباقون فقد أمضوا الليلة على الأغطية والألحفة والوسائد القَدَرَة المُنسَخَة التي أحضرها "فتحي أوقيار" لاحقًا من أحد فنادق "سالونيك"، وأُصِدَّتْ أبواب القصر عليهم، ولم يكن هناك سوى شمعةٍ صغيرة تضيء الحجرة التي يستريح فيها عبد الحميد.

وفي صبيحة اليوم التالي تحدّث عبد الحميد مع "فتحى بك" -الضابط المسؤول عن حراسته- وأخذ منه وعدًا بأنّ كلّ شيء سيصبح على ما يرام وأنّ طلباتهم ستُلبّى، وبهذا عادت الحياة لطبيعتها داخل هذا القصر تدريجيًا، والحقيقة أنّ "فتحى بك" كان يتصرّف مع عبد الحميد بكرم ولُطفٍ ويُحاولُ تلبية طلباته بقدر ما يستطيع، ففي اليوم الثالث خلّت مشكلة الطعام؛ إذ حضر الطباخ "مصطفى آغا" والطباخ الكهل "ولي بابا" الذي كان يخدم عبد الحميد مُدّ كان أميرًا، وأمينًا مخزن الطعام والمُؤن "حقى أفندي" و"صدقي أفندي" من قصر "يِلْدِيز" إلى "سالونيك"، كما تحدّث عبد الحميد مع "فتحى أوقيار" في نفس اليوم، واتفقًا على أن يذهب "فتحى بك" إلى إسطنبول، ويأتي لهم بما يلزم من أسيرة وملابس وأغطية وما إلى ذلك، ومن باب رد الجميل لهؤلاء الخدّم المخلصين الذين لم يتركوا السلطان وحده في "سالونيك" وظلّوا في خدمته في قصر "بُكْلُزْبُكي" في السنوات التالية؛ كان السلطان يكرّم من يموت منهم بأن يدفنه في مقابر "يحيى أفندي" في إسطنبول.

وقد طلب رئيس الحرس "فتحى بك" من عبد الحميد إعطاء مفاتيح الخزائن والدواليب والغرف في "يِلْدِيز"، فأعطاه مفتاحين كانا معه، ويبيّن له ما الذي يفتحه بهذين المفتاحين، كما أخبره أين يمكنه أن يجد باقي مفاتيح الخزائن الموجودة في القصر.

وقد عاد "فتحى بك" من إسطنبول بعد ثمانية أيام مصطحبًا معه بعض المساعدين، كما أنّ القلّفاوات اللائي حضرن إلى "سالونيك" بصحبة "فتحى بك" روّين ماحدث بعد مغادرة السلطان القصر وكيف أنّ القصر نُهب، وسُرِقَ كلّ ما خُفّ وزنُّه وغلا ثمنه، وأنه تم الاستيلاء على أموال ومجوهرات وحلى الأمراء والسيدات، وأن الخزائن والصناديق كانت تخرج من القصر ليلاً وحتى الصباح.

وبعد أن عانوا شهراً كاملاً وناموا على فُرُشٍ بطائئُها من القشّ وعلى أرضياتِ القصر الخشبيّة وسط الحشرات والبعوض لدرجة أن بعضهم كانوا ينتظرون عرايا حتى تجفّ ملابسهم المغسولة؛ لعدم وجود بديل لها ولا يملكون غيرها؛ أحضر "فتحى بك" صندوق المتاع الخاص بكلّ منهم من إسطنبول، ولكن أيّاً منهم لم يجد خزانة متاعه كما تركها في "يلديز"؛ فقد نُهب أغلبها بعد أن غادروا القصر، بما في ذلك المتعلقات الشخصية الخاصة بعبد الحميد، ووصلت من إسطنبول الملابس الرثّة البالية القديمة فحسب، وعلى الرغم من هذا كان هناك من يطوفون في ممرات قصر "آلاتيني" المهملة والمهجورة والموحشة مرتدين هذه الملابس القديمة بكبرياءٍ وفخرٍ وعزّةٍ أكثر مما كانوا عليه في قصر "يلديز" كشادية سلطان -على سبيل المثال-، والحقيقة أن الجهود التي اضطلع بها "فتحى أوقيار" في ظلّ تلك الظروف كانت تستحقّ التقدير والامتنان؛ فقد كان يبذل كلّ ما في وسعه من أجل تحقيق مطالبهم، وقد عمل جاهداً على حلّ مشكلة الأغطية والمفروشات.

وعلى الرغم من التصرفات السيئة لبعض الضباط المعيّنين في القصر وسلوكهم العدائي تجاه عبد الحميد وأسرته وتعاملهم بوقاحةٍ معهم إلا أنّ قائد الحرس "علي فتحى بك" كان يعامل عبد الحميد وأسرته بكلّ احترامٍ وتقديرٍ؛ إذ كان رجلاً رقيقاً مهذباً فاضلاً، ولم يكن يؤذي أحداً من العمال، وكان يعامل الجميع معاملةً حسنةً، وكان من الواضح جداً عدم رضاه عما يحدث وحزنه الشديد من ذلك، فقد كان يقول:

"لقد كُلفْتُ بحمايتكم وحراستكم وتأمين سلامتكم، وأنا دائماً في خدمتكم وإن أمرتُم بشيءٍ أو احتجتم لشيءٍ فأبلغوني وستجدوني أمامكم في الحال".

حتى إنه كان يسافر إلى إسطنبول في بعض الأحيان لتلبية بعض طلبات السلطان عبد الحميد، ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً؛ فقد استدعاه الاتحاديون إلى إسطنبول، وعينوا مكانه قائداً آخر للحرس.

* * *

لقد تذكر عبد الحميد في تلك اللحظات بحزنٍ وأسى الوقت الذي حوّل فيه عقوبة إعدام كلٍّ من "مدّحت باشا" و"محمود باشا" -التي قوّرتها محكمة "يلديز" - وخفّفها إلى النفي؛ إذ أرسلهما إلى الطائف.

لقد تكبّدت الدولة العثمانية خسائر فادحة بعد أن مُنيت بهزيمةٍ نكراء خلال حرب "٩٣" والبلقان والقوقاز التي كان يؤيّدُها "مدّحت باشا" ورفاقه، وقد استخدم عبد الحميد السلطة التي يكفلها له الدستور؛ فقام بعزل "مدّحت باشا" وأرسله إلى المنفى، ولكنه لم ينسَ أبداً حادثة مقتل عمّه.

أمضى مدّحت باشا أيام نفيه ابتداءً من عام (١٨٧٧م) في إسبانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا، ولكنه عاد مرة أخرى إلى خدمة البلاد على أثر الالتماسات التي قدّمت إلى السلطان من أجل العفو عنه، وعندما لم يُستحسن نمط حياته في أوروبا وعلاقاته الدبلوماسية هناك من قبل رجال الدولة سُمح له في البداية بالإقامة في "كرت (Girit)"، ثم عُيّن والياً على سورية، وحينما وجد أنه من الخطأ أن يظلّ بعيداً عن العاصمة عُيّن بعد مدة والياً على "أيدن (Aydin)"، ومع مرور الوقت ازدادت شكوك عبد الحميد حول مقتل عمّه، فأقام في النهاية "محكمة يلديز" الشهيرة عام (١٨٨١م) للتحقيق فيما إذا كان السلطان قد انتحر أم قُتل، والكشف عن الجناة والمحرضين إذا ما كانت هناك شبهة جنائية.

وفي الحقيقة جاءت هذه المحاكمة متأخرة جداً؛ حيث طرأت تغيرات خلال فترة السنوات الخمس التي مرت على وفاة السلطان عبد العزيز؛ مما تسبّب في ضياع واختفاء بعض الأدلة والشواهد.

وقد أثر "مُدَحَّتْ باشا" الهروب من مدينة "أيدن" بمجرد علمه أنه سيُمثّل أمام المحكمة لإحساسه الداخلي بالذنب والتورط في هذه الحادثة ممّا جعل الشكوك تزداد حول "مُدَحَّتْ باشا"؛ حيث توجّه إلى السفارة الإنجليزية في "إزمير" دون أن يراعي مكانته كوالٍ عثماني، ولكنها كانت مغلقة لإجازة؛ فلجأ هذه المرة إلى السفارة الفرنسية للاحتماء بها، ويُمثّل هذا المشهد الذي لم تشهد الدولة العثمانية مثيلاً له حتى ذلك الوقت وصمة عار وخيانة على جبينه، ودليلاً قاطعاً على إدانته.

رفضت السفارة الفرنسية في "أزمير" تسليم "مُدَحَّتْ باشا" للمكلفين بإحضاره، إلا أنها اضطرت لتسليمه بعد ضغوط قوية من عبد الحميد وبعد التعهّد بتقديمه لمحاكمة عادلة، وسبق "مُدَحَّتْ باشا" إلى إسطنبول وقُدِّمَ للمحاكمة مع شركائه، وكانت الخارجية والإعلام الإنجليزي يتابعان تلك القضية عن كثب، وعلى الرغم من تردد السفير الإنجليزي على قصر يُلْدِيز بصفة مستمرة إلا أن إجراءات المحاكمة استمرّت ولم تتوقّف بالرغم من كلّ شيء، وفي نهاية المحاكمة والتحقيقات وبعد الاطلاع على الأدلة وشهادة الشهود أصدرت هيئة قضاة محكمة يُلْدِيز حكمها بإعدام "مُدَحَّتْ باشا" وتسعة متهمين آخرين بتهمة قتل السلطان عبد العزيز، وكشفت المحكمة عن أن بعض الشخصيات ومن بينها "عوني باشا" و"مُدَحَّتْ باشا" قد ساهمت في قتل السلطان عبد العزيز، وفي النهاية صادقت محكمة التمييز ومشيخة الإسلام على الأحكام الصادرة من محكمة "يُلْدِيز"، وعلى الرغم من فتوى شيخ الإسلام "عريان زاده أحمد

أسعد" بشأن حكم الإعدام إلا أن عبد الحميد أمر بتشكيل هيئة مكونة من وزراء ورجال دولة وعلماء للبحث في القضية وإبداء الرأي فيها، وقد أبدت تلك الهيئة آراءها بحرية كاملة دون التعرض لأيّة ضغوط؛ حيث أيدت الحكم الذي أصدرته محكمة يلدیز بإعدام المتهمين، إلا أن عبد الحميد وعلى الرغم من قرار الإعدام الذي أصدرته محكمة يلدیز والهيئة العليا التي شكّلها أظهر رافةً ورحمةً وتعاطفًا تجاه المتهمين وعفا عنهم، وأمر بالآلا يُنفذ حكم الإعدام في أيّ منهم وأن تُخفّف العقوبة إلى السجن المؤبد، وعلى الرغم من مطالبة البعض مثل "عثمان غازي باشا" و"أحمد جودت باشا" بتنفيذ حكم الإعدام في "مدحت باشا" إلا أن عبد الحميد ثبت على موقفه ولم يرجع عن قراره، وعلى الرغم من تلك الحقائق التاريخية الثابتة إلا أنه لم يسلم من الأكاذيب والافتراءات، وبعد تخفيف حكم الإعدام إلى المؤبد نفى "مدحت باشا" إلى سجن قلعة "الطائف" في ريف مكة المكرمة، إلا أن حراس سجن الطائف خنقوا كلاً من "مدحت باشا" و"محمود جلال الدين باشا" وقتلوهما بعدما قضيا سنتين وتسعة أشهر في محبسهما.

كان "محمود جلال باشا" زوجاً لأخت عبد الحميد وأباً لأربعة أبناء، ولكن تبقى قضية من أصدر لهم الأوامر بقتلهم لغزاً حتى الآن، وقد اتهم عبد الحميد بتدبير تلك الحادثة على الرغم من أنه لن يستفيد شيئاً من قتل "مدحت باشا"، كما أنه هو الذي خفف حكم الإعدام عنه قبل ذلك، وقد أثبتت شهادة الحراس أن عبد الحميد ليست له أيّة يد في هذا الحادث؛ فقد تمت تلك الحادثة خارج نطاق سلطته المركزية، فلم يُصدر عبد الحميد أمراً للقيام بعمل كهذا كما عبر عن استيائه وعدم رضائه عن تلك الحادثة؛ حيث إنه وعلى ضوء المعلومات التي وردت إليه بأنه سيتم

تهريب الباشاوات المحبوسين أصدرَ أوامره إلى والي الحجاز وقائدها عثمان باشا قائلاً:

"إذا هرب الباشوات أو تمَّ تهريبهم فالحراس هم المسؤولون شخصياً عن هذا الأمر، ولن يُقبلَ حينئذٍ أيُّ عذرٍ!".

وهذا لا يعني أنه وافقَ على قتلهم، بل إنه حينما كان يجري الحديث عن هذا الأمر أو يُشارُ إليه في القصر في السنوات التالية كان يشعرُ بالأسى والتأثر ويقول:

"إن هذه الواقعة واحدةٌ من منغصات حياتي، واللعنة على هذا الأمر؛ لقد لَفَّقَ أعدائي لي تهمةً كهذه من أجل تشويه سمعتي!".

إن من يعرفون عبد الحميد عن قرب يعرفون سلامة صدره، ويعلمون تماماً أنه ليس حقوقاً ولا يكنُّ عداوةً لأحد؛ فبعد عزل "مدحت باشا" من الصدارة العظمى تولَّى أقاربه مناصب قيادية مهمة في الدولة، وقد ذكر "علي حيدر" -ابن "مدحت باشا"- خلال إحدى حواراته مع "عبد الحق حامد" أنه مقتنعٌ تماماً بأن السلطان عبد الحميد ليس له أيُّ دخلٍ بحادثة الطائف، فمن الحقائق المعلومة أن عبد الحميد الذي يعارض عقوبة الإعدام كان إنساناً يكره إراقة الدماء طوال حياته؛ فقد شهدت الدولة العثمانية طوال عصورها الستة العديد من حالات الإعدام الصادرة وفقاً للقانون، إلا أن عبد الحميد عارض عقوبة الإعدام؛ حتى إنه طوال فتره حكمه الطويلة لم يصدِّقَ على أيِّ حكمٍ بالإعدام لمعارضيه من السياسيين، وفي ظلِّ تلك الأحداث الخطيرة في فترة كهذه كان أسلوبُ العفو الذي اتخذه تجاه المتهمين بثهمٍ سياسيةً أمراً يُثيرُ العجب والدهشة؛ فقد كان يأمر بإعادة النظر في أحكام الإعدام التي تُعرضُ عليه من المحاكم عدا بعض الاستثناءات أو يُخَفِّفَ الحكم إلى الحبس المؤبد، حتى إن "عبد

الرحمن باشا" وزیر العدل الشهير خلال سنوات حكمه كان مستاءً جداً من هذا الأمر وطلب إعفائه من منصبه لاعتقاده أن السلطان لا يثق في أحكامه وأحكام القضاء، وقد ثبت أن عدد المتهمين الذين نُفذت عليهم عقوبة الإعدام في فترة حكمه لم يتجاوز أحد عشر متهمًا فقط، ولم يكن من بين هؤلاء أي سياسي.

كان عبد الحميد يطلب أن يُعاد النظر مرةً أخرى في المسائل المتعلقة بحياة الإنسان ولا يمكن التراجع عنها أو الرجوع فيها مثل تنفيذ أحكام الإعدام؛ فكان يفضل عدم سريان حكم الإعدام على هؤلاء المتهمين كي لا يتحمل عذاب الضمير طوال حياته بسبب خطأ يمكن أن يسبب له الندم فيما بعد، وقد تراجع وزير العدل "عبد الرحمن باشا" عن استقالته بعدما أوضح له عبد الحميد تلك الأسباب المنطقية، وعلى حين كانت هذه هي مقترحات عبد الحميد بشأن أحكام الإعدام ومفهوم العدالة؛ كان يُذكر على أنه "ظالم" و"غير منصف" في المحافل المختلفة وعلى أنه "السلطان الأحمر" ويلعن ويُسب في أماكن عديدة، ويُسعى لإظهاره وكأنه قاتل محترف متعطش للدماء.

وعلى الرغم من أن عبد الحميد كان يمسك بزمام الأمور في العديد من القضايا، ويدير أمور الدولة في تلك الفترة الدقيقة بآلية حكم صارمة وقوية، إلا أنه لم يكن يقبل مطلقاً تدخّل أحد في سير العدالة والقضاء، ولا يرضى بمحاولات رجال الدولة التأثير على السلطة القضائية وكان يُحذّرهم بشدة من أن يقوموا بهذا الأمر، فكانت لديه رغبة في ألا يخضع رجال القضاء لأي تدخّل من أحد مهما كان منصبه، وفي حين كان يتلقى الكثير من التقارير في العديد من المسائل عن طريق رجال مخابراته، لم يكن يطلب أية معلومات أو تقارير بخصوص رجال القضاء والمحاكم.

لم تكن مسألة استقلال القضاء موضع نقاش ولا جدال خلال سنوات حكم عبد الحميد؛ إذ كان استقلال القضاء الذي يُعتَبَرُ أهم مبادئ الإصلاح يُشكِّلُ أحد أهم الدعامات الرئيسة للنظام القوي الذي أسسه في الدولة، وكانت وزارة العدل والسلوك القضائي يضم قضاة متميزين وبارعين وشرفاء للغاية، وكدليل على تقديره للقضاء ورجاله فقد أمر بتعديل مكانة وزير العدل في البروتوكول الوزاري قبل مكانة وزير الحربية، وعلى الرغم من مرور كل هذه الفترات والانتقال من الحكم العثماني إلى عصر الجمهورية إلا أن هذا البروتوكول بقي على حاله الذي وضعه عليه عبد الحميد ولم يتغير حتى الآن.

والحقيقة أن المغالطات والأكاذيب التي حيكَت ضد عبد الحميد كانت تنبع من عجز معارضيه عن إيجاد دليل يمكن اعتباره تهمة في حقه، وعلى الرغم من هذا فقد بدأ التاريخ يُبرئ ساحته من تلك الاتهامات المزيفة، ويضعه في المكانة التي يستحقها في الأذهان كسلطان عادل حتى وإن جاء هذا الأمر متأخراً.



نظرةٌ بديع الزمان سعيد النُورسي إلى السلطان عبد الحميد

لم يكن السلطان عبد الحميد يستحقُّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال أن يُطلَقَ عليه "السلطان الأحمر"؛ فقد كان إنساناً كأَيِّ إنسانٍ آخر له أخطاؤه وزلاته، سَخَّرَ نفسه لخدمَةِ الدين والشعب والوطن، وبذل قصارى جهده ساعياً لتطبيقِ تعاليم الإسلام وتمثيله بشكلٍ جيّدٍ، وحسب وصف بديع الزمان كان عبد الحميد أحد السلاطين العثمانيين الذين عُرفوا بأنهم من أولياء الله الصالحين، وكان بديع الزمان يدعو له كما يدعو للسلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد والسلطان وحيد الدين، فقد كانت له مكانة خاصة لدى بديع الزمان.

وعندما نتناول سنوات حكم السلطان عبد الحميد بالدراسة يكون من الخطأ عدم الفصل بين حياته الشخصية وأعماله السياسيّة، فقد تسبَّب عدم اتباع هذا المنهج عند دراسة حياة عبد الحميد في حالة من الاستقطاب واختلاف الآراء؛ حيث إننا نجد البعض منهم وصلَّ إلى نقطةٍ كاد فيها أن يخرجَهُ من القبرِ لينتقم منه ويذيقَهُ من العذاب ألواناً، وهذا تصرُّفٌ لا يمكن أن يقبلَهُ عقلٌ ولا يستسيغُهُ منطقٌ ولا يرضى به تسامُحٌ، وفي مقابل هذا الهجوم القاسي كان هناك على الجانب الآخر من يُدافع عنه دفاعاً مستميتاً بلا مساءلةٍ ولا محاسبةٍ، وبهذا لم نستطع الوصولَ إلى طريقٍ وسطٍ كالعديد من قضايانا وظللنا نراوحُ بين إفراطٍ وتفریطٍ، وإن لم نفصل بين حياة عبد الحميد الشخصية وأفعاله السياسية فلنعلم أننا ماضون على طريق الاختلاف والفرقة.

وقد ألقى بديع الزمان سعيد النورسي الضوء على تلك النقطة؛ فبينما كان يرى أن عبد الحميد وليٌّ من أولياء الله الصالحين وواحدٌ من أصحاب القلوب الرحيمة؛ كان على الجانب الآخر ينتقد بشدّة سياسته التي تعتمد نوعاً ما على الاستبداد أو حكم الفرد قائلاً:

"إنني إذا صادفته (أي: الاستبداد) في أيِّ مكانٍ سأصفعه!".

أي سوف أوقفه عند حدّه، فلم يُعطِ الإسلام الحقّ في ممارسة الاستبداد بأيِّ شكلٍ من الأشكال، بل إنه أعطى حرية التعبير أهميّةً كبيرةً، وكان بديع الزمان يصفُ فترة ما بعد حكم عبد الحميد حتى عام (١٩٥٠م) بـ "الاستبداد المُطلَق"، كما كان يُخالِف بشدّة الشخصيات السياسيّة لهذا العصر.

وقد شعر بعض المثقفين أن هناك ضغوطاً دينيّة وقبليّة ستُطبّق على الشعب بعد معاهدة "لوزان" (١٩٢٣م)، ولما لم يستطيعوا أن يتفهّموا موضع الخطأ في ذلك الوقت نسبوه إلى عبد الحميد، وقد عبر سعيد النورسي عن هؤلاء المعارضين لسياسة عبد الحميد قائلاً:

"إن بعض المثقفين قد شعروا بالاستبداد إلا أنهم قاموا بتوجيه السهام في الاتجاه الخطأ".

وبهذا تكون هذه الجملة قد أوضحت لنا المسألة بشكلٍ جميل. نعم، إن الغرض نبيلٌ ولكن الوسيلة كانت خاطئة.

فقد كان لزاماً على عبد الحميد -رغب أم كره- خلال نضاله مع ذئاب الغرب الشرسة في الميادين المختلفة، وفي ظلِّ الظروف الاستثنائية لتلك الفترة أن يتّبع سياسة صارمةً ومستبدّة؛ فلم تسمح له الظروف بتفعيل عمل البرلمان والدستور بالشكل الذي ينبغي بعد المرور بتلك التجارب الأليمة، وعلى الجانب الآخر فقد كان نظام الحكم الاستبدادي

(الديكتاتور) هو الحاكم خلال تلك الفترة في دول أوروبا باستثناء بعض الدول، وعلى الرغم من كل ما مرَّ به عبد الحميد في سنوات حكمه الثلاثة والثلاثين إلا أنه استطاع بشكل كبير تجاوز تلك الفترة بلا خسائر، واتفق الجميع على أن الاستبداد الحقيقي عُرف في عهد "الاتحاد والترقي"، حتى إنَّ واحدًا من أشدِّ المعارضين لعبد الحميد وهو الفيلسوف "رضا توفيق" خاطبهُ قائلاً:

"لقد تعقبت أعداءك بالشرطة السريّة، بينما هم -أي "الاتحاد والترقي" - نصبوا المشانق لمعارضيهـم".

وبينما كان عبد الحميد يناضل من أجل إنقاذ دولة عريقة أوشكت على الانهيار كان الغرب يتابعه منبهرًا ومندهِشًا من أسلوبه الحكيم في إدارة الأمور؛ فقد كان كلَّ يوم من سنوات حكمه يحوي عديدًا من الحوادث الجسام، وما خَفِيَ عنا من الحوادث التي أبلى في إدراتها بلاءً حسنًا كان أعظم، ويتَّضح لنا بمرور الأيام أن صعوبة فهم ما يعايشه الشرق الأوسط وتركيا من أحداث في وقتنا الحالي يرجع لعدم فهم تلك المرحلة (أي مرحلة عبد الحميد) وما بعدها فهمًا جيدًا.

والحقيقة أن الاتحاديين كانوا لا يرغبون في إعطائه الجرائد والضخف المحليّة حتى لا يعرف عبد الحميد بالإجراءات غير المشروعة والأخطاء المتعمدة التي يتخذونها، ولكنه كان يشعر أنَّ الأمور ليست على ما يرام وأن الدولة في خطر، وكان يرى أنه من الأفضل له ألا يطلع على مجريات الأمور، وأدرك أنه ليس له الحقُّ في المطالبة بأيِّ شيء، وأنه مُجبر على الرضا بما يُقدَّم له، وعلى هذا نصَّح المقرَّبين له في القصر قائلاً:

"لا تتحدّثوا بوجه غير لائق عن أيِّ شخص، ولترضوا بقضاء الله وقدره ولتعلموا أن السراء والضراء من المولى ﷻ".

فقد كان راضيًا بما سيقسمه القدر، ولهذا السبب لم يكن عبد الحميد يولي عزل "فتحي بك" وتعيين "راسم بك" مكانه كقائدٍ للحرس في قصر "الآيني" أهميّة ما، والحقيقة أنه في البداية لم ينشرح قلب أيّ من في القصر لقائد الحرس الجديد "راسم بك"، لكن أسلوبه الذي أظهر وجهًا قبيحًا وصارمًا في قصر "الآيني" تغيّر بعد ذلك في قصر "بكلربكي"؛ حتى إنه أقام علاقةً ودّيّةً مع عبد الحميد وعائلته وعاملهم معاملة حسنة إلى حدّ ما، وأصبح يُكنّى لهم كلّ احترامٍ وتقديرٍ مع مرور الوقت.

كان "راسم بك" يهدّد عبد الحميد إن لم يمنح أمواله الموجودة في البنوك للجيش قائلاً:

"إذا أصررْتُم على موقفكم فسيحبسونكم أنتم وبناتكم في القبو!".

واحتدمت المشكلة، وجاء "راسم بك"، ذات يوم، وأبلغه قائلاً:

"إن موظفي البنك سيأتون غدًا إلى القصر، وسيقومون بتسليمكم النقود والأسهم والودائع".

وهذا يعني أن البنوك لم تعترف بالتوكيل الذي وقّعه وأنها اشترطت تسليم الأموال والمدخرات إلى عبد الحميد شخصيًا، والحقيقة أنه لا يولي اهتمامًا لهذا الأمر، حتى إنه يرى أنهم لو لم يزجوا به في هذا الأمر لكان أفضل بالنسبة له لأن عائلته وأبناءه أُصيبوا بالقلق والخوف جرّاء الأزيمة التي تسبّب فيها هذا الأمر المخزي؛ فقد كان الأمير "عبد الرحيم أفندي" الذي تأثّر بمعاملة ضباط القصر السيئة وتهديداتهم وكلماتهم التي تثير الغضب يُصاب بنوباتٍ عصبيّةٍ وتشنّجات، وشحّب وجهه ألماً وحُزنًا وامتنعَ لونه، علاوة على أن أنف الأميرة "عائشة سلطان" كانت تنزف باستمرار، وأصيبت بالضعف والهزال، كما أن السيدة "مشقة قادين هانم"

قد رَقَدَتْ في السرير من شِدَّةِ المرضِ وخارت قواها، وكان "عاطف بك" يأتي إلى القصر من حين إلى آخر؛ فيفحص كلَّ فردٍ من أفراد العائلة، وكان مجيءُ موظفي البنوك إلى قصر "آلاتيني" يعني أن يُصابوا بالقلْبِ والاضطراب مرَّةً أخرى، والحقيقةُ أن أبناءه قد أصابهم الفزع عندما أدركوا خطورة الموقف، وبدؤوا يقولون:

"الله هو الرزاق العليم، فليُعْطِهِمُ والدُنا النقودَ ويُخْلِصَ نفسَه ويخْلِصنا من هذا المأزق".

وفي صبيحةِ اليومِ التالي حضرَ القنصلُ الألمانيُّ في "سالونيك" ومديرو وموظفو البنك إلى قصر "آلاتيني"، وفي ذلك اليوم وبينما كان عبد الحميد ينتظرُ ضيوفَهُ في القصر أَمَرَ بأن يجلسَ بجواره ابنه الأمير "عابد أفندي" الذي ما يزال في الخامسة من عمره، والحقيقةُ أن هدفَهُ من ذلك هو إشعارهم بأن حقَّ هذا الطفل البريء ستذروه الرياح إن فعلَ ما يُريدون وتنازلَ عن أملاكه الخاصة، وقد تحدَّثَ القنصل الألماني وموظفو البنوك لـ "هادي باشا" و"علي رضا باشا" اللذين جاءا من الجيش الثالث بصحبة الوفد قائلين:

"يجب أن نلتقي بجلالتيه على انفراد، لذا نرجوكم أن تتركونا معه، فالأعراف والقواعدُ الرسمية تقتضي هذا الأمر، وبهذه الصورة فقط يمكننا إتمام الإجراءات!".

وعلى الرغم من اندهاش "راسم بك" والباشاوات من هذا الأمر إلا أنهم لم يعترضوا عليه، واضطروا إلى مغادرة البهو وتوجَّهوا إلى الحديقة. كان حرس القصر يتألَّفُ من أحدَ عشر فردًا ما بين نقيبٍ ورائدٍ وضابط، وكانوا جميعهم مشاركين في الانقلاب على المشروطية، حتى إن الضباط ذوي الرتب الصغيرة الذين يرتدون ملابس مدنية بهدف

التعمية على الألمان وإظهار أنفسهم على أنهم مدنيون؛ راحوا يتحدثون أمام "هادي باشا" و"علي رضا باشا" بصوتٍ مرتفعٍ دون أي اعتبارٍ للتقاليد العسكرية واحترام الرتبة الأعلى قائلين: "لماذا تركتموهم يقابلونه على انفراد؟"، ثم أخذوا يكيلون أبشع السباب لعبد الحميد، وراحوا يلوحون بإشارات التهديد والوعيد نحو نوافذ القصر، علاوة على أن أحداً لم يقل شيئاً عن هذه التصرفات الخرقاء، فلم يعد هناك اعتبار للانضباط واحترام الترتيب العسكرية؛ فقد ضربوا بكل هذا عرض الحائط، ولقد كان الضباط المكلفون بحراسة القصر في ذلك اليوم أشد حدةً وصرامةً عن باقي الأيام، وزادوا في تهديداتهم عن ذي قبل حتى إن هذا الأمر استرعى انتباه الجميع.

وبمجرد خروج "راسم بك" و"الباشوات" التفت القنصل الألماني وموظفو البنك حول عبد الحميد وسألوه بتعجبٍ:
"أحقاً ستتنازلون عن أموالكم؟!"

فأجابهم قائلاً:

"نعم!"

بسبب قبول الشروط التي وضعها مسبقاً وبناءً على هذا فتح موظفو البنك الحقائق التي كانت في حوزتهم، وبدؤوا بجمع النقود، وبعد عمل الإجراءات اللازمة والتوقيع على الأوراق المطلوبة تسلم عبد الحميد الأموال وسندات الملكية داخل ست حقائق كبيرة، ثم طلب القنصل الألماني وموظفو البنوك الإذن منه بالرحيل، فغادروا القصر دون أن يلقوا التحية على الضباط والباشوات المنتظرين في الحديقة، فكان يبدو على وجوههم أنهم غير راضين عن هذا الأمر، وفي تلك الأثناء توجه عبد الحميد نحو شرفة القصر وصاح على الضباط بصوته الجمهوري قائلاً:

"ها هي الحقائق فلتحملوها من هنا!".

فَهَزَّوْا بَعْضَ الضَّبَّاطِ الَّذِينَ أَعَمَّتْ الْأَمْوَالُ أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْبَهْوِ، وَبَدَّوْا
يَحْمِلُونَ الْحَقَائِبَ إِلَى عَرَبَتَيْنِ مِنْ طَرَازِ "لَانْدُو" كَانَتَا تَنْتَظِرَانِ بِالْخَارِجِ،
وَتَحْتَ إشراف الضابط "سالم الكردي" بدأت العربات تشق طريقها بسرعة
في اتجاه "البرج الأبيض" في "سالونيك".

لقد نُهَبَتِ الثروة التي حافظَ عليها عبد الحميد بعد أن سيطر "جيش
الحركة" على مقاليد الحكم في إسطنبول، وأنفق الاتحاديون وزوجاتهم
هذه الثروة التي نهبها من قصر "بَلْدِيْز" وباقي القصور، وكذلك
الأموال الشخصية لعبد الحميد التي استولوا عليها باسم الجيش الثالث،
والمجوهرات الخاصة بالأسرة العثمانية التي باعوها في باريس؛ أنفقوا
كل ذلك على ملذاتهم ورحلاتهم التي قاموا بها من أجل المتعة واللهو
والمجون، وكانت أغلب تلك الرحلات إلى ألمانيا، وقد تقاسموا هذه
الثروات فيما بينهم.

وبعد أن غادرَ موظفو البنك القصرَ وحملَ الضَّبَّاطُ حَقَائِبَ النقود
ذهب عبد الحميد وجمعَ أبناءه حوله، وكان يشعر بغصةٍ شديدةٍ ومرارةٍ
عميقةٍ لأنه لم يتمكن من تأمين مستقبل أبنائه، ونظرَ إلى وجه كلِّ منهم
والحزنُ والأسى يعتصرانه، ثم قال:

"يا أبنائي! إنه ليحزنني كثيراً أنني لم أستطع تأمين مستقبل أيٍّ
منكم، ولكن ما حيلتي؟ فهذا هو قدرنا ونصيبنا، ومن المؤكد أن
الأمة ستعتني بكم وترعاكم!".

والحقيقة أن أبناءه قد سعدوا جداً لأنهم تخلصوا من هذه الغمة،
وحاولوا التخفيف عنه قائلين:

"دُمتُ لنا سالمًا وأطالَ اللهُ عمرَكم، ولتكن هذه الأموال فداءً

لكم!".

ولم يعدْ ثَمَّةَ كلامٍ يمكن أن يقوله عبد الحميد لأبنائه المخلصين؛ فتوجَّهَ إلى غرفته بخطواتٍ متأنيّةٍ، وقد تسبَّبت هذه الحالة المؤثرة للسلطان العظيم في نشوء حالةٍ من الحزنِ البالغِ لدى الجميع وعلى رأسهم عائلته.

محاولة الاغتيال

إن المصائب والابتلاءات التي ألمت بـ "عبد الحميد" لم تتوقف عند هذا الحد؛ فبعد أسبوعٍ واحدٍ من تسليمه النقود إلى الجيش تعرّض لمحاولة اغتيالٍ خسيصة، وعلى الرغم من أن الجيش والحكومة قد تعهدا بالحفاظ على حياته وعائلته؛ إلا أنه تعرّض لمحاولات اغتيالٍ وتهديداتٍ بالقتل؛ فقد حاول ضابط المدفعية النقيب "سالم الكردي" المكلف بحراسة القصر اغتيال عبد الحميد على أمل أن يحوز الشهرة ويصبح بطلاً لقيامه بهذا الأمر؛ حيث أطلق عليه النار من مسدّسه أثناء وقوفه في شرفة القصر، وقد تخفى أثناء فعله ذلك وسط أشجار الحديقة في حين كان الأمير الصغير "محمد عابد أفندي" يجلس مع والدته في شرفة القصر، ولكنه أخطأ الهدف ولم يصب عبد الحميد؛ إذ أخطأت الرصاصة ومزّت من فوق رأسه مباشرةً وارتطمت بالحائط ثم سقطت على الحصى أسفل الشرفة، وعلى إثر صوت إطلاق الرصاص شاهدت السيدات شخصاً يهرب بسرعة من بين الأشجار متّجهاً نحو إسطنبول الخيل، وبعد أن صاح عليه عبد الحميد بصوته الجهوري خرج من المكان الذي يختبئ به ووضع مسدّسه في جرابه ومكانه المخصّص له كوضعية آمنة وابتعد، ولكن الضباط هرعوا إليه على الفور، وألقوا القبض عليه.

وفي إثر إطلاق النار تجمّع باقي الحراس وأفراد العائلة إلى جوار عبد الحميد، ولم يكن "راسم بك" موجوداً في القصر ولكنه حضر على الفور بمجرد علمه بالحادثة، وقد حكى له عبد الحميد ما حدث قائلاً:

"لقد أطلق النقيب 'سالم الكردي' الرصاص علينا من مسدّسه محاولاً قتلنا، لكنّه أخطأ الهدف، وها هي الفتحة التي أحدثتها

الرصاصهً بالحائط، وهذا هو المكان الذي سَقَطَتْ فيه الرصاصه
على الأرض في الحديقة، ما هذه الفعلة الشنيعه؟ ولماذا حدثت؟
فلتحضروا إليّ هذه الرصاصه من المكان الذي سقطت فيه فإنني
أرغبُ في الاحتفاظِ بها للذكرى".

وقد اعتذر "راسم بك" لعبد الحميد عمّا حدث، وأخبره بأن الضابط
"سالم" سيتمّ ترحيله على الفور وسيُقدّم إلى محاكمة عسكرية، ثم نزل
"راسم بك" إلى الحديقة وأخذ الرصاصه من بين الحصى ووضعها في
جيبه، وغادر القصر دون أن يعطيها لعبد الحميد.

لقد قام "سالم الكردي" بهذه المحاولة الخسيسه على الرغم من
أفضال عبد الحميد عليه، فقد تعرّف عبد الحميد على "سالم" الممتمي إلى
أسره فقيره عن طريق طبيبه الخاص "د. عصمت باشا"، وقَدّم له يد العون
حيث أمر بإلحاقه بمدرسة "قُولي" العسكريه وأمر بترقيته في الجيش، إلا
أنه تنكّر للجميل وأطلق النار على إنسان، وعندما سُئل عن سبب قيامه
بهذا العمل الخسيس أجاب قائلاً:

"لقد فعلتُ هذا الأمر حتى نتخلص منه جميعاً".



تَشْتَتُ الْعَائِلَةُ

إن عبد الحميد الذي عانى كثيراً وعاش وسط هذه الظروف في "سالونيك" تقدّم بطلب إلى الحكومة من أجل السماح بعودة بعض أفراد عائلته إلى إسطنبول، كما أرسل طبيب القصر الخاص تقريراً بناءً على طلب عبد الحميد يقول فيه:

"إن صحة الأولاد تسوء وسيكون من الأفضل أن يذهبوا إلى إسطنبول".

وفي النهاية وافقت الحكومة على هذا الطلب وسمحت لهم بذلك، وفي ظلمة إحدى الليالي الحالكة السواد غادر الأمير "عبد الرحيم أفندي"، والأميرات "شادية سلطان" و"عائشة سلطان" و"رفيعة سلطان" والسيدات "بيوسته هانم (Peyveste Hanım)" و"سازكار هانم (Sazkar Hanım)" و"فاطمة بسند هانم" مدينة "سالونيك" عائدين إلى إسطنبول بصحبة قائد الحرس "راسم بك" الذي يقوم بدور السجّان على أكمل وجه، وظلت السيدة "مشفقة قادين أفندي" والسيدة "صالحة ناجية قادين أفندي" والأمير الصغير "محمد عابد أفندي" إلى جوار عبد الحميد في قصر "آلاتيني" بـ"سالونيك"، كما عاد أيضاً إلى إسطنبول خمسة من القُلُفَاوات وسبعة من المصاحبين والخدم والكتّبة.

لقد سَعِدَ عبد الحميد جداً من تمكّن بناته من لقاء خُطابِهِنَّ في إسطنبول، ولكن القلق من عدم تَمَكُّنِه من رؤيتهن مرة أخرى كان يصيبه بالحزن والألم، وفي الأيام التالية كانت الأخبار الإيجابية المفرحة التي

أحضرها "راسم بك" من إسطنبول عن أحوال عائلته مصدراً لسعادته وسلوته، وسعد كثيراً عندما سمع أن ابنه الأمير "عبد الرحيم أفندي" سيعود إلى إسطنبول وينضم للإحدى المدارس العسكرية.

إن إقناع الأميرات وخاصة الأميرة "عائشة سلطان" بالمغادرة إلى إسطنبول ومفارقة والدهم لم يكن أمراً يسيراً على الإطلاق، وقد قدم عبد الحميد وهو مستلقٍ على الفراش تعباً عدة نصائح لزوجاته وبناته اللواتي جئن لتوديعه والدموع تترقرق في أعينهم حيث قال لهم:

"فلتحافظوا على شرف الأسرة العثمانية وتقاليدها أكثر من أرواحكم ولتتغفروا، وابتعدوا عن أي تصرف يُسيء إليّ، ولا تُلطّخوا اسمي بالوحل، ولتتزاووا ولتتحابوا، ولتطيعوا أوامر عمكم السلطان "محمد رشاد الخامس".

ثم دعا لهم بأن يمنحهم المولى عز وجل السعادة، والحقيقة أن مشهد الوداع هذا كان مؤثراً للغاية إلى حدٍ لا يمكن وصفه.

ولكن مع الأسف كان هناك مشهدٌ مأساويٌّ جديد ينتظر العائدين إلى إسطنبول؛ فقبل سفرهم أمر "راسم بك" بتفتيشهم تفتيشاً ذاتياً دقيقاً، حيث قام الضباط بتفتيش الذكور، وقامت زوجات الضباط بتفتيش السيدات بأسلوب مهين وكأنهنّ أسرى حرب، حتى إنهم فتشوا حتى شعرهن ومناطق حساسة من أجسادهن دون مراعاة لأيّ حرمة؛ مما ينم عن بشاعة ما تعرضوا له، إلى درجة أنهم أخذوا ما معهم من أشياء ووثائق ليتبينوا ويتفحصوا إن كانت تخصّ عبد الحميد أم لا؟ وبقيت كل الأوراق مع الحرس على أن يعطيها الحرس بدوره لأحدهم فور وصولهم إلى إسطنبول، ولم يكن لديهم حتى الحق في الاعتراض على أسلوب التفتيش المهين فأثروا الصمت.

وقد تأثر عبد الحمید الرجلُ الرحیمُ العطوفُ كثيرًا برحیلِ أبنائِهِ وبعُدِهِم عنه وخلوّ القصر بسبب غيابهم، ولكنَّ قلبُهُ اطمأنَّ وهدأت نفسه عندما أخبره "راسم بك" بوصولهم إلى إسطنبول سالمين واستقرارهم هناك، إلا أنه حَزِنَ كثيرًا لما علم أن أخاه السلطان "رشاد" لم يتكفَّل بأبنائِهِ ولم يهتمْ لأمرِهِم، وعلى الرغم من كلِّ هذا فقد التقى بعضُ أبنائِهِ بأمهاتهم وخطَّابهم بعد فراقٍ استمرَّ زهاء عام.

كانت بنات عبد الحمید الأميرات "رفیعة" و"عائشة" و"شادية" قد خُطِبْنَ في آخر شهور حُكمه، وبعد أن أقمَن مدة في "سالونيك" أراد عبد الحمید تزويجهن، غير أنه لم يتمكنْ من إقامة حفلات عُرسهن في "سالونيك"، لذا أقيمت حفلات زفافهن في إسطنبول؛ حيث قضينَ حياتهن مع أزواجهن في منازل بسيطة بعيدة عن فخامة القصور العثمانية، ولكنهنَّ الآن أصبحنَّ بإمكانهنَّ السير وسط الناس بحرية تامة خلاف ما كان عليه الأمر من قبل، إلا أن عقولهنَّ وقلوبهنَّ كانت متعلِّقةً دائمًا بوالدِهِنَّ المحبوس في قصر "آلاتيني" بـ"سالونيك".

وقد بدأت الحركة والحيوية تدب من جديد في قصر "آلاتيني" بعد قدوم القُلُفاوات من إسطنبول لاحقًا، وانتقل عبد الحمید من الطابق الأول لِيُقيم في الطابق الثاني من القصر، واتَّخَذَ الحجرة ذات الشرفة الكبيرة التي كانت تقيم فيها ابنته "عائشة سلطان" سابقًا كحجرة نوم له، وحول غرفةَ ابنتِهِ "رفیعة سلطان" الموجودة في الجانب الأيمن إلى حجرة للجلوس، ولم يُعدْ ينزل كثيرًا إلى الطابق السفلي من القصر، فكان يخرج في المساء إلى الشرفة ويجلس فيها بعض الوقت يتنَسَّم عَبرِ الهواء، ويشاهد ما حوله بالمنظار، وكانت زوجته السيدة "مشفقة هانم" والسيدة "صالحة ناجية هانم" تجلسان أمامه.

كانت زوجته السيدة "مشفقة هانم" كثيرًا ما تمرض وتُصاب بالتَّعَب؛ حيث كانت تُعاني من تَقْلُصاتٍ في المعدة وسعالٍ شديد، وكان عبد الحميد يهتم لِأَمْرِها كثيرًا وَيُحِبُّها للغاية حتى إنه تحدث عنها قائلاً:

"نحن نعيش سوياً منذ أكثر من ثلاثين عامًا، فليرض الله عنها؛ فإنها لم تُسئ لي أو تجرحني يوماً ما، بل على العكس كانت تَشْمَلُنِي بِحُبِّها ورعايتها، إنها امرأة عابدةٌ فانتةٌ وصابرةٌ وَلِزِجَها ذاكِرة، تخافُ الله ورسولَه".

وكان عبد الحميد يعتني بها كثيرًا ويُرسلُ على الفور في طلب الطبيب "عاطف بك" إذا ما أَحَسَّتْ بتعبٍ حتى ولو كان بسيطاً، وكانت في الأغلبِ تجلسُ على الشيزلونج^(١٩) مستترَةً بحجابٍ من الحرير، وتَمُدُّ يَدَها بهدوء حيث يقوم الطبيب بقياس نبضها، وبعد الكشفِ عليها وفحصها تشكُرُ الطبيبَ بكلِّ أدبٍ ولياقة، ثم تدعو لعبد الحميد بأن يَمَدَّ الله في عمره.

(١٩) الشيزلونج: هو مقعد مستطيل نوعاً ما، مريح للاستلقاء والاسترخاء. (المترجم)

رحلة السلطان محمد رشاد في الروملي والبلقان

كان كلُّ يوم يمرُّ على عبد الحميد أصعب مما قبله، وفي تلك الأثناء أخبره "راسم بك" بأنَّ السلطان "رشاد" سيقوم بزيارةٍ إلى البلقان، فردَّ عليه عبد الحميد قائلاً:

"جعلها الله خيرًا على البلاد والعباد".

وفي يوم الثلاثاء السادس من أبريل/نيسان (١٩١١م) تحرَّك السلطان "رشاد" وسط موكبٍ مهيبٍ من "إسطنبول" صوب "سالونيك" على متن السفينة الحربية "بارباروس" التي كانت دخلت الخدمة في الأسطول العثماني حديثاً، وقد اشتمَلَت هذه الزيارةُ التاريخيّة على زيارة "سالونيك" و"أسكوب" و"كوسوفا"، واصطحبَ السلطانُ معه الكثيرَ من العلماء أمثال "بديع الزمان سعيد النورسي".

وقبل أن يصلَ السلطان "رشاد" إلى "سالونيك" أرسلَ التحيّة السلطانيّة لِأخيه الأكبر عبد الحميد الذي خلَعهُ الاتحاديّون قبل عامين وأرسلوه إلى المنفى في "سالونيك"؛ رغبةً منه في أن يطمئنَّ على صحّته وأحواله، وبهذا الأمر خفَّفَ الضغوطَ الواقعة على أخيه عبد الحميد وأبَانَ عن سمِّ وشموخ وأخلاق آل عثمان؛ حيثُ أمرَ السلطان "رشاد" بذهابِ مفتّش الجيش "هادي باشا" و"خالد ضيا أوشاقليكل" (Uşaklıgil) لزيارة أخيه في قصر "آلاتيني" للاطمئنان عليه، وقد علِمَ عبد الحميد بهذا الأمر عن طريق قائد الحرس "راسم بك"، وتقديرًا لمكانة أخيه الأصغر واحترامًا له استقبلَ عبد الحميد الكاتب الأول "خالد ضيا" عند الباب، وطلب منه أن يُكملَ ابنه "عابد أفندي" دراسته في إحدى مدارس "سالونيك"، وأن يُسمَحَ للقلّفات بالخروج إلى الحديقة، وأن يخرج ندماء السلطان

وباقى الخدم للتزُّه والتجوُّل في المدينة مرَّةً واحدةً أسبوعياً في حراسة الضباط، وفي اليوم التالي أرسل عبد الحميد قائد الحرس "راسم بك" ليلِّغ أخاه السلطان "رشاد" عميق شكره وامتنانه لهذه اللَّفَّة الطيِّبة منه، فقال له السلطان "رشاد":

"لقد أوفيت بحَقِّ الأخوة، قدر الله وما شاء فعل، أبلغ أخي عبد الحميد سلامي مرة أخرى".

وفي ختام رحلة السلطان "رشاد" إلى ديار الروم "الروملي" تحققت بعض مطالب عبد الحميد، ويا للعجب! لقد وصل الأمر إلى أن يطلب السلطان العظيم الإذنَ لمسائل كهذه! وقد كان عبد الحميد شديد الحزن على حالِ ابنه الأمير "عابد أفندي"؛ فلم يكن لديه حتى صديق واحد يلعبُ معه، حتى إنه كان يُعوِّض هذا الأمر بالتسلية مع الطبيب "عاطف بك" الذي يأتي إلى القصر بصفةٍ دوريَّةٍ، وعلى الرغم من أن عبد الحميد قد طلب من "راسم بك" مراراً وتكراراً أن يأتي بمُعَلِّم لابنه الصغير إلا أنهم لم يجدوا معلِّماً له، وفي النهاية قام أحد ضبَّاط الحرس ويدعى "محمود سيرت" (*Siirt*) بتعليم الأمير الصغير وإن لم يكن تعليماً منظَّماً، وكان عبد الحميد يكثر شكرَ الضابط على هذا الأمر، ويُعبِّر له عن امتنان ابنه الأمير "عابد أفندي" هو الآخر، فردَّ الضابط "محمود سيرت" عليه قائلاً:

"إن تعليم جلالته أمرٌ مُهمٌ بالنسبة لنا وواجبٌ علينا، إننا نعتبره كأولادنا، والأمة تنتظر منه أن يخدمها في المستقبل".

كما سمحوا أيضاً للأمير الصغير باللعب واللهو داخل حديقة القصر لاحقاً، وكان المصاحبُ "شهر الدين آغا" يعتني به أثناء لعبه في الحديقة ولكنه رغم ذلك كانت تبدو عليه علامات الحزن والتعاسة، حتى إن الطبيب "عاطف بك" قد وصف حالة الأمير الصغير بأنه يعيش حياة طفلٍ قرويّ.

كان الأمير المهدّب الرقيق الفطن "عابد أفندي" المصدر الوحيد لسعادة عبد الحميد وسلوّته، فكان يحبّه ويعتني به كثيرًا؛ حتى إنه إذا ما شعر ولو بتعب بسيط كان يستدعي من أجله الطبيب "عاطف بك" إلى القصر على الفور.

إن عابد أفندي الابن الثامن والأصغر للسلطان عبد الحميد خان والذي رُزِقَ في قصر "يلدیز" من السيدة "إقبال بهيجة هانم" عاد مع أبيه أيضًا إلى إسطنبول عام (١٩١٣م)، وواصل دراسته بالمدرسة الحربيّة في فترة الهدنة وأصبح ضابطًا، فلما نُفي المنتسبون إلى الأسرة الحاكمة خارج البلاد في (١٩٢٤م) سافر هو ووالدته معًا إلى فرنسا، وتخرج في كلية الحقوق وقسم اللغة الفارسية في كلية الشرق بباريس، وعام (١٩٣٦م) تزوج في "تيرانا" بالأميرة سنيّة أخت أحمد زوجو ملك ألبانيا، وقد ظل قائمًا بأعمال السفير الألباني في باريس حتى إقصاء أحمد زوجو عن منصب الملك، وتشبّث بمحاولة إنشاء دولة تركية مستقلة في التركستان، وقد انفصل محمد عابد عن الأميرة سنيّة عام (١٩٤٨م)، وتوفي في بيروت عام (١٩٧٣م)، ودُفن -مثلُه مثل إخوته الكبار أيضًا- في مقبرة جامع السلطان سليم في دمشق.

لقد قام الضباط بتزيين القصر بالبيارق والأعلام بمناسبة زيارة السلطان "رشاد" إلى "سالونيك"، حتى إنهم أخبروا عبد الحميد برغبتهم في مشاهدة السلطان "رشاد" لدى وصول السفن إلى رصيف الميناء من الطابق العلوي للقصر، فسمح لهم عبد الحميد بهذا الأمر، وراح هو الآخر يشاهد معهم عن طريق المنظار وصول السلطان "رشاد" إلى رصيف الميناء، ولكن بعض الضباط لم يعرفوا في أيّة سفينة يركب السلطان "رشاد" فأوضح لهم عبد الحميد أن السفينة التي تُقلّه هي حاملة "العلم السلطاني".

وفي تلك الأيام حضر الألباني "تحسين باشا" إلى "سالونيك"، والتقى بعبد الحميد وحكى له بمبالغة كبيرة عن تفاصيل زيارة السلطان "رشاد"، ثم سأله عن رأيه في هذه الزيارة، وعلى الرغم من أن عبد الحميد يعلم أن أخاه السلطان "رشاد" يسير في فلك الاتحاديين ولا يخطو خطوة واحدة دون إذنهم إلا أنه أجابه قائلاً:

"إنني أفتخرُ بنجاح أخي؛ فقد حالفه الصواب في هذه الزيارة فليوفقهُ الله".

ولم يشأ عبد الحميد أن يستفيض في الحديث مع "تحسين باشا" فأنهى اللقاء، وكان عبد الحميد قد نفى "تحسين باشا" قبل ذلك إلى مدينة "حلب"؛ فقد سلّم هذا الباشا مدينة "سالونيك" وحصونها إلى القوات اليونانية خلال حرب "البلقان" دون أن يُطلق رصاصة واحدة، وكان عبد الحميد يعتقد أنه ما جاء "سالونيك" الآن إلا رغبةً منه في الشماتة والتشفي؛ إذ يعتقد أن عبد الحميد يغارُ من أخيه!

كان اليهود والأرمن سعداء للغاية لما آل إليه حال عبد الحميد، فبعد أن أدار الدولة بدراية وحنكة بالغه حتى وقت قريب خُلِعَ ونُفي إلى "سالونيك" تحت حراسة مشددة، وعلى الرغم من أن بعض الأرمن كانوا يسبّونه ويتهمونه بالافتراءات والأكاذيب وينعتونه بـ"السلطان الأحمر" إلا أن الأرمن والأتراك المنصفين والأكراد الذين يعيشون في الشرق والجنوب الشرقي كانوا يعتبرونه أباً لهم ويحبّونه ويقدرّونه للغاية، وكانت العشائر الكردية ترتبط بعبد الحميد ارتباطاً وثيقاً وتقدره للغاية، حتى إنه بعد إعلان المشروطية قاموا بحركة تمرّد ضدّ "تركيا الفتاة" وضدّ مجلس النواب في مدينة السلیمانية شمال العراق دعماً لعبد الحميد، غير أن هذا التمرّد قُمِعَ أيّما قمع.

ولكن بعد خلع عبد الحمید ونفيه إلى "سالونيك" اندلعت حركة تمردٍ جديدةٍ تأييداً له وانتقاماً لما حدث له؛ فقد أعلن "إبراهيم باشا" أحد القادة المبرزين في "الألوية الحميدية" -والذي كان موضع ثقة عبد الحمید- عدم اعترافه بنظام المشروطية وخرج إلى الشام عام (١٩٠١م) على رأس ألف وخمسمائة شخص مسلح بهدف مؤازرة ودعم السلطان السابق عبد الحمید، ولم يكن لدى عبد الحمید -الذي نُفي إلى "سالونيك" - أي علم بهذا الأمر، وقد طالب "إبراهيم باشا" بالتفاف الشعب حول عبد الحمید ضد "تركيا الفتاة"، ولكن القوات التابعة له هُزمت على يد قوات الاتحاديين؛ حتى إنه قُتل خلال المناوشات التي حدثت أثناء عودته إلى بلده، ولكن على الرغم من فشل هذه الحركة إلا أن النضال الذي قام به "إبراهيم باشا" وقواته من أجل عبد الحمید دون علمه به قد دُون في صفحات التاريخ، وقد كشف هذا الأمر عن المكانة الكبيرة التي يحتلها عبد الحمید لدى العشائر الكردية.

حرب البلقان وبداية النكبة

كانت حالة من الاضطراب والدُّعْر قد سادت بين الضباط المكلفين بحراسة قصر "آلاتيني" إبان حرب البلقان، واسترعى انتباه عبد الحميد تحركات الجنود المستمرة في الساحة الموجودة أمام القصر؛ حتى إنه سأل قائد الحرس "راسم بك" عن سبب هذه التحركات غير الاعتيادية عدّة مرّات، ولكن "راسم بك" راوغ في الإجابة وغطّى على الأمر قائلاً: "إن الجنود ذاهبون إلى المناورات (التدريبات)"، إلا أن عبد الحميد حينما لاحظ زيادة عدد الجنود أدرك على الفور أن هذه التحركات ما هي إلا مؤشّر واضح على اندلاع الحرب، ولكنهم يخفون عنه هذا الأمر، وقد صدرت في هذه الأيام أوامر مشددة بضرورة إحكام إغلاق شرفات القصر ونوافذه.

إن أكثر ما كان يتجبّهُ عبد الحميد طوال سنوات سلطته هو اندلاع حرب في منطقة البلقان؛ لذا فقد سعى جاهداً في سبيل منع هذا الأمر، والحيلولة دون إقامة تحالف بين دول البلقان ضد الدولة العثمانية.

ومع اقتراب الجيش اليوناني من "سالونيك" بدأت تدق نواقيس الخطر، وتسارعت عمليات إجلاء السكان المسلمين من المدينة التي يُقدَّر تعدادها بحوالي مائة وخمسين ألف نسمة، وفي تلك الأثناء طرحت فكرة نقل عبد الحميد الذي عاش في قصر "آلاتيني" ثلاث سنوات ونصف إلى إسطنبول بسبب الحرب، والحقيقة أن الأمور ازدادت سوءاً في الفترة التي أعقبت نفيه إلى "سالونيك"، وعاشت الدولة العثمانية فترة قاتمة السواد، ودخلت في نفقٍ مُظلمٍ؛ فبعد أن استقالت حكومة "توفيق باشا" التي نفّت

عبد الحميد إلى "سالونيك" بناءً على قرار الخلع الصادر من المجلس الوطني؛ تولّت حكومته "حقي باشا" المسؤولية عن إدارة شؤون البلاد، وعقب تغيير الحكومة تورّطت الدولة في حربٍ مع إيطاليا في "طرابلس الغرب" في ولاية "ليبيا".

استفاد عبد الحميد أثناء تولّيه حكم البلاد من الخلافات الناشئة بين الكنيسة البلغارية والبطريركية اليونانية بسبب عوائد وأحقّية ملكيات الكنائس والمدارس، وأحسن استغلال هذا الأمر للحيلولة دون إمكانية تحالف دول البلقان ضدّ الدولة العثمانية تحالفاً ترعاه الكنيسة، حيث طبّق المثل القائل "عدوّ عدوّي صديقي"، ومثلما كان عبد الحميد يولي أهمية كبيرة لإقامة صداقات وعلاقات مع سفراء الدول الغربية في إسطنبول خلال سنوات حكمه محاولاً بذلك استمالتهم، راعى كذلك مكانة البطريركية ومنحها بعض الامتيازات؛ حيث كان يتبنى سياسة التوازن لتحقيق مصلحة الدولة وإطالة عمرها مستفيداً من المشكلات الناشبة بين المسيحيين الأرثوذكس، فكان يقول "البطريركية هي اليونان فالبطريركية هي التي تحكم اليونان واليونانيين المقيمين في الدولة العثمانية (الروم البيزنطيون - ساكنو جزيرة كريت من المسيحيين)، وكان يعمل على التواصل مع البطاركة وزعماء اليونان ويحاول استمالتهم نحوه، ولم يكن يُخفي دهشته إزاء قلّة الخبرة التي أظهرها الاتحاديون في التعامل مع موضوعات كهذه، وعلى الرغم من محاولاته هذه فقد توترت العلاقات بين "الباب العالي" والبطريركية، واندلعت الحرب العثمانية اليونانية عام (١٨٩٧م)، ولم يكن عبد الحميد يرغب مطلقاً في أن تصل القضايا التي يمكن حلّها دبلوماسياً إلى ميدان الحروب العسكرية، حتى إنه لم يكن يسمح بإقامة يوم للاحتفال بفتح إسطنبول حتى لا يخلق مناخاً حزيناً لليونانيين المقيمين في المدينة أو يكون سبباً في إيذاء مشاعرهم، وبالطبع

كان عدد سكان اليونانيين الذين يعيشون في إسطنبول آنذاك يزيد عن عددهم الحالي.

وكمثال على سياسته هذه: فقد طلبت "الجمعية الوطنية لمعاونة الأسطول العثماني" التي أُسست عام (١٩٠٩ م) شراء ثلاث سفن حربية من إنجلترا أطلقت عليها أسماء (السلطان عثمان-الرشادية-فاتح) وستة طرادات بحرية، وغوّاصتين من "إنجلترا"، وعلى الرغم من أن ثمن السفينة الحربية "السلطان عثمان" المقدّر بثلاثمائة وخمسة عشر مليون ليرة كان مبلغًا كبيرًا بعض الشيء بالنسبة للحكومة؛ إلا أن تعدّد مُشتري السفن وكثرة طلبها حول العالم قد حمل الإنجليز على رفع ثمن السفينة، ولكن عبد الحميد حزن كثيرًا لمحاولات إفساد هذه الصفقة بسبب منشورات الصحف على شاكلة "سنفعل كذا وكذا، وسنضرب بها وسنحاصر بها" مما تسبّب في إغضاب اليونانيين فكان عبد الحميد يضيق ذرعًا كلما قرأ أشياء كهذه في الصحف، ويقول:

"إن الكثير من اليونانيين أغنياء؛ والتجار منهم متشرون في كافة أنحاء العالم، وهم في نفس الوقت مُخلّصون لبلدِهم، وهناك الكثير من هؤلاء التجار يمكنهم مساعدة الأسطول اليوناني على شراء سفن مماثلة لمجابهة سُفننا الحربية".

والأمر المثير أن الدولة العثمانية لم تحصل على هذه السفن الحربية مطلقًا، فمع اندلاع الحرب العالمية الأولى قامت الحكومة الإنجليزية بمصادرة تلك السفن، واعتبرت الأموال التي دفعتها الحكومة العثمانية سلفًا تعويضات حربية، أي إنَّ الإنجليز لم يفوا بوعودهم ولم يُسلموا السفن في موعدها، وقاموا بالقرصنة على أموال العثمانيين، حتى إنهم قاموا بتغيير أسماء هذه السفن واستخدموها ضدّ الدولة العثمانية خلال الحرب.

والمؤسِّف أنَّ الاتِّحادِیِّینَ لم یُدرِکوا سیاسَةَ التوازن التي طَبَّقَهَا عبد الحمید ببراعةٍ کبيرة، فبعد أن استولت جمعیة "الاتِّحاد والترقی" على الحکم أصدرت قانون الكنائس في الأول من يوليو/تموز (١٩١١م) الذي حدَّد ملكیَّات الكنائس والمدارس المتنازع على ملکِیَّتها طَبَّقًا لعدَد السکَّان، وبهذا القرار زالت الخلافات الكنسية الموجودة بین دول البلقان مما فتحَ الطريق أمام هذه الدول لِتُشکِّلَ فیما بینها تحالفًا ضدَّ الدولة العثمانیة، وبناءً على هذا التحالفِ البلقانی ضدَّ الدولة العثمانیة نشَبَتْ حربُ البلقان.

وحینما وصل الیونانیون إلى أبواب "سالونیک" تقدَّم "سعید باشا" باستقالته من الحکومة بعد أن تسبَّب في كارثةٍ للدولة العثمانیة حین أغفل قیام دول البلقان بعقد تحالفٍ فیما بینها ضدَّ الدولة العثمانیة، والحقیقة أنَّ عبد الحمید لم یکن حاقداً أو حاسداً أو یکنَّ عداً وکراهیةً تجاه أحدٍ؛ فعلى الرغم من أن "سعید باشا" أساءَ إلیه في مذكراته وأنکر فضلَه وجمیلَه علیه إلا أنَّه حَزِنَ کثیراً عندما سمع نبأ وفاته في الرابع من مارس/ آذار (١٩١٣م)، وبعد أن تولَّت الحکومة الجدیة التي ترأَّسها "أحمد مختار باشا" المسئولیة خلفاً لحکومة "سعید باشا" اتَّخَذَتْ قراراً بنقل عبد الحمید من "سالونیک" إلى "إسطنبول" لخطورة بقاءه هناك بسبب الحرب، وعلى الرغم من أن الحکومة في ذلك الوقت اقترحت العديد من الأماكن لإقامة عبد الحمید مثل "قصر بیکُوزُ" (Beykoz) والمنزل الخاص بالأمر "صلاح الدین" الواقع بجوار "قصر جراغان"، والقصر السلطانی فی "بُورصَه" إلا أنها استقرت فی النهایة على قصر "بُکلُزبکی".

ولکن عبد الحمید عندما علم بقرار نقله من "سالونیک" عن طریق قائد الحرس "راسم بك" فی منتصف إحدى الیالی رفضَ هذه الفكرة،

إذ إنه كان سعيداً بالإقامة في "سالونيك"، ولا يرغب في مغادرتها، وفي البداية لم يكن عبد الحميد يعلم بمدى فجاعة حرب البلقان وأن الأوضاع خطيرة إلى تلك الدرجة، لذا فقد حضر صهره "علي رضا باشا" و"هادي باشا" من الجيش الثالث إلى قصر "آلاتيني" بـ"سالونيك" بناءً على تكليف من الحكومة ليشرحاً له مدى وخامة الأمور؛ حيث أطلعاه على تطورات سير الحرب، وحينما تنامى إلى مسامع أفراد عائلته وأقاربه خبر نقله من "سالونيك" بدؤوا ينتظرون قدومه إلى إسطنبول وسط حالة من الترقب والقلق، فقد كانوا يخشون أن يُصيبه مكره وسط هذه الصراعات والمعارك، وكان السلطان "محمد رشاد" قد صادق فعلياً على قرار الحكومة بنقل عبد الحميد من "سالونيك" إلى "إسطنبول"، وكانت ابنته الأميرة "عائشة سلطان" قد علمت سراً عن طريق أحد عمال قصر "دولما باهجه" أن والدها سيُنقل من "سالونيك" إلى إسطنبول وأنه سيقبض في قصر "بكلزبكي"، وعلى هذا راحت تراقب قصر "بكلزبكي" بالمنظار يومياً؛ إذ كان يُمكنها أن تشاهد قصر "بكلزبكي" بكل وضوح من قصرها الواقع في حي "بيك (Bebek)" عن طريق المنظار.



الانتقال إلى إسطنبول

كان زوج ابنته (صهره) ووزير العدل "عارف حكمت باشا"، وصهر السلطان عبد العزيز ووزير المعارف "محمد شريف باشا" قد حضروا إلى "سالونيك" على متن السفينة الحربية "لورلي" (Lorelei) التابعة للسفارة الألمانية لنقل عبد الحميد إلى إسطنبول، وكان الهدف الحقيقي وراء إرسال صهره هو إقناعه بمغادرة "سالونيك" إلى إسطنبول وتبديد المخاوف التي يمكن أن تتبته جراء عملية نقله، ونظرًا لأن ظهور أية سفينة تحمل العلم العثماني في بحر "إيجة" في تلك الفترة كان يعرضها لخطر القصف بسبب ظروف الحرب آنذاك؛ فإن نقله إلى إسطنبول عن طريق السفينة "لورلي" التي تحمل العلم الألماني كان إجراءً احترازيًا صائبًا للغاية، والحقيقة أن نقله إلى إسطنبول بطريقة آمنة لم يكن ممكنًا إلا بطريق البحر، وكان عبد الحميد قد شاهد من شُرْفَةِ القصر إحدى السفن تقترب من رصيف الميناء؛ فلما أمعن النظر أدرك أنها سفينة السفارة الألمانية حتى إنه صاح في دهشة قائلاً:

"إنها سفينة السفارة الألمانية، ماذا يمكن أن تفعل هنا وما

الذي أتى بها إلى هنا؟".

ولم يكن يعرف حتى تلك اللحظة أنه سينقل إلى إسطنبول بواسطة هذه السفينة.

كان عبد الحميد قد التقى بصهره "شريف باشا" و"عارف حكمت باشا" في قصر "آلاتيني"، وعلم منهما أن دول البلقان قد عقدت تحالفًا فيما بينها وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية وأن قواتها على وشك

الدخول إلى "سالونيك" وأن الوضع العسكري للقوات العثمانية سيئ للغاية ويُنذرُ بالخطر المحقق، وقد أصابته تلك الأمور بالحزن الشديد حتى إنه تحدث إليهم قائلاً:

"يا الله! أين السفراء والملحقون العسكريون من هذا الأمر؟ هل كانوا يغطون في نوم عميق؟ كيف يحدث وتحدث تلك الدول الأربع ولا يكون لدى هؤلاء علم بذلك؟ إنني كنتُ دائم السعي خلال فترة حكمي إلى أن أذكّي روح الخلافات بينهم وإلى أن أحول دون اتحادهم".

ثم عبّر لهم بكل صراحة ووضوح عن رفضه القاطع مغادرة "سالونيك"، وبرر موقفه هذا قائلاً:

"إن مدينة "سالونيك" هي مفتاح إسطنبول، فهل ستركها تقع في أيدي الأعداء؟ إنني أتساءل أين جيشنا الثاني والثالث؟ ومن يُدير تلك الحرب ويوجه دفتها ويصدر الأوامر والتعليمات؟! إذا تعلّق الأمر بي فلا بأس، فلستُ أنا ذلك الشيء الذي ينقل هنا وهناك كالبضائع تُنقل تبعاً لسير الأحداث، إنني لن أعادَر "سالونيك"، ولن أبرح مكاني ولن أذهب إلى أي مكان آخر".

وعندما أخبروه ثانية بمدى خطورة الأوضاع ردّ عليهم قائلاً:

"إذا كان العدو سيقصف المدينة بالمدافع فلا يمكنني أن أهرب من قدرتي، إنني كبقية المسلمين هنا أرغب في الدفاع عن المدينة، فلتعطوني سلاحاً لأقاتل جنباً إلى جنب مع أبنائي الجنود، فإذا متُ فإني شهيد؛ فكل نفس ذائقة الموت، إن الدنيا زائلة ولا تُساوي شيئاً، إنني أعيش هنا بالأموال التي خصّصتها لي الحكومة وأقضي أوقاتي في الدعاء والعبادة، فليحقّقوا لي رغبتني ويتركوني أعيش هنا، فإنني لن أبرح هذا المكان مطلقاً".

كما أنه حينما علم أن قانون الكنائس الذي أصدرته الحكومة -التي كانت تغط في سبات عميق ولم تعلم بعقد دول البلقان تحالفًا فيما بينها- قد تسبب في حل المشكلات بين البطريركية اليونانية والكنيسة البلغارية ؛ تنهّد وأجاب -والحسرة تعتصره- قائلاً:

"وا أسفاه!"

وقد أصرَّ عبد الحميد في البداية على موقفه الرافض لمغادرة "سالونيك" والذهاب إلى "إسطنبول"، ولكنه تراجع عن قراره بعد إلحاح من زوجته "مشفقة قادين" و"صالحه ناجية قادين"، وبعد أن طمأنه صهره بأن الحكومة تتعهد بأنك لن تُنقل إلى أي مكان آخر سوى إسطنبول.

وبعد أن تمَّ إقناعه بدأت الاستعدادات للرحيل؛ فوضعت الملابس والمتعلقات الشخصية والأشياء والمستلزمات الضرورية داخل صندوق خاص إذ إنهم كانوا لا يزالون يتذكرون المعاناة التي عانوها لدى مجيئهم إلى مدينة "سالونيك" بدون ملابسهم ومتعلقاتهم الشخصية، وقام كل عامل من العمال بإعداد حقيبة خاصة به، ثم أخبرهم بعض الضباط أنهم سيحاولون جاهدين إرسال الأشياء الثقيلة المتبقية لهم في القصر إلى إسطنبول في أعقابهم، وقد طلب عبد الحميد الثاني من "راسم بك" الرحيل معه إلى إسطنبول فوافق "راسم بك" على الفور، كما أعرب كل من "محمود سيرت" -معلم الأمير "عابد أفندي"-، و"واصف بك" والنجيب "صالح بوزوق" عن رغبتهم في مرافقة عبد الحميد إلى إسطنبول وقد سمح لهم عبد الحميد بذلك، وحينما أوشك عبد الحميد على مغادرة قصر "آلاتيني" اصطفت باقي الضباط -عدا هؤلاء الأربعة-، والجنود على سلم القصر لتوديعه، وأدوا له التحية السلطانية، وقد ردَّ عبد الحميد على تحييتهم قائلاً:

"إن شاء الله أراكم جميعاً في إسطنبول سالمين وأنتم في كامل الصحة والعافية، أستودعكم الله".

وعلى الرغم من بعض السخافات والمعاملة السيئة التي تعرّض لها عبد الحميد في قصر "آلاتيني" المراقب من قبل الاتحاديين، إلا أنه لم يكن يُكن بُغْضاً ولا كرهاً لأحد، بل كان يعامل الجميع بمودة ونبل وكرم. وقد اصطحب ضباط الحراسة عبد الحميد ومن معه من قصر "آلاتيني"، وتوجّهوا بالعربات ناحية رصيف الميناء، حيث استقلَّ عبد الحميد إحدى العربات وأخذ إلى جواره زوجتيه وابنة الأمير "عابد" واستقلَّ صهره والضباط المغادرون معه العربات الأخرى، وكان رصيف الميناء قد فُرش بالبُسْطِ والسجاجيد، وحضر والي "سالونيك" والقادة والباشوات لِتوديعه، وهناك تحدث عبد الحميد مع بعض الباشوات والبكوات ثم دعا ربه قائلاً:

"اللهم احفظ أمتنا وقدر لها الخير حيث كان".

كما تحدّث بعض الوقت مع القنصل الألماني، ثم توجه إلى السفينة الألمانية "لورلي" بواسطة القوارب.

وما أن صعد عبد الحميد إلى السفينة حتى استقبله طاقمها بكل أدب واحترام، وحيّوه تحية رسمية، ثم قام ربانها بإبلاغه تحية الإمبراطور الألماني قائلاً:

"إن السفينة تحت أمر جلالتك، لقد أمرنا الإمبراطور أن تُبحر السفينة إلى أي مكان تريدون التوجّه إليه وأن نكون رهن أمر عظمتكم".

وفي المقابل أبلغه عبد الحميد أن ينقل عميق شكره وامتنانه إلى جلالة الإمبراطور على الصداقة والاهتمام اللتين أظهرهما، وعبر

له عن رغبته في التوجُّه إلى إسطنبول، وفي تلك الأثناء أيضًا صعد القنصل الألماني "د. شوربل" إلى السفينة وتحدَّث مع عبد الحميد مرةً أخرى على انفراد، وكثَّرَ عليه عبد الحميد أن ينقل شكره وامتنانه للإمبراطور، وكانت تلك المحادثات تجري باللغة الفرنسيَّة.

وبعد أن تحركت السفينة جاء ربَّانها مرةً أخرى إلى عبد الحميد وقال له:

"يمكن لجلالتيكم إن شئتم أن تصعدوا إلى ظهر السفينة وتُشاهدوا مدينة "سالونيك" وما حولها".

وبالفعل استحسن عبد الحميد هذا الأمر؛ فصعد إلى ظهر السفينة، وشاهد مدينة "سالونيك" وقصر "آلاتيني" للمرة الأخيرة، وراح يشاهد كلَّ هذا وهو آسفٌ كلَّ الأسفِ ويُردِّدُ: "وا حسرتاه!"، ولكنه لم يتحمل رؤية هذا المنظر طويلاً؛ فعاد إلى قُمُرَتِه والحزنُ والأسى يعتصرانه، وبعد مغادرته مدينة "سالونيك" بثمانية أيام قامت القوات اليونانية باحتلالها.

وقد وصل عبد الحميد إلى إسطنبول بعد ظهر يوم الجمعة الموافق الأول من نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٢م)، حيث سيمضي البقية الباقية من حياته داخل قصر "بُكُلُزْبَكِي"، إذ رَسَت السفينة على سواحل منطقة "جاليبولي (Gelibolu)" فلم يكن عبد الحميد يرغب في الدخول إلى إسطنبول ليلاً، وانتظرت السفينة إذن الدخول من الحكومة العثمانية، وما إن بلغت الأوامر من إسطنبول حتى توجهت السفينة نحو البوسفور عبرَ بحر "مرمرة"، وعلى الرغم من المعاناة التي عاناها عبد الحميد إلا أن عودته للعاصمة ورؤيته إسطنبول مرةً أخرى بدَّدَتْ بعضاً من آلامه وأحزانه، فما إن شاهد المدينة الساحرة من بعيد بماذنها السامقة حتى فاقت عيناه بالدموع.



حياته في "بكلزبكي"

توجهت السفينة نحو مياه "بكلزبكي" وألقت مراسيها هناك، ثم نُقل عبد الحميد ومن معه إلى قصر "بكلزبكي" عن طريق قوارب السفينة، وقد عبّر عبد الحميد قبل مغادرته السفينة مرة أخرى عن عميق شكره وامتنانه لطاقمها وعلى رأسهم ربّانها، وطلب منه أن ينقل شكره الوافر إلى صديقه القديم إمبراطور ألمانيا، وفي تلك الأثناء ودّعه صهره، فشكرهما أيضًا على الخدمات التي قاما بها من أجله، وما إن نزل عبد الحميد إلى رصيف القصر حتى أدى له الضباط والجنود التحيّة، ثم توجّه إلى دائرة الحريم عبر باب "السلطانة الوالدة" الكبير الواقع على جانبه تمثالان لأسدين، وما إن دخل القصر حتى شعر برطوبة شديدة؛ فتحدث إلى نديمه "نوري آغا" قائلاً:

"يا إلهي! ما هذه الرطوبة يا "نوري بك"؟" سوف نموت هنا".

وكان عبد الحميد قد نزل إلى الرصيف، ثم سار عبر حديقة القصر المُطلّة على حي "بكلزبكي"، ودخل إلى جناح الحريم عبر باب "السلطانة الوالدة"، ثم توجه نحو الغرفة الموجودة على الرواق الواقع يسار السلم الصغير، وقد اتخذها حجرة نوم له حتى وفاته، ويوجد أيضًا على يمين هذا الرواق حجرة استراحة صغيرة وعلى يساره مكان للوضوء، وباب يفضي إلى سلم الخدم، وفيما بعد طلب عبد الحميد بناء حمام تحت هذا السلم، وتضمّ هذه الغرفة التي يُدخل إليها عبر باب ذي مصراعين نافذة كبيرة تُطل على الحديقة الخلفية وثلاث نوافذ تُطل على البوسفور، أما سقف هذه الغرفة فمزيجٌ بزخارف وردية اللون ونقوش مذهبة، وحوائطها مزخرفة بالشكل نفسه، ويتدلى من سقفها ثريا من البللور الأبيض والأزرق

تضيءُ الحجرة ليلاً، كما يُسَدِّلُ على نوافذها ستائرٌ مصنوعةٌ من قماش "هَرَكَه" منقوشٌ عليها رسومات لأزهارٍ ورديةٍ ورماديةٍ اللون.

وفي اليوم الذي وصلوا فيه إسطنبول اتَّخَذَتْ كُلُّ زوجةٍ من زوجات عبد الحميد غرفةً خاصَّةً بها وكذلك القُلُفاوات وباقي الخدم، وأرسلَ السلطانُ "رشاد" الذي كان خاضِعاً للاتِّحاديين رئيسَ الديوانِ إلى أخيه الأكبر عبد الحميد للترحابِ به والاطمئنانِ عليه.

وعلى الرغم من أن الاتِّحاديين قد وضعوا عبد الحميد رهنَ الإقامة الجبرية وتحت حراسةٍ مشدَّدةٍ تماماً كما فعلوا معه في "سالونيك" إلا أنَّ الإقامة في قصر "بَكْلَرَبَكِي" كان لها طعمها الخاص، فهي تحملُ ذكرياتٍ معنويةً مهمَّةً بالنسبة لعبد الحميد، فقد توفيت والدته السيدة "نِيرْ مُجْكَانُ" قادين أفندي" داخل إحدى الغرف المطلَّة على البحر في مبنى قصر "بَكْلَرَبَكِي" القديم، وهذه الغرفة التي قضت فيها والدته فترة مرضها وتوفيت بها تقع في نفس الجهة التي اختارها عبد الحميد ليقيم فيها بالقصر الحالي.

وقد بدأت الحياة في قصر "بَكْلَرَبَكِي" تسيرُ بشكلٍ طبيعيٍّ مثلما كان الحال في "سالونيك" عدا بعض الاختلافات؛ فقد كانت الصحف تُقدَّمُ إلى عبد الحميد حيث كان يتابعُ باهتمامٍ وعن قربٍ كلَّ ما يحدث في البلاد، كما نُفِذَتْ بعضُ رغباته البسيطة، علاوة على أنه كان يطمئنُّ على أخبارِ أبنائه وأحوالهم عن طريق قائد الحرس "راسم بك"؛ حيث كان أبنائه يرسلون أغواتهم إلى القصر مرة أسبوعياً ليطمئنوا عليه ويطمئنوه عنهم، وعلى الرغم من أن الصدر الأعظم في تلك الفترة "محمد كامل باشا" أراد أن يرد الجميل لعبد الحميد بأن يبني له مبنى من الخشب في حديقة القصر حتى لا تؤثر الرطوبةُ على صحَّته إلا أن حكومته قد سقطت، ولم تدخل هذه الفكرة حيزَ التنفيذ.

وكانت ابنته "عائشة سلطان" قد عادت إلى إسطنبول مع من عادوا قبل ذلك وأقامت في نواحي حي "بيك" الواقع في الضفة الغربية من مضيق البوسفور المقابلة لقصر "بكلزبكي"، وكان شغلها الشاغل في الأيام التي أعقبت مجيء والدها إلى "إسطنبول" متابعة قصر "بكلزبكي" الذي يقيم فيه عن طريق النظارة المكبرة علها تراه، وفي إحدى المرات كانت هي وأختها الأميرة "ناثلة" تابعان معاً قصر "بكلزبكي" عن طريق النظارة المكبرة وإذا بهما يشاهدان والدهما للمرة الأولى خلال خروجه لتتشمعير الهواء في حديقة القصر، والحقيقة أن رؤيتهما لوالدهما بعد كل هذه السنوات حتى ولو للحظات معدودة قد أدخلت البهجة والسرور على قلوبهما، وللأسف كان البوسفور الذي يفصل قارة آسيا عن قارة أوروبا يحول بين عبد الحميد وبناته، وكانوا جميعاً يتمنون أن يتجمعوا معاً مرة أخرى.

ولم يكن عبد الحميد الذي عاش في قصر "بكلزبكي" تحت حراسة "راسم بك" المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتحاديين يُلقب بالآلاف والمفروشات الرائعة لقصر "بكلزبكي" أو حتى لعودته إلى "إسطنبول"، ولكن أكثر ما كان يشغل باله آنذاك هو رؤية أبنائه وأحفاده وتبديد أحزانه معهم وإطفاء نار الشوق إليهم، بيد أنه حتى يتم هذا اللقاء كان لا بد أولاً من الحصول على تصريح بالموافقة من القصر (السلطان) أو بالأحرى من الاتحاديين.

وفي الأيام التالية تقدّم أبناء عبد الحميد الأمراء والأميرات بطلب إلى عمّهم السلطان "رشاد" ليسمح لهم بإرسال أغواتهم من حين لآخر إلى والدهم للاطمئنان على صحته، وقد قبل جلاله السلطان طلبهم؛ حيث كانوا يُرسلون أغواتهم كلّ جمعة إلى قصر "بكلزبكي" وبواسطة "راسم

بك" كانوا يطمئنون على صحّة والدهم ويسألون عما إذا كان يحتاج شيئاً، حتى إن عبد الحميد طلب ذات مرّة من ابنته "عائشة سلطان" أن تستصنع له لحافاً من الكتان كالذي كان يستعمله سابقاً في قصر "يُلدِيز"، وبالفعل استصنعتُه وأرسلتهُ إلى والدها.

وذات يوم أرسلت الأميرة "عائشة سلطان" خطاباً مؤثراً للغاية إلى "راسم بك" حتى يسمح لابنها الأمير "عُمر" البالغ من العمر عامين ونصف بزيارة جدّه وجدّته، فحرّك هذا الخطابُ مشاعر "راسم بك"، ووافق بالفعل على الزيارة، وقد أعدّت له الألعاب والشيكوالاته في قصر "بُكلزبُكي"، وقام "نوري آغا" -نديم عبد الحميد- باصطحاب الأمير الصغير إلى القاعة الوردية حيث يجلس جدّه، وما إن رأى عبد الحميد حفيده حتى غمرته الفرحة وعانقه بلهفة وشوق، والحقيقة أن الطفل كان يعرف جدّه مسبقاً من الصور التي كانت تعرضها عليه أمه، فراح يقبّل لحيّة جدّه ويردّد "أوووه جدي العزيز اللطيف"، وحينها لم يتمالك عبد الحميد نفسه وأجهش بالبكاء، وأخذ يُقبّل رأس الطفل، ولم يفارق الطفل صدر جدّه طوال فترة تواجده معه؛ إلى درجة أن جدّته السيدة "مشفقة هانم" لم تجد فرصة لتقبيله، وفيما بعد أقسمت لابنتها "عائشة سلطان" والدة الطفل قائلة:

"والله يا بنيّتي لقد عشتُ مع والدك سنوات طوال لم أره فيها يبكي من أعماقه بهذه الصورة كهذه المرة".

وفيما بعد سُمح لعائلته بزيارته مرّة سنوياً في اليوم الثاني من عيد الأضحى، فكان هذا الأمر مصدر فرح وسعادة له، علاوة على ذلك كان كل واحد من أبنائه يُرسلُ خادمه كل جمعة إلى القصر ليطمئن على أحوال والده ويسأل عما إذا كان يحتاج شيئاً.

كان عبد الحميد يتذكر والدموع في عينيه حينما كان يذهب في صغره يومياً تقريباً من قصر "دُولْمَا باهْجَه" إلى قصر "بُكْلُوبَكِي" لزيارة أمه المريضة السيدة "تَيْرْ مُجْكَانْ هانم"، وكانت والدته خلال زيارته لها تضع كيساً من النقود تحت وسائد الفراش ثم تقول له:

"هيا يا ولدي لنرَ ماذا يمكنك أن تجدَ تحت تلك الوسائد؟".

وكان عبد الحميد يسعد كثيراً بمفاجآت والدته، مما كان له أثر بالغ في تخفيف آلامها حتى ولو قليلاً.

* * *

كان عبد الحميد في تلك الفترة يتابع ما يحدث في البلاد عن طريق الصحف، ونادراً ما كان يزوره أحد من الخارج، عدا أنه كان يلتقي "أنور باشا" من حين إلى آخر؛ فخلال حرب البلقان التي اندلعت في الثامن من أكتوبر/تشرين الأول (١٩١٢م) كان الجيش العثماني غارقاً حتى أذنيه في أوحال السياسة؛ مما تسبب في تحزبه وتشتته وفقد قدرته العسكرية، وقد أصيب عبد الحميد بحالة من الانهيار إزاء الهزيمة النكراء التي مني بها الجيش العثماني في تلك الحرب وضياع جزء كبير من أراضي البلقان؛ حيث كان الجيش البلغاري قد تقدم نحو "تراقيا" واحتل مدينة "أدرنه" ووصل حتى مشارف "جَاتْلَجَه" (Çatalca)، وقد دفعت تلك الحرب مئات الآلاف من السكان إلى النزوح من البلقان نحو إسطنبول حيث هاموا على وجوههم في شوارعها وهم في ظروف صعبة وحالة يرثى لها تاركين وراءهم منازلهم وأموالهم، وكان العديد منهم يلقون حتفهم يومياً بسبب نقص الطعام والأمراض والأوبئة.



اقتحام "الباب العالي"

كانت الهزائم المتتالية على الجبهة في حرب البلقان تزيد من حدة الصراعات السياسية الداخلية في البلاد بشكلٍ معقد، ولم تنجح حكومتا "أحمد مختار باشا" و"محمد كامل باشا" المتعاقبتان في تحقيق استقرارٍ سياسيٍّ في البلاد، وقد استغلَّ الاتحاديون الهزائم الثقيلة في حرب البلقان وضياع "أدرنه"، وتحركوا من أجل السيطرة الكاملة على الحكم؛ حيث خططوا للإطاحة بالحكومة عبر انقلابٍ دموي قاموا به.

وقد خُطِّطَ لهذه الحادثة الدموية التي تُعرف في التاريخ باسم "اقتحام الباب العالي" داخل المركز الرئيسي لحزب "الاتحاد والترقي" في حيِّ "نوري عثمانية" في إسطنبول، ففي الثالث والعشرين من يناير/كانون الثاني (١٩١٣م) امتطى النقيب "أنور بك" و"يعقوب جميل بك" على رأس فرقةٍ من فدائيي الاتحاديين الخيول من أمام مبنى الحزب الواقع في حي "جغال أوغلو" (Cağaloğlu)، وتوجهوا نحو مقر "الباب العالي"، وفي نفس الوقت توجه "طلعت باشا" أيضًا على رأس مجموعة أخرى من الاتحاديين إلى مقر "الباب العالي"؛ حيث تمركز نحو ستين من الاتحاديين حول النقاط المهمة للمبنى، كما تجمع بعض من عامة الشعب أمام المبنى حاملين الأعلام مكبرين ومهللين، وقد اقتحم "أنور بك" ومن معه المقر أثناء انعقاد اجتماع الحكومة للنظر في مقترحات الدول الأوروبية بالتخلي عن "أدرنه"، وقد حاول "أوخربيلي نافذ بك" (Ohrili Nafiz Bey) -مساعد رئيس الوزراء- صدَّ هجوم الاتحاديين إلا أنه فشل وسقط قتيلًا، كما قُتل أيضًا

"توفيق بك" -مساعد وزير الحربية- وذلك بعد أن أطلق الرصاص من مسدّسه على الاتّحادي "مصطفى نجيب" فأرداه قتيلاً، كما كان "جلال بك" ضابط الشرطة المكلف بتأمين الباب من بين ضحايا الاقتحام، وعلى أثر الجلبة التي أحدثها دويُّ أصوات الرصاص خرج وزير الحربية المشير "ناظم باشا" إلى شرفة القاعة المنعقد فيها اجتماع الحكومة لمعرفة ماذا يحدث، ولكنه لم يكذب ينتهي من قوله حتى باعته الاتّحادي "يعقوب جميل" وأطلق عليه الرصاص فأصابه بطلقة في جبهته، وحينها تشتّت شمل الوزراء هنا وهناك محاولين الاختباء.

وفي تلك الأثناء دخل "أنور بك" الحجرة الخاصة بالصدر الأعظم "محمد كامل باشا" في مبنى "الباب العالي"، ثم أشهر مسدّسه في وجهه وأخبره بعبارات شديدة اللهجة أنّ الأُمَّة لا ترغب فيه وعليه أن يستقيل، وبالفعل اضطر "كامل باشا" تحت تهديد السلاح لكتابة خطاب إلى السلطان "رشاد" ذكر فيه أنه أرغم على الاستقالة استجابةً لطلب الجيش، ثم أضاف الاتّحاديون كلمة "استجابة للشعب" إلى هذا الخطاب، وعلى هذا أصبح سبب الاستقالة هو "الاستجابة لمطالب الشعب والجيش"، وفي تلك الأثناء كان "عمر ناجي" و"عمر سيف الدين" -من الخطباء المفوهين والمشهورين لدى الاتّحاديين- يُلْهَبان مشاعر الناس المتواجدين أمام مقر "الباب العالي" بهتافات: "عاشت الأُمَّة، وعاش الاتّحاد والتّرقّي".

وحينما قرأ عبد الحميد في صحف اليوم التالي عن اقتحام "الباب العالي" ومقتل وزير الحربية المشير "ناظم بك" واستقالة الصدر الأعظم "كامل باشا" تملكته الدهشة، واستدعى "راسم بك" للتحدث حول هذا الأمر، وعلى إثر هجوم "الباب العالي" أصبح الاتّحاديون أصحاب الكلمة العليا في إدارة البلاد؛ فقد كلّف السلطان "رشاد" -بناءً على طلبهم-

"محمود شوكت باشا" بتشكيل الحكومة، وبهذا سيطر الاتحاديون على الحياة السياسية في الدولة مجدداً، وبدأت مرحلة الاستئثار بالمناصب والسيطرة عليها وتوزيع الغنائم، وكانت أولى قرارات الحكومة الجديدة إلقاء القبض على معارضي "الاتحاد والترقي" أمثال "علي كمال" و"رضا نور"، ونفي بعض من أعضاء الحكومة السابقة مثل الصدر الأعظم "محمد كامل باشا" وشيخ الإسلام "جمال الدين أفندي" ووزير المالية "عبد الرحمن بك"، ووزير الداخلية "رشيد بك".

حتى إن عبد الحميد حينما علم من الصحف أن "شيخ الإسلام جمال الدين أفندي" قد سافر منفياً إلى مصر ثم إلى باريس عبر عن دهشته من هذا الأمر قائلاً:

"يَعْلَمُ اللهُ أَنَّنِي مَندهَشٌ للغاية مما حدث لـ"جمال الدين أفندي" لقد كان شيخاً للإسلام، فهل يُغْفَلُ أن يُنْفَى شخصٌ كهذا، لو كنت مكانه لفضلتُ الموتَ على أن أذهبَ إلى أيِّ مكان!".

كما سُرعَ في إجراء تحقيقات ضدَّ حكومتي "أحمد مختار باشا"، وحكومة "كامل باشا" السابقتين بتهم الزج بالبلاد في الحرب وسوء إدارة البلاد والحرب، أما "طلعت باشا" فقد أرسل برقيات إلى الولايات يُعلمها فيها بتغيير الحكومة مستغلاً منصب نائب وزير الداخلية، حيث ذكر في تلك البرقيات أن حكومة "كامل باشا" قد اتخذت قراراً بتزك ولاية "أدرنة" بأكملها وجزء من جزر "إيجة" للعدوِّ بناءً على تصديق من مجلس الشورى العموميِّ غير المسؤول؛ مما تسبَّب في حالة من الغضب العارم لدى جموع الشعب، فكان من الواجب الإطاحة بتلك الحكومة استجابةً لمطالب الشعب وإيقافاً لهذا الأمر.

وعلى الرغم من تلك المبررات والدعايات التي ساقها الاتحاديون ومحاولتهم إنقاذ "أدرنه" فإن هجوم "الباب العالي" لم يحدث أي تغيير يُذكر على الجبهة، واضطرت حكومة "شوكت باشا" التي عينها الاتحاديون إلى التخلي عن المنطقة التي تضم ولايات "أدرنه" و"قرقلرإيلي" (Kırklareli)، المعروفة بخط "ميديا - أنز" الحدودي إلى بلغاريا، وذلك بناءً على معاهدة لندن التي عُقدت في الثلاثين من مايو/أيار (١٩١١م) والتي حملت شروطاً مجحفة بحق الدولة العثمانية، وعلى هذا أُسِّمَت "أدرنه" للأعداء؛ مما أصاب الجميع بالصدمة والحزن الشديدين، في حين أن الصحف كانت تكتب في تلك الأثناء عن إقامة حفل زفاف ابن "فريد باشا" رئيس مجلس الأعيان على ابنة خديوي مصر، وقد أثار هذا الأمر حفيظة عبد الحميد فاستنكره بشدة.

وبعد فترة شنت القوات العثمانية هجوماً مضاداً مستفيدة من الخلافات التي نشبت بين دول البلقان بسبب تنازعها على الأراضي التي حصلت عليها بموجب معاهدة لندن، وتمكنت من استعادة "أدرنه" و"قرقلرإيلي"، إلا أن هجوم "الباب العالي" كان للأسف بداية لتورط الدولة العثمانية بالدخول في الحرب العالمية الأولى إلى جانب "ألمانيا"، ومن ثم تمرقها وسقوطها بعد ذلك.

كلّف "السلطان رشاد" بعد هجوم "الباب العالي" "محمود شوكت باشا" أحد المشاركين في قمع تمرد "الحادي والثلاثين من مارس/آذار" وخلع عبد الحميد؛ بتشكيل الحكومة بناءً على طلب الاتحاديين، إلا أن "محمود شوكت باشا" اصطدم بالمشكلات الناجمة عن حرب البلقان وظلّ مكتوف الأيدي إزاءها؛ فلم يتمكن من عمل الإصلاحات الضرورية واتخاذ القرارات اللازمة لمواجهة المشكلات الداخلية والخارجية

لأن السلطة الحقيقية كانت في يد "الاتحاد والترقي"، وقد استمرت فترة رئاسته للحكومة أربعة أشهر وتسعة عشر يوماً اعتباراً من الثالث والعشرين من يناير/كانون الثاني (١٩١٣م) وحتى الحادي عشر من يونيو/حزيران (١٩١٣م)، وقد اغتيل "محمود شوكت باشا" أثناء تواجده في عربة الحكومة في ميدان "بايزيد"، كما قتل أيضاً اثنان من مساعديه خلال هذه العملية المدبرة، وقد دُفن "محمود شوكت باشا" في ميدان "الحرية" بحي "شيشلي" (Şişli)، وحينما علم عبد الحميد بنياً اغتياله من الصحف أصيب بصدمة كبيرة؛ خاصة أن هذه الحادثة جاءت بعد واقعة مقتل المشير "ناظم بك" وزير الحربية خلال هجوم "الباب العالي"، وقد عبر عبد الحميد عن استيائه من تكرار هذه الحوادث قائلاً:

"إن تكرار مثل هذه الحوادث لا يُبَشِّرُ بالخير أبداً، بل يسيء للدولة".

ومع أن "محمود شوكت باشا" هو من قام بنفي عبد الحميد إلى "سالونيك" إلا أن الأخير حزن كثيراً لأغتياله، وعلى الرغم من أن طبيبه الخاص "عاطف بك" كان يظن أن عبد الحميد يُبدي في الظاهر أسفه وحزنه لما حدث لـ "شوكت باشا" ويخفي فرحته وسعاده بهذا الأمر إلا أن الحقيقة هي أن عبد الحميد لم يكن ذلك الشخص الذي يحب التشفّي بأحدٍ أو يهتم بالخلافات الشخصية المقيمة؛ فلم يكن عبد الحميد يُكنُّ حقداً ولا كرهاً لمحمود باشا بدليل أنه حينما علم بنياً مقتله من الصحف أننى عليه بأنه كان يدير الدولة بحنكة ودراية كبيرة وأنه مجتهدٌ وبارعٌ للغاية ومن الصعب إيجاد شخص مثله.

وفي تلك الفترة التي كان يُعدّم أثناءها المتهمون بارتكاب جرائم القتل بعد أن يُحاكموا في محكمة ديوان الحرب العسكرية أعرب عبد

الحميد لـ "أنور باشا" الذي جاء لزيارته في قصر "بُكْلُزْبَكِي" عن سخطه من هذا الأمر قائلاً:

"لم يُنفذ حكم الإعدام طوال سنوات سلطتي التي قاربت الأربعة والثلاثين عامًا سوى في شخصين فقط قاما بقتل أبويهما، في حين أنكم في السلطة ومنذ سنوات قليلة فقط قد قمتم بشنق وإعدام المئات!".

والحقيقة أن عبد الحميد لم يُوقع طوال سنوات سلطته على حكم بالإعدام في حق أي سياسي سوى إحدى عشرة حالة إعدام لمتهمين في قضايا جنائية غير سياسية.

وبعد حادثة مقتل "شوكت باشا" شددت الإجراءات الأمنية حول قصر "بُكْلُزْبَكِي" الذي يقيم فيه عبد الحميد؛ فقد كان هناك من يتوهمون أن أنصار عبد الحميد ومؤيديه هم من قاموا بقتل "شوكت باشا" بغية القيام بانقلاب على الحكومة، حتى إن بعض قادة الاتحاديين كانوا يتخوفون من قيام المعارضة بثورة كبيرة ضدهم ومحاولة إعادة عبد الحميد للحكم مرة أخرى، فاتخذوا قراراً بقتل عبد الحميد على الفور إذا ما حدث أمر كهذا، وكان "جمال باشا" على رأس المخططين لهذا الأمر، وبالفعل صدرت الأوامر لـ "راسم بك" بخصوص هذا الأمر؛ فكلف بدوره الملازم "ناجي أفندي" بتنفيذ تلك المهمة لدى صدور الأوامر، وبالطبع لم يكن عبد الحميد يعلم شيئاً عن تلك المؤامرة الخسيسة، ولكن المولى ﷺ كان حافظاً وعوناً له ولم يُكتب لهذه المؤامرة النجاح.



الحرب العالمية الأولى

إن حزن عبد الحميد على الحالة التي آلت إليها البلاد جعله لا ينتبه إلى روعة البناء والتصميم والزخارف الخاصة بقصر "بكلزبكي"، وفي هذا القصر علم عبد الحميد من الصحف عن حادثة الاغتيال التي تعرض لها ولي عهد النمسا الأرشيذوق "فرانز فرديناند (Franz Ferdinand)" وزوجته في الثامن والعشرين من يونيو/حزيران عام (١٩١٤م) على يد طالب صربي يدعى "غافريلو برينسيب" أثناء زيارتهما لـ "سراييفو" في "البوسنة والهرسك"، وهذه الحادثة كانت هي الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب العالمية الأولى؛ إذ أعلنت النمسا على أثرها الحرب على "صربيا" في الثامن والعشرين من يوليو/تموز (١٩١٤م)، وبدأت الدول الأخرى تتوالى في المشاركة في الحرب، وكان عبد الحميد يتابع بألم ومرارة تطورات الحرب عن طريق الصحف ويضدّر آراءه وتحليلاته على ضوء الخبرة الطويلة التي اكتسبها عبر سنوات حكمه وما يقرأه في الصحف، حتى إنه حينما قرأ عن دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وإعلان الجهاد في البلاد لم يكن بوسعها قول شيء سوى:

"لَيْكُنَ اللَّهُ فِي عَوْنِنَا، وَيُرَافَ بِحَالِ أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةَ، فَإِنِّي أَرَى أَخْطَارًا جَسَامًا تَحِيْطُ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ وَمَقَامِ الْخِلَافَةِ".

والحقيقة أنه لم تنشب حربٌ بهذا الحجم حتى ذلك التاريخ، فقد كانت حرباً مدمّرةً خلّفت ضحايا بشرية لم يشهدها التاريخ من قبل، وسالت الدماء خلالها أنهاراً، ولم تكن تلك الحرب مدمّرةً وكارثيةً بالنسبة لنا فقط بل بالنسبة للبشرية جمعاء؛ فقد كانت الخسائر وأعداد القتلى والجرحى تتضاعفُ باشتدادٍ وطيس الحرب، وكان عبد الحميد يتخوّف من عدم قدرة

الدولة العلية على الوقوف محايدة، وأنها إذا ما دخلت الحرب وهُزِمَتْ فيها فإنَّها ستَعْرِقُ في فوضى عارمة وستتمزق البلاد، كما كان يُشْفِقُ كثيرًا على حال أخيه السلطان "رشاد" بسبب مسؤولية الحرب الملقاة على عاتقه وحالة القلق والتوتر التي تتناوبه جرَّاء الحرب فكان يقول:

"الله ﷻ فقط هو من يعلم بحال أخى الآن، ومدى المأزق الذي وقع فيه والمعاناة التي يعانيتها؟ لقد كنتُ في نفس موقفه من قبلُ حينما حاربنا روسيا، ويعلم الله مدى المعاناة التي عانيتها والحالة النفسية التي كنت فيها حينها، في حين أن أخى في حرب مع ثلاث دول وليست واحدة، فليُعِنْ الله أُمَّتَنَا الإسلامية، ويجعل عاقبتنا خيرًا، ماذا نقول! ليس في أيدينا شيء سوى التضرع إلى الله والإكثار من الدعاء، وإن شاء الله يستجيب المولى ﷻ لدعائنا، وتنتهي هذه الحرب بالخير لنا، وليرأف الله بأُمَّتَنَا، وتنجو البلاد من هذه الحرب المهلكة".

وقد كان يقرأ ختمة القرآن الكريم مع عائلته ومواليه ويقرأ كتاب صحيح البخاري، ويلتزم بقراءة دعاء "فضاء الحاجة" في كل صلاة لما يراه من فائدة من هذا الدعاء.

كان الشيخ "أحمد السليمانى" قد أرسل خطابًا إلى عبد الحميد أوصاه فيه بقراءة "دعاء الحاجة" في أوقات الشدة والأزمات، وبالفعل كان عبد الحميد يحافظ على قراءة هذا الدعاء في أوقات المحن، والحقيقة أنَّ عبد الحميد كان قد ظَهَرَ له في ظهره دُمْل (خُرَاج)، فأوصى الأطباء بضرورة انتزاعه وتصفيته، وتقرَّر أن تجري العملية في اليوم التالي، وبينما كان نقيب الأشراف الشيخ سعيد أفندي يجلس إلى جوار عبد الحميد كان الأطباء يتحدثون مع بعضهم البعض في الحجرة الأخرى، وفي تلك الأثناء وصل القصر خطابٌ باللغة العربية من الشيخ "أحمد السليمانى" إلى السلطان

عبد الحمید، وكان هذا الخطابُ يبدأُ بكلمة "يا ولدي!" أو صاه فيه بقراءة دعاء "قضاء الحاجة" كلما أَلَمَتْ به ضائقةٌ أو كانت له حاجة، كان هذا الدعاء طويلاً للغاية ومكتوباً في أربع صفحات، وقد طلب عبد الحمید من "أسعد أفندي" أن يقرأ عليه هذا الدعاء، وتابعه حتى النهاية، وبعد مدّة غلبه النعاسُ وغفا، وبعد قليلٍ شعرَ بشيءٍ ساخنٍ ودافئٍ يسيل من ظهره، فأتى الأطباء على الفور وفحصوا الدَّمْلَ مرّةً أخرى ثم قالوا له:

"حمدًا لله على سلامتكم، لم يعد هناك حاجة للعملية فقد فُتِحَ الدَّمْلُ من تلقاء نفسه بغير تدخلٍ جراحيّ".
ثم قاموا بتنظيف مكان الدَّمْلِ وضمّدوه.

* * *

كانت إنجلترا ترغب منذ زمن في السيطرة على مقام الخلافة لِتُحَرِّكَ مسلمي العالم كما تريد، وربما تجد في مشاركة الدولة العثمانية في الحرب إلى جوار دول المِخْوَورِ (ألمانيا وإمبراطورية المجر والنمسا وإيطاليا) ذريعةً لاحتلال الحجاز واليمن وسورية وضَمِّها إلى باقي مستعمراتها كمصر، وفي مثل هذه الحالة؛ كيف سيكونُ حالُ المسلمين الذين يعيشون هناك يا ترى؟! إنَّ مجردَ التفكيرِ بهذا يؤلِّمُ ويُقْلِقُ، ولقد كان عبد الحمید قلقاً للغاية إزاء مصير مكة والمدينة حتى إنَّ هذا الأمر كان يؤرِّقُه ليلَ نهار، كما كانت إنجلترا تطمَعُ أيضاً في بترول العراق منذ زمن، وحينما علم عبد الحمید أن القوات الإنجليزية قد احتلَّت مدينة البصرة في الخامس والعشرين من يناير/كانون الثاني (١٩١٥م)، وأنها تتقدَّمُ صوبَ بغداد اغتمَّ كثيراً لهذا الأمر، فقد كان هناك العديد من المزارع والحقول الخاصة بالدولة في نواحي البصرة، وكانت أغلبُ المحاصيل والإيرادات يأتي من هناك، وكانت إنجلترا تُدْرِكُ جيّداً أنها لن تتصرَّرَ كثيراً خلال الحرب

العالمية نظراً لموقعها الجغرافي البعيد عن بقعة الصراع، وأنها تستطيع تحويل دفة الحرب لصالحها بفضل أسطولها البحري القوي، والحقيقة أنها كانت تحيك المؤامرات وتثُر بذور الفتنة بين الدول لخدمة أطماعها الاستعمارية، كما كانت دولة غنيّة للغاية في تلك الفترة بفضل امتصاص خيرات المستعمرات التي تُسيطر عليها مثل مستعمرة الهند ومصر.

وتُعتبر الحرب العالمية هي المرة الأولى التي تدخل فيها الدولة العثمانية في حرب مباشرة ضد إنجلترا، كما أنها المرة الأولى التي تدخل فيها حرباً ضد فرنسا بهذا الحجم، والواقع أن عداءهم للدولة العثمانية وحقدهم عليها كان يزداد يوماً بعد يوم، وربما سيطول أمد الحرب أكثر من المتوقع، إلا أن الإنجليز كانوا يدركون أنهم سيحققون النصر وسيستمرّون في حربهم وتحقيق أهدافهم بفضل أسطولهم القوي وسيطرتهم على البحار، حتى إنهم كانوا يقولون "سنستمر في الحرب خمس أو ست سنوات حتى نُحقّق النصر".

كان عبد الحميد قد عايش أجواء الحرب وأحسّ بمدى فداختها عن قُرب، فبعد أن تولّى الحكم بفترة اندلعت الحرب العثمانية الروسية "حرب ٩٣" حيث وصل الجيش الروسي إلى مشارف "يشيل كوي" التي تُعتبر مدخل إسطنبول، ولم يكن أحدٌ يساعده في ذلك الوقت سوى "دلي (Deli) فؤاد باشا"، وقد تشبّثت الكتائب العثمانية وانخفضت قوّة كلّ كتية إلى خمسين أو ستين شخصاً، وكان من الضروري إعادة ترتيب وهيكله هذه الكتائب مرة أخرى، ولم يتمكن الجنود من النوم لمدة ثلاثة أيام فأصابهم التعب والإرهاق، ولكنهم نجحوا في إقامة خطّ الدفاع عن "يشيل كوي"؛ حيث أخفوا المدافع داخل العربات وغطّوها بالقماش، ولو علم الروس بهذا الأمر لكان من الممكن أن يدخلوا إسطنبول، وكانت إنجلترا قد

اتخذت موقفاً مؤيداً للدولة العثمانية في ذلك الوقت دفاعاً من مصالحها هي بالأساس؛ فلم تقبل بشروط معاهدة "سان ستيفانو" التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية لأنها تضرّ بمصالحها وتصبّ في مصلحة الروس بوصولهم إلى المياه الدافئة وسيطرتهم على المنطقة، حتى إن الأسطول الإنجليزي كان قد تحرك حتى "يشيل كوي" ليمنع تقدّم الروس، وحدّرت إنجلترا من أنها ستتدخل إذا لم تتوقف روسيا وتسحب، وحينما عجز الصدر الأعظم "صفوت باشا" عن التأثير على الطرفين التقى عبد الحميد بنفسه مع كلّ من الجرانديوك "نيقولا"، و"ليارد" سفير إنجلترا، وأقنعهما بصعوبة الانسحاب من مشارف إسطنبول، ولكنهم وجدوا في نهاية هذا اللقاء حلاً وسطاً بأن يبدأ الطرفان بالانسحاب في نفس اليوم، وبالفعل انسحب الروس، وخرج الأسطول الإنجليزي من مضيق "جناق قلعة" (الدردنيل) في نفس اليوم.



حرب "جناق قلعة" والسلطان عبد الحميد

والحقيقة أن قلبَ عبد الحميد وعقله وفكره كان معلقًا بما يجري في ميدان القتال منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب العالمية الأولى، وعلى الأخص أنه كان يفكرُ دائمًا في الجنود الأتراك الذين يُدافعون دفاعًا أسطوريًا عن جبهة "جناق قلعة"، ويُتابعُ يوميًا تطوّرات الحرب عن طريق الصحف، ويُلامسُ بقلبه ويتعاشى بوجوده مع المعارك الأسطورية للجنود العثمانية الذين يضحون بأرواحهم في سبيل الدين والوطن، ولم يكن يفقدُ إيمانه بالنصر مطلقًا، فهيّا هو الجيل الذي تلقى تعليمًا جيدًا في المدارس التي افتتحها خلال حكمه قد بلغ رشده وبرز خلال معركة "جناق قلعة"، وكان المئات من الشباب الواعدين بمستقبل مشرق يسقطون يوميًا فداءً للوطن، حتى إن عبد الحميد حينما تلقى نبأ اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت أول جملة يقولها:

"وا حسرتاه! لقد فقدنا فلذات أكبادنا وخيرة شبابنا".

كان عبد الحميد في فترة حكمه يؤمن بأنه ستندلع حربٌ عالمية يومًا ما، ولكنه كان يهدف قدر الإمكان إلى إبعاد الدولة العثمانية عن أتون الحروب والنهوض بها عن طريق كادرٍ مدرّبٍ ومتعلّمٍ في المجالات التقنية والعسكرية، فالتورط في الحرب كان أكبرَ ضربةٍ موجهةٍ يمكن أن تقضي على تحقيق هذا الهدف وعلى خلقٍ مجتمعٍ قويٍّ متماسكٍ، وخلال سنوات حكمه الثلاثة والثلاثين لم تدخل الدولة العثمانية حربًا سوى حرب اليونان التي نشبت عام (١٨٩٧م)، وعلى هذا النحو عاشت البلادُ

حالةً من الاستقرار والهدوء بعيداً عن شبح الحروب وخسائرها، وازداد تعداد السكان بشكل ملحوظ، وبدأت المدارس التي افتتحت في عهده تُقرّر جيلاً متعلّماً ومدرباً وذا كفاءة عالية يمكن له أن يلعب دوراً محورياً في إقامة دولة حديثة، ولكن المؤسف أن الحرب العالمية الأولى قضت على هذا الجيل الثري وعلى الشباب الواعد ومثقفي المستقبل خلال أربعة سنوات، كما تعطلت مسيرة الثقافة والتنوير وتعطلت عجلاتها تماماً.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى وصل الأسطولان الإنجليزي والفرنسي إلى مضيق "الدردنيل" (جناق قلعة)، وكان الإنجليز مُصيرين على عبور هذا المضيق مهما كلفهم الأمر؛ حيث كانوا يطمحون في الاستيلاء على إسطنبول من أجل إقصاء الدولة العثمانية عن الحرب، ومن ثم تصفية حساباتهم مع ألمانيا في أوروبا، ولا شك أن هذا الوضع كان يصبُّ في مصلحة روسيا.

وقد عمل عبد الحميد قدر الإمكان خلال عهده من أجل تحصين المضائق (البوسفور-الدردنيل) وتعزيز خطوط الدفاع فيها؛ حيث أمر بإقامة خطوط دفاع محصنة ونشر المدافع طويلة المدى التي تم شراؤها من ألمانيا على طول مضيق الدردنيل، وعليه فقد بحث مع أكبر القادة العسكريين في ذلك الوقت خطط الدفاع عن المضائق والحدود إذا ما اندلعت حرب، وأعدت أكثر من خطة من أجل هذا الأمر، وقد أولى أهمية كبيرة لخطط تحصين المضائق نظراً لأن الأسطول العثماني كان ضعيفاً مقارنةً بأساطيل العدو وليس في مقدوره أن يصمد أمامها كثيراً، وعلى هذا أعدت خطة محكمة هدفها منع أسطول دول التحالف من الاقتراب من المضيق وذلك عن طريق قصفه بالمدافع الثقيلة والعمل بكل قوة للحيلولة دون محاولات الإنزال البري للجنود.

إن عبد الحميد الذي بحث هذه الخطط مع القادة العسكريين قبل سنواتٍ من معركة "جناق قلعة" يشعر الآن بحالةٍ من الألم والحسرة، ويعيش أقسى أيام حياته في قصر "بُكلزبكي" بسبب الحالة السيئة التي آلت إليها الدولة جرّاء الحرب العالمية، وكان كلّمًا قرأ في الصُحف عن اشتداد وطيس الحرب وازدياد الخسائر والضحايا وعلم أن العدو قد أقام حصونًا له على الساحل ونصب مدافعهُ أيضًا كان يفكرُ والدهشة تتملّكه قائلاً: "كيف سنطردهم من هناك؟"، ويدعو الله قائلاً: "اللهم ارفق بأمة محمد ﷺ".

كان الطبيب "حسين عاطف بك" -الذي عمل طبيبًا خاصًا لعبد الحميد وأسرتِه منذ وجوده في منفى "سالونيك" وحتى نقله إلى إسطنبول- معاصرًا لعبد الحميد خلال تلك الفترة، حتى إن عبد الحميد قد عبّر له في الخامس من مارس/آذار (١٩١٥م) عن ثقته في الجيش العثماني قائلاً:

"ذات يوم وبينما كنتُ أقرأ أحاديثَ الرسول ﷺ في كتاب صحيح البخاري وجدتُ في إحدى صفحات الكتاب بابًا يتحدثُ عن أوصاف النبي ﷺ، ومن تلك الصفات أن جسده الشريف كانت تخرج منه رائحة زكية، وبينما أنا أقرأ كنتُ أشتمُ روائح ذكية لا أعرف مصدرها، فكانت هذه الروائح وكأنها بشرى على أن العدو لن يجتاز مضيق "جناق قلعة"، فليهلك الله أعداءنا، وبحولهِ ومشيتِهِ لن يجتازوا المضيق".



لقاءاته مع قادة الاتحاديين

وبينما كانت رحى معركة "جناق قلعة" تدور بكلِّ ضراوةٍ في مارس/ آذار (١٩١٥م)، فقد أرسل "طلعت باشا" وزير الداخلية و"أنور باشا" أبرز شخصيةٍ في حكومة "الاتحاد والترقي" وهو "إسحاق باشا" لمقابلة عبد الحميد في قصر "بُكْلَرْبَكِي"، حيث كانا يرغبان في إبلاغ عبد الحميد أمراً من السلطان رشاد بالاستفادة من تجاربه السياسية، [والحقيقة أن عبد الحميد كان قد التقى قبل ذلك بعام مع "أنور باشا" في قصر "بُكْلَرْبَكِي" في الحادي عشر من مارس/آذار (١٩١٤م)]، ولَمَّا انتهى اللقاء بعث عبد الحميد مع إسحاق باشا رسالةً شفهيّةً إلى أخيه "السلطان رشاد" طمأنه من خلالها عن نفسه وأخبره ألا يقلقَ حياله وأنه ليست لديه رغبة سوى أن يمضي البقيّة الباقية من حياته بالدعاء للأمة هنا، وطلب أن تتم رعاية عائلات العمال الذين يقومون على خدمته في "بُكْلَرْبَكِي" وأن تُقدّم لهم المساعدات، وحينما لم تُنفذ رغباته تلك أرسل "راسم بك" إلى "أنور باشا" مرّة أخرى في الثالث والعشرين من مارس/آذار، وعندما لم يتمكّن من تلقّي ردٍّ من القصر شعر عبد الحميد بالحزن لتأخّر تلبية طلباته، ولا سيما أنه حينما كان عبد الحميد في الحكم كان يعمل على حلّ كافّة مشكلات أخيه "رشاد".

وفي اليوم التالي وصل "طلعت باشا" و"أنور باشا" إلى القصر بواسطة أحد القوارب البخاريّة، ودخلا عبر الباب الكبير المواجه للبحر المؤدّي إلى الديوان وصعدا على السلالم الحلزونية، ثم تم اصطحابهما إلى بهو الضيوف والزوّار المطلّ على البحر والملاصق لجناح "السلامك" الغنيّ

بالنقوش والزخارف، وكانت المزهرية الكبيرة والثريا البوهيمية تعكسان مدى التناغم والتجانس السائد في هذا الصالون.

وقد دخل عبد الحميد إلى حجرة استقبال الزوّار الموجودة في "السلامك" عبر البهو ذي النافورة التي ينتج عنها هواء لطيف في القسم الأوسط من القصر؛ فقام الضيوف بكلّ احترامٍ وتقديرٍ وقدموا له التحية ولم يَدْخروا جهداً في إظهار الاحترام له، وكان سقف وأرضية هذه الحجرة التي التقى فيها برجال الدولة الذين جاؤوا لزيارته مصنوعاً من الأخشاب المطلية المصقولة، وقد صنعت بهذا الشكل عند بناء القصر -خلال عهد عبد العزيز- حتى لا ينبعث منها صوتٌ إلى الخارج، كما لم يُستخدم فيها مسمارٌ واحد!

كانت هذه هي أوّل مرّة يرى فيها عبد الحميد "طلعت باشا"، ولكنه كان يعرفه دون أن يلتقي به، وكانت ترتسم على وجهه بسمّة الشخص الواثق من نفسه، وقد أدرك عبد الحميد أن شخصيةً قويّةً وعنيدةً ترقّد وراء هذا الوجه البشوش، والحقيقة أنه لم يجاملهما خلال لقائه بهما في "بكلزبكي" ولكنه تحدّث معهما بكل صراحة ووضوح ودون مواربة، إلا أنه كان يؤمن بأن "طلعت باشا" و"أنور باشا" يبذلان كلّ ما في وسعهما وسط ظروف الحرب، والحقيقة أنه كان قد ثمن مساعي "أنور باشا" وأثنى على زيارته إلى مختلف الأماكن وخاصة زيارته إلى المدينة المنورة، وأوضح أن جهوده هذه ستؤثر كثيراً على العرب والعالم الإسلامي، كما أنه كان قد تحدّث ذات مرة إلى "الطبيب عاطف بك" عن رأيه في "طلعت بك" قائلاً:

"إنني أقول الصدق بكلّ حيادية وإنصاف: إذا كان هناك أيّ شخص آخر في مكان "طلعت باشا" لم يكن بوسعِهِ أن يقوم

بهذا، فهو يعمل ابتغاء وجه الله وهو أكثر من غيره ذكاءً وعملاً واجتهاداً، ولديه قدرةٌ جسديةٌ هائلة، فلم يكن تسييره لوزارات الداخلية والمالية والحربية أمراً يسيراً، فالحكومة تحاول وتعمل بجدٍّ والجميع يعملون بحسنِ نيةٍ وهدف نبيل، ألا تغني النية الحسنة عن العمل، فالنية هي أساس التفوق".

وكان عبد الحميد قد التقى قبل ذلك بـ"أنور باشا" الذي تزوج من ابنة أخيه "سليمان أفندي" الأميرة "ناجية" في الخامس من مارس/آذار (١٩١٣م)، وعبر له عن سعادته لترقيته إلى رتبة لواء -باشا- وتعيينه وزيراً للحربية، والحقيقة أنه كان يرى أن ابنة أخيه الأميرة "ناجية" إنسانةٌ بارعةُ الجمال وخلوقة ورقيقة، وكان يحبها للغاية ويعتبرها كبناته؛ فقد تربت على يديه، حتى إنه كان قد أرسل "راسم بك" لحفل زفافها ليقدم لها وزوجها التهاني، وعندما مثّل أنور باشا بين يدي السلطان عبد الحميد وقبل يده أوصاه خيرًا بزوجته.

وعندما زار كُلٌّ من "أنور باشا" و"طلعت باشا" عبد الحميد أحسَّ الأخير بإحساسٍ غريب، فقد كان لديه الكثير من الكلام ليقوله لهذا الثنائي الذي مهّد الطريق للأحداث التي أدّت لخلعه، وتسبّب في جرّ الدولة العثمانية إلى منزلٍ خطير خلال بضع سنوات، ووجد في هذا اللقاء الفرصة المناسبة للإفصاح عمّا بداخله؛ فصّح في وجهيهما بالحقائق التي لم يتمكّنا من رؤيتها أو لم يرغب في رؤيتها في فترةٍ كان فيها مستقبل الدولة والأمة يتعرّض للخطر المحقّق، وعبرَ لهما عن أن الدولة العثمانية قد انهارت يوم دخلت الحرب العالمية وأن دخولها إلى جانب دولتين حبيستين لحدودهما البرية كألمانيا والنمسا ضد إنجلترا وفرنسا المسيطرتين على البحار بأساطيلهما البحرية يعتبر عملاً جنونياً ومغامرة غير محسوبةٍ وخطأً كبيراً من الناحية العسكرية.

كان أسطول دول الحلفاء خلال الأيام التي زار فيها الباشوات عبد الحميد يحاول بكل ما أوتي من قوّة اجتياز مضيق "الدردنيل"، ويأمل من هذا في فتح الطريق إلى "إسطنبول" حتى إنّ قائد أسطول الحلفاء القبطان بحري "جاردن" (Carden) أرسل برقيّة إلى "لندن" تنم عن أنه كان واثقاً من نفسه وعلى يقين من النجاح في اجتياز هذا المضيق قائلاً:

"سندخل إسطنبول خلال أسبوعين!".

والحقيقة أن "جواد بك" قائد الحصون الدفاعية ومعه جنودنا في المواقع العسكرية المزوّدة بالمدافع على طول الساحل كانوا يدافعون دفاعاً أسطورياً عن مضيق "الدردنيل" الذي تعرّض لقصف عنيف من قبل أسطول العدو، ولكنّه وعلى الرغم من هذا كان بعض الاتحاديين قد أفنّعوا أنفسهم بأنه لا يمكن الصمود في الدفاع عن المضيق أكثر من هذا، وكان يردّ إلى إسطنبول كلّ عشرة دقائق تقرير مفصّل بتطوّرات الأوضاع على الجبهة، وعلى الرغم من أن رجال الدولة وأذرعها الإعلامية في إسطنبول كانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر المتّين فقد كانت فكرة نقل الأسرة العثمانية والأشياء القيمة في القصور والدوائر الحكومية إلى الأناضول تحتل أولويات أجندات عملهم، كما أنه على فرض نجاح قوات الحلفاء في اجتياز مضيق الدردنيل واحتلالها العاصمة؛ فسَتَشكّل قواتٌ شعبية تتحمّل مسؤولية المقاومة في الأناضول، وبالفعل صدرت التعليمات إلى بعض الضباط في الأناضول بأن يستعدوا لحدوث أمر كهذا.

وقد اتخذ مجلس النواب في فبراير/شباط (١٩١٥م) بعض القرارات المتعلقة بما سيتمّ فعله في حالة ظهور نتائج عكسيّة ونجاح أسطول العدو في الوصول إلى بحر مرمرة؛ حيث وُضعت خطط لنقل الدوائر الحكومية من إسطنبول إلى الأناضول، وصدر القرار بعمل الترتيبات اللازمة بهذا

الأمر في مدينتي "أسكي شهير" (*Eskişehir*) و"قُونِيَه" (*Konya*) "حتى إنَّ الأبنية والمقار الخاصة بالسلطان والمجلس النيابي ورئاسة الوزراء في هاتين المدينتين قد حُدِّدت وُجِّهت على أكمل وجه، كما تقرَّر نقلُ الخزانة العامَّة إلى "قُونِيَه".

وكان البعض يعتقد أنه إذا ما وصل أسطول الحلفاء إلى مشارف إسطنبول فلن تكون هناك فرصة للانسحاب بسرعة، حتى إنَّ سفير الولايات المتحدة آنذاك "مورجانتاو" (*Morgenthau*) كان يكتب بلهجته المغرورة كالمعتاد خلال تلك الأيام العصيبة -التي تقررت فيها خطة نقل مَقَارِ الحكم إلى الأناضول- أن السيارة المهداة من سفارة بلجيكا جاهزة تحت أمر "طلعت باشا"، وكانت كلماته هذه تُعَبِّرُ بكل وضوح عن مدى سوء الموقف وهشاشته، وكانت الخطة المُعدَّة والمجهَّزة هي أن يُنقل السلطان "رشاد" وحریمه وعائلته إلى مدينة "أسكي شهير"، وأن يُنقل عبد الحمید الموضوعُ رهناً الإقامة الجبرية في قصر "بُكْلَرْبَكِي" للإقامة في قصر "حُنْكَار" (*Hünkâr*) في مدينة "بُورْصَه"، وقد وافق السلطان "رشاد" على هذه الخطة، والحقيقة أنَّ جماعة "الاتحاد والترقي" التي كانت لا تزال تمسك بمقاليده الحكم في يديها كانت ترغب في إبعاد عبد الحمید عن إسطنبول بأيِّ شكلٍ من الأشكال؛ إذ كانوا يتخوَّفون من أن يستخدمه المحتلُّون ضدَّ السلطان "رشاد" وضدَّهم لو تُرك في إسطنبول واحتلت المدينة، إلا أنَّ عرضَ خطة النقل عليه وإقناعه بها لم يكن أمراً يسيراً على الإطلاق، وعلى هذا فقد عرض "أنور باشا" و"طلعت باشا" على عبد الحمید مسألة نقله خلال زيارتهما له؛ حيث تحدَّث "طلعت باشا" بوجهٍ بشوشٍ وبنبرة صوتٍ منخفضةٍ لطيفةٍ معه محاولاً إقناعه بتلك الفكرة، وبعد أن نقلَ له تحيةَ أخيه السلطان "رشاد" أبلغه بصدور أمرٍ سلطانيٍّ بالاستعداد لنقله إلى "بُورْصَه".

فلما سمع عبد الحميد هذا الكلام للمرة الأولى بشكل رسمي حزن كثيراً، والحقيقة أنه كان يعتقد أن نقله من إسطنبول إلى "سالونيك" وعودته إليها مرة أخرى، ثم نقله الآن إلى "بوزصه" يُشكّل إهانةً له، فتحدث إلى الباشوات بتلك المشاعر قائلاً:

"لديّ عادات ونظامٌ محدّد، ولا يمكنني تحمّل هذه الظروف، إنني رجلٌ مريضٌ، وليست لديّ القدرة على التّقلّب هنا وهناك، إنّ مثل ما تفعلون بي كمثّل رجلٍ قيلَ له: "سَنَشُقُّكَ هنا ولكننا حفَرنَا قبرك هناك، وستذهب إليه بقدميك"، وعليّ أن أهتمّ بشؤوني كالجميع، لن يجرؤ أحدٌ على المساس بي، ماذا يفعلون بي وأنا رجلٌ مغلوبٌ على أمرِي؟ إن العدو لن يكون له منفعةٌ من دخول إسطنبول وحتى إن دخلها فيها مدنيون ولن يضر أحدًا منهم..."

وأردف قائلاً:

"ماذا يفعل أخي صاحبُ الجلالة؟ إنّ مخاوفه في غير محلّها، إذا لم يهدم أحدٌ ما قد أمرت بإنشائه من حصونٍ وثكناتٍ عسكريّة على طول ساحل مضيق "جناق قلعة" فمنّ المحال أن يمرّ أيّ أسطولٍ من هناك، وحتى إذا افترضنا أن مصيبةً كهذه قد وقعت، فمنّ الواجب على السلطان ألا يترك تاجه وأئمته ويهرب بهذا الشكل المذلّ، بل يتحمّ عليه التضحية بروحه وبكلّ ما يملك دفاعاً عن عرشه ووطنه، فإن غادر جلالته وحكومته من إسطنبول فلن يعودوا إليها مرة أخرى، يجب علينا جميعاً ألا نترك العاصمة ونفرّ، ولكن يجب أن نطلّ هنا لندافع عنها حتى آخر قطرة من دمائنا، كما يجب على جميع أفراد الأسرة العثمانية من صغيرها إلى كبيرها أن يضخّوا بأنفسهم في سبيل الدفاع عن وطنهم العزيز! ويا للعجب! فحينما جاء السلطان "محمد الفاتح" ليفتح القسطنطينيّة لم يفر الإمبراطور البيزنطي الكافر "قسطنطين"،

بل على العكس حارب بشجاعة بين قلاعها وأبراجها المدمرة، ومات في سبيل الدفاع عنها، ونحن أحفاد السلطان محمد الفاتح ألا يمكننا أن نكون مثل قسطنطين! يجب علينا أن نبدي نفس الصلابة ونبدل روحنا دفاعاً عن القسطنطينية، ولتعرضوا ما أقوله على حضرة السلطان، فليكن مطمئناً وخاضعاً ومسلياً لإرادة المولى عز وجل، ولا يغادر إسطنبول أو يتحرك قيد أنملة من هنا.

أما بالنسبة لي فإنني لن أذهب إلى أي مكان ولن أبرح إسطنبول، إن أُملي وطلبي الوحيد هو أن أموت هنا، وأتمنى من أخي ومن الحكومة العلية أن يساعدوني في تحقيق هذا الأمل.

وبعد أن ذكر عبد الحميد كل هذا بصراحة بالغة أمام "أنور باشا" و"طلعت باشا" قام من مكانه وودَّعَهُمْ، ثم خرج من الحجرة دون أن يترك لهم مجاًلاً للردِّ عليه، ثم صعد السلالم حتى دخل حجرة العمل مهموماً مستغرقاً في التفكير.

وبينما كان "طلعت باشا" يهْمُ بمغادرة القصر تَمَتَّمَ قائلاً:

"لقد أَسَكَّتْنَا وَأَفَحَمْنَا بِكَلَامِهِ وَخَيَّبَ أَمَلَنَا".

فردَّ عليه "أنور بك" قائلاً:

"إن ما أصابنا وما نحن فيه بسبب ما فعلناه بهذا الرجل، وما

سيصيبنا بعد ذلك يرجع إلى نفس السبب".

إن هذه الزيارة حتى ولو كانت مُحْزِنَةً إلا أنَّها جاءت بثمرة طيبة؛ حيث إنَّ الموقفَ القويَّ الذي أظهره عبد الحميد بضرورة عدم مغادرة إسطنبول، والدفاع عن مضيق "الدردنيل" قد أثَّرَ مباشرةً على مواقف الاتحاديين إزاء هذه المسألة وعلى رأسهم "طلعت باشا" و"أنور باشا" اللذان جاءا لزيارته في ذلك اليوم، فقد تمَّ العدول عن فكرة ترك "جناق قلعة" ونقل الدوائر الحكومية من إسطنبول، وعلى هذا فقد حال موقفه

هذا دون سقوط الدولة بشكلٍ أسرع، وربما لم يحمل عبد الحميد سلاحاً في يده ولم يحارب على الجبهة ولكنه كان بلا شكٍّ واحداً من أبطالنا المجهولين الذين ساهموا في تحقيق النصر في الثامن عشر من مارس/ آذار (١٩١٥م) في معركة "جناق قلعة" البحرية على الأسطول الذي لا يُقهرُ لدُولِ الحلفاء، فقد تربى وتعلّم أبطال معركة "جناق قلعة" في المدارس التي افتُتحت خلال عهده، واكتسبوا روح المقاومة والفداء، واستخدموا المدافع والأسلحة التي تمّ شراؤها في عهده على الجبهة، ولهذه الأسباب أصبح لزاماً علينا أن نذكره كواحد من أبطال موقعة "جناق قلعة" الحقيقيين، ونذكره بكلّ خيرٍ.

وفي تلك الأثناء كانت الصحف تكتب أن أسطول الحلفاء قد تكبد خسائر فادحة في مضيق الدردنيل، وكان عبد الحميد في البداية مضطراً -كالجميع- إلى تصديق هذه الأخبار الصحفية الواردة من الجبهة، وكان يحاول بشتى السبل أن يحصل على أخبارٍ مؤكدة من الجبهة، وكان حينها يشعر بحالة من الضيق والقلق والتعب ناجمة عن كبر سنّه وعزليته وقلة حيلته، وكان قصر "بكلزبكي" الواسع الذي أصبح مكاناً لعزليته قد ضاق عليه، ولم يعد يحتمل الأمر، فكان دائماً ما يرسل "راسم بك" إلى قصر "دولما باهجه" (مقر حكم السلطان)، ويحاول جاهداً أن يحصل على المعلومات الصحيحة والموثوق منها، وأخيراً وصل إلى قصر "بكلزبكي" نبأً مؤكّداً مفاده أن العدو انسحب من أمام مضيق "الدردنيل" يجرّجُ أذبال الهزيمة، وقد تحقّق هذا النصر على أسطول الحلفاء في موقعة الدردنيل يوم الخامس عشر من مارس/ آذار (١٩١٥م)، وأغرقت أربع أو خمس سفن كبيرة تابعة للعدوّ، وحينما تلقّى السلطان "عبد الحميد" نبأ نصر الجيش العثماني حمداً لله وخرّ ساجداً وأنان.

وكان "إسماعيل جواد باشا" قائد استحكامات وحصون "الدردنيل" وأحد الشخصيات البارزة في تلك المعركة واحداً من الضُّباط الذين درسوا وتدرَّبوا في ألمانيا قبل ذلك، وكان عبد الحميد يعرف والدَه "شاكر باشا" فقد كان من حاشية "برتو باشا" أحد وزراء الدولة العثمانية السابقين، وكانت الصحف آنذاك تكتب أن دُول الحلفاء ستعود مرة أخرى، إلا أن عبد الحميد كان يعتقد أنهم لن يتمكنوا من اجتياز المضيق مرة أخرى، وأنَّ العدو لن يحقق النجاح في العمليات العسكرية البرية دون إنزال كامل للجنود، وبالفعل دارت المعارك مرة أخرى، وكان عبد الحميد يتمنى أن تنتصر ألمانيا في أقصر وقتٍ وتنجح في عقد هدنة ليحلَّ السلام، أو أن يتدخلَّ العقلاء لِعَقْدِ هدنة؛ وبهذا يرتاح العالم حيث كان يقول:

"أدعو الله ﷻ أن يَمْنَحَنَا السلام".

ولكن الأمور سارت على عكس ما يتمناه؛ حيث بدأ العدو بعد فترة قصيرة عمليات الإنزال البرِّي على سواحل شبه جزيرة "جاليبولي" (*Gelibolu*) مدعومة بأقوى أسطول في العالم، وعلى الرغم من تكبُّد قوَّات التحالف خسائر فادحة إلا أنها تمكَّنت من إحكام قبضتها على السواحل، وإزاء هذا الوضع الكارثي أُصيبَ عبد الحميد بحالة من الانهيار، ولكنه لم يَقِفْ مكتوف الأيدي؛ فكان يُحاولُ جاهداً الحصول على الأخبار من الجبهة أولاً بأول، ولكن لم يكن بإمكانه فعل أيِّ شيء سوى التضرُّع إلى الله أولاً يجتازَ العدو مضيقَ الدردنيل.

ولم ينجح الإنجليز والفرنسيون في اجتياز المضيق لا برّاً ولا بحرّاً، ولكنهم تمكَّنوا من إدخال غواصاتهم إلى بحرٍ مرمرة، فقاموا بإغراق سفن العثمانيين بَعْضَ النظر عن كونها عسكرية أو مدنية، وقد اغتمَّ عبد الحميد كثيراً حينما عَلِمَ بِغَرْقِ سفينة المدفعية في الرابع والعشرين من مايو/أيار

(١٩١٥م)، كما كان يشعر بالقلق من استهداف سفن المدنيين، كما أن بعض سفن العثمانيين قد توقفت عن رحلاتها بسبب النقص الشديد في الفحم مما جعله يشعر بالَحَقِّ والضيق الشديدين، وحينها أبلغ الحكومة عن طريق "عاطف بك" أن هناك منجم فحم حجري كان أحد المهندسين الألمان قد اكتشفه في عهده في حوض بحر "مرمرة"، وأنه يمكن إيجاد الأوراق المتعلقة بهذا الأمر في وزارة التعمير والإسكان، وأنه يمكن الوصول إلى اسم مهندس المعادن هذا عن طريق السفارة الألمانية، وفي العاشر من مايو/أيار (١٩١٥م) قصفت السفن التابعة للأسطول الروسي سواحل مضيق البوسفور المتصلة بالبحر الأسود، وفي صبيحة اليوم التالي رأى عبد الحميد أثناء وقوفه في نافذة قصر "بِكْلُزْبَكِي" عمليات نقل الجرحى والمصابين بواسطة إحدى البواخر الصغيرة.

وفي ليلة الثامن من يوليو/تموز (١٩١٥م) عَبَرَ الجنودُ من منطقة "بِكْلُزْبَكِي"، وكان الجميع يسمعون أصواتهم ولكنهم لم يروا بأعينهم مرور العربات والخيول حتى إن صياح هؤلاء الجنود في تلك الليلة بنشيد: "الوطن هو روحنا"، وهتافات: "الوداع! الوداع! الوطن! الوطن!" قد أبكى عبد الحميد وزوجاته وخدمه؛ فلم يتمكنوا من النوم طوال الليل؛ إذ لم يكن بوسع عبد الحميد -مثله في ذلك مثل أي إنسان آخر- أن يتحمل أشياء كهذه.

كان عبد الحميد يشعر بالأسى لحالة أخيه السلطان "رشاد" الصحية التي منعه من زيارة "البردة الشريفة" في ذلك العام، حيث كانت زيارة السلاطين للأمانات المقدسة بقصر "طوب قابي" في شهر رمضان المبارك من كل عام تقليدًا مهمًا، وكان كل يوم ينتظر بلهفة الأخبار المباشرة التي تأتي عن المعركة البرية في "جناق قلعة"، وقد حصل على معلومة تؤكد

أن الطائرات التابعة لجيش العدو قد قَصَفَتْ المشافي العثمانية الميدانية دون أدنى اعتبارٍ لحقوق الإنسان ولا لِمَوَاقِفِ الحرب؛ فقد كان الإنجليز عازمون على السيطرة على مضيق "الدردنيل" بأي شكلٍ كسيطرتهم على كافة المضائق في العالم.

ولم ينجح العدو في معاركه البرية التي استمرت سبعة أشهر ونصف في اجتياز المضيق بأي شكلٍ من الأشكال، وكان عبد الحميد يتضرع -كالجميع- إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرع أن يُنصِرَ الجنود العثمانيين المجاهدين الذين كانوا يسقطون شهداءً واحداً تلو الآخر على ضفاف شبه جزيرة "جاليبولي" (Gelibolu) دفاعاً عن وطنهم، كما كان يأمر كل من في القصر بالدعاء للجنود المرابطين على جبهة "جناق قلعة" بقوله:

"اللهم احفظ بلادنا من شرِّ السقوط في أيدي العدو، وضمن العرض والأرض ولا تحرمنا من سماع الأذان والقرآن في بلادنا إلى أبد الأبدین!".

وحينما وصل إلى قصر "بُكْلَزْبَكِي" نبأ مغادرة العدو لأراضي "جاليبولي" في ديسمبر/كانون الأول (١٩١٥م) خرَّ عبد الحميد ساجداً لله شكراً كما فعلَ بعد النصر البحري في الثامن عشر من مارس/آذار، فكان كعادته دائماً ما يَقِفُ إلى جانب الأمة ويتشارك معها بكلِّ وجدانه وجوارحه، وكان قلبه الضعيف الحزين يطير فرحاً بالأخبار المبشرة التي تأتي عن صمود الوطن وسلامته وتحرُّره من السقوط والاحتلال على يد العدو، وفي السادس عشر من يناير/كانون الثاني (١٩١٦م) انسحب آخر جندي من جنود العدو من شبه جزيرة "جاليبولي"، وعمَّت حالة من السعادة والفرحة العارمة أرجاء البلاد كافةً، وكانت الصحفُ الصادرة بتاريخ الثالث والعشرين من فبراير/شباط (١٩١٦م) تكتبُ أن مراسم

صلاة الجمعة ستقام في مسجد "آيا صوفيا" وأن قصيدة المولد الشريف ستقرأ هناك، وقد سعد عبد الحميد سعادةً عارمةً بهذا الخبر، كما سعد أيضًا بتحسّن حالة أخيه الصحية، وتمكّنه من الذهاب إلى "آيا صوفيا".

وبينما كانت المعارك تدور في ضراوة بالغة قام "طلعت باشا" الصدر الأعظم آنذاك بزيارة عبد الحميد مرة أخرى في قصر "بكلربكي"، وبعد أن شرح له باختصار التطوّرات الميدانية الأخيرة للحرب أراد أن يستفيد من تجاربه وخبراته؛ فطلب منه معرفة رأيه فيما يجري وما هو الواجب فعله، وكان عبد الحميد يرى أن كل هذا حدث بسبب الطريق الخاطيء الذي سلكه من أتوا بعده؛ فقد اتّبع الاتحاديون الذين قفّروا إلى السلطة بعده سياسة مغايرة تمامًا لسياساته، حيث أهملت الحكومة قضايا "البوسنة والهرسك" و"كرت" و"ألبانيا"؛ وارتكبت خطأ كبيرًا بإزالة الخلافات بين الكنيستين اليونانية والبلغارية مما مهّد الطريق لثُشوب حرب البلقان وسط غفلة تامة من الدولة، وللأسف فقد خسرت الدولة العثمانية العديد من أراضيها خلال السنوات الخمس التي أعقبت خلعه، كما سأل عبد الحميد "طلعت باشا" عن هذا الأمر قائلاً:

"أليس صحيحًا يا "طلعت باشا" أنه لو لم تندلع حرب البلقان لما اندلعت الحرب العالمية الأولى؟".

إلا أن "طلعت باشا" صمت ولم يُجِز جوابًا إزاء هذا السؤال العميق. وخلافًا لذلك أعاد عبد الحميد على مسامعه أن الحرب العالمية تسير نحو الاتّساع والتضخّم في الوقت الراهن، وفي هذه الحالة ستفوز بالحرب القوة التي تسيطر على البحار، وأنّ الإنجليز والفرنسيين بعد الهزيمة التي مُنوا بها في معركة "جناق قلعة" قد بدؤوا بإنزال الجنود في "سالونيك"، وربما يفاجؤونا ويقومون بهجوم جديد على إسطنبول

من ناحية "دَدَه آعَاج" (*Dedeagaç*)، وقد تبَيَّن فيما بعد أن تَبَوُّأته هذه صحيحةٌ ووجهاتِ نظره سديدةٌ، حيث أَجَبَرَ الجنرال الفرنسي "فرانشيت دي إيسبر (*Franchet d'Espery*)" قائدُ قُوَّات الحلفاء في "سالونيك" البلغار على عقدِ هدنةٍ صلح في التاسع والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٩١٨م) ودخلَ إلى إسطنبول في الثالث والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٨م) كقائدٍ فاتحٍ مظفرٍ، واستُقبل بحفاوةٍ وفرحةٍ عارمةٍ من قِبَل الأَقْلِيَّات، ولكن عبد الحميد قد توفَّاه الله قبل أن يرى هذا اليوم الأليم.

وأخيراً ختم عبد الحميد كلامه مع "طلعت باشا" بهذه الكلمات قائلاً:

"إذا كُنَّا قد اضطررنا إلى دخولِ هذه الحرب فكان يتحتم علينا أن نقاتلَ قدر الإمكان على الجبهات الداخلية في الأقل، أما الأماكن البعيدة فسندافعُ عنها بقُوَّات الدفاع الشعبي التي سيُسَكِّلُ أغلبُها من السكَّان المحليين هناك، إنني لن أناقش الأسباب والمسبِّبات إلا أنه من الواضح أن تبَيَّن وتنفِذ هذا الأمر لم يكن ممكناً، لو أنكم تذكروني وجئتم إليَّ قَبْلَ اتِّخَاذكم هذه القرارات ربما نقلتُ لكم خلاصةَ تجاربي الطويلة، ولكن الأحداث الآن على وشك أن تظهر نتائجها الحسنة والسيئة، ماذا يمكنني أن أقول لكم الآن؟! إن تغيير السياسات والإجراءات والخطط يتطلَّب وفرةً من الوقت والإمكانات، وأعتقدُ أن هذا غير متاح الآن، فليزد الله عزائم من يدافعون عن مُلْك الأُمَّة، ويَكُنْ في عونهم".

صَمَتَ "طلعت باشا" ولم يُجِزْ جواباً إزاء هذا "التوبيخ والتأنيب" حسبَ تعبيره هو نفسه، وماذا عساهُ أن يقول إزاء هذه الكلمات المعبرة والحقائق الجلية، وقد كان قلب عبد الحميد يحترق كمدًّا وألمًا للمصائب التي ألَمَّت بالبلاد على يد هؤلاء الرجال، وحينما رأى الصمتَ المطبق

لـ "طلعت باشا" وعدم قدرته على الردّ نهضَ عبد الحميد على قدميه، وألقى عليه التحية وودّعه، ثم غادر القاعة، وعلى هذا انتهى آخر لقاء بينهم.

أما آخر لقاء لعبد الحميد مع "أنور باشا" فقد تمّ أثناء الزيارة الثالثة للإمبراطور الألماني "فيلهلم الثاني" الذي تربطه به صداقة شخصية، فحينما التقى الإمبراطور الألماني مع السلطان "رشاد" في قصر "دولما باهجه" سأل عن حال عبد الحميد وأحواله، ورجا أن ينقلوا له تحياته الخاصة، حتى إنه أظهر اهتمامًا كبيرًا بابن عبد الحميد الأمير "محمد عابد أفندي" الذي كان حاضرًا برفقة قائد الحرس "راسم بك" خلال هذه الزيارة التي جرت في الخامس عشر من أكتوبر/تشرين الأول (١٩١٧م) بقصر "دولما باهجه"، وفي اليوم نفسه شاهد عبد الحميد من حجراته المطلّة على البحر في قصر "بكلزبكي" ذهابَ الإمبراطور الألماني إلى مبنى السفارة الألمانية في "طراية" بالسفينة المخصصة له، فاسترجع بذهنه ذكريات الأيام الخوالي.

وكان السلطان "رشاد" قد كلف "أنور باشا" الذي كان حاضرًا خلال هذا اللقاء في قصر "دولما باهجه" بأن ينقلَ لأخيه عبد الحميد تحيته الشخصية وتحية الإمبراطور، وأن يسأله عما إذا كان يحتاج شيئًا.

وفي يوم التالي جاء "أنور باشا" إلى قصر "بكلزبكي" في الساعة الخامسة، فدخل الحديقة ومَرَّ من أمام الضباط والجنود الذين قدّموا له التحية الواجبة، ثم خلَعَ سيفه قبل أن يدخلَ إلى حضرة عبد الحميد إجلالًا وتقديرًا له، ثم دخلَ إلى حضرة عبد الحميد بطريقةٍ تنم عن أدبٍ جَمٍّ، ولم يتردّد عبد الحميد هو الآخر في أن يُظهر له أسلوبًا مهذبًا يُنمُّ عن القيم العثمانية التي تربّى عليها، وقد استقبلَ عبد الحميد زائره -الذي

يُمَثِّلُ كلاً من السلطان والإمبراطور - بحفاوةٍ بالغَةٍ وهو واقفٌ على قدميه، وبعد أن أبلغه "أنور باشا" بتحية السلطان رشاد والإمبراطور الألماني أخبره أن ابنه الأمير "محمد عابد أفندي" قد ترقى لرتبة ملازم، وفي المقابل طلب إليه عبد الحميد أن ينقل عميق شكره وامتنانه للإمبراطور الألماني لسؤاله عنه ولتذكُّره صداقتهما القديمة وأيضاً للمودة والصداقة التي يظهرها تجاه أخيه السلطان "رشاد"، كما حصل عبد الحميد من "أنور باشا" على معلومات مستفيضة عن تطورات الحرب العالمية، وامتِنَّ كثيراً لعبارات المدح والثناء التي أبدّاها في حقِّ ابنه الأمير "عبد الرحيم أفندي" الذي كان في ذلك الوقت قائداً للكتيبة الموجودة في مدينة "حلب الشهباء"، وكان سيتوجه إلى الجبهة العراقية، وبينما كان عبد الحميد يودع "أنور باشا" كلّفه بأن يحمل سلامه إلى ابنة أخيه "سليمان" الأميرة "ناجية"، وطلب منه أن يأتي له بصورة ابنتها الأميرة الصغيرة، ثم أخبره بأنه دائماً ما يذكر أخاه السلطان "رشاد" بالخير لدى "راسم بك"، ويُقدِّرُ المسؤولية الكبيرة التي تقع على عاتقه، وخدمته للوطن طوال تولّيه قيادة الجيش، كما أخبره بأنه لا يحتاج شيئاً في الوقت الحالي، وأنه يدعو لأن يحفظ الله الأمة والدولة ويكتب لها النصر في الحرب ثم أنهى لقاءه بـ "أنور باشا" قائلاً:

"سأكون سعيداً إذا قمتم بزيارتنا كلّما أتيتم إلى هذه النواحي للتفتيش".

وقد توجه "أنور باشا" في ذلك اليوم إلى جبهة "جناق قلعة".



نظرتَه إلى قضية الأرمن

والحقيقة أنه لم تكن تأتي أية أخبار سارة عن الأوضاع الداخلية في الولايات الشرقية في الشهور الأولى للحرب العالمية، وكان الجنود العثمانيون يخوضون معركة شرسة مع الروس على الجبهة القوقازية، ولكن المؤسف أن العصابات الأرمنية التي تعاونت مع الجيش الروسي قامت باستهداف المدنيين هناك؛ حيث كانت عصابات الأرمنية تُغير على القرى التي يعيش فيها المسلمون، وتُهاجم قوافل المهاجرين والنازحين الذين يحاولون الوصول إلى ولايات آمنة، وبينما كان قلب عبد الحميد يرتجف لهذه الأخبار المُفجعة التي تصل إلى القصر عاد بذاكرته إلى السنوات الماضية.

فمع أواخر القرن التاسع عشر كانت العصابات وحركات التمرد الأرمنية قد بدأت تظهر في الأناضول الشرقية نتيجة تحريض روسيا وإنجلترا؛ إذ طلبت الدول الغربية من الدولة العثمانية في مؤتمر "برلين" الذي عُقد عام (١٨٧٨م) عمل إصلاحات عاجلة لصالح الأرمن بهدف منع "روسيا" من حماية الأرمن الموجودين في المنطقة وتوجيههم كيفما تشاء، وكان عبد الحميد يُدرك تمامًا أن هناك قوى تتحرك بحذر وتبذل جهودًا كبيرة لفضل الأرمن عن الدولة العثمانية.

إلا أن المماطلة والمراوغة في تنفيذ تلك الإصلاحات التي كان واضحًا أنها ستخدم المصالح السياسية للدول الغربية، واتخاذ القبائل والعشائر الكردية في المنطقة لإجراءات احترازية لمنع أي تمرد أرمني محتمل؛ قد أدى إلى زيادة الأنشطة التخريبية والعمليات الإرهابية للأرمن؛ حيث أغار الأرمن في عام (١٨٨٦م) على القرى المسلمة في الشرق وارتكبوا

مذابح بشعةً في حقّ المسلمين هناك، كما ظهرت حركات تمرّد في مقاطعة "زيتون" التابعة لولاية "مرعش" عام (١٨٨٧م) وفي بلدة "ساسون" (*Sasun*) الواقعة في نواحي "سيرت" عام (١٨٩٤م) بدعم من المنظمات الثورية الأرمنية، وما يدعو للحزن والدهشة هو أن "خام برسوم بوياجيان" الذي رفع لواء العصيان في "ساسون" سيُصبح فيما بعدُ نائبًا للاتحاد والترقي في المجلس عن ولاية "خربوط" خلال عهد المشروطية الثانية.

وقد اتَّخَذَت حكومة "كامل باشا" كافّة الإجراءات الاحترازية اللازمة بعد انتشار هذا النوع من الحوادث الدموية الإرهابية في العديد من المدن في الأناضول بداية من عام (١٨٩٥م)، وقيام الأرمن المقيمين في إسطنبول برفع لواء العصيان في "كوم قابي" (*Kumkapi*) بغية التأثير على الرأي العام الغربي، وقد قام عبد الحميد -الذي كان على رأس الدولة حينها- بتكليف المشير "ذكي باشا" قائد الجيش الرابع المتمركز في مدينة "أرزينجان" (*Erzincan*) بالتصدي ومنع الإرهاب الأرمني في المنطقة، وإزاء هذه التجاوزات الأرمنية أمر أيضًا بتشكيل قوَّات غير نظامية من العشائر الكردية حملت اسم "الأفواج الحميدية"؛ حيث استضاف رؤساء العشائر الكردية في إسطنبول ومنحهم الرتب والعطايا وكلفهم بتشكيل هذه الأفواج للتصدي للأرمن، وعلى إثر قيام المشير "ذكي باشا" على رأس قوَّاته بتطهير المنطقة من العصابات الأرمنية وتصديّهِ للأرمن الذين ارتكبوا مذابح بحقّ المسلمين اعتبر الرأي العام الغربي عملية التصدي للإرهاب هذه مذبحةً للأرمن، وبدأت حملة شعواء ضدّ السلطان عبد الحميد في الصحف الأجنبية حيث وصفتُه بـ"السلطان الأحمر" واعتبرته "قاتلاً للأرمن"، فالمؤرِّخ الفرنسي الكونت "ألبرت فاندال" (*Albert Vandal*) عضو الأكاديمية الفرنسية -الذي كان يحلم بأن تُصبح المنطقة الشاسعة التي تضمّ الأناضول الشرقية دولةً مستقلةً للأرمن- هو أول

من أطلق لقب "السلطان الأحمر" على عبد الحميد خان، وبعد ذلك قام خصوم السلطان عبد الحميد وأعداؤه بترجمة هذا الوصف إلى التركية (Kızıl Sultan)، ولأسف فقد استغلوا هذا الوصف غير الصحيح بالمرّة والمليء بالافتراءات ليخدعوا به عقول الأجيال الشابة سنوات طوال.

والحقيقة أن هذا الموقف يُظهر لنا مدى عجز الدول الغربية التي كانت ترغب في فرض كامل سيطرتها الاقتصادية والعسكرية والسياسة على الشرق الأوسط أمام الحكمة والدبلوماسية والصلابة التي أظهرها السلطان عبد الحميد الثاني خلال سنوات حكمه، والحقيقة أن السلطان عبد الحميد الثاني الذي ترك بصمة مؤثرة في التاريخ يستحق أن نصفه بحق بأنه زعيم ورجل دولة من الطراز الأول، وصاحب حكمة ودهاء سياسي وإداري، كما كان سلطاناً على قدر كبير من الفكر والاجتهاد والعمل وحب الوطن.

إن عبد الحميد الذي حكم خلال واحدة من أحلك فترات التاريخ السياسي العالمي كان بمثابة طوق النجاة للدولة العثمانية التي كانت على وشك الانهيار، فقد تسلّم الدولة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، واستطاع بفضل دهائه وحكمته ومصارعته للذئاب إطالة عمرها ثلاثة عقود.

وقد كانوا يرمونه بافتراءات وأكاذيب حقيرة ومستنكرة كهذه من أجل تشويه صورته في نظر الناس والرأي العام، فكانت أهدافهم الحقيقية هي إسقاطه وعزله عن العرش في أسرع وقت والسيطرة على الأراضي الجنوبية العامرة بآبار النفط، ولا شك أن أكثر الجوانب قوة لدى عبد الحميد هي السياسة الخارجية، حتى إن براعته في السياسة الخارجية كانت تُزعج المسيحيين واليهود، إلى درجة أن الأمير "بسمارك" (Bismarck) مؤسس ألمانيا الحديثة والذي كان بينه وبين عبد الحميد مراسلات شخصية قد قال:

"إن تسعين بالمائة من الذكاء الدبلوماسي في العالم لعبد الحميد وخمسة في المائة لي، أما الخمسة في المائة المتبقية فهي لباقي السياسيين حول العالم".

كما أن الإمبراطور الألماني "فيلهلم الثاني" قد قال في إحدى المرات للإمبراطور النمساوي "فرانثيسكو جوزيف" (Francois Jeoseph):

"يجب علينا أن نتعلم فن الإدارة والحكم من عبد الحميد".

كما أن وزير الخارجية الإنجليزي السيد "إدوارد جراي" (Edward Grey) قد قال عندما علم بوفاة عبد الحميد:

"أحقاً مات عبد الحميد! إنها لخسارة كبيرة! لقد فقد العالم داهية من دهاة السياسة الخارجية، لقد كان خصمي ولكن وفاته أفقدت الدبلوماسية متعتها وحماسها".

ورغم هذا فإن عبد الحميد تعرض في حال حياته للظلم والغدر كأسلافه من السلاطين، بل لقد كان واحداً من أكثر السلاطين العثمانيين تعرضاً للظلم والغدر.

والحقيقة أنهم كانوا قد اختلقوا مثل هذه الافتراءات الدنيئة واتهموا بها عمه السلطان عبد العزيز، حيث كانوا يخدعون الناس بادعاءات من قبيل أن "السلطان عبد العزيز" يأكل كثيراً وبشراهة، ويمارس المصارعة، وللأسف فقد خلعه عن العرش بمثل هذه الافتراءات السخيفة وأخذوا يشوهون صورته، حتى إن الإنجليز والفرنسيين الذين كانوا يرغبون في تفتيت وحدة الأراضي العثمانية وتمزيقها واقتطاع البلقان منها حرصوا روسيا على الدولة العثمانية، وزجوا بها في كارثة "حرب ٩٣"، وكانت النتيجة هي خسارة الدولة العثمانية جزءاً من البلقان والأناضول الشرقية.

والحقيقة أن عبد الحميد كان يعامل الأقليات في الدولة بتسامح كبير؛ حيث كان الأرمن واليهود أصحاب الكلمة العليا في التجارة في الدولة العثمانية خلال عهده، ولكنه على الرغم من هذا لم ينبج ولم يسلم سواء من محاولة الأرمن اغتياله بقبلة، أو مشاركة الصهاينة اليهود في خلعه عن العرش، إلا أن الحقيقة الجلية هي أن الأرمن لم يحققوا ما كانوا يحلمون به من إقامة دولة مستقلة مثلما كانوا يظنون بعد خلع عبد الحميد، كما أنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على الهدوء والاستقرار والمكانة التي تمتعوا بها خلال عهده، بل على العكس فقد اضطرَّ أغلبهم إلى مغادرة الأراضي التي عاشوا فيها إثر الأحداث التي وقعت في الأناضول خلال سنوات الحرب العالمية الأولى.

وقد عبّر عبد الحميد عن رأيه تجاه المسألة الأرمنية في أيام حكمه قائلاً:

"إن القضية الأرمنية لا علاقة لها بالأرمن".

وأضاف أن ما يقوم به الأرمن من تمرد وإثارة للفلاقل يتم بتحريض من الدول الأوروبية، ومن ناحية أخرى كان يتخذ إجراءات احترازية وتدابير مشددة لمواجهة الأعمال الإرهابية التي يقوم بها الأرمن، كما كان يعرض وجهة نظره وموقفه تجاه تلك القضية على الرأي العام الغربي في الخارج؛ فكان من آنٍ لآخر يدعو سفراء ومراسلي الدول الأجنبية إلى قصر يلدز ويبيّن لهم وجهة نظره وموقف الدولة العثمانية إزاء المشكلة الأرمنية، وكان يسعى جاهداً لنشر وجهات النظر هذه في الصحف الأجنبية، كما كان يلتقي بشكل مستمرّ بسفراء الدول الأجنبية لدى عودته من مراسم صلاة الجمعة، ويقدم لهم الهدايا، ويشرح لهم بمهارة كبيرة وجهات نظره وآراءه.

كان الفرنسيون يحمون الأرمن الكاثوليك بينما يحمي الروس الأرمن الأرثوذكس، أما الأنجليز فيمدون كلا الطرفين بالسلاح والعتاد، وكانت تلك الدول تستخدّم الأرمن وتساعدهم، وكانت من ناحية أخرى تحتج بشدّة وتعارض ما تقوم به الدولة العثمانية من إجراءات لمواجهة الأعمال الإرهابية وهجمات الجماعات الأرمنية المسلحة.

كان عبد الحميد يتبع سياسة متوازنة وحكيمة بهدف إخماد تمردات الأرمن والحيلولة دون تحويلها إلى ألوية في يد الدول الخارجية، ودفع الأذى عن الشرفاء من الأرمن المخلصين للدولة العثمانية، وقد أمر بمصادرة الأراضي الشاسعة التي اشتراها الأرمن تمهيداً لإقامة دولة أرمنية مستقلة في "جوفورز أووا" (Çukurova)، ودفعت الدولة ثمن تلك الأراضي وأنشأت بها مزارع كبيرة تابعة لها، إلا أنه بعد تلك الأنشطة الذكية والحكيمة؛ أصبح عبد الحميد هدفاً مباشراً للأرمن، وعلى الرغم من هذا فإن عبد الحميد -كباقي السلاطين العثمانيين- لم تكن لديه أي نظرة سلبية تجاه الأرمن ألبتة؛ فقد عاشت الأمم المختلفة في تعايش وتماسك وترايط كبير تحت مظلة الدولة العثمانية، فلم يكن لأحد أن يتدخل في دين الآخرين أو معتقداتهم أو ثقافتهم.

كان عبد الحميد يرتبط بعلاقات وثيقة مع الأرمن منذ سنوات طفولته، وبقدر ما كان الأرمن يتعايشون مع باقي العناصر الأخرى التي تشكل الدولة العثمانية بقدر ما كانوا يرتبطون بعلاقات مع القصر العثماني.

وكانت الدولة والشعب العثماني يثقون في الأرمن ثقة كبيرة لأنهم خير من تبنا وحدة الدولة العثمانية، وعملوا على بقاء الدولة وخدموا حضارتها، وفي الحقيقة لم يكن للأرمن أية شكوى من الدولة العثمانية مطلقاً، إلا أن الروس حينما حققوا مآربهم في "بلغاريا" بعد "حرب ٩٣"

قاموا باحتواء الأرمن وجعلوهم ألعوبةً في أيديهم، ثم بدؤوا يستخدمونهم مع كلِّ فرصةٍ ليتمكّنوا من اقتطاع جزءٍ آخر من الدولة العثمانية، واستطاع الروس أن يُسيطروا على المعلمين والقساوسة الأرمن عن طريق الجواسيس الذين أرسلوهم إلى الأناضول، حيث قاموا بتأليب الأرمن المغرمين بأعمال بطولية، وغيروا قناعاتهم ووجهات نظرهم ضدَّ الدولة العثمانية التي كانت تضعف وتَهْنُ بمرور الوقت، وكان واضحاً جداً أنَّ الأرمن لن يتمكنوا من فعل شيءٍ بمفردهم فلم تكن لديهم أيَّةُ قوَّةٍ تُذكر، إلا أنَّ الفتنةَ الخارجيةَ وأعمال التحريض المستمرة كانت كافيةً لتأليب بعضهم لِيَتَمَرَّدَ على الدولة العثمانية.

فقد تنكَّرَ الإرهابيُّون الأرمن في زِيِّ أتراك، وراحوا يقتلون مواطنيهم من الأرمن الشرفاء ممَّن أحجَمَ عن مساندة الروس واختار أن يفي بالولاء للدولة العثمانية بإخلاص ويدعمها، وبعد ذلك يقولون لشعبهم الأرمني: "ألا ترون الأتراك وهم يقتلونكم ويرتكبون مذابح بحقِّ أبناء شعبكم، فهل ستظلُّون هكذا تمانعون في الانضمام إلينا!".

وعلى جانب آخر كانوا يقتحمون القرى التركية والكردية ويعذبون سكانها المسلمين بشتى أنواع العذاب، ويقتلون العديد منهم؛ حتى إنهم كانوا يقبضون على الرجال المسلمين ويبقرون بطونهم ويشقون أجسادهم بالسكين ثم يحشونها بالبارود ثم يشعلونها، فلا مفر إذاً بعد هذه المجازر من التصدي بشدة لتلك العصابات الأرمنية المتطرّفة التي تثير رياح العنف والإرهاب وتشيع الرعب والفوضى في شرق الأناضول وجنوبه الشرقي.

كان عبد الحميد يعتقد أنَّ الروس لا يؤيِّدون تأسيس دولةٍ أرمنيةٍ مستقلةٍ على الأراضي العثمانية، لأن روسيا تضمُّ تحت حكمها فريقاً كبيراً من الأرمن، ولو حدث أمرٌ كهذا من قيام دولةٍ مستقلةٍ للأرمن الأتراك

لکان هؤلاء سيطالبون بدورهم الأرمن في روسيا بالانضمام إلى دولتهم المستقلة فلم تكن غاية الروس إلا خداعهم وإعطائهم وعودًا زائفة، وإثارة المشكلات والمتاعب للدولة العثمانية، وعلى الرغم من كل ما قام به عبد الحميد من أجل وأد هذه الفتنة إلا أن الشعب الأرمني الذي انساق وراء الفتن والتحريض الخارجي قد وجّه بما قام به من إشاعة للفوضى والإرهاب ضربة قاصمة لمكانته وللقب "الملة المخلصة" الذي منحوه.

وقد تولى الأرمن العديد من المناصب في ظلال الدولة العثمانية؛ فخلال سنوات حكم السلطان عبد المجيد -والد عبد الحميد- أُسندت إدارة صناعة البارود إلى الأرمني "داديان أفندي" فكان محل ثقة كبيرة وقد حقق مكاسب كبيرة من هذا المنصب، حتى إن السلطان عبد المجيد اصطحب عبد الحميد وأخاه في صباهما إلى منزل "داديان أفندي"، وأقاموا هناك ليلتين، وفي تلك الفترة أيضًا كان الأرمني "أوغلوبان أفندي" أحد رجال السلطان عبد المجيد المقربين مسؤولاً عن إمداد دائرة الديوان بكافة أنواع الجواهر والملابس، كما تولى الأرمني "أغوب أفندي" إدارة "صك العملة" وقد استفاد من تلك الوظيفة وحقّق أرباحًا طائلة، وأيضًا كان "أرتين باشا" يدير الخزينة الخاصة، كما كان هو وصديقه "نوباز باشا" من الرجال الفاسدين السيئين.

وكانت عائلة "جوميوشجردانلي" (Gümüüşgerdanlı) الأرمنية مسؤولة عن تصنيع وإنتاج ما تحتاجه دائرة الحريم من ملابس وأزياء، وكانوا (أفراد هذه العائلة أو الأرمن عمومًا) يُعيّنون في الغالب كأغوات للحريم، كما كان لعائلة "باليان" الأرمنية دورًا كبيرًا في عمارة وهندسة البناء في تركيا على مدار عصور؛ حيث برعت في إنشاء العديد من القصور والمساجد في إسطنبول، وكان هناك العديد من البحارة من الأرمن،

كما أن العاملين على السفن وفي منازل الوزراء كان يتم اختيارهم من الأرمن نظراً للثقة فيهم؛ لذا كان الأرمن محل ثقة الشعب العثماني؛ فقد نشؤوا على التربية العثمانية فكان الوزراء وأغوات الحريم الأثرياء يعهدون إليهم بتربية أطفالهم، كل هذا يجعلنا نتساءل: ماذا حدث؟ وما الذي جعلهم ينقلبون على الدولة العثمانية؟

وظهر أحد القساوسة بين ظهراني الشعب الأرمني يحرضهم قائلاً:

"إن هذا الأمر لا يُحتمل ولا يصح، لا بد لنا أن نفتتح مدرسة أرمنيّة في أوروبا تساعد في نهضتنا وتقدمنا".

وأعدّ مذكرةً ودراسةً لهذا الأمر، وقد حصل هذا القسيس على دعم بعض الباشوات وكبار الأغنياء الأرمن، ومن خلال الأموال التي جمعها افتتح مدرسةً في جزيرة "سانتاروز" بمدينة البندقية في إيطاليا يُدرّس فيها كافة أنواع العلوم من السياسة إلى التجارة ومن تدريس اللغات إلى الفن، وقد عرف عبد الحميد بشأن هذا القس وشاهد صوراً لتلك المدرسة التي افتتحها، وبفضل فكرة هذا القس تخرج من هذه المدرسة رجال دولة من الطراز الأول، وكان من بين الأرمن الذين تخرجوا في هذه المدرسة لاحقاً من تبوؤوا مناصب عدّة في وزارة الخارجية العثمانية، وبدؤوا يستحوذون على المناصب الخاصة بالمسلمين، حتى إنهم كانوا مسؤولين عن إدارة "الخزانة الخاصة" التي تُنظّم عائدات ونفقات الأراضي والأملاك الخاصة بالسلطان، وقد وصل بعض منهم مثل "أرتين باشا" و"بورتكال سيكونار" (Portakal Sikonar) إلى مناصب رؤساء لجان وجمعيات، واعتنق بعض الأرمن في تلك الفترة العقيدة الكاثوليكية، فخلال حكم السلطان عبد المجيد قام ما يقرب من أحد عشر ألف أرمني بإثارة الشعب وإعمال الفوضى في المقبرة الواقعة على أطراف منطقة

"بَنْجَالْتِي (Pangaltı)" في "بَكْ أَوْغْلُو (Beyoğlu)" في إسطنبول، ففرقهم الجيش بالقوة، وبعد ذلك نزح جزء من الأرمن من الأناضول وإسطنبول وهاجروا إلى أمريكا، وكان معظمهم من المسيحيين البروتستانت، وعاش العديد منهم هناك بضع سنوات ثم عادوا مرة أخرى كمدرسين ومعلمين يضعون القبعات الأمريكية على رؤوسهم، وبدأ هؤلاء في إقامة المدارس التبشيرية الأمريكية في كل مكان، وحينما أراد عبد الحميد أن يفتح حواراً مع أمريكا لِلْحَدِّ من هذه المدارس التنصيرية ثاروا ضده، وقامت قيامتهم وعادوا ذلك الرجل الذي قام بعمله على أكمل وجه للمحافظة على وحدة وكيان الدولة العثمانية.

وعلى الرغم من الكرم وحُسن المعاملة والامتيازات التي حظي بها الأرمن في ظل حكم الدولة العثمانية وخلال فترة حكم عبد الحميد إلا أن بعض الأثرياء الأرمن قد تحولوا إلى بياذق في يد جماعات الأرمن المتطرفة التي ظهرت وسط المجتمع الأرمني وكانت تهدف إلى القضاء على الدولة العثمانية من خلال إشاعة الفوضى والخراب والاستقلال عنها وإقامة حكم ذاتي؛ حيث قدّم هؤلاء الأثرياء كافة أشكال الدعم لحركات التمرد.

كما أن بعض المدارس الأرمنية التي كان يُشرف عليها المعلمون الغربيون -وغالبيتهم من الفرنسيين إلى جانب المعلمين الأرمن- قد تحولت إلى منصات لتحريض الشباب وحثهم على التحرر من نير العثمانيين والتمرد عليهم، وكان من بين من يُدرسون في تلك المدارس الفرنسي "بيير كيار (Piyer Kiyar)" الذي كان يُكنّى عداءً شديداً للسلطان عبد الحميد ويسبّه بأفظع الشتائم والسباب.

كان الفرنسي "بيير قيار" الذي يعمل لِصَالِحِ الأرمنِ قد جاءَ إلى إسطنبول عام (١٨٩٣م)، وعملَ لمدّة ثلاثِ سنواتٍ مُدَرِّسًا للأدبِ والفلسفة في المدارسِ الأرمنية، وكان يحرّض الطلبة الأرمن ضدّ الدولة العثمانية والمجتمع المسلم، ويدرّسُ لهم دروسًا بعضُها يحملُ عنوانَ "السعي والكفاح من أجلِ التحرُّرِ من نيرِ الأتراك"، وقد ألقت السلطات العثمانية القبضَ عليه لقيامه بأنشطةٍ مخالفةٍ للقانون ولكنَّ أُطلقَ سراحه بعدَ تدخُّلِ السفارةِ الفرنسيّة، وأُجبرَ على مغادرةِ إسطنبول وتمَّ ترحيله لِبلاده، إلّا أنه لم يتوقّف عن أنشطتهِ المعاديةِ للدولةِ العثمانيةِ عمومًا وللسلطانِ عبد الحميد خصوصًا، حتّى بعد عودته إلى فرنسا، بل إنه شاركَ في الحربِ التي نشَبَتْ بين العثمانيّين واليونانيّين عام (١٨٩٧م) والتحقَ كمتطوِّعٍ في الجيشِ اليوناني.



"عبد الحميد الثاني" وحبه للنبي ﷺ

امسح بها عينك المخصبة بالدماء؛ لتجد البرء والشفاء

فلا شك أنها قدم سيّد الكونين، وهي رمز الطهر والنقاء

تُوضّح تلك الأبيات الشعرية السالفة مدى الحب والاهتمام الذي أبداه السلاطين العثمانيون وخاصة عبد الحميد للمُتعلّقات الخاصة بالنبي ﷺ ومنها آثار قدميه الشريفتين.

والحقيقة أنّ عبد الحميد كان يتمنى أن يُطْفئ نيران شوقه بزيارة مقام النبي ﷺ وأن يسوّج له بمكنون صدره، غير أنّه لم يكن لهذه الزيارة أن تتحقّق بسبب المشاكل الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة خلال عهده، أما الآن فهو محبوس قيد الإقامة الجبرية في قصر "بكلزبكي"، ولا يُسمح له حتى بأن يخطو خطوة واحدة خارج هذا القصر.

وعلى الرغم من أنّ عبد الحميد لم يسافر إلى الحجاز؛ إلا أنه بذل كلّ ما في وسعه من أجل تيسير طرق السفر إلى الأراضي المقدسة وتسخير الجنود لتأمين تلك الطرق والأراضي وتوفير المتطلّبات اللازمة لراحة وخدمة الحجاج، كما أنه أدخل التلغراف للمرة الأولى إلى المدينة المنورة عام (١٩٠٢م)، علاوة على أنه أمر بتشيد العديد من الأبنية الخدمية في تلك المدن المقدسة كالأبنية الحكومية، والحاميات العسكرية، ومعسكرات الجنود وأقسام الشرطة ومحطات الحافلات ودور الضيافة ومكاتب البريد والمشافي والتكايا، كما اهتم بتنمية تلك المدن المقدسة اجتماعيًا وإداريًا وثقافيًا، وقد أتمت الدولة العثمانية في عهده مشروع "سكك حديد الحجاز" الذي يُعتبَر واحدًا من أهم المشروعات

التي أقيمت في القرن الماضي، والحقيقة أن الضغوط الخارجية كانت تتزايد على الدولة العثمانية مع استمرار العمل في هذا المشروع، ولكن المشروع اكتمل على الرغم من كل هذه الضغوط، وبدأت رحلات القطار المنتظمة بين إسطنبول والمدينة المنورة تنطلق بداية من عام (١٩٠٨م).

كانت الدول الغربية تطلق على الدولة العثمانية لقب "الرجل المريض" نظراً لحالة الضعف والانحيار التي ألمت بها، وتنظر لها نظرة استخفاف واستحقار، ولكن عبد الحميد كان على الرغم من كل شيء يتمسك بأمله ولم يتخل عن طموحاته، وكان يؤمن بأن الدولة العثمانية يمكنها أن تنهض ثانية عن طريق تعزيز مشاريع التعليم والاتصالات والمواصلات من ناحية، والاستفادة من التنافس السياسي والعسكري والاقتصادي بين الدول الأوروبية من ناحية أخرى، كما كان يهدف إلى تعزيز نظام الحكم المركزي بفضل خطوط التلغراف التي مُدَّت بمحاذاة خطوط السكك الحديد، حيث يَسَّرَتْ خطوط التلغراف الاتصال بين الولايات وبين إسطنبول.

والحقيقة أن الحرب العالمية الأولى كانت لها نتائج سلبية على خط سكك حديد الحجاز؛ فلم يستمر تشغيلها سوى ثماني سنوات فقط حتى عام (١٩١٦م)، ثم توقفت نهائياً وكان عبد الحميد قد عبّر عن أهميتها قائلاً:

"إنها حلُمي القديم، وإن هذه الشبكة لن تكون مفيدة لدولتنا من الناحية الاقتصادية فحسب، بل ستكون في الوقت نفسه ذات أهمية إستراتيجية من الناحية العسكرية حيث ستعزّز من قوتنا في تلك المنطقة".

ولكن بغض النظر عن كل شيء كان هذا المشروع يُعدُّ دليلاً واضحاً على اهتمام الدولة العثمانية بحركة الوحدة الإسلامية وربط المسلمين وتوحيد قوتهم، ولقد مثَّل هذا المشروع -الذي يُعدُّ الأول من نوعه- رباطاً معنوياً بين المسلمين، كما اكتسب عبد الحميد مكانةً كبيرةً جداً بسبب تبنيه هذا المشروع؛ إذ أصبح رمزاً للوحدة الإسلامية، وانهالت عليه الدعوات تذكر اسمه بكل خير في المناطق الشاسعة التي يقطنها المسلمون من الهند إلى تركستان ومن الصين إلى روسيا ومن اليمن إلى جنوب إفريقيا، وازداد قدره لدى مسلمي العالم، حتى إن المسلمين الذين يعيشون في المستعمرات الفرنسية والإنجليزية أرسلوا البرقيات والأشعار إلى الخليفة العثماني عبد الحميد يُعَبِّرون له عن عميق الشكر والامتنان وأسمى مشاعر الولد والعرفان لإقامته هذا المشروع الضخم.

وعلى عكس خطوط السكك الحديدية العثمانية التي أنشئت قبل ذلك برأسمالٍ أجنبي فإن خط الحجاز قد تمَّ تمويله عن طريق جمع الهبات والتبرعات من المسلمين، سواء من داخل حدود الدولة العثمانية أو من خارجها، والحقيقة أن الانتهاء من هذا العمل بالميزانية التي خصصتها الحكومة كان قد يستغرق سنوات طويلة جداً، لذا كانت هناك حاجة ماسة للأموال من أجل إنجاز وتحقيق هذا المشروع بأسرع وقت، إلا أن عبد الحميد لم يكن متحمساً لفكرة الاقتراض الخارجي، ولم يرض بذلك رغم عرض هذا الأمر عليه، بل مؤل المشروع كاملاً بدءاً من التجهيز وحتى التنفيذ برأسمال محلي خالص.

والحقيقة أن حملات جمع التبرعات كانت واحدة من أكبر مصادر تمويل هذا المشروع الذي أدهش الإنجليز والفرنسيين؛ أي إنه لم يكن منحة ولا هبة من الألمان كما يدَّعي البعض، وكان على رأس المتبرعين

السلطانُ عبد الحميد؛ حيث تبرّع من ماله الخاص بمبلغ خمسين ألف ليرة في الحملة التي نُظِّمَتْ في مايو/أيار عام (١٩٠٠م)، وبتلك الطريقة شجّع المسلمين من رعايا الدولة أو ممن يعيشون خارجها على المساهمة في حملة التبرّعات من أجل إتمام "سكك حديد الحجاز"، وقد لبّى دعوة الخليفة هذه كلُّ فقراء وأغنياء المسلمين في كافة أنحاء العالم من إيران إلى الجزائر ومن السودان إلى الهند ومن مصر إلى المغرب وفي مقدّمهم الشعبُ العثماني بكلِّ طوائفه من باشواتٍ وتجارٍ وموظّفين وحرفيّين وبائعين، حيث كان الباشوات والموظّفون يُساهمون بكلِّ حماسة في التبرّع لهذا المشروع بالاستقطاعات الدورية التي كانت تؤخّذ من رواتبهم، وبهذا أظهر الشعب المسلم مدى كرمه حيث جُمِعَتْ أموالٌ ضخمةٌ ولا بأس بها، كما استخدمت من أجل المشروع في تلك السنوات أيضًا الأموال التي جُمِعَتْ من أثمانِ جلود الأضاحي، وعلى هذا تمّ تمويل المشروع عن طريق تبرّعات المسلمين في كافة أنحاء العالم على عكس باقي الخطوط الأخرى التي أنشئت على الأراضي العثمانية بتمويلٍ ورأسمالٍ أجنبيّ.

وكانت إنجلترا تتخوّف من أن نفوذ الدولة العثمانية في الشرق الأوسط سيزداد بإنشاء هذا المشروع؛ لذا حاولت منع حملات التبرع التي تبناها السلطان، والحقيقة أن إنجلترا كانت ترى أن الدولة العثمانية ليست لديها القدرة التي تمكنها من إنشاء هذا المشروع، فقامت بنشر إعلاناتٍ ومشوراتٍ في الصحف الصادرة في مصر والهند تحث المسلمين على عدم التبرع بشيء وألا يلقوا بأموالهم على الأرض في مثل هذا المشروع عديم الفائدة، وأن الأتراك يُخطّطون للعبة جديدة من أجل انتزاع أموال المسلمين بحجج الإنفاق على مشاريع خيريّة، ويُريدون أن يخدعوا المسلمين بهذا الأمر.

وقد أتم المهندسون العثمانيون وعمّالهم إنشاء هذا الخط -الذي يمتد مسافة ألف وأربعمائة وخمسة وستين كيلومتراً- بعد مجهودٍ خرافيٍّ ووسط ظروفٍ بيئيةٍ وطبيعيةٍ صعبةٍ للغاية، وكانت محطة "المدينة المنورة" هي آخر محطة يتم بناؤها في هذا المشروع العظيم، وقد افتُتح خطُ سكك حديد الحجاز رسمياً في الحادي من سبتمبر/أيلول (١٩٠٨م) الموافق للذكرى الثالثة والثلاثين لجلوس عبد الحميد على العرش بمراسم احتفالٍ مهيبَةٍ.

وقد أنجز هذا المشروع بعد ثماني سنوات من البدء فيه عام (١٩٠٠م)؛ حيث بُدِلَتْ جهودُ جَبّارةٍ ومضنيةٌ حتى يتمّ الانتهاء منه في ذلك التاريخ، وكان عبد الحميد قد تعهّد بأنه سيسافر إلى الحجاز لرؤية هذا الخطّ على الطبيعة حينما يتمّ الانتهاء منه، إلا أنه لم يتمكن من مغادرة إسطنبول بسبب الظروف الدقيقة التي تمرُّ بها الدولة في ذلك الوقت، وبسبب الأحداث التي تطوّرت تبعاً.

إن انطلاق عربات القطار من محطة "حيدر باشا" بإسطنبول في أحد أيام الخريف متّجهةً نحو الحجاز أرض العبادة والشوق والحبّ كان إيذاناً ببداية الرحلة المباركة المنتظرة منذ سنوات، إن هذا المشروع العظيم -الذي ظهر على أرض الواقع بعد مجهودٍ جبّارٍ حتى يُسهّل حركة النقل والسفر إلى الأراضي المقدسة- كان يرمز في الحقيقة إلى استعادة الدولة العثمانية لمجدها القديم، حيث كان الحجيج والتجار المسافرون إلى الحجاز يقطعون مسافاتٍ طويلة على ظهور الجمال تمتد لشهور عبر الصحراء ويكونون بذلك عرضةً لقطع الطرق ونفاد المؤن والأمراض الوبائية.

ولم تُنسَ ألبتة العناصر التي تعبُر عن احترام الدولة العلية وتقديرها لسيدنا رسول الله ﷺ ولتلك البلاد المقدسة في مشروع "سكك حديد الحجاز" كما كانت عاداتها في كل عمل قامت به، فعلى سبيل المثال أنشئت محطة المدينة المنورة في موقع معيّن بحيث ينزل الركاب من القطار فتكون وجوههم مولّاة شطر المسجد الحرام (القبلة)، وفي الوقت نفسه تكون أمامهم روضة النبي ﷺ، كما أنه نظراً لظروف وإمكانات تلك الفترة كانت القطارات والجارات البخارية تسير مُحدثةً ضوضاء عالية للغاية بسبب القضبان الحديدية، ولهذا السبب أمر عبد الحميد بالتفكير في كيفية تخفيف هذه الضوضاء لدى دخول القطار إلى مدينة رسول الله ﷺ، وعلى ضوء هذه التعليمات أنشئ مبنى محطة المدينة المنورة -الذي يُعتبر صرحاً معمارياً تاريخياً عظيماً- على أطراف المدينة، كما أنه حين اقترب الخط من المدينة المنورة بنحو خمسة أو ستة كيلومترات رُكبت قضبان حديدية خاصة، وصدرت تعليمات بتسيير القطارات في تلك المنطقة ببطءٍ قدر الإمكان.

ولكن أتى لعبد الحميد أن يعرف أن خط "سكك حديد الحجاز" الذي أنجز بعد جهودٍ جبارة سيتوقف عن العمل! وأن دورهُ سيتبدد وأهميته ستضيع بسبب الأحداث المؤسفة! وأنه سيصبح ضحية للإهمال والنسيان في السنوات التالية؛ حيث كانت الأخبار تردّ خلال اشتداد المعارك في الحرب العالمية الأولى بأن خط "سكك حديد الحجاز" الذي يُعتبر الشريان الروحي الذي يربط إسطنبول بديار المصطفى ﷺ قد تعرّض للتخريب والتدمير على يد بعض الأفراد الذين خدعهم الإنجليز، وأن القطارات والعربات والمسافرين يتعرّضون للنهب والاعتداء، وأن القضبان الحديدية قد تعرّضت للإتلاف والتدمير.

وعلى الرغم من أنه لم يتخیّل أن يحدث مثل هذا الأمر فقد كانت لديه طموحات وأحلام وخطط - إذا لم يُعزل من العرش - لمدّ خطّ الحجاز من المدينة إلى اليمن؛ حتى إنه قد أمر بإعداد التصاميم والدراسات الجدّیّة لهذا الخطّ، وعلى الرغم من معارضة بعض الحكام المحليين الذين كانوا يتخوفون من فقد قوّتهم ومكانتهم في المنطقة؛ كان عبد الحمید يخطّط لمدّ خطّ "سكك حديد الحجاز" حتى مكة، ولكن للأسف لم يتحقّق حلمه، ولم تكن هناك إمكانيّة لتنفيذ تلك المشروعات.



أهميّة خطوط السكة الحديدية

كان عبد الحميد يهدف إلى ربط كافّة أرجاء الدولة بخطوط السكة الحديدية، وقد نجح بالفعل في إتمام وإنجاز الخطوط الرئيسة المهمة خلال عهده، وبفضل تلك الخطوط ازدادت الأنشطة التجارية علاوة على ازدهار حركة الاتصالات والمواصلات، حيث كانت المحاصيل المتنوعة التي تُزرع في المناطق الداخلية للأناضول تُنقل بشكل أرخص وأيسر وأسرع إلى المدن الساحلية التي تشهد رواجاً في حركة التجارة مثل إسطنبول وإزمير، وقد أنشئت خلال عهده خطوط السكك الحديدية التي تصل بين (إسطنبول-سالونيك)؛ و(مانستر-سالونيك)؛ و(إسطنبول-أنقره-الشام)؛ و(أسكي شهير-كوتاهيا-آضنه-بغداد)؛ و(الشام-بيروت)؛ و(القدس-يافا)... ولم تكن العديد من الدول آنذاك تمتلك شبكة سكك حديدية كتلك التي تمتلكها الدولة العثمانية.

والحقيقة أن الخطط الدفاعية العسكرية التي وضعها عبد الحميد في حال تعرّض الدولة العثمانية للهجوم كانت مبنية في الأساس على الاستفادة من السكك الحديدية؛ حيث إنّ شبكة السكك الحديدية أُسست بين كافّة أرجاء الدولة من أجل استخدامها أيضاً في الأغراض العسكرية لما لها من أهمية إستراتيجية في نقل الجنود والعتاد العسكري، حتى إن

الاتحاديین أقروا بأن عبد الحمید كان مُحَقِّقًا في الأهمیة الإستراتيجية التي أولاها لِخُطوطِ السكك الحديدیة أكثر من الأسطول؛ فقد كانوا یعونَ جَیِّدًا هذا الأمر حتى وإن لم یذكروا اسمه، حتى إن بعضهم كان یوصي بضرورة افتتاح خطوطٍ جدیدة من سوریه إلى مصر ومن الحجاز إلى الیمن؛ من أجل وحدة وسلامة الأراضي العثمانیة، ولكن عدد هؤلاء كان محدودًا للغاية، كما أن من أمكنهم فَهْم وجهة نظر عبد الحمید من الاتحاديین قلیلون جدًا.

وفي حين كان عبد الحمید یرى أن مستقبل الدولة في نشر شبكة خطوطِ سككٍ حديدیة لم یكن أبدًا عدوًّا للأسطول البحري؛ فقد كانت لديه رغبةٌ حقیقیة في أن تتملِّك الدولة أسطولًا قويًّا وسفنًا حديثةً، إلا أن تكلفة شراء سفینةٍ حربیةٍ واحدةٍ آنذاك كانت تكفي لِمَدِّ بضع مئات من الكیلومترات من السكك الحديدیة؛ فقد تبَّنى سياسةً مغایرةً لتلك التي تبناها عمه تجاه الأسطول فبدلًا من صناعة سفنٍ كبيرةٍ تخرجُ من الخدمة بعدما بین خمس عشرة إلى عشرين سنة علاوةً على مصاريف صیانتها الباهظة؛ أمر أن یرسَى في الخلیج أسطولُ السفن القديمة الذي فَقَدَ قدرتهُ العسکریة بعد "حرب ٩٣" وأصبحَ غیر قادرٍ على إجراء المناورات، وتكَلَّفَ صیانتُهُ مصاريفَ باهظة، وبهذا خدعَ الإنجلیز والفرنسیین بأنه لیست لديه نِیَّة في منافستهم في البحر المتوسط، وقد نجحَ هذا الأمر إلى حدٍّ ما في إبعاد الإنجلیز والفرنسیین عن التصادم مع الدولة العثمانیة، ومن ناحيةٍ أخرى كان رَبابنةُ أغلبِ السفن العثمانیة العملاقة التي انضمت للحرب من الإنجلیز؛ أي إنَّ الأسطولَ العثمانيَّ كان تحت يد الإنجلیز، وكان تغیرهم سیخلِّقُ مشكلاتٍ بین الدولتین، وهذه إحدى المشاكل التي كانت تُواجهُ الأسطولَ، وقد عملَ عبد الحمید على تعزيزِ قوَّةِ الأسطولِ العثمانيِّ عن طریقِ شراءِ الطرادات الحديثة ("الحمیدیة" و"المجیدیة")

وغيرها) المُصنَّعة في أوروبا بدلاً من هذا النوع من السفن الضخمة القديمة، وربما كان يرغب في بناء أسطول صغير من الناحية العددية ولكنه ذا كفاءة قتالية عالية في المناورات وإطلاق الصواريخ، وربما لو أمكن تدعيم أسطول بهذه المواصفات بكادر من الضباط المدربين في المدارس البحرية الحديثة، وجيش برّي عالي الكفاءة القتالية لَعَادَ هذا الأمر بالنفع على الدولة العثمانية، وإلا فإن عبد الحميد لم يكن عدواً للأسطول، ولم يسحبه إلى خليج إسطنبول لمشاركته وتدخّله في خلع عمّه عبد العزيز كما يدعي البعض.

وقد أبدى عبد الحميد اهتماماً كبيراً بتجهيز الجيش وتحديثه؛ فهو أول من أدخل الغواصة إلى الأسطول العثماني، وعلى الرغم من أنه يوجد حتى الآن من يُنكرون خدمات عبد الحميد في هذا الشأن ويصفونه بعدو الأسطول، فقد تم الانتهاء من صناعة الغواصة التي تحمل اسمه "حميدية" في ترسانة "طاش قيزاق" (*Taşkızak*) عام (١٨٨٧م)، أما الغواصة المجيدية التي نزلت إلى المياه عام (١٨٨٨م) وأجرت تجارب ناجحة لإطلاق طوربيدات وعمل مراوغات فقد اعتُبرت أوّل غوّاصة بحرية في العالم قادرة على إطلاق طوربيدات، علاوة على أن عبد الحميد قد دفع اثنين وعشرين ألف جنيه استرليني من ماله الخاص من أجل هاتين الغواصتين؛ ولكن الإصلاحات والتحديثات التي بدأها خلال عهده لم تستمر على نفس المنوال والمستوى من بعده بعد أن سيطر الاتحاديون على الحكم.

وعلى هذا عمل عبد الحميد على تحديث الأسطول، ومن ناحية أخرى أعطى أولويّة لإقامة خطوط السكك الحديدية بأقلّ الإمكانيات الماديّة المتاحة من أجل ضمان مستقبل الدولة وإطالة عمرها، والواقع أن مشروع ربط كافّة أرجاء البلاد بخطوط السكك الحديدية الذي تردّد

خلال السنوات الأولى لِعَصْرِ الجُمهُورِيَةِ كان في الأصل من تخطيطِ عبد الحميد نفسه، وهو أول من وضع اللبنة الرئيسة لهذا المشروع؛ فقد مهدت أفكاره الطريق لتحديث الدولة وإنقاذها من التخلف، حتى إن كادر عمال السكك الحديدية الذين اكتسبوا خبرة كبيرة من العمل في المشاريع التي أقيمت خلال عهده هم من سينجزون لاحقاً بناء خطوط جديدة في عهد الجمهورية.



سياسة السلطان "عبد الحميد الثاني" النفطية

كانت لمشروعات خطوط السكك الحديدية التي نفذها السلطان "عبد الحميد" علاقة وثيقة بالسياسة التي كان يتبناها في حربه في مجالي الطاقة والنفط، وكان افتقار أراضي الدولة العثمانية للموارد الكافية من معدني الحديد والفحم - اللذين كانا يُعتبران أهم المواد الخام للثورة الصناعية في تلك الحقبة - يُعدُّ من أبرز الأسباب الرئيسة التي أدت إلى ضَعْف الدولة العثمانية وافتقارها إلى القوة في مواجهة القوى الأوروبية، واعتباراً من عام (١٨٦٠م) أصبح النفط قوةً محرِّكةً للاقتصاد على مستوى العالم، وكان جزءٌ كبيرٌ من احتياطي النفط المعروف في تلك السنوات موجوداً في الأراضي العثمانية، ولهذا السبب بدأ الصراع بين العثمانيين والدول الغربية على النفط اعتباراً من ستينات القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت الدولة العثمانية ترغب في النهوض على قدميها بفضل حقول النفط المكتشفة في أراضيها، أما الدول الأوروبية فكانت تتفق على تقسيم النفط العثماني فيما بينها كمًّا، وكان أكبر المخاوف التي تُراوِد ذهن السلطان "عبد الحميد" هو اتفاق إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا على تقسيم أراضي الدولة العثمانية، ولم يكن أمامه سوى استغلال التنافس بين هذه الدول من أجل وإد أيِّ اتفاقٍ محتملٍ بينها، وتنفيذاً لهذا المخطط أسند امتياز مشروع خط سكك حديد بغداد إلى ألمانيا.

وكرّده فعل على هذه الخطوة اجتمعت الدول الثلاث الأخرى، وعقدت اتفاقاً سرّياً فيما بينها لتقسيم أراضي الدولة العثمانية، وكما أنّ أحد الأسباب الرئيسية لدخول الثلاثي بريطانيا وفرنسا وروسيا في الحرب العالمية ضد التحالف (العثماني-الألماني-النمساوي-المجري) هو طمع تلك الدول في تقسيم البترول الموجود على الأراضي العثمانية، وتظهر هذه الحقيقة بشكل أوضح عند النظر إلى مشروع خط سكك حديد بغداد والحجاز، وفي الواقع أنه لولا أنشطة روسيا وبريطانيا الاعتراضية، لكان خط سكك حديد بغداد سيمتد بين مدن "أنقرة-قيصري-ديار بكر-الموصل" بدلاً من "أنقرة-قونيا-أضنة-حلب-الموصل-بغداد"، وكانت بعض الخطوط الإضافية ستلحق بهذا الخط لتربط الأناضول بمنطقة "القوقاز" عبر مدينتي "أرضروم" و"صاري قميش" من جهة، وبأفغانستان والهند عبر إيران من جهة أخرى، كما أن مخطط مشروع خط السكك الحديدية الذي يمتد من "أنقرة" إلى "أرضروم" في الشرق جهّزه السلطان وحفظه في غرفته بقصر "يلدیز" بإسطنبول، إلا أنه لم يُوفّق إلى تنفيذه، والحقيقة أن تنفيذ مثل هذه المشروعات العملاقة مع مطلع القرن العشرين كان سيحدث تغييرات جذريّة على التوازنات السياسية والاقتصادية والعسكرية في المنطقة برمتها، وكانت روسيا وإنجلترا تحاولان بشتى السبل الحيلولة دون تنفيذ هذه المشروعات العملاقة التي كان من شأنها منح قبلة الحياة للدولة العثمانية وإعادة مجدها من جديد.

والحقيقة أن السياسات التي تبناها السلطان عبد الحميد قد أحدثت تغييرات في توازنات القوى في الشرق الأوسط الذي يزخر بحقول البترول، وقامت بدور فعال في حرب الطاقة، مما جعل عبد الحميد في نظر الدول الكبرى الفريسة الكبرى التي يُطارَدونها ويسعون لاقتناصها، حيث بدأ خط سكك حديد بغداد -الذي يمرّ عبر حقول الموصل النفطية- يلعب

دورًا محوريًا في حرب النفط التي كانت مُندَلِعةً في منطقةٍ جغرافيةٍ واسعةٍ شملت أراضي إيران والعراق وسورية وأذربيجان، كما أنَّ العديدَ من بعثات التنقيب عن الآثار القادمة من إنجلترا وألمانيا بدأت تتوافد على الموصل وما حولها بحجة التنقيب عن الآثار التاريخية، إلا أن هدفها الرئيس كان البحث عن النفط، وفي نفس الوقت كان السلطان عبد الحميد يكلّف بعض رجاله بمتابعة أنشطة هذه البعثات التي كانت تهرع إلى مدينة الموصل التي تزخر بالبتروول وتُستَمُّ بها رائحة النفط، والحقيقة أن هذا السبب كان واحدًا من بين الأسباب التي جعلت إمبراطور ألمانيا يعقد صداقةً مع السلطان العثماني.

وقد أرسل عبد الحميد أحد مساعديه ويدعى "صلاح الدين بك" إلى مدينة "الموصل" باسم مستعار، وطلب منه متابعة أعمال التنقيب عن كسب؛ وذلك حينما شعر أن الوفود الغربية المتوجهة إلى الموصل إنما أتت للبحث عن النفط، وبالفعل فقد برّهنت التقارير التي أرسلها هذا الرجل إلى إسطنبول كيف أن السلطان كان مُحِقًّا بشأن المخاوف التي انتابته حول المطامع الغربية في ثروات الدولة العثمانية؛ حيث كانت فرق البحث الألمانية والإنجليزية تحفر آبارًا في المناطق التي أعلنتها مناطق تنقيب عن الآثار، وبدأت تُنقَّب عن النفط.

وفي السنوات التي بدأ النفط يحلّ سريعًا محلّ الفحم كمصدر للطاقة؛ فقد أصبح هذا الأمر يُشكّل واحدًا من الأسباب الرئيسة لاندلاع الحرب العالمية الأولى، وكان السلطان عبد الحميد يستغل ورقة السكك الحديدية جيدًا في مواجهة الإنجليز، حيث إنَّ خطَّ السكك الحديدية الممتد من برلين قد وصل عام (١٨٩٦م) حتى "قُونيه" وسط الأناضول، وكان يتقدّم بشكلٍ تدريجيٍّ، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى بدأت الأعمال

الخاصة بالجزء الذي سيمتد إلى الحجاز برأس مالٍ محليٍّ، والحقيقة أن كل هذه المساعي ما هي إلا جزء من المشروعات التي تهدف لإحياء الدولة العثمانية وتعزيز قوتها، وقد أعلن الإنجليز أنهم سيعتبرون مد خط السكك الحديدية من بغداد إلى البصرة مسوغاً لإعلان الحرب، مما يفصح عن القلق الكبير الذي كانوا يشعرون به، كما كان هناك تنافس شديد بين بريطانيا وألمانيا من أجل استمالة صربيا التي تُعتبر حلقةً ضعيفةً واقعة على هذا الخط الحيوي الممتد من أوروبا حتى أراضي الشرق الأوسط الزاخرة بمصادر الطاقة، وعلى جانب آخر كان الخناق يضيق شيئاً فشيئاً حول السلطان عبد الحميد كلما اكتشفت حقول نفطية جديدة في إيران والعراق، كما كانت الأخبار السيئة التي تتناقلها الصحف الأوروبية ضد حكم السلطان تزداد يوماً بعد يوم، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار التطورات الداخلية والخارجية؛ يتضح جلياً حجم المؤامرات والمكائد التي كانت تُحاك ضد الدولة العثمانية وسلطانها.

وفي مايو/أيار عام (١٩٠٨م) اكتشف أغنى حقلٍ نفطيٍّ عرفه العالم حتى ذلك التاريخ بمدينة "مسجد سليمان" في إيران، واعتبر الإنجليز أن إزاحة السلطان عبد الحميد عن العرش في أقرب فرصة ممكنة أمرٌ ضروريٌّ من أجل بسط السيطرة على المنطقة الغنية بالنفط، وكانت حركة تركيا الفتاة (الشبان الأتراك) المناهضة لحكم السلطان هي الأداة التي سُسِّتْخَذَ لتنفيد هذه المهمة، وعلى هذا بدأت ثورة تركيا الفتاة بعد شهرين فقط من اكتشاف حقول النفط؛ حيث أعلنت مجموعة من ضباط حركة "الاتحاد والترقي" تمردهم، وخرجوا إلى جبال "مقدونيا"، وكانت النتيجة إعلان السلطان عبد الحميد المشروطة الثانية في يوليو/تموز عام (١٩٠٨م) مضطراً إلى التخلي عن السلطة عقب خلعِه بقرارٍ من مجلس النواب عقب ثورة ٣١ مارس/آذار، وعقب إخماذ "جيش الحركة"

القادم من "سالونيك" لهذه الثورة أيضاً، ولكن الإنجليز لم يكتفوا بهذا، بل استخدموا الشخصيات التي شاركت في خلع عبد الحميد عن العرش لتوجيه ضربات قاصمة للدولة العثمانية، وذلك من أجل السيطرة الكاملة مع نهاية الحرب العالمية الأولى على حقول النفط التي أشار السلطان الذكي إلى أماكنها على الخريطة بالتحديد، وقد احتفظ السلطان خلال فترة سلطنته بنسخ من خرائطه الإستراتيجية في غرفة نومِه بقصر "يلديز".



حياته اليومية في قصر "بُكْلُزْبَكِي"

لقد وجد عبد الحميد الذي عادَ إلى إسطنبول مرّةً أخرى عقبَ نفيه إلى "سالونيك" صعوبةً كبيرةً في التأقلم على الإقامة في قصر "بُكْلُزْبَكِي" في أول الأمر، إلا أنه كان يقضي أوقاته ما بين العبادة والصلاة وقراءة الكتب والعمل في ورشة النجارة الموجودة في سرداب القصر، وعلى الرغم من المعاملة السيئة التي كانَ يتعرّضُ لها من قِبَل بعض الجنود إلا أن ذلك لم يوغر صدره على القادة الاتحاديّين إعمالاً لمصلحة الأُمّة والدولة، فحينما كان يرغبُ أحدُهم في زيارته كان يوافقُ على لقائه على الفور، ولم يكن يدخِرُ جهداً في سبيل تقديم النصيح لهم فيما يتعلّق بإدارة الدولة.

إن إيجادَ عبد الحميدِ الفرصةَ خلال إقامته بقصر "بُكْلُزْبَكِي" لِيُمَضِّي بعضَ الوقتِ في العملِ بالنجارة التي انشغلَ بها منذ سنوات إمارته كان أمراً ممتعاً جداً بالنسبة له؛ فمنذُ القَدَم كان يتمُّ تشجيعُ أمراء آل عثمان على تعلُّم حرفة أو تبيّي هواية وهم في سنِّ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وقد لعبت هذه العادة القديمة دورين مهمين؛ أولهما: توجيه الأمراء إلى الانشغال بحرفةٍ بهدف إبعادهم عن الشائعات التي تتردّد في القصر والمكائد التي تُحاك حول العرش، وثانيهما: ضمانُ أن يجدَ كلُّ أميرٍ منهم مصدرًا لِلْعَيْش دون الحاجةِ لأحدٍ إذا ما جار عليه الزمان.

والحقيقة أنَّ عبدَ الحميدِ قد انشغلَ منذَ كانَ أميرًا بالعديد من الهوايات مثل العزف على البيانو، والموسيقى والرسم والتصوير، كما كان يجلب من أوروبا الصحف والمجلات المصورة ويأمر بترجمتها ويتابع رسوماتها وصورها باهتمام شديد، ولكنَّ مهارته الحقيقية قد ظهرت في النجارة والتقطيع، فقد تعلَّم في وقتٍ قصيرٍ كثيرًا عن النجارة التي عَشَقَهَا بتشجيعِ نجَّارٍ نمساويٍّ دُعِيَ إلى القصرِ ليقومَ ببعضِ أعمالِ النجارة، حيث تعلَّم عبد الحميد النجارة على يد "خليل أفندي" -وهو نجَّار بارع كان يعمل مع والده السلطان عبد المجيد الذي كان شغوفًا أيضًا بالنجارة- وكان عبد الحميد يحتفظُ في ورشَتِهِ بأدواتِ النجارةِ الخاصَّةِ بوالده عبد المجيد المحفور عليها توقيعُه الخاصُّ.

كان العمالُ يقيمون في جزء من قَبو (سرداب) قصر "بَكْلَزَبَكِي"، بينما كان الجزء الآخر منه يُستخدَم كمخزنٍ لحفظِ أدواتِ الطعام ومستلزماتِ المطبخ، وكانت الأُطعمَةُ تُطهى في المطبخِ المبنية خارجَ القصرِ كإجراءٍ احترازيٍّ منعًا من اندلاعِ حريقٍ؛ إذ كان القسمُ الداخليُّ للقصرِ مبنيا من الخشب، كما كانت ورشةُ النجارةِ الخاصَّة به تقع أيضًا في قَبو القصر، وكان عبد الحميد نجَّارًا ماهرًا إلى درجةِ تُمكنُهُ من صنْعِ تحفٍ رائعةٍ وأثاثٍ مبهرٍ.

كان عبدُ الحميد ينزلُ إلى ورشةِ النجارةِ الخاصَّةِ به ويعمَلُ بها بقدرِ ما تسمَحُ له صحَّتُهُ، ويجدُ في هذا العملِ متعةً وسعادةً بالغة، وقد جمع في ورشةِ "بَكْلَزَبَكِي" الكثيرَ من أدواتِ النجارةِ وعُدَّها إلا أنها لا تُقَارَنُ بالآلاتِ التي كانت موجودةً في قصرِ "يِلْدِيز" حينما كان على العرش، فكان يصنَعُ مناصِدَ وطاولات ومقاعدَ وأرائِكَ غايةً في الروعةِ والجمالِ، تُظهرُ بوضوحٍ مدى براعتهِ ومهارتهِ ودقَّةِ صنعتهِ.

كان عبدُ الحمیدِ إنساناً مجتهداً جدّاً، لا یَکُلُ من العملِ ولا یملّ، یعملُ یومیّاً علی أقلِّ تقدیرٍ قرابةَ خمسَ عشرةَ ساعةٍ منتظمةٍ ومتواصلةٍ، ولم یکنْ یتکفی بإصدار الأوامر للقیام بعملٍ ما فحسب؛ بل كان یتابعُ بنفسه مراحلَ تنفیذه، فكان إذا بدأ بعملٍ ما لم یتركه دون أن یتّمّه وینجزّه.

أما خلالَ سنوات سلطنته فقد كان یمتلك ورشةَ نجارةٍ فی حدیقة قصر "یلدیز" یتحدثُ عنها الجمیع بالروعة والإعجاب؛ إذ دفعه عشقه للنجارة إلى أن یفتتح ورشةً كبيرةً فی قصر "یلدیز" بعد سنةٍ ونصف فقط من تولّیه الحكم، كما أمر بإحضار أحدث آلات النجارة وأدواتها من أوروبا خصیصاً لورشته، وكان یرتدي أثناء عمله فی تلك الورشة بنظاًلاً رمادياً من القطیفة المخملیة وقميصاً قد شمرَ أكمامه، والحقیقة أن العمل فی هذه الورشة كان مصدرَ متعةٍ وبهجةٍ بالنسبة له، فبعدَ ساعاتِ العملِ الّتی یمضیها فی إدارة شؤون الدولة كان یتستغلُّ كلَّ فرصةٍ سانحةٍ للعملِ بها وللاستمتاع بوقتهِ هناك، وكان یعملُ بشغفٍ سوياً مع النجارین المهرة البارعین لیتخلّص من وطأة المشاغلِ الیومیةِ وعیئها؛ حیث كان یقول للمقربین منه أنه یتستمتع بهذا العملِ وأنه لا یرهقه أبداً، وینصحهم أيضاً أن یقوموا بأعمالٍ مماثلة.

كما قام عبد الحمید مع النقیب "محمد أفندی" -أحد حرفیّی مصنعِ طوبخانة- بصناعةِ الكثيرِ من قطعِ الأثاثِ المشغولة والمطعمّة بالصُدف كالمکاتبِ والمناضدِ والمقاعدِ وأرائكِ الجلوسِ وألواحِ الكتابةِ وأطقمها (مقلمة-دواة-أقلام) والدواليب ذات الأدراج، كما صنعَ أيضاً شبكاتٍ من القضبان الخشیبة الرائعة المصنوعة من شجر السّرو للنوافذِ الخاصّة بمسجد "یلدیز"، حتی إن طغراءه الشخصیّ منقوشٌ علی یسار المحرابِ المبنی وسطَ حائطِ الواجهة الأمامیة للمسجد.

ومن أعمال عبد الحميد في النجارة أيضاً الدرجُ الخشبيُّ المطعمُ بالصُدفِ الذي لا يزالُ يُحفظ فيه بعضُ من شعيرات لحية النبي ﷺ، ومقرأةً خشبيّةً لقراءة القرآن، ولوحةٌ كتابيّةٌ، كما أنه كان قد أهدى خزانةً رائعةً الصنع إلى "توفيق باشا" آخر صدر أعظم في تاريخ الدولة العثمانية.

وكان عبد الحميد يُسخر حرفته وصنعتَه وجبرته في خدمة الشعب، وخير دليل على هذا ما حدث خلال الحرب "العثمانية-اليونانية" التي اندلعت عام (١٨٩٧م) وانتهت بانتصار كبير للجيش العثماني حيث شعر عبد الحميد بفرحة غامرة وسعادة بالغة من هذا النصر الكبير، وكان يتابع يومياً وبشكلٍ منتظم أحوال الجنود المصابين الذين يُنقلون من الجبهة إلى "إسطنبول" لتلقي العلاج، وفي صبيحة أحد الأيام وعندما ذهب للورشة أمر "محمد أفندي" بقطع مائة وخمسين شجرة زينة لصناعة العصي؛ فقد علم أن كثيراً من هؤلاء المصابين الذين يتلقون العلاج الآن يحتاجون بعد ذلك لعكايز (عصي) يتكئون عليها حتى لو تعافوا تماماً، فكان ينوي إهداء عكايز إلى كل مريض منهم بعد مغادرته المستشفى وعودته إلى بلدته كي يتكئ عليه، وبالفعل وفقه المولى عز وجل في تحقيق هذه الأمنية.

وكان أيضاً من بين الحرفيين الذين يعملون مع عبد الحميد في ورشة نجارة بلديز "طاهر بك" والد الروائي التركي المشهور "كمال طاهر"، والحقيقة أن "طاهر بك" كان في الأصل ضابطاً في البحرية، وعمل كمساعد شخصي لعبد الحميد وكان يعمل في الوقت نفسه معه في ورشة النجارة.

والحقيقة أن الصراعات السياسية التي شهدتها الدولة العثمانية خلال عهد المشروطة الثانية قد أثرت بالسلب على "طاهر بك" أحد التابعين

للقصر، والذي عاش مع عائلته حياةً سعيدةً في المنزل الذي أهدها إليه عبد الحمید؛ حيث قامت جماعة "الاتحاد والترقي" -التي سيطرت على مقاليد الحكم بعد عام (١٩٠٨م)- بعزله وإحاليته للتقاعد؛ وذلك لقربه من عبد الحمید، والواقع أن "طاهر بك" -الذي استدعي للخدمة مرةً أخرى خلال حرب البلقان ومعركة "جناق قلعة"- كان يستيقظ في السنوات التالية لعزله صبيحة كل يوم ليكسب قوت يومه وعائلته، حيث كان يذهب للعمل بالنجارة حاملاً معه حقيبة التي تحوي عددًا من آلات النجارة، وكان يتذكّر تلك الأيام الخوالي حينما كان يعمل مع عبد الحمید في ورشة نجارة "يلديز".

كان "طاهر بك" يحبّ عبد الحمید إلى درجة كبيرة جعلته يعلّق الصورة التي أهدها له عبد الحمید حاملةً توقيعهُ في أحد أركان حجرة الضيوف في منزله، وظلّ محتفظاً بها حتى وفاته، كما أنه لم يستخدم المتعلقات الشخصية التي أهدها له عبد الحمید خلال عمله بقصر "يلديز" مثل الجوارب والمناديل، بل احتفظ بها جميعاً، وحتى ذلك التاريخ -الثالث من مارس/آذار عام (١٩٢٤م)- الذي اضطرّ فيه أفراد الأسرة العثمانية إلى مغادرة البلاد بقرار من المجلس؛ كان دائماً ما يصطحب أبناءه إلى القصر في الأعياد، ويجعلهم يقبلون يد الأميرة "نائلة" التي خدمتها زوجته "نورية" لسنوات.

وكان عبد الحمید يصنع قطعاً رائعةً خلاصةً ودقيقةً جداً؛ وذلك باعتباره نجاراً بارعاً وحرفياً حاذقاً، ويحبّ أن يهدي قطع الأثاث التي يصنعها يدوياً إلى المقربين منه ورجال الدولة والسفراء، كما كان لديه العديد من أعمال النجارة اليدوية الموجودة في قصري "يلديز" و"بكلربكي"، حيث قام بصنع طاقم مائدة الطعام الموجود بقصر "بكلربكي"، كما أن له أثراً

مهمًا في ضريح "أبي أيوب الأنصاري عليه السلام"; حيث قام بصناعة السياج ذي القضبان الخشبيّة المطعّمة بالصدف الموجود أمام "باب الدعاء" عند ذلك الضريح، وقد كتبَ على هذا الباب الذي تمّ تجديده عام (١٨٨٣م) هذا التاريخُ نفسهُ بالحروفِ الأبجديةِ العربيّةِ بناءً على طلب عبد الحميد، وعلى الوجهةِ الخارجيّةِ لبابِ الدعاء توجّد نافذتان علويّتان وأُخريّان سفليّتان، وخلال عهده تمّ تركيبُ أبوابٍ جديدةٍ على الممرِّ المؤدّي إلى الساحةِ الخارجيّةِ لِقَبْرِ مُصَيِّفِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله "أبي أيوب الأنصاري عليه السلام"، حيث استُبدلت تلك الأبوابُ الخشبيّةُ التي تعودُ إلى عهد السلطان محمد الفاتح بأخرى مصنوعة من النحاسِ والبرونز بسبب تعرض المقبرة لِلسَّرِقَةِ، كما أنه أمرَ بوضعِ دَرَفَات ذات قضبانٍ خشبيّةٍ -صَنَعَهَا يَدُهُ- أمام الأبوابِ المصنوعة من النحاس.

كما كان عبد الحميد شغوفًا بهواية التصوير، ولكنّه للأسف لم يتمكّن -خلال عهده- من التجوّل في ضواحي إسطنبول، أو باقي أنحاء البلاد لدواعٍ أمنيّةٍ خشيةً تعرّضه لِمَحاوَلات اغتيالٍ ولبعض الأسباب الأخرى، لكنه كان يتمنّى ذلك بِشِدَّةٍ، وعلى الرغم من هذا فقد أمرَ بتصويرِ كافّة أحياء إسطنبول وضواحيها والتقاط آلاف الصورِ للمدينة الرائعة، وبهذا كَوّنَ سجلاً من الصور لإسطنبول مؤلّفاً من اثني عشر مجلّداً موسوماً على غطاء كلّ منها طغراؤه الشخصي باللون الأحمر.

كما كان مولعاً بصناعةِ الخَزَفِ والبلاط الخزفي لذا أمرَ أولاً بإقامة فرنٍ صغيرٍ في حديقة قصر "يِلْدِيز" لإدخالِ الخزفِ إليه وتعرضه للنار في داخله، وفي كثير من الأحيان كان يعمل بهذا الفرن ويشكّل بنفسه أواني فخاريّة متنوّعة من الطين، وقد تحول هذا الفرن -الذي قدم مساهماتٍ وخدماتٍ جليّةً للذوقِ والفنِّ التركيّ- إلى مصنع "يِلْدِيز" للخَزَفِ فيما

بعْدُ، وقد ساهمَ مصنعُ "يِلْدِيَز" للخزف والصيني سنواتٍ طوالٍ في صنْع تحفٍ وأوانٍ فخّاريةٍ لمواجهةِ احتياجاتِ القصور العثمانية وأيضًا لمنحها كهدايا للسفراء والضيوف.

كان عبد الحميد مولعًا منذ صِغَرِهِ بالألعابِ الرياضية كالسباحة والرماية وركوب الخيل والمصارعة، وعاشقًا للفنِّ والفنون الجميلة كالمرح والأوبرا والرسم، وعلى الرغم من أنه كان يُفضّل فيما مضى مشاهدة المسرح الشعبي^(٢٠) في القصر، كان يأمر خلال سنوات سلطنته بإحضارِ الفِرَقِ المسرحيّة والأوبراليّة الأجنبية خصيصًا إلى إسطنبول، ويعتبر مبنى مسرح "يِلْدِيَز" الذي أنشئَ بتشجيعٍ من الفنانين الإيطاليين التابعين للقصر والذي صمّمه المعماري الإيطالي "ريموندو دي أرونكو" (*Raimondo D'Aronco*)، المسرح الوحيد المتبقّي حتى يومنا هذا في القصور العثمانية، فعلى خشبة هذا المسرح كان عبد الحميد وأفراد عائلته ومواليه والمقربون منه يشاهدون سويًا الأعمال المسرحية، وكان يُقدّم تلك العروض ممثلون مسرحيون إيطاليون بينهم مُعَنّ ويتصدّرها فرقةٌ موسيقيةٌ، وكانت ليالي الجمعة في القصر مخصّصةً لمشاهدة العروض المسرحية والموسيقية وعروض المتعة والتسلية، وكان الأمراء والأميرات يحضرون تلك العروض، وفي بعض الأحيان كان بعضٌ من أمراء "مصر" يُدعون إليها أيضًا، وكانت تُقدّم حفلاتٌ موسيقية، وكان عبد الحميد خلال تلك الحفلات يستقبلُ الضيوفَ ويُرَجِّبُ بهم ويسألهم عن أحوالهم، كما يسأل عن أحوال الممثلين المسرحيين، ويجلس في مؤخرة القاعة ويستمتع بمشاهدة العروض المسرحية التي تستمر لساعتين، ولكنه لم يكن يكملها

(٢٠) "أورتا أويونو" (*Orta Oyunu*) وتعني نماذج للمسرح الشعبي التركي الفكاهي ويغلب عليه سمة الارتجال والتقليد. (المترجم)

حتى نهاياتها، وكان في المسرح نظام تدفئة مركزي يجعله دافئًا تمامًا حتى في ليالي الشتاء القارسة.

وكان العمل المسرحي المسمى بـ "قطاع الطرق-الصوص" للشاعر الألماني المعروف "فريدريك شيلرن (Friedric Schiller)" من أكثر المسرحيات المفضلة والمحببة لدى عبد الحميد، أما أكثر الأعمال الأوبرالية المحببة له فكانت أوبرا "عايدة، لاترافياتا، كارمن، فاوست، ماسكوت"، كما كان الممثل والفنان الفرنسي المشهور "ريجان (Réjane)" يتردد على إسطنبول كثيرًا ويُقدِّم عروضًا تمثيلية رائعة، أما الأطفال والصغار فكانوا يُفضِّلون مشاهدة الألعاب الكوميديّة "أبتي (Apti)"، وكان عبد الحميد يدعو الباشوات والسفراء والوزراء إلى القصر لدى حضور الفرقة المسرحية والأوبرالية والموسيقية الأجنبية، ويجلس بجوار الصدر الأعظم، كما أن "الوالدة باشا" أم خديوي مصر "عباس حلمي باشا" كانت تحضر لمشاهدة الأعمال المسرحية في القصر حينما تأتي إلى إسطنبول في الصيف مدّة خمسة عشر يومًا.

وقد أمر عبد الحميد في فترة حكمه بتشكيل مدرسة وفرقة موسيقيّتين وأوركسترا^(٢١) كاملة مكوّنة من ستين عازفًا بالقصر، وفي بعض الأمسيات كان يأمر بإحضار فرقة "أوركسترا الغرفة" ويطلب منهم أن يعزفوا له على المروج الموجودة أمام جناحه ويستمتع إليهم بحماس واهتمام كبيرين،

(٢١) أوركسترا: وتُسمّى: الحوق السفنوني هو عبارة عن مجموعة من عازفي الأدوات الموسيقية في المسارح الأوروبية وخصوصًا الإغريقية، وغالبًا ما تكون مجموعة كبيرة تضم ما يقارب المائة عازف لمختلف الآلات الموسيقية بشتى أنواعها، كالآلات الإيقاعية والآلات الوترية وآلات النفخ الهوائية وآلات المفاتيح، كما يمكن أن يصاحب الحوق السفنوني مجموعة من المغنين الداعمين والذين يسمون بالجوقة أو الكورس أو الكورال. (المترجم)

وفي أحيان أخرى كان يأمرُ بإحضار البيانو أو الكمان^(٢٢) أو الفلوت^(٢٣) إلى الصالون فيعزفون له ويستمتع بعزفهم، كما كان يأمرُ باستدعاء عازف الطنبور^(٢٤) "جميل بك" فيعزف له؛ إذ كان معجبًا بعزفه للغاية، ومما سبق يتضح مدى عشق عبد الحميد واهتمامه بالموسيقى، علاوةً على أنه كان يمتلك مئاتٍ من المجموعات الموسيقية والنوتات ويحتفظ بها مجلدة داخل مكتبات من الزجاج في دائرة المسرح، كما أنه هو الذي جمع مجموعة اللوحات المعلقة في قصر "يلديز" حيث كان يحبُّ رسومات الأزهار والورود والمناظر الطبيعية.

وكان معلّمو الموسيقى الفرنسيون والإيطاليون الذين دعاهم إلى القصر العثماني يُعلّمون الأمراء والأميرات الصغار دروس الموسيقى، حيث كانت بعض بناته يعزفن على البيانو والمندولين^(٢٥)، وكانت لدى ابنته "نعيمه" التي تعزف على الكمان فرقة أوركسترا مسرحية مكونة من فتيات الحريم، كما أنه أولى اهتمامًا بالغًا بتربيتهن وتعليمهن ليكن بنات صالحات محترّفات وكان يتمنى أيضًا أن ينوي هواياتهن في كل المجالات؛ فقد أحضر لهن من أوروبا البيانو والآلات الموسيقية المتنوعة، حيث إنه أحضر أربع آلات بيانو تعمل بالكهرباء من ألمانيا، وكان يأمر أبناءه بأن يعزفوا على البيانو في حضرته، ويستمتع إليهم باهتمام شديد ويصحح لهم أخطاءهم.

- (٢٢) الكمان: هي آلة وترية ذات أربعة أوتار، ومن أشهر الآلات التي استُخدمت في الموسيقى الكلاسيكية ويوصف صوتها بأحسن أصوات الآلات الموسيقية. (المترجم)
- (٢٣) الفلوت: هي آلة نفخية مصنوعة من المعدن وغالبًا تكون من الفضة وأحيانًا من الذهب أو البلاتين ونادرًا من الخشب، طولها (٦٦ سم) ومجالها الصوتي ثلاثة أوكتافات. (المترجم)
- (٢٤) الطنبور: آلة موسيقية وترية قديمة، أول من استخدمها هم النوبيون، وهي أقدم آلة وترية، وطوّرها المصريون القدماء. (المترجم)
- (٢٥) الماندولين: (بالإنجليزية: Mandolin) آلة موسيقية وترية ذات رقبة نحيفة متصلة بجسم كمثري الشكل يشبه العود. (المترجم)

والحقيقة أنَّ عبد الحميد لم يكن يُفَضِّل الثقافة المسيحية على الثقافة الإسلامية مطلقاً على الرغم من درجة الرقي والتقدم التي وصلت إليها الحضارة الغربية، كما لم يكن يُعجَّبُ بمن يقلدونهم تقليداً أعمى في كلِّ شيء، بل كان يؤمنُ بأنه لا بدَّ أن تُؤخَذَ الجوانبُ المفيدة والمضيئة من الحضارة الأوروبية وتُمزَجَ بالثقافة الشرقية لتُكوِّنَ حضارةً كاملةً للأجيال القادمة، والحقيقة أنَّ نجاحه في تنظيم وتوزيع أوقاته بين هواياته واهتماماته وبين مسؤوليات الحكم ومشاغله كان ينبع من إجادته استثمار أوقاته وتنظيمه حياته اليومية قدر الإمكان، واهتمامه الكبير بصحته، حتى إنه كان يُدوِّنُ ما قام وما سيقوم به من أعمال، فقد كان يعيشُ حياةً منظَّمةً للغاية على وتيرة واحدة؛ إذ حدَّدَ وقتاً لكلِّ عملٍ.



حياته اليومية

كان عبد الحميد معتادًا منذ سنوات شبابه على النوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا؛ فقد كان يستيقظ دائمًا قبل شروق الشمس، وكعادته كان يغتسلُ صبيحة كلِّ يوم، ولم يكن يتخلَّى عن عادة الاغتسال هذه حتى لو كان مريضًا، وقد داوم على الاغتسال بماء بارد كلَّ صباح حتى الشهر الثالث من جلوسه على العرش لاعتقاده بأنه مفيدٌ للغاية، وكان يرتدي قميصًا رقيقًا للغاية ولا يرتدي حتى فانلة، إلى درجة أنَّ من في القصر كانوا يقولون تعليقًا على هذا الأمر: "إنه رجلٌ من حديد"، حتى إنه قد أُصيب بنزلة بردٍ حادة قبل وفاته في قصر "بكلزبكي" ولكنه على الرغم من نصيحة الأطباء له لم يتوقَّف عن الاغتسال كلَّ صباح، وكان يرتدي ملابسَ الرسمية بعد الاغتسال.

وكان عبد الحميد خلال سنوات سلطنته يرتدي الملابس السلطانية الرسمية في أيام العمل الرسمية، ويرتدي خلال لقاءاته بالسفراء والباشوات رداءً ومعطفًا من اللون الأسود أو الكحلي ويرتدي ربطة عنقٍ من نفس اللون، والحقيقة أنه كان يمتلك ذوقًا خاصًا فيما يتعلق بتمطِّ ملابسِه؛ فكان يُفضِّل أن يرتدي ملابسَ بسيطةً دائمًا ونظيفةً ومهندمةً وتُناسبُ سنَّه وصحَّته، كما كان يُقدِّمُ النصيحَ لمن حوله دائمًا ويتحرى الدقَّة في تربيته بناته ويطلبُ منهن أن يرتدين ملابسَ بسيطةً غير مبتذلة، وكان يطلبُ منهن أن تكون الأكمَامُ طويلةً ومُعلَّقةً، وحينما كان يلاحظُ أو يشعرُ بخطئٍ من أيِّ منهن لم يكن يقولُ لهن شيئًا بل كان يُخبرُ أمهاتهن، وأما أحذيته فكانت طويلة الرقبة ذات كعب صغير، يصنعها له كبيرُ صانعي الأحذية في القصر.

لم يكن عبد الحميد ينام بعد أدائه صلاة الفجر في وقتها، بل كان يجلس ويبتهل إلى الله بالدعاء ثم يقرأ ما تيسر له من القرآن الكريم وبعدها يتناول طعام الإفطار، وكان يفضل تناول أطعمة خفيفة قدر الإمكان على الإفطار، وبعد تناوله الإفطار كان يشرب نصف كوب من اللبن مخلوطاً بكوب من الماء المعدني، ثم يشرب قهوته ويدخن سيجارة، وفي تلك الأثناء أحياناً ما كان ينشغل بمداعبة قطّته وبتبغّائه.

كان عبد الحميد يعشق القهوة ولا سيما القهوة اليمنية، فخلال سنوات سلطنته كان يشرب يومياً حوالي ثمانية أو تسعة فناجين من القهوة سواء بعد تناوله الطعام أو خلال ممارسته لمهام عمله، وكان كبير صانعي القهوة في القصر "خليل أفندي" هو من يصنع له قهوته منذ سنوات إمارته، فقد كان يُرسل له صَحْفَةٌ بها فنجانان أبيضان وركوة من الفضة، وبعد وفاة "خليل أفندي" حلّ صهره "علي أفندي" محلّه ككبير لصانعي القهوة، واستمرّ في هذا العمل حتى وفاة عبد الحميد.

كان عبد الحميد يحبُّ شرب فنجانين من القهوة في المرّة الواحدة، فبعد أن يشرب القدح الأول في فنجانٍ منهما، يشرب القدح الثاني في الفنجان الآخر وكان يحتسي القهوة رشفةً رشفةً، وحينما كان يتناول القهوة مع زوجته "مشفقة هانم" كانوا يحضرون لها فنجانين آخرين من نفس النوع وعلى نفس الشاكلة، ولم يكن أيّ من أبنائه يتناول القهوة في حضرته مطلقاً، بل زوجاته فقط هنّ من يمكنهنّ تناولها معه؛ إذ كان شرب الشباب القهوة وتدخينهم السجائر في القصر يُعدُّ عيباً عظيماً.

وكان الساقى "حسين أفندي" يضع الماء الذي يشربه السلطان في دورق ويُقدّمه إليه في حافظةٍ ممهورة، وكان يلتزم بالوقت الذي يقضيه مع عائلته وأطفاله كالترامه بمواعيد الطعام والراحة والعمل.

كان عبد الحمید الثاني ینشغل بشؤون الدولة الرسمية عقب انتهائه من تناول إفطاره وحتى طعام الغداء، فبعد أن يتناول قهوته كان يمرُّ أولاً على جناح الحريم ومن هناك يتوجه إلى "السلامك"، ثم یجلس قبالة مكتبه ویستدعي الكاتب الأول، ویبدأ بمباشرة أعماله الرسمية هناك حتى الساعة الحادية عشرة ظهراً، حیث كان يتناول طعام الغداء فی تمام الساعة الحادية عشرة وطعام العشاء فی الساعة الخامسة مساءً فی جناح الحريم، وكان یحرص على تناول الطعام مع زوجاته وأبنائه، وبعدها كان یستلقي على الأريكة الموجودة فی حجرة نومه للقیولة لمدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة.

وبعد أن یصلي الظهر فی القصر كان يتوجه إلى "السلامك" لاستئناف عمله، وفی تلك الأثناء كان یلتقي برئیس الكتبة، ثم یلتقي بالوزراء ورجال الدولة الذین حُدِدت لهم مواعید مسبقةً للقاءه، وحينما كان یشعر بالتعب أو تكون الأعمال خفيفة وتنتهي مُبَكِّراً كان يتوجه إلى جناح الحريم، ویلتقي بمن یرغب من أفراد عائلته، وفی بعض الأحيان كان یستدعي إلى حضرته من یعزف له على البیانو.

وكان يتناول طعام العشاء بعد أن یؤدي صلاة العصر ثم یمخرج إلى حديقة القصر، ویتجول فیها قليلاً، وأثناء تنزهه فی الحديقة كان یمسك فی يده عصاه المصنوعة من الخشب الأصفر المستوي، ولم یكن یحملها فی الأوقات الأخرى، وخلال تجوله فی الحديقة كان یرافقه بعض الباشوات ورجال الدولة، ویبادل معهم الآراء والمقترحات ویناقش معهم أمور الدولة وكان حديثه العقلاني البسيط والتحليلي الدقیق یؤثر فی آراء مخاطبيه، فكان التجول فی حديقة القصر یجلب له الراحة والسعادة لبعده الحمید.

وكان قضاء الوقت واللعب والتجول في الجواسق المبتية في الحديقة مصدر متعة لحريم القصر، حيث كنَّ يَطْفَنَ بجواسق "شادر" و"مالطا" و"باغجوان باشي" و"العجم" و"تعليم خانة" المبنية على حديقة القصر الكبيرة التي تضمُّ العديدَ من أجناس الحيوانات والطيور، ثمَّ يُعَدَّنَ إلى القصر في المساء وهنَّ في سعادةٍ بالغَةِ.

وأحياناً ما كان عبد الحميد يعملُ في ورشة النجارة أو يقرأ في المكتبة، بل إنه كان أحياناً ما يتأخَّرُ إلى منتصف الليل في "المابن" حين تكثر عليه الأعمال، أما في الظروف العادية فكان يجلس مع عائلته وأبنائه بعد صلاة المغرب ثم يذهب إلى غرفته للاستراحة بعد صلاة العشاء.

وقد ظلَّ عبد الحميد طوالَ عشرين عاماً من سنوات حُكمِهِ يتناول الطعام مع زوجته "مشفقة هانم" بصفةٍ خاصّةٍ كلّ ليلةٍ تقريباً، والسيدة "مشفقة" هي والدَةُ ابنتِهِ المحبَّبةِ إلى قلبه الأميرة "عائشة"، وقد حرص عبد الحميد أن تربي ابنتُهُ الأميرة "عائشه" -كبقيّة أبنائه- تربيةً تُركِيَّةً إسلاميّةً، وأن تكون إنسانةً موهوبةً وفنّانةً يُمكنُها عزفُ الألحانِ الغربيّةِ والبيانو والكمان، وبارعةً في فنِّ الرسم، حتى إنها كانت تتحرَّقُ شوقاً لتعلُّمِ العزف على آلة الجيتار التي لم يكن يُجيدُ العزفَ عليها سوى بضعة أشخاص في ذلك الوقت، وبالفعلِ تعلَّمَتُها بإتقانٍ ومهارةٍ فائقةٍ، وكان الإخوةُ يجتمعون في بعض الأحيان ويقىمون حفلاً موسيقياً لوالدِهِم.

وحينما كان يعودُ عبد الحميد إلى حجرة نومه يأمر بإحضار زوجته "مشفقة"، أما باقي زوجاته فكان يقابلهن في أوقات محدّدة، وفي اللحظة التي تطأ فيها قدماه حجرة نومه كان يسود القصر هدوء تام، حيث تتوقَّفُ

أصوات الضحكات في الحديقة وأصوات البيانو والجرامافون^(٢٦)، وينقطع الضجيج والضوضاء، وكان الجميع يتنبهون حتى لا يصل أي صوت إلى غرفة نومه، وفي المساء كانوا يُحضرون إلى غرفة نومهِ عصير الليمون أو عصير العنب والرمان حيث كان يشربها في بعض الأحيان.

كان أمين الصندوق الثاني ينام في الحجرة المقابلة لباب جناح الحريم وبصحبه اثنان من الأمناء، أما على باب جناح الرجال -السلاملك- فكان يقف للحراسة نديم السلطان "عزت باشا" ومحمد أفندي قائد فرقة الحرس "سوغوتلو" (Söğütli).

أما في الليالي التي لم يكن يتواجد فيها بجناح الحريم فكان يطلب قبل أن يخلد إلى النوم أن تُقرأ عليه إحدى الروايات البوليسية أو كتب الرحلات التي يترجمها مترجمو قصر "يلديز"، حيث كان "عصمت بك" -المسؤول عن ملابس السلطان- يقرأ عليه الكتب من خلف ستار، وحينما يغلب عليه النعاس كان يقول "كفى"، وبهذا كان يُنهى وقت القراءة، وعلى هذا نرى أن أسلوب حياته المنظم والدقيق جداً كان يوفّر له الوقت والمناسخ المناسب حتى يتمكن من الاهتمام بالأعمال الأخرى.

(٢٦) الجرامافون: هو أول جهاز استخدم لتسجيل واستعادة الصوت، اخترعه الأمريكي توماس إديسون في عام (١٨٧٧م). (المترجم)



اشتياقه إلى الحرمين الشريفين وموكب المحمل الشريف

كان هناك مسجدٌ في الطابق الثاني من جناح "السلامك" بقصر "بكلزبكي" يؤدي فيه عبد الحميد الصلاة في بعض الأحيان، وأحياناً أخرى كان يؤدّيها داخل حجرته الخاصة، وعلى حائط هذا المسجد كانت تُعلّق لوحةٌ كبيرة تُصوّر الأروقة المحيطة بالكعبة المشرفة وساحة الطواف، وذات يومٍ وعندما أدّى عبد الحميد صلاته في هذا المسجد أخذ ينظر ملياً لهذه اللوحة، ويُشاهد بيت الله الحرام، وقد كان يتحرّق شوقاً لزيارة الحرمين الشريفين ورؤية تلك الأماكن المقدسة التي تحمل ذكرى النبي ﷺ وصحبه الكرام، واشتياقاً للوقوف أمام الكعبة المشرفة والطواف ببيت الله الحرام، ولكم تمنّى أيضاً لسنواتٍ طوال أن يزور قبر النبي ﷺ في المدينة المنورة ويقف أمامه باكياً مُبتهلاً إلى المولى ﷺ، ولكن للأسف لم يستطع عبد الحميد مغادرة إسطنبول وزيارة تلك الأماكن المقدسة خلال سنوات سلطنته بسبب انشغاله بإدارة شؤون البلاد، ومجابهة التحديات والأخطار الداخلية والخارجية التي تحيط بالبلاد من كلّ جانب، وعلى هذا حاول -كبقيّة أجداده السلاطين العثمانيين- إطفاء نيران شوقه وتحرقه لزيارة الأراضي المقدسة بأن قام بإرسال الأشخاص كلّ عامٍ لأداء مناسك الحجّ على نفقته الشخصية، كما أنه أقام العديد من المشروعات التنموية والخدمية في تلك الأراضي المقدسة، ونجح في إنشاء "خطّ سكك حديد الحجاز"، وكان -كسائر السلاطين العثمانيين- لا يألو جهداً في سبيل خدمة الحرمين الشريفين؛ فكان يولي موكب المحمل الشريف -الصرّة

السلطانية-^(٢٧) اهتمامًا كبيرًا خلال سنوات سلطنته؛ فعن طريق هذا التقليد المُتَّبَع منذ عصر العباسيين كانت الهدايا والآثار النفيسة والقيمة وعلى رأسها كسوة الكعبة تُرسل سنويًا إلى الأراضي الحجازية.

إن كلمة "الصرة" التي تعني لغويًا "كيس النقود"؛ كانت ترمز إلى قيمة الحمل الذي يحمله الموكب، وكانت رحلات الحج في البداية تتم بمراسم بسيطة للغاية ثم تغيّرت في عهد المماليك وبدأت كسوة الكعبة تُرسل عن طريق المحمل الشريف إلى مكة المكرمة، وقد أصبحت هذه المراسم الدينية حدثًا كبيرًا بالنسبة لعامة الشعب والقادة السياسيين، ولا شك أن كسوة الكعبة كانت أقيم هدية يحملها موكب الصرة إلى الحجاز.

أما أول موكب للصرة السلطانية تم إعداده خلال عهد العثمانيين فقد كان أيام السلطان "يلازيم بايزيد" عام (١٣٨٩م) حيث أرسله وأطلقه من ولاية "أدرنه"، وبذلك التقليد والشرف العظيم ارتبطت العاصمة العثمانية برباط ديني ومعنوي مع الأراضي المقدسة، وحينما انتقل مقام الخلافة من المماليك إلى العثمانيين (١٥١٧م) بعد الحملة العسكرية التي قام بها السلطان "ياووز سليم" على مصر، أصبحت خدمة الحرمين الشريفين مسؤولية السلاطين العثمانيين، وبدأت الدولة العثمانية تتحمل مسؤولية تأمين القوافل وطرق الحج والخدمات الطبية وإنشاء قنوات الماء والعناية بدور العبادة وترميمها، وتوفير احتياجات أهل الحجاز.

كان معظم أراضي ولاية الحجاز عبارة عن صحارى وفيافي قاحلة، وبسبب قلة هطول الأمطار سنويًا كانت المحاصيل محدودة وقليلة، وكان الأهالي في ظل ظروف تلك الفترة لا يكفيهم حصاد زرعهم لمجرد سد

(٢٧) لمزيد من المعلومات انظر: يوسف جاعلاز وصالح كولن: "المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين"، دار النيل، القاهرة-٢٠١٥م. (الناشر)

الرمق، دع عنك الشعب أو الرفاهية في العيش، فكانوا يُضطرون لتلقي المعونات من الخارج، حيث كان جزءٌ كبيرٌ من أهالي مكة والمدينة يعيشون على المخصّصات التي يحصلون عليها من الحكومة، والأموال التي يتركها ويتصدّق بها الحجاج القادمون من كلّ فجٍّ عميقٍ، كما كانت المساعدات والهدايا التي تأتي مع موكب الصرة تُمثّل مصدرَ عيشٍ مهمًّا بالنسبة للأهالي القاطنين هناك.

إن كسوة الكعبة التي كانت تُصنّع في بغداد والقاهرة في البداية أصبحت تُحاك في إسطنبول مع نقل مسؤولية خدمة الحرمين الشريفين إلى الدولة العثمانية، وكانت كافّة التفاصيل الخاصة بصناعة الكسوة بدءًا من المواد الخام المستخدمة في حياكتها وحتى ألوانها وقماشها تتم تحت إشراف كبار رجال الدولة.

ولم يكن القادة العسكريون والمدنيون في إسطنبول فحسب هم من يعدّ التجهيزات ويستعدّ من أجل موكب الصرة بل كان يُشارك في هذا أيضًا عموم الشعب المسلم المقيم فيما حول خطّ سير الموكب، ونظرًا لمحدودية وسائل النقل والمواصلات وقلّتها آنذاك فقد كان غير القادرين على السفر إلى الأراضي المقدسة يحمّلون قوافل الحجّ شوقهم وحُبهم وسلامهم للحرمين، ودموعهم تسيلُ على وجناتهم شوقًا واشتياقًا للحجّ والأماكن المقدّسة، ويوصلون هباتهم ونفقاتهم وهداياهم إلى الحرمين عن طريق موكب الصرة، فكانت المباخر والشمعانات والسُبح والمصاحف والقناديل المضاءة بنور العيون ونيران الشوق تُرسَل من الأناضول إلى الحجاز مع أخلص الدعوات وأسمى مشاعر الحبّ وأرقى التحيّات، وكان كلّ من يرغب بإرسال هديّة أو مالٍ أو أيّ شيء إلى الحرمين يقوم بإرساله مع موكب المحمل، كما كان يُتخذ لكلّ سيّدة أو أميرة في القصر

صدیقةً فی مكة، فكانت كلُّ واحدةٍ منهن تُرسلُ إلى صديقتها هناك الهدايا والأموال داخل أكياسٍ من الجلد، وعن طريق هؤلاء الأصدقاء أيضًا كانت تُرسلُ الأموال إلى الكثير من المحتاجين، وكانت هذه الأكياس تُربطُ بِرِباطٍ خاص، وتُختَمُ بعباراتٍ خاصّةٍ مثل: "تصحبكم السلامة"، وكانت هذه الصُّرر قبل أن تُثقلَ مع القافلة تُسجَّلُ في دفاتر، وبعد أن تُوزَّعَ المساعداتُ على أهالي مكة كان الدفتر يُختَمُ مرّةً أخرى من قِبَلِ أمير المدينة ويعودُ إلى إسطنبول مرّةً أخرى.

وكانت حقائب الفراشة -التي تحملُ أجورَ من يُنظِّفون الكعبة- واحدةً من أكثر أحمالِ الموكبِ مغزًى، فقد كان يُطلَقُ على من يُنظِّفون الكعبة المشرفة وساحة الطواف وقبر النبي ﷺ في المدينة المنورة لقب "فَرَّاش"، وعلى من يوزعون بأيديهم ماء زمزم على الحجاج "سقَاء"، وكان بعض من أهالي إسطنبول العاشقين لدار المصطفى ﷺ يتخذون من الفَرَّاشين والسُّقاة نوابًا عنهم بِنِيَّةِ عمل تلك الخدمات المقدسة، ويقومون بمساعدة مَنْ يقومون بهذه الخدمة الجليلة بالهدايا والأموال.

وكان هؤلاء الأشخاص الطيّبون -الذين يُعينون عمال النظافة والسُّقاة لينوبوا عنهم في خدمة الأراضي المقدسة- يضعون الهدايا القيّمة داخل تلك الحقائب الجلديّة المعروفة بـ"حقائب الفراشة" ومن ثَمَّ يُرسلونها إلى الحجاز، وكان اسم المُرسَل يُكتَبُ على وجه هذه الحقائب، وعلى الوجه الآخر اسم المُرسَل إليه، وبهذا يكون مضمونًا أن تُسلَّم الهدايا والأمانات إلى عنوانها الصحيح، وحينما يعودُ موكبُ الصرة إلى العاصمة مرةً أخرى بعد شهور، ترجع حقائب الفراشة مرةً أخرى وهي مملوءة بالتمور والخواتم والمسابح وزيتِ العطور.

إن خدمة الحرمين الشريفين كانت أكبر شرفٍ لسلاطين آل عثمان، وعلى هذا استحقوا لقب "خادم الحرمين الشريفين"، وكان إرسال الصُّرَّة السلطانية خير دليل على هذه الخدمة الشريفة حيث كان ينطلق موكب المحمل الشريف من قصر الخلافة "طوب قابي" في الثاني عشر من شهر رجب سنوياً بمراسم احتفالية مهيبّة يُشارك فيها كبار رجال الدولة والعلماء وعامة الشعب، وكانت الهدايا التي تُرسَل إلى الحرمين تُوضع وتُحمَل على الجمال المزينة مصحوبةً بالدُمُوع والدعوات، ثم تطوف الجمال ثلاث مرات في حديقة القصر، ثم يُقرأ فرمان السلطان، وعلى هذا يُسلم الموكب إلى أمين الصرة، وبعد أن تُدبَح الذبائح وتعالى الأصوات بالدعاء ينطلق الموكب إلى وجهته.

وبينما كان عبد الحميد يشاهد تلك اللوحة التي تُصوِّر الأروقة التي تحيط بالكعبة وساحة الطواف بعد أدائه للصلاة في مسجد القصر الموجود في جناح السلامك بقصر "بُكُلْرَبَكِي"؛ مرّت من أمام عينيه المراسمُ المهيبّة لتوديع المحمل الشريف التي أُقيمت في قصر "يَلْدِيز"، فلا يمكنه نسيان لحظة توديع هذا الموكب المتّجه إلى الأراضي المقدسة.

فبعد مغادرة الموكب قصر "يَلْدِيز" كانت الجمالُ المزينة تهبط رويداً رويداً نحو رصيف "بشكطاش"، ويسير في مقدمتها خدم القصر المعروفون بـ "العكّامين" ^(٢٨) - وجميعهم زنوج ذوو بشرة سوداء - حيث يقومون بألعاب السيف والترس المصحوبة بالدق على الطبول فيُبرزون

(٢٨) العكّامون: جمع "عكّام" (*akkam*) وهو الاسم الذي أطلق على الموظفين العاملين في فيالق الصرة الهمايونية المتوجهة إلى الحجاز، لتوزيع الهدايا المرسلة من لدن السلطان على الأهالي ومجاوري الحرمين الشريفين. (سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٣).

مهاراتهم بالعديد من الألعاب والحركات المختلفة في صدر الموكب، ويعقبهم اثنا عشر جندياً على ظهور الخيل ثم اثنا عشر زعيماً وستون من حاملي الأسلحة واثان من حاملي البشارة ورئيس البوابين ثم أمين الصرة، وكان كبار رجال الدولة بملابسهم البراقة ومطياتهم المزينة يرافقون الموكب حتى "بشكطاش"، ثم يعبر موكب الصرة إلى "حيدر باشا" عن طريق المراكب الشراعية من ميناء "بشكطاش" ثم يصل إلى محطة الوداع الأولى في المكان المسمى "آيزيلك جشمسي" (*Ayrılık Çeşmesi*) [أي "سبيل الوداع"] الواقع في حي "قاضي كوي" (*Kadıköy*) في إسطنبول^(٢٩).

* * *

وقد بدأت أعمال التحديث والتغريب تسير بيد الدولة عقب مرسوم "التنظيمات"، وفي تلك الفترة أيضاً بدأ فن التخت يتطور بالمفهوم الغربي، ولأول مرة طلبت من أوروبا التماثيل والنصب التذكارية، وقد حمت الدولة العثمانية الثقافات الموجودة فيما فتحته من بلاد، فمثلاً حافظ السلطان محمد الفاتح على المجسمات والنقوش البارزة الموجودة في "ألين قابي" (*Altınkapi*) وعلى تمثال "ثيودوسيوس" (*Theodosius*) و"العمود الحلزوني" (*Yılanlı Sütun*) الذي يُزيّن ميدان السلطان أحمد، وفي تلك الفترة أيضاً دُعِيَ إلى القصر من أوروبا التّحات "بيلانو" (*Bellano*) والرّسام "جيتيلي بيّلي" (*Bellini*) وصنّع ميداليات عليها صورة السلطان تناقلتها الأيدي في أوروبا، كما افتتح السلطان عبد الحميد أيضاً المدرسة العليا للفنون الجميلة (أكاديمية الفنون الجميلة في يومنا)، والتي اضطلعت بدور فعال في تطوّر الفنون الحديثة.

(٢٩) انظر: يوسف جاغلاز وصالح كولن: "المحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين"، ص ٩١-٩٦. (الناشر)

كان عبد الحميد صاحب الروح الرقيقة يولي اهتمامًا كبيرًا للثقافة والفنون والحرف والمعمار والتعليم؛ حيث كان يتابع عن كثب حركة التحديث في أوروبا، ويبدل جهودًا حثيثة ليحوّل إسطنبول إلى مدينة عصريّة حديثة، وقد تسارعت حركة التحديث خلال عهده على نحو جديد؛ فقد أقام العديد من المشروعات والاستثمارات في مجالات المالية والصناعة والاتصالات والمواصلات والصحة والزراعة والصناعة؛ إذ كان يهدف إلى جعل الدولة العثمانية دولة قوية وكبيرة كما كانت من قبل، غير أنّ هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا من خلال جيل قوي ومتعلم يتبنّى هدفًا مُشترَكًا، وعليه فإنه سيظلّ يتبنّى هذا الهدف بمُفرده وسيستغلّ أعداؤه ويستثمرون هذا الموقف جيدًا.

ومما يُؤسَفُ له أنّ طموحات عبد الحميد وسياساته ستجعله مستهدفًا من كلّ أعدائه وغُرُضَةٍ لمحاولات الاغتيال والخلع عن العرش، والحقيقة أنه اضطرّ لهذه الأسباب أن يبقى خلف جدران قصر "بَلْدِيز" حبيسًا لا يغادرها إلى أيّ مكان.

كان عبد الحميد إصلاحيًا حقيقيًا معتدلاً، ولكنّه لسوء حظّه تولّى دَفّة الحكم خلال فترة كانت فيها الدولة تنازع وتلَفِظُ أنفاسها الأخيرة، كما أنه حكم البلاد وسط ظروف صعبة وسيئة للغاية، وعلى الرغم من أن المنكرين والرافضين لسياساته لا يضعون في الاعتبار ظروف عصره حين يُقيّمونها، وينتقدونه إلى درجة تصلّ بهم إلى حدّ السباب في كتاباتهم ويسخرون منه برسوماتهم الهزلية؛ فإنّ المنصفين والعقلاء يُسلّمون بأنه ترك بصمة كبيرة على الفترة التي عاش فيها وأنه قائد عظيم صاحب ذكاء ودهاء سياسي خلف وراءه الكثير من الأعمال والإنجازات الخالدة.



إنجازاته في مجال الإعمار والبناء

وقد شيدَ عبدُ الحميدَ بأمواله الخاصة العديدَ من الأبنية الخدمية والمرافق والصروح الرائعة التي تركت أثراً كبيراً في ذاكرة الناس كالمساجد وسُبل المياه والمدارس والمشافي وأبراج الساعات والمصانع في الأماكن الرئيسية من المدن، كما أولى اهتماماً كبيراً بتجميل المُدن وتزيينها، أما في القرى فقد كان يأمر بإنشاء المدارس الابتدائية بجوار المساجد، كما شيدَ خلال عهده حوالي (١٥٥٢) أثراً ومبنى في كافة أنحاء البلاد على يد مهندسين محلّيين وأجانب؛ إذ أُقيم خلال تلك الفترة العديدُ من الإنشاءات العامة التي لا تزال موجودةً إلى يومنا هذا، وتقدّم خدماتها إلى الآن مثل المشافي والمدارس والكباري، كما جهّز أحواض المياه المعدنية الساخنة، وأدخل الكهرباء والوقود والقطار الكهربائي عام (١٩٠٧م)، ورسخ صورة الدولة العثمانية المنفتحة على العلوم والتكنولوجيا بالمشاركة في المعرض الدولي للسياحة المقام في "شيكاغو"، كما أمر بإقامة مصلىٍّ مُمهّدٍ بسجاجيد نفيسة جداً داخل هذا المعرض حين نُظم في "نيويورك" عام (١٨٩٣م)، وأن يُرفع فيه الأذان عند كل صلاة.

وفي العام نفسه أرسل إلى مكتبة الكونجرس الأمريكي بـ "واشنطن" ستة وثلاثين ألبوماً كبير الحجم مغلفاً بجلد أحمر مذهب، وعلى وجه كلّ غلافٍ منها شعارُ الدولة العثمانية، وعلى الوجه الآخر طغراء عبد الحميد الثاني وبعض الكلمات التوضيحية القصيرة، وقد احتوت تلك الألبومات

التي لا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ والمجموعة بأمرِ عبدِ الحميدِ على صورٍ للأعمالِ والمشاريع التي أقيمت آنذاك على الأراضي العثمانية في مجالات التعليم والصحة والصناعة وتحديث الجيش مثل المساجد والقصور والمدارس والمشافي والمعسكرات والأسوار والقلاع والاستحكامات العسكرية، وصورٍ للأهالي والشوارع في المدن الكبرى، وقد اتَّبَعَ عبدُ الحميد هذا الأسلوبَ في ظلِّ ظروفٍ تلك الفترة المعقَّدة لِيُعَرِّفَ العالَمَ بحملات التنمية التي تحقَّقت على أراضي الدولة العثمانية التي نَعَتَهَا الغرب بـ"الرجل المريض أو الأسد الجريح" ممَّا كان له أثرٌ طيِّبٌ ونتائج إيجابية.



إنجازاته في مجال التعليم

كان عبد الحميد ينظرُ إلى التعليم والثقافة باعتبارهما أساسين للتقدم والحداثة، حيث كان يقول:

"إن المعرفة هي سرُّ التقدم".

فالشباب المجتهد المتحمّس المتديّن الذي سيخرجُ من المدارس الحديثة هو من سيضمن مستقبل الدولة ويعملُ على رِفْعَتِها وتقدّمها، ولهذا السبب اهتمَّ عبد الحميد اهتمامًا كبيرًا بزيادة أعداد المدارس الحديثة، ونشرها في كافة أرجاء البلاد، وبدأ حملةً تنمويّةً واسعة النطاقٍ للنهوض بالتعليم في إطار خطة طويلة المدى من بينها إنشاء مدارس للضّمّ والبُكم، وكان يحرصُ على توفير كافة السُّبل والوسائل لإعداد معلّمين أكفاء وطلاب متميزين، فخلال عهده شهدت الدولة العثمانية أكبر حملة تنموية لتطوير التعليم طوال تاريخها حتى إنه كان يقول:

"لقد أغلقنا المجلس ولكننا سنفتتح المدارس".

كما عبّر بصراحة تامّة عن أنه ليس عدوًّا للعلم ولا يخشى من المتعلمين والمثقفين، وأنه حتى تتمكن الأمة من فهم أفكار الحرية والمشروطية لا بد لها أن تخرج من غيابات الجهل.

وقد لعبت زيادة مخصّصات التعليم في الميزانية العامة دورًا كبيرًا في إقامة المؤسسات التعليمية الحديثة والنهوض بحركة التعليم آنذاك، وعلى الرغم من زيادة تلك المخصّصات؛ فقد كانت هناك بضعة معوقات تتمثّل في نقص مصادر التمويل والمعلمين المدرّبين؛ أي الكادر التعليمي الذي

سُيِّعَ في المدارس، إلا أنه عند الحديث عن مجموع أعداد المدارس التي بُنِيَتْ خلالَ عَهْدِهِ يَتَضَحُّ أَنَّ عَدَدَ المدارس الثانوية قد ارتفع من خمسة (٥) إلى مائة وأربع (١٠٤) مدارس، والمدارس الإعدادية من مائتين وخمسين (٢٥٠) إلى ستمائة (٦٠٠) مدرسة، وكليات ومعاهد إعداد المعلمين من أربعة (٤) إلى ثنتين وثلاثين (٣٢) مدرسة عُليا، وكان هناك تشجيعٌ كبيرٌ على دراسة اللغات حيث أصبحت إجباريةً اعتباراً من المرحلة الإعدادية، وعلاوةً على هذا فقد افتُتِحَ العديد من الكُلِّيَّات (المدارس العليا) السلطانية والفنية والعامة والخاصة مثل كَلِيَّةِ الحقوق، وكَلِيَّةِ طَبِّ "حيدر باشا"، وكلية "حيدر باشا" الطَّبِّيَّة العسكرية، والكَلِيَّة الحميدية للتجارة، وكلية الهندسة، وأكاديمية الفنون الجميلة، وكلية "بُورْصَه" للخياط، وكَلِيَّة الزراعة والطب البيطري...

أما التعليم الابتدائي فقد كان إجبارياً، وافتتح ما يربو عن أربعة آلاف (٤٠٠٠) مدرسة ابتدائية جديدة بعد أن كان عددها عام (١٨٧٦م) مائتي (٢٠٠) مدرسة ابتدائية فقط، كما طُبِّقَتْ أحدثُ النُظُم التعليمية في مدارس الأطفال الدينية التي تُسَمَّى بـ"الكتاتيب" التي قاربت عشرة آلاف مدرسة، والخلاصة أن أغلب المدارس العليا التي انتقلت من العهد العثماني إلى عهد الجمهورية كانت قد افتُتِحَتْ في عَهْدِهِ، كما تم تجديد وتحديث المدارس الموجودة بالفعل، وقد حصلَ المثقُّون والإداريون والسياسيون الذين تخرَّجوا في تلك المدارس التي أُنْشِئَتْ في عَهْدِهِ على وظائف مهمة في إدارة الدولة خلال الفترة الممتدة من سنوات سلطنته وحتى عهد الجمهورية.

كان عبد الحميد يُعْطِي كَلِيَّةَ "الاقتصاد والعلوم السياسية" -التي أُسِّسَتْ عام (١٨٧٦م)- أَهَمِّيَّةً خَاصَّةً، وَمِمَّا دَعَا إِلَى إنشائها والاهتمام

بها أن النواب الذين دخلوا في مجلس النواب الأول لم يكونوا على قدر كافٍ من التعليم والثقافة، وكانوا غير مؤهلين سياسيًا باستثناء القليل منهم، فأنشأ هذه الكلية وعزَم على أن يكون سندًا وعونًا لها، وكان "أحمد توفيق باشا" أحد مدرسي تلك الكلية، وكان عبد الحميد يُرسل كل عام أحد المشيرين والكاتب الأول في المابين لحضور حفلات تخرج هذه الكلية، ويمنح الطالب الحاصل على المركز الأول ميدالية المعارف الذهبية والثاني ميدالية المعارف الفضية، وباقي الطلبة هدايا تشجيعية كالساعات وغيرها، كما كان يتحرى عما إذا كان المرشحون لتولي منصب متصرف (قائم مقام) قد تخرجوا في تلك الكلية أو لا، ويأمر بتعيين خريجي تلك الكلية في وظائف مرموقة، وبهذا بدأ يتشكل بمرور الوقت كادر متعلم ومؤهل من الموظفين والإداريين.

كما افتتحت خلال عهده مدرسة الصنائع للبنات (الفنية)، والمدرسة الداخلية للبنات، ودار المعلمات التي تُعتبر أولى مدارس تعليم البنات في الدولة العثمانية، فقد كان يهتم اهتمامًا كبيرًا بتعليم الفتيات حتى إن "عبد اللطيف صبحي باشا" -صاحب الدراية الواسعة- حينما شعر بالقلق والتردد من إنشاء أول مدرسة صناعية للبنات شجعه عبد الحميد وقدم له الدعم الكامل قائلاً:

"فلتفتتح أنت هذه المدرسة وأنا سأدعمك".

كما كان حريصًا على مضاعفة نسبة المتعلمين في الدولة العثمانية وخاصة المسلمين، والحقيقة أن نسبة الأمية بين الشعب العثماني كانت كبيرة جدًا مقارنة بالشعوب الأوروبية، كما أن نسبة المتعلمين من غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية كانت أكثر من نسبتها في الشعب المسلم؛ فكان عبد الحميد من ناحية يعمل جاهدًا من أجل القضاء

على هذا البون الشاسع، ومن ناحية أخرى يوجّه أوامره إلى كلّ المدارس بما فيها مدارس غير المسلمين بضرورة تدريس اللغة التركية وفق أحدث الطرق.

وقد تسلم عبد الحميد الدولة العثمانية وهي على حافة الهاوية بعد الخسائر التي لحقت بها في الأراضي والسكان بسبب "حرب ٩٣"، وكان ينظر إلى التعليم والتنوير باعتبارهما الدعامتين الأساسيتين اللتين سَتَسْتَبْدُ عليهما الدولة العثمانية في نهضتها واستعادة ريادتها، بعد أن أصبحت في مرتبة متأخرة عسكرياً واقتصادياً مقارنة بالدول الغربية؛ كان لا بد من فتوحات داخلية جديدة تستند في جوهرها على التعليم؛ حتى تتسنى للدولة والشعب مواجهة القوى الاستعمارية التوسعية؛ فكان من الضروريّ عمل حملة نهضوية في مجال التعليم حتى يمكن لهذه الأمة أن تتبوأ مكانة بين الأمم، حتى وإن سقط حكم آل عثمان يوماً ما، والحقيقة أن الأنشطة والمشروعات التي أنجزت خلال عهد عبد الحميد في مجال التعليم قد أدت إلى زيادة حقيقية وإلى ارتفاع نسبة المتعلمين بين الشعب المسلم، وعلى الرغم من دنوّ الدولة العثمانية من نهائيتها المأساوية يوماً بعد يوم إلا أنه تخرّج جيل مثقّف ومتعلّم ومسلّح بأحدث وسائل العلم بفضل تلك الأنشطة التعليمية، وقد شغل هذا الجيل أرقى الوظائف العسكرية والإدارية في الدولة، وللأسف فإن جزءاً كبيراً من هؤلاء الشباب المتعلّم قد فقّد حياته خلال الحرب العالمية، أما من بقوا على قيد الحياة فقد نجحوا في بناء الجمهورية التركية الحديثة.

وبينما كانت الدول الكبرى تلهث وراء مطامعها الاستعمارية وتتسابق من أجلها؛ كان عبد الحميد يُنفذُ خططه وسياساته الخاصة به، ويولي أهمية كبرى لمشاريع التحديث والبنى التحتية والإعمار سواء من أجل الحفاظ

على حكم الدولة العثمانية أو ما بعد سقوط الدولة العثمانية؛ أي إنَّه كان يسعى لإقامة دولة مؤسسات تطلُّ صامدة وسط الأزمات، والحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها أنَّ الكادر الذي أسَّس الجمهورية التركية فيما بعد قد تخرَّج بأكمله تقريباً في المدارس التي افتتحت خلال عهده (وبالطبع كان من بينهم من خلعه من العرش!)، ويُعتَبَر عبد الحميد هو واضع حجر أساس الجمهورية التركية الحديثة، كما أنَّ أعداءه كانوا ينظرون بعين التقدير لجهوده في مجال التعليم، حتى إنَّ مَنْ كانوا يتقَدُّون الرقابة على الصحف لم يكن بوسعهم إنكار أنَّ الجهود التي بذلها عبد الحميد في تعليم اللغات الأجنبية وتثقيف الأمة والاهتمام بالعملية التعليمية قد ساهمت في النهوض بالدولة.

والحقيقة أنَّ جُلَّ همِّ عبد الحميد كان ينصبُّ على إعداد المعلمين والإداريين والحرفيين والصنَّاع الذين تحتاجهم الدولة، وتربية كوادر متعلِّمة تُقدِّم خدمات حقيقية لأمتها، بيد أنَّ هذا لم يكن بالأمر اليسير؛ فالإهمال الذي استمر لسنوات لا يمكن أن ينتهي في غمضة عين، فكان عبد الحميد يؤمن بأن رجال الدولة الحقيقيين ينبغي ألا يكتفوا بالتعلُّم في المدارس فحسب، بل ينبغي لهم أيضاً أن يروا عملياً أمام أعينهم مثلاً علياً ونماذج مشرفة جديرة بأن تكون قدوة لمن بعدها.

والحقيقة أنَّ هذه المعضلة كانت تُحلُّ قديماً بتطبيق إجراء جميل جداً؛ حيث كان الوزراء والأعيان والخيرون يُخصِّصون جزءاً من منازلهم للشباب النابغين الذين يمتلكون رغبة حقيقية في التعلُّم ويستحقون الرعاية والاهتمام؛ فكانوا يُساعدون هذا الشباب الموهوب النابغ المتحمَّس وخاصةً أبناء بلدانهم أنفسهم، ويتبنَّونهم معنوياً؛ بأن يوفروا لهم كافة الإمكانيات المختلفة، كما أنَّ المؤسسة التعليمية العريقة

التي تُعرَفُ بمدرسةِ القصرِ أو "الأندرون" كانت واحدةً من المؤسساتِ المهمةِ والفعالةِ في تخريجِ رجالِ الدولة الذين تحتاجهم البلاد، إلا أن العجزَ والنقصَ والإهمالَ في هذين المجالين قد كَلَّفَ الدولة ثمنًا باهظًا، ولهذا السبب لم يكن من السهلِ أبدًا إعدادُ رجالِ دولةٍ حقيقيين.

أما المدارسُ الأجنبية المتعددة التي ضُمَّتْ خيرةَ الشبابِ العثمانيِّ الواعد الذين بإمكانه خدمةُ الأمة والدولة العثمانية؛ فقد كانت توجهُ هؤلاء الشباب لخدمةِ مصالحِ الدول الأجنبية التي تمتلكها؛ فكان أبناء البلاد يساعدونهم في كافةِ الموضوعات بسبب التقارب الذي يشعرون به تجاه ثقافة تلك الدول، كما كانوا مناصرين لهم ومُتَّبِعِينَ لآرائهم، والحقيقة أنه كان مسموحًا للعديد من الدول الأجنبية بإقامة مدارس لها على أراضي الدولة العثمانية دون قيد أو شرط إلى درجة أن عدد المدارس التبشيرية الأمريكية التي افتتحت في تركيا وخاصة في شرق الأناضول قد وصلت إلى ثلاثٍ وأربعين مدرسة مع أواسط القرن التاسع عشر.

وكانت الدول الأوروبية تُنفِقُ أموالًا طائلةً على تمويل تلك المدارس التبشيرية المقامة على الأراضي العثمانية، كما أن القساوسة والرهبان كانوا يُدَرِّسون في تلك المدارس، وكان من الطبيعي أن يظهر بدهاءة تأثير تلك الثقافة على الطلاب خريجي هذه المدارس التي كانت تعتمد الثقافة المسيحية، والحقيقة أن المبشرين الذين كانوا ينتشرون في أماكن كثيرة كانوا يتخذون من مقولة المبشر "شارلز ويستون" (Charles R. Weston) شعارًا ونبراسًا لهم، وهي:

"يجب أن يكون المبشرون ودعاء كالحمام، ولكن هذا لا يمنع أن يكونوا مكارين كالثعالب!".

وكان عبد الحمید يدعو للحیطة والحذر والیقظة أمام تلك الأنشطة التبشیریة؛ حیث أمر "الباب العالی" باتخاذ كافة الإجراءات الاحترازية للحد من هذا الأمر، إلا أن تلك التدابیر لم تكن تُجدي نفعاً بسبب الامتيازات الأجنبية وحماية السفراء الأجانب لتلك المدارس التبشیریة التي تقوم بعمليات التبشیر للدين المسیحی، وتتجسس لصالح دولها.

كما كانت للماسون ویهود "الدونمة" أنشطة خطيرة في هذا المجال، وللأسف لم یکن التدخل في النظام التعليمي للمدارس الأجنبية التي سُمح بها بشكل اضطراري أمراً یسیراً؛ إذ إن الصعوبات السیاسیة والاقتصادیة المتعددة والعلاقات المتشعبة والمعقدة مع تلك الدول كانت تحول دون هذا الأمر، والحقیقة أنه بسبب تلك المرونة والامتيازات التي أجبرت علیها الدولة العثمانیة كان الطلبة المسلمون المتخرجون في تلك المدارس یقعون فریسة للثقافة والفكر الغربی، ویصبحون غرباء عن دینهم ودولتهم حتی إنه كانت ثمة قناعة منتشرة بأن بعض هؤلاء قد ارتدوا عن دینهم.

وكان ثمة أمران یشغلان بال عبد الحمید في العملية التعليمية هما تعلیم الدین والفن، حیث كان یرغب في أن یتربى الطلاب تریةً إسلامیةً صحیحةً، وألا تُهمَل موضوعات الفن والزراعة والصناعة في مناهج التدريس وأن تُتبع أحدث الوسائل التعليمية؛ حیث كان یشدد دائماً على هذا الأمر ویضدّر أوامرهُ في هذا الشأن، وإلى جانب هذين الموضوعین كان یشدد كذلك على الاهتمام بتعلیم اللغة التریکیة في المدارس والعمل على تطویرها؛ حیث أمر عبد الحمید للمرة الأولى في التاریخ التریکی بأن تقوم الجهات الرسمية بجمع الكلمات التریکیة الموجودة في لغة عامة الشعب.

وقد نُشرت وطُبعت الكثير من الكتب في المجالات الأدبية والدينية والفنية خلال عهده، كما أنه أمر بافتتاح العديد من المراكز التعليمية في القرى وإرسال الكتب الدراسية إليها مجاناً.

في الواقع حققت الدول الأوروبية وروسيا التقدم في المجالات الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية بسبب الأهمية التي أولوها للعلوم والفنون، ولكن المؤسف أن الدولة العثمانية تراجعت وتخلّفت كثيراً ولم تُسايِر ركب الحضارة ولم تعدّ في المستوى المطلوب في هذا المجال خلال القرون الثلاثة الأخيرة؛ فقد قلّ عدد المتعلمين والمدرّسين والمثقفين فلم يكن أغلب الشعب العثماني متعلّماً، ونظراً لأن هذا الوضع سيتسبّب لاحقاً في عدم القدرة على الحفاظ على القيم الدينية والوطنية؛ فكان من الضروري أن يتحقّق في أسرع وقتٍ قليل الفارق مع الغرب في المجالات العلميّة والفنيّة.

كان عبد الحميد معجباً جداً بالتقدّم العلمي والتكنولوجي الذي وصل إليه الغرب، وكان في الوقت نفسه حزيناً للغاية على تراجع الدولة العثمانية في تلك المجالات؛ لذا أمر بإيفاد الطلاب للدراسة في أوروبا في كافّة فروع العلم لنقل العلوم والتكنولوجيا الغربية إلى الدولة العثمانية، حيث كان يرغب في أن يعود هؤلاء الطلاب بعد أن ينهوا دراستهم إلى أرض الوطن فيخدموا دولتهم ويطبّقوا الجوانب الإيجابية من الحضارة الغربية، ولكنه وممّا يدعو للأسف أن بعض المبعوثين الشباب إلى أوروبا أصبحوا عبيداً لشهواتهم وملذّاتهم وأهوائهم الشخصية، وغاصوا في مستنقعات الثقافة الغربية، وتنكّروا للعادات والتقاليد العثمانية وعاشوا في انحلالٍ أخلاقيّ، كما أن عبد الحميد كان مستاءً جداً من غرور بعض من عاد منهم إلى الدولة بسبب هوسهم بالحياة الغربية وتعاليمهم وتكبرهم

على أصدقائهم ومن هم أكثر خبرةً ودرايةً منهم، واستحقارهم لعاداتنا وتقاليدها، ولم يكن يعرف ماذا يقول إزاء فساد عقول وأخلاق بعضهم وعدم تورّعهم عن التعاون مع القوى الراغبة في إسقاطه.

وعلى الرغم من كلّ هذه المنجزات والأعمال التي قام بها في مجال التعليم إلا أنّ ممّا يؤخذُ عليه هو إهماله لتطوير المدارس العثمانية التقليدية (المدارس الدينية) مقارنةً بالأهميّة التي أولاها للتعليم على النسخ الغربي، فقد استمرّت المنافسة على الوجود بين "المدرسة الحديثة والمدرسة الشرعية" التي بدأت خلال عهد السلطان محمود الثاني، إلا أنّ هذا الخطأ تمّ تداركه في فترة ما بعد عبد الحميد؛ فقد أراد شيخ الإسلام "مصطفى خيرى أفندي" (١٨٦٧-١٩٢١م) إصلاح تلك المدارس وبرامجها الدراسية، غير أنه تعذّر تنفيذ تلك الإصلاحات بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى، ولم يكن هناك إمكانيّة بعد ذلك لتنفيذ هذا الأمر.



التقارب مع ألمانيا

كان عبد الحميد طموحاً للغاية يسعى من أجل بناء دولة قوية في كافة المناحي وشتى المجالات؛ فقد أولى أهمية كبرى للنهوض بالدولة العلية وتحديث الجيش، حيث وفر كافة احتياجات الجيش مع تبنيه مبدأ عدم الرّجّ بالدولة في أية حروب، فقد كانت هناك حاجة ملحة لإعداد جيش حديث ذا كفاءة قتالية عالية لمواجهة التوسع الروسي خاصة بعد إنهالك الجيش العثماني في "حرب ٩٣"، فبعد الهزيمة في تلك الحرب اتّضح أن أكثر أسباب ضعف الجيش تمثلت في "قضية التعليم" بالإضافة إلى التجهيزات العسكرية، فأصبحت هناك حاجة ملحة لعمل إصلاحات جذرية في المدارس العسكرية بسبب ضعف التعليم العسكري بين الضباط.

وعلى هذا قرّر عبد الحميد تعزيز التعاون العسكري مع ألمانيا التي كانت تخشى من استفحال القوة الروسية، كما أنّ ألمانيا كانت ترى أن زيادة مجال نفوذ الدولة العثمانية في الشرق أمر مفيد لمصالحها الاقتصادية، لذا ساهمت في إنشاء "سكك حديد بغداد"، وإعمالاً لمبدأ التوازن في العلاقات وإثارة لروح التنافس إزاء إنجلترا، فقد أمر عبد الحميد بمنح امتياز "سكك حديد بغداد" لـ "ألمانيا" مقابل هذا الدعم، فكان على رأس الممولين لهذا المشروع بنك "دويتشه (Deutsche)" الألماني.

وقد اكتسبت العلاقات بين الدولتين أبعاداً جديدةً بسبب هذا التعاون، وفي إطار هذا التعاون العسكري بين البلدين حضر إلى إسطنبول

وَفَدَّ عَسْكَرِيَّيْ أَلْمَانِيَّيْ، وَأَجْرِيَتْ إِصْلَاحَاتُ جَذَرِيَّةٍ عَلَى الْكَلِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ نَتِيجَةً لِهَذَا التَّعَاوُنِ الْمَشْتَرَكِ، حَتَّى إِنْ الْجَنْرَالُ "فُون در جُولْتز (Von der Goltz)" الَّذِي جَاءَ عَلَى رَأْسِ الْهَيْئَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ قَدْ وَضَعَ أَسْأَلًا لَتَعْلِيمِ الضَّبَاطِ الْعُثْمَانِيَّيْنَ وَتَدْرِيهِمْ بِأَحْدَثِ الْوَسَائِلِ التَّكْنُولُوجِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَنْجَحْ فِي أَنْ يَغْرُسَ فِي الضَّبَاطِ الشَّبَابِ مَبْدَأَ "عَدَمِ تَدَخُّلِ رِجَالِ الْجَيْشِ فِي إِدَارَةِ الدَّوْلَةِ وَالْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ" الَّذِي كَانَ أَهَمَّ مَبْدَأٍ فِي الْعَقِيدَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ عَادَى فِيمَا بَعْدَ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَنَكَرَ أَفْضَالَهُ عَلَيْهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ رَفَّاهُ إِلَى رَتْبَةِ مَشِيرٍ، وَلَوْ أَنَّ خُطَطَهُ أُتْبِعَتْ خِلَالَ الْحَرْبِ الْعُثْمَانِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ لَمُنِيَ الْجَيْشُ الْعُثْمَانِيُّ بِهَزِيمَةٍ نَكَرَاءَ إِلَّا أَنَّ الْمَشِيرَ "أَدَهْمَ بَاشَا" وَ"عَمَرَ رَشْدِي بَاشَا" قَدْ اتَّخَذَا التَّدَايِيرَ وَالْإِجْرَاءَاتِ الْإِحْتِرَازِيَّةَ؛ فَحَقَّقَ الْجَيْشُ الْعُثْمَانِيُّ نَصْرًا كَاسِحًا عَلَى الْقَوَّاتِ الْيُونَانِيَّةِ بِفَضْلِ الْخُطَطِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي نَفَّذَاهَا.

إِنْ فِتْرَةَ تَدَخُّلِ الْجَيْشِ فِي الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي بَدَأَتْ بِحَوَادِثَ كَسَيْطَرَةِ جَيْشِ الْحَرَكَةِ عَلَى إِسْطَنْبُولِ (١٩٠٩م) وَهَجُومِ "البَابِ الْعَالِي" (١٩١٣م) قَدْ اسْتَمَرَّ وَجُودُهَا اعْتِبَارًا مِنْ هَذِهِ السَّنَوَاتِ، فَكَانَ لِلْوَصَايَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ عَلَى الْحُكْمِ الْمَدْنِيِّ أَضْرَارٌ كَبِيرَةٌ عَلَى الْوَطَنِ وَالْجَيْشِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، وَمَعَ هَذَا فَإِنْ كَادَرِ الضَّبَاطِ الَّذِينَ حَقَّقُوا النِّصْرَ فِي مَعْرَكَةِ "جَنَاقِ قَلْعَةٍ" كَانَ قَدْ تَخَرَّجَ فِي الْكَلِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ خِلَالَ عَهْدِ عَبْدِ الْحَمِيدِ.



الحرب العثمانية-اليونانية

بدأت الشركات الألمانية تأخذ دورًا كبيرًا في تسليح الجيش العثماني نتيجةً للتعاون العسكري بين الدولة العثمانية وألمانيا، حيث تقدمت الحكومة العثمانية بطلبات متعددة لإصفقات أسلحة ضخمة من شركات التسليح الألمانية وعلى رأسها شركة "قروب (Krupp)" و"ماوزر (Mauser)"، ولم يمضِ الكثير حتى بدأت عملية استخدام الأسلحة الحديثة وتحديث الجيش تؤدي ثمارها، وبسبب الاعتداء على حدود الدولة العثمانية من قبل حكومة اليونان التي كانت ترغب في ضم جزيرة "كريت" لأراضيها، وتعرض الأتراك المدنيين الذين يعيشون في تلك الجزيرة لهجمات من جماعات مسلحة مدعومة من اليونان فقد تصاعدت حدة التوتر بين الدولتين، إلا أن عبد الحميد الذي كان يحاول أن يتجنب شبح الحرب بأي طريقة كانت؛ تصرف بأقصى درجات ضبط النفس وبحنكة سياسية مخضرة واضعًا في الاعتبار احتمالية تدخل الدول الكبرى لصالح اليونانيين، وأن هذا قد يؤدي إلى عواقب وخيمة بالنسبة للدولة العثمانية، وقد نجح باستخدام الطرق الدبلوماسية في تحييد تلك الدول وظلت اليونان بمفردها على الحلبة في مواجهة الدولة العثمانية، وبناءً على إعلان اليونان التعبئة العامة وحالة الاستنفار للحرب في الرابع من ديسمبر/كانون الأول عام (١٨٩٦م) اتضح أنه قد حان الوقت المناسب لتلقيها درسًا قاسيًا؛ حيث تمكنت القوات العثمانية بقيادة المشير "أدهم باشا" من هزيمة

الجيش اليوناني هزيمةً نكراء في معركة "دوفكة" التي نشبت بين الخامس عشر والسابع عشر من مايو/أيار (١٨٩٧م).

وقد أصدر عبد الحميد أوامره إلى "أدهم باشا" بأن يبادر بالهجوم قائلاً:

"إن سبب نجاح الجنود الأتراك في الحرب هو الهجوم وليس الدفاع، إن القوة الأسطورية التي يستلهمونها من أجدادهم تصل إلى أقصى درجاتها عندما يتعرضون للاعتداء عليهم، فلو أننا بادرنا بالهجوم خلال الحرب الروسية العثمانية بدلاً من انتظار مجيء العدو إلينا لأمكننا الانتصار في الحرب".

والحقيقة أن الجيش العثماني استطاع اجتياز ممر "ترموبيل" (Termopil) اليوناني خلال أربع وعشرين ساعة بعد أن قال عنه قادة الأركان الألمان إنه لا يمكن اجتيازه في ستة أشهر، حتى إن القوات العثمانية كانت على بُعد مائة وخمسين كيلومتراً من العاصمة اليونانية "أثينا"، وكان الطريق ممهداً من أجل السيطرة عليها، وشاع خبر سيطرة القوات العثمانية على "أثينا" وبالتالي اليونان بأكملها في العالم أجمع، إلا أن تدخل الدول الأوروبية وإرسال قيصر "روسيا" برقية عاجلة إلى السلطان عبد الحميد مفادها أنه إذا لم يحدث وقف فوريّ لعمليات الاشتباك ووقف إطلاق النيران؛ فإن القوات الروسية ستتحرك لاحتلال مدينة "أرضروم"، كما أن اتحاد الدول المسيحية مع بعضها شكّل جبهة كبيرة في وجه الدولة العثمانية التي لم تستطع أخذ الأراضي والتعويضات التي طلبتها في نهاية الحرب، كما اضطرت تحت ضغوط الدول الأوروبية إلى إعادة "تصاليا" التي سيطرت عليها خلال الحرب إلى اليونان مرة أخرى.

ولا يوجد أدنى شك في أن الجزء الأكبر في تحقيق هذا النصر كان يرجع لإنجاح عبد الحميد في إنشاء حالة من الوحدة والارتباط بين الجيش والشعب؛ فقد ساهم الجميع خلال تلك الحرب من أصغر قروي إلى أكبر سياسي وحتى السلطان نفسه، كما أن الأمراء الذين يخدمون في الجيش قد بادروا إلى الجبهة من أجل محاربة اليونان، وقد أمر عبد الحميد حريم القصر بحياكة الملابس والملاءات وملابس النوم من أجل الجنود، ولهذا السبب أحضرت كميات كبيرة من أثواب القماش إلى الغرف الموجودة في جناح الحريم ووزعت عليهن، وكان كل حريم القصر بمن فيهن زوجات السلطان وحتى الأميرات يعملن على ماكينات الحياكة منذ ساعات الصباح الأولى وحتى منتصف الليل من أجل إنجاز العدد المطلوب من الملابس، وكانت أمانة الخزانة "زلفت" هي من تدير العمل وتُشرف عليه؛ حيث كانت توزع الأقمشة التي تجلبها العربات على أهل القصر، وتراقب عملية حياكة الأقمشة إن كانت تتم حسب النماذج والأشكال المطلوبة أم لا؟!

وقد استمر هذا العمل الدؤوب طوال فترة الحرب حتى إن المجهود الذي بذلته "فاطمة بسند هانم" على الرغم من حملها قوبل بالتقدير والاستحسان من قبل عبد الحميد، كما أنه كان يُثنى على بناته حين يراهن يعملن بحماس شديد قائلاً:

"أحسنن يا بناتي! فليرض الله عنكن، فما أعظم العمل في سبيل خدمة الوطن فليحفظ الله وطننا من كيد الأعداء".

وكانت تلك الكلمات المشجعة تمدهن بالحماسة والقوة؛ فكُنَّ ينصتن إليه وأعينهن منصبة على ماكيناتهن وإبرهن لكيلاً يُضَيِّغن شيئاً من الوقت.

كان عبد الحمید يزورُ المصابین ويسأل عن أحوالهم، فقد كان هناك معسكرٌ في الحديقة الواسعة لجوسق "تعلیم خانه" في قصر "یلدیز"، وقد تحوّل جزءٌ من هذا المُعسكرِ إلى مستشفى ميدانيّ، فكان يأتي يوميًا إلى هذا المشفى، ويشدُّ من أزرِ المصابین ويسأل عن صحتهم وعمّا يحتاجون، ويُصدرُ أوامره بضرورة تلبية وتوفير تلك الاحتياجات على الفور، كما أمرَ بأن تُصنَعَ العصيّ والعكاكيز للمصابین في ورشة النجارة الموجودة بالقصر وإعداد المقابر الموجودة بضريح "یحیی أفندي" من أجل دفن الشهداء، كما كان يجلبُ أيتامَ أسرِ الشهداء إلى القصر من أجل تأمين إقامتهم، ومن ناحية أخرى كان كلُّ من في القصر يقرؤون القرآن على روح الشهداء ویتهلّون إلى الله بالدعاء أن ينصر المجاهدين، كما كان الأذان يُرْفَع في حديقة القصر يوميًا مع دخول وقت الصلوات الخمس، وتُتلى سورة الفتح صباح مساء.

كانت هناك حالةٌ من الاستنفار تسودُ القصر طوال مدّة الحرب، وقد خيمت حالةٌ من الاضطراب والقلق على أهل القصر، وكان عبد الحمید لا يأتي إلى جناح الحريم إلا نادرًا، حتى إنه في بعض الأحيان كان يتناول طعامه واقفًا وعلى الفور يتوجّه إلى جناح الرجال "سلاملك" ويتابع التحركات والخطط العسكرية عن طريق الخرائط الموجودة في حجرته؛ فلم يكن يقف دون عمل ولو لدقيقة واحدة فكان يلتقي مع الباشوات واللواءات ويُصدرُ الأوامر ويُرسِلُ البرقيات على ضوء المعلومات القادمة من الجبهة، وكان كلُّ ما تلقى خبرًا بالنصر يخترُ ساجدًا للمولى ﷺ ویتهلل إليه ويحمده، وكان يتشارك بتلك الأخبار المبشرة مع كلِّ من في القصر.



وفاة السلطان "عبد الحميد الثاني"

وُلِدَ السلطان "عبد الحميد الثاني" في فصل الخريف في الحادي والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٨٤٢م)، وتوفي في العاشر من فبراير/شباط (١٩١٨م) مع قرب انتهاء الحرب العالمية الأولى، والواقع أن السلطان عبد الحميد قد حكم الدولة العثمانية لمدة ثلاثة وثلاثين عامًا اعتبارًا من الحادي والثلاثين من أغسطس/آب (١٨٧٦م) وحتى السابع والعشرين من أبريل/نيسان (١٩٠٩م)، ليكون بذلك أحد أكثر السلاطين العثمانيين إثارة للجدل، وقد أُجبر السلطان على الإقامة في قصر "بِكْلَرْبَكِي" تحت الرقابة لمدة خمس سنوات وثلاثة أشهر وتسعة أيام منذ نقله من منفاه في "سالونيك" إلى إسطنبول، وكان يدعو الله حتى آخر لحظة في حياته طالبًا سلامة وطنه ونجاة الأمة الإسلامية من بلاء الحرب وويلاتها، وقد قال ذات مرة لطبيب أجرى له تحليلات طبية روتينية يوم الحادي عشر من يناير/كانون الثاني (١٩١٨م):

"سأبدأ في قراءة صحيح البخاري مرة أخرى عندما تتحسنُ حالتِي الصحية، فلقد قرأته طوال فترة معركة "جناق قلعة"، فحمانا المولى ﷻ وحفظنا، وهو قادر على ذلك دائمًا".

وأطلق على السلطان "عبد الحميد الثاني" لقب "سلطان القصر الوحيد"، وبعد أن عُزل عن العرش بتسعة أعوام تعرّض لوعكة صحيّة شديدة إثر إصابته بنزلة برد حادة يوم الخامس من فبراير/شباط (١٩١٨م)، وكان السلطان في الواقع يشتكي من الإرهاق والتعب في الآونة الأخيرة،

وكان يشقُّ في الأدوية التي كان يصفها له طبيبه "عاطف بك"، وعندما سأله طبيبه الخاص عن حالته يوم الثامن من فبراير/شباط؛ أخبره بأنه على ما يُرام، وقد فحص "عاطف بك" حالته الصحيّة مرّةً أخرى بعد ظهر يوم التاسع من فبراير/شباط فأبلغه السلطان بأن حالته جيّدة، ويمكنه -أي "عاطف بك" - أن يعودَ إلى بيته، وعلى هذا غادرَ "عاطف بك" القصرَ وانتقلَ من منطقة "قُورْجُونجُوق" إلى وسط إسطنبول على متن القارب الذي انطلق في الساعة الثانية والنصف، ثم وصلَ منزله الواقع في منطقة "قاضي كوي" على متن القارب الذي أبحرَ في تمام الخامسة مساءً.

وفي ذلك اليوم شعر السلطان قبيّل العصر بأنه يتحسّنُ بعض الشيء، حتى إنه ارتدى ملابسَهُ وخرجَ في نزهة، وعندما حلَّ المساء جلسَ إلى المائدة مع زوجاته كالمعتاد، وأخبرهن أنه يشعر بفقدان الشهية، وتناول قطعة من الكفتة، وبضع لُقيماتٍ من اليقطين (القرع)، وقطعةً من حلوى دقيق الأرز، وبدأ بعد تناول الطعام يشعر بألمٍ في صدره؛ فطلبت "مشفقة هانم" على الفور استدعاء الطبيب، ولكن الطبيب "عاطف بك" كان قد عاد إلى منزله بإذن من السلطان، وفي الحال اتصلوا به وكان قد وصل إلى منزله في "قاضي كوي" للتوّ، فردّت أخته على الهاتف وقالت له:

"يستدعونك إلى القصر، وقد أرسلوا سيارة، وهي في الطريق الآن".

كان ضابط الاحتياط "ألكيوباديس" -الطبيب الخاص بولي العهد الأمير "وحيد الدين أفندي" - يسكن بالقرب من قصر "بُكْلَرْبَكِي"، وقد أخبره "راسم بك" بهذه الحالة، واستدعي إلى القصر ضابط الاحتياط "نيكولاكي أفندي" الذي كان مناورًا تلك الليلة في مستشفى "بُكْلَرْبَكِي"، وقد شخّص الفريق الطبي حالة السلطان بأنها بداية للإصابة بـ"التهاب رئوي"، وكان السلطان السابق تسطير عليه نوبات متلاحقة من البرد والقشعريرة،

وكان يتصبَّب من جبينه عرقٌ باردٌ يميلُ لونه إلى صفرة الليمون، فكتب الأطباء الأدوية اللازمة للسلطان، وأُرسلَ موظَّفُ المستشفى لإحضارها، وفي تلك الأثناء أُبلغ بهذا الوضع كلُّ من "راسم بك"، والسلطان "محمد رشاد"، و"أنور باشا"، وفي نهاية المطاف وصل "عاطف بك" القصرَ في حدود الساعة الثامنة والنصف، ولما رآه "عبد الحميد الثاني" وهو في فراشه مدَّ يده إليه وقال:

"أنا مُتعبٌ جدًّا، افحض نبضي لو سمحت".

فرد "عاطف بك" قائلاً:

"اطمئنْ يا سيدي؛ فأنا لا أشعرُ بالقلق، لا تخفْ فليس هناك ما يستدعي القلق، وعكةٌ بسيطةٌ وستزول بإذنِ الله".

ولكن حالة السلطان لم تكن على ما يرام، فردَّ السلطان عليه:

"تقول لا تخف. نعم، فأنا لا أخاف، ولكنني أشعر بالألم هنا -مشيرًا إلى معدته-".

وبعد أن قاس "عاطف بك" نبضَهُ استخرجَ سماعةَ الأذنِ واستمعَ من خلالها إلى نبض قلب السلطان وصدْرِهِ، واتفق هو الآخر في التشخيص مع الأطباء الآخرين، وبينما هم كذلك وصلَ الدواء من المستشفى، فتناولهُ السلطان على الفور، وبالرغم من ذلك لم يطرأ تحسُّنٌ واضحٌ على حالته الصحية كما كان مأمولًا.

لقد شعرَ السلطانُ "محمد رشاد" بحزنٍ شديدٍ عندما نَمَا إلى علمِهِ أن أخاه الأكبر مريضٌ، وقال:

"سأرسلُ له من يريدُ من الأطباءِ لمتابعة حالته".

ولمَّا سمعَ "عبد الحميد الثاني" بهذا العرض رد بقوله:

"لا، شكرًا، فعندي أطبائي".

لكن "عاطف بك" والطبيب الآخرین أخبرا قصر "دولما بأهجه" أن مجيء كل من الطبيب "عاقل مختار"، والطبيب "نشأت عمر"، والطبيب "رفعت السالونيكى"؛ سيكون جتًا لمتابعة حالة السلطان السابق، وذلك من دون أن يُعلموه بذلك، وكان كل واحدٍ منهم يدخل الغرفة التي يستريح بداخلها "عبد الحميد" ويفحص حالته الصحية كل نصف ساعة، كما أبلغ وزير الحرية بهذا الوضع، ولم يذُق أحدٌ في القصر طعم النوم تلك الليلة، وعندما اقتربت عقارب الساعة من الرابعة فجرًا استدعى الأطباء وقال لهم: "انتهى العلاج، ولكني ما زلتُ أشعرُ بالألم".

فتمَّ تجهيزُ جرعةٍ جديدةٍ من العلاج، وتناولها إلا أنه قال:
"إنها لم تُجدِ نفعًا".

وبالرغم من تناوله العلاج الموصى به من قبل الأطباء؛ كانت آلامه تشتدُّ مع مرور الوقت، ولم يبخل الأطباء بأقصى ما يمتلكون من خبراتٍ ومحاولاتٍ جادةٍ من أجل إسعاف السلطان، فكان يتناولُ علاجًا بعد علاج، لكن لم تبدُ أيُّ علامةٍ تدلُّ على تحسُّن صحته، ولقد أوصاه الأطباء بعدم الاستحمام في الصباح، إلا أنه لم يلقِ بالأل لهذه التوصية، حيث قال:
"إن الاستحمام هو محور حياتي، ولا يمكن لأحد منعي منه، وإذا منعتوني فلن أسامحكم أبدًا!".

بل إنه لم يتوان عن الاستحمام صبيحة يوم الأحد الذي توفي فيه الموافق العاشر من فبراير/شباط (١٩١٨م)، ففي ذلك اليوم ذهب إلى الحمام متَّكِّئًا على ذراع زوجته "مشفقة هانم".

لم تتركه زوجته "مشفقة هانم" بمفرده في آخر عشرين عامًا من حياته؛

إذ لازمته في منفاه في "سالونيك" وفي قصر "بكلزبكي"، وقد ألبسته ملابس بعد ما خرج من الحمام ذلك اليوم، وفي هذه الأثناء حدث شيء لفت انتباهها حيث كان ظهر "عبد الحميد" يتصبب عرقاً شديداً على غير المعتاد، وقد رأت "صالحة نجية هانم" حالته تلك أيضاً، فقالت له "مشفقة هانم" وهي تشعر بالقلق:

"أنت تتصبب عرقاً يا سيدي".

فكان جوابه:

"هذا عرق الأجل يا سيدتي!".

فسيطرت حينها حالة من الذعر والخوف على "مشفقة هانم"، ثم وضعوا له وسادة أسفل ذراعِهِ بالمكان الذي جلس فيه، وأدى صلاة الفجر، وطلب كوباً من الحليب، وشرب -كعادته- كوب الحليب المخلوط بالمياه المعدنية، ثم قال:

"الحمد لله! أنا الآن أفضل".

ثم دخل غرفة نومه بمساعدة "مشفقة هانم"، وتمدد على سريره ببطء. وفي الساعة العاشرة صباحاً وصل الأطباء الذين أرسلهم السلطان "محمد رشاد" من قصر "دولما باهجه" إلى قصر "بكلزبكي" يحملون السلام السلطاني، فأخبر "نوري آغا" من في الداخل، وتم إدخالهم، وخضع "عبد الحميد" لفحص جديد قام به كل من عميد كلية الطب البروفيسور "عاقل مختار بك"، ورئيس هيئة أطباء مستشفى "تقسيم" "رفعت بك السالونيك"، و"نيكولا أفندي"، و"ألكيوباديس أفندي"، و"عاطف بك"، وكانت نتيجة التشخيص المشترك لهذه الهيئة الطبية هي إجماعهم على تحقق إصابة "عبد الحميد" باحتقان في الرئتين وقصور في وظائف القلب، ونتيجة لذلك كان السلطان العظيم في طريقه شيئاً فشيئاً

نحو الموت، وعندما شاهد ابنه الأمير "محمد عابد أفندي" يقف أمامه وقد اعترى الحزن وجهه ودَمَعَتْ عيناه؛ قال له محاولاً طمأنته:

"لا تبك يا ولدي، أنا على ما يرام، لا تحزن".

وطلب من الأطباء سحب جزء من دم رِئتيه كي يستطيع التنفس بحريّة، وفي المقابل رَفَضَ عرضهم بإعطائه جرعة من "المورفين" لتسكين آلامه، وبدأت حالته الصحيّة تتدهور من سيئٍ لأسوأ مع مرور الوقت، وأصبح يعاني صعوبة في التنفس، وضعفًا في نبض القلب.

وبعد خروج الأطباء من غرفته توجه "راسم بك" -الذي ظلّ في الغرفة- إلى جوار "عبد الحميد" وقبّل يده، واغرورت عيناه وقال:

"سامحني يا سيدي العظيم".

وتبادلا أطراف الحديث لبرهة، ونظر "عبد الحميد" بتعجّبٍ واندھاشٍ إلى وجه "راسم بك"، لكنه لم يستطع إجابته، إلا أنه عاد وابتسم في وجه "صالحة نجية هانم" التي دخلت عليه حينها، وقال لها:

"يبدو أن أمل "راسم بك" في شفائنا قد انقطع؛ لذا فقد قبل يدي، وطلب مني مسامحته".

ثم تنهّد وعيناه تملؤها الدموع، وأضاف:

"لقد شوّهوا صورتي وتنكروا لخدماتي، ولكنني الآن لا أطلب أيّ حقّ من أيّ شخص".

فردّت "شفقة هانم" بقولها:

"يا سيدي! لقد أصبت بأمراض أكبر من هذا المرض قبل ذلك، بإذن الله سَتُشفى وتصير صحتك على ما يرام، وإن الله سيقبض لك ويعيد إليك حقك ممن ظلموك".

ولما علم السلطان "محمد رشاد" بخطورة الوضع من الفريق الطبي أخبر أكبر أبناء أخيه الأكبر "محمد سليم أفندي" بذلك، وطلب منه أن يذهب هو وسائر الأمراء إلى قصر "بُكْلَرْبَكِي" على الفور، وعندما حلَّ وقتُ الظهر في ذلك اليوم وصل "محمد سليم أفندي" و"أحمد أفندي" القصرَ، وطلب "عبد الحميد" من الخادمة "ديلبريال" (Dilberiyâl) التي جاءت إليه بخبر وصول الأمراء أن تُبلِّغهم بأن ينتظروا قليلاً، وكلَّفها بأن تُعدَّ له فنجاناً من القهوة الخفيفة، وبعدها بقليل أحضر "شهر الدين آغا" فنجانَ القهوة، وغير "عبد الحميد" وضعيته من الاتكاء إلى الجلوس مستنداً إلى ذراع "مشفقة هانم"، والتقطَ فنجان القهوة بصعوبة.

ثم أخذت عيناه تدوران وتُحمِلقان في الأشخاص الذين كانوا بجواره في الغرفة وكأنه يودِّعهم، وعند الساعة الثالثة بعد الظهر قبل راحة زوجته الوفية "مشفقة هانم" برقةٍ وحنان وقال:

"فليرض الله عنك".

ثم أمسك "عبد الحميد" يد زوجته الأخرى "صالحة نجية هانم" وودَّعها قائلاً:

"سامحيني".

وارتشف رشفةً من فنجان القهوة، وقبل أن يرتشف الرشفة الثانية انسكبت القهوة في كفِّ "مشفقة هانم"، وقال: "يا الله!، ثم هوى رأسه على ذراعها، وحينها بدأ الصراخُ يصدرُ من الغرفة بقولهم:

"لقد أُغمي على السلطان، أدركونا بالطبيب!".

فهرع "عاطف بك" إلى الغرفة بعدما أخبر الأمير "محمد سليم أفندي" بحالة والده، وفي تلك الأثناء دخل "عابد أفندي" الغرفة هو الآخر برفقة الطبيب، وبدأت حالة من القلق والاضطراب تجتاح قسم الحريم بالقصر.

وأدرك "عاطف بك" عندما فحص "عبد الحميد" أنه قد فارق الحياة وانتقلت روحه إلى بارئها، ولكنه لم يُخبر من كانوا في الغرفة بهذه الحقيقة الأليمة، ولم تكن "مشفقة هانم" ترغب في ترك "عبد الحميد" بعدما احتضنته بين ذراعيها، فقال لها "عاطف بك":

"اتركه لي، فهو مغمى عليه، سأعطيه العلاج اللازم، اخرجوا من الغرفة فوراً".

ثم خرجت "مشفقة هانم" والأمير "عابد أفندي" من الغرفة، وبعد أن خرجوا قال "عاطف بك" لـ "ديلبريال قلفه" التي كانت منتظرة في الغرفة:

"لماذا تقفين هكذا؟ احضري قطعة من القماش القطني كي نربط بها فكّه".

وكان في ذلك الوقت يقف عند باب الغرفة الخادم الصدوق "شهر الدين آغا" وهو متحير لم يفهم الموقف ولا شيئاً مما يُقال، لكنه عندما سمع كلام الطبيب عاطف صرخ صرخة أدرك كل من في القصر حين سمعها أن "عبد الحميد" قد مات، فبدأ الصراخ والعويل يعلو من غرف القصر، وكان الجو بارداً، ولكن وجه السلطان الذي أسلم روحه إلى بارئها وجسده كانا لا يزالان ساخين، وسيطرت حالة من الحزن على الجميع، وبدأت العيون تفيض بالدموع، وكان الأمير "عابد أفندي" يبكي وهو يقول:

"لا أُصدِّقُ أن والدي قد مات، فقد كان يجلس في سريرهِ قُبيل لحظاتٍ قليلة".

وبدأت الدموع تنهمر من أعين الأميرين "محمد سليم أفندي" و "أحمد أفندي".

وما إن نما خبر وفاة "عبد الحميد" إلى علم ضباط الحرس حتى دخلوا القصر، وأدّوا آخر مهمّةٍ لهم في تحيّةٍ وتعظيم السلطان، ثم أخرجوا النساء، وبدّوا يتناوبون على حراسة جثمانه كلّ ضابطين في نوبةٍ واحدة، وشرعَ أحدُ الضباط ويدعى "زكريا أفندي" في قراءة القرآن عند رأس السلطان، واتّصلَ "أنور باشا" بقصر "دولما باهجه" وأخبر السلطان "محمد رشاد" ب وفاة "السلطان عبد الحميد"، وتوافدت على القصر زوجة السلطان الكبرى وسائر زوجاته ونسائه الأخريات والأمراء للمشاركة في مراسم العزاء، وقضى معظمهم تلك الليلة في القصر، وتضرّعوا بالدعاء وقراءة القرآن الكريم من أجل "عبد الحميد".

وكان أربعة من سلاطين الدولة العثمانية قد وافتهم المنية بعدما أصيبوا بمرضٍ الالتهاب الرئويّ الحادّ، وكان من المفارقات العجيبة أن ثلاثةً من هؤلاء السلاطين هم السلطان "محمود الثاني" الجد، والسلطان "عبد المجيد" الأب، والسلطان "عبد الحميد الثاني" الابن.

وقد وصلت القصر في العاشرة من مساء ذلك اليوم هيئةٌ مختلطة من الأطباء لتحديد سبب وفاة "عبد الحميد"، وقامت الهيئة بإجراء الفحص اللازم لجُثَّتِه؛ فحصاً دقيقاً شاملاً، من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه، وأعدّت تقريراً طبياً وافياً حول سبب الوفاة.

أمر السلطان "محمد رشاد" بدفن أخيه الأكبر "عبد الحميد" في ضريح السلطان "محمود الثاني"، وتنظيم مراسم جنازة سلطانية له وكأنه لا يزال في السلطنة، وقد أبلغَ أمر السلطان هذا إلى من ينبغي له إنجاز هذه المهمة، وألحَّ بعضُ أفراد الأسرة على دفن "عبد الحميد" في ضريح السلطان "محمد الفاتح"، إلا أن "أنور باشا" لم يوافق على هذا الطلب متحجّجاً بأن ضريح الفاتح لا يجوز أن يُدفن فيه أحدٌ غيره.



مراسم الجنازة

توفي السلطان "عبد الحميد الثاني" عن عمر ناهز السادسة والسبعين، ونقل جثمانه في تمام الساعة التاسعة وخميس وأربعين دقيقة من صباح يوم الحادي عشر من فبراير/شباط (١٩١٨م) على متن سفينة بخارية صغيرة كانت راسيةً عند رصيف قصر "بكلزبكي"، وقبل أن يُنقل الجثمان إلى قصر "طوب قابي" بحرًا دخلَ عليه الغرفة جميعُ نسائه وأبنائه ومحبيه كي يُلقوا عليه نظرة الوداع الأخيرة، واضطرَّ "عاطف بك" في تلك الأثناء إلى البقاء في القصر بعدما حدثت بعض حالات الإغماء بين أقارب السلطان المتوفى بسبب الصرخ والعيول الشديد، ولم يستطع المشاركة في مراسم دفن السلطان الذي خدمه لسنوات طويلة، وبينما كان ضباط الحرس يحملون النعش؛ وقفَ الجنودُ في حديقة القصر لأداء التحية للسلطان، وما إن خرج الجثمان من الغرفة حتى بادر قائد الحرس "راسم بك" إلى تسميع بابها، وبِتلك اللحظة تمَّ الإعلانُ عن حظرِ دخولِ القصرِ فبدأ العديدُ من المعارف والخدم القدامى يتوافدون تبعًا على القصر.

وقد جرت العادة أنه حين يتوفى سلطانٌ من سلاطين الدولة العثمانية يُنقلُ جثمانه إلى قصر "طوب قابي"، وكانت البردة الشريفة الخاصةُ برسول الله ﷺ تُحفظ داخل قطع من الساتان في صندوقٍ ذهبيٍّ بدائرة الأمانات المقدسة الموجودة في الفناء الثالث، وأما عينُ الماء الموجودة مباشرةً خلف غرفة البردة الشريفة فقد كانت بمثابة وثيقةٍ متميزةٍ تدعو إلى العظة والاعتبار، ذلك لأنه كان يغسل عند عين الماء هذه من يموت من سلاطين آل عثمان، وقد أطلق عليها لقب "عين الحياة والموت".

وقد نُقل جثمان "عبد الحميد" كذلك إلى قصر "طوب قابي" تحت إشراف الحراس ورجال القصر وأركانه، وكان الأمير "محمد سليم" وأزواج بنات السلطان المتوفى يتابعون نقل الجثمان وقد اعتراهم الحزن والبؤس، وبعد أن مرت الجنازة من أمام حديقة "لآله (Lâle)" أُحضرت أمام باب البردة الشريفة؛ ذلك الباب الأخضر المطلي بالذهب، ثم نُقل إلى الداخل محمولاً على الأكتاف، ومكث الأمراء وأزواج بنات السلطان في قصر "مجيدية"، ومن كان مرافقاً للجنازة ظلّ في الخارج، وأغلق باب غرفة البردة الشريفة، ولم يستطع أحد دخولها باستثناء مسؤولي دائرة الأمانات المقدّسة، ومُدّد جثمان "عبد الحميد" على خشبة الغسل، وقام مُغسلو القصر بتغسيل الجثمان، وكان أغواث القصر يقفون وهم يحملون المباحر الفضّية بخشوع تام.

لم تكن تبدو على جسده أيّة علامة ضعف أو وهن بسبب المرض، ولم تكن صُفرة الموت ظاهرةً عليه، وكان شعر رأسه ولحيته قد ابيضّ، وتدلّى شعر رأسه قليلاً إلى جبهته، وأما لحيته فكانت بيضاء ناصعة، وأما عيناه فقد انغلقتا وغاصتا في تجويفيهما، ولم يكن في وجهه تجاعيد كثيرة تدلّ على شيخوخته.

وبعد تغسيل الجثمان جُفّف بمناشف مطرّزة بالحرير الأصفر، ووُضِع النعش على الأرض، وأُحضرت خشبة الغسل إلى جانب النعش، ثم كفّوه ووضعوه في النعش.

وقد حافظ "عبد الحميد" على وعيه الكامل حتى آخر لحظات حياته، وأوصى ببعض الوصايا، وقد نفّذوا له وصيته المتعلقة بتغسيله على أتم وجه، حيث وُضِع -كما أوصى- عند صدره دعاء العهد، وعلى وجهه قطعة من البردة الشريفة، وغطّي النعش بكسوة الكعبة المشرفة السوداء.

وبینما كانت هذه الأمور تجري داخل الغرفة حوالي الساعة التاسعة صباحاً، كانت أعداد المتوافدين على دائرة الأمانات المقدسة تتزايد كل دقيقة، وكان السفراء والضباط ينتظرون أمام الباب بيزأتهم المزرکشة وقبعاتهم على اختلاف أنواعها، وشاهد السفراء الأجانب هذه الدائرة العظيمة بإعجابٍ وشغفٍ كبيرين.

وكان العلماء قد حضروا هم أيضاً إلى صحن هذا القصر وقد ارتدوا ملابسهم الخضراء والبنفسجية بأكمائها الواسعة وصدورها المزرکشة، ووصل وليّ العهد "وحيد الدين أفندي" وسائر الأمراء مرتدين أزياءهم الفخمة، وكان الجو مشمساً بالرغم من أن الوقت كان في فصل الشتاء، ولم يكن ثمة شيء يظهر تحت أشعة شمس شهر فبراير/شباط سوى لمعان تلك الأزياء المزرکشة والنياشين.

ثم فُتح باب دائرة الأمانات المقدسة فجأة، فتوجّهت جميع الأنظار إليه، وكان الزحام يملأ طرفيه، والجميع يرغب في رؤية جثمان السلطان عبد الحمید بشغفٍ بالغ، وفي نهاية المطاف خرج النعش محمولاً على الأيدي تُزيّنه الأحزمة المرصعة بالألماس وكسوة الكعبة المزرکشة والأقمشة الحريرية الحمراء، وبدأ الجميع يحملق فيه عندما وُضع في الفناء.

وُضع نعش عبد الحمید على قاعدة توجد أمام دائرة الأمانات المقدسة، وصعد شيخ جامع "يلدیز حمیدیة" فوق الصخرة مرتدياً ثوباً أخضر اللون مزيّناً وقد حمل وساماً على صدره، فنظر حوله وسأل قائلاً: "ماذا تشهدون بحق صاحبكم؟" فقالوا بصوت حزين: "خيراً"، ثم بعد ذلك انتهت المراسم سريعاً بقراءة سورة الفاتحة، وحُمِل النعش على الأكتاف مرة أخرى من أجل صلاة الجنازة.

لقد كان هذا المكان الخاص الذي يحتفظ بذكراتٍ مباركةٍ باقيةٍ من الرسول ﷺ وحياته مكاناً طيباً مباركاً يُذكرُ بالآخرة، ولقد كان يعملُ فيه هناك كادرٌ مُكوّنٌ من أربعين شخصاً يتولّون مسؤوليةَ الدائرة؛ تسعةً وثلاثون منهم من أصحاب الرتب الرفيعة الذين يُلازمون السلطان، والشخص الأربعة هو السلطان نفسه، وكان السلاطين العثمانيون يسعون لقضاء حياتهم زاهدين في الدنيا طامعين في الآخرة بقدر الإمكان، وكانت القاعدة الموجودة أمام دائرة البردة الشريفة تُجسّدُ هذا المعنى، وهي عبارةٌ عن حجرٍ يُشَيِّعُ منه الميت؛ بحيث كان يوضع عليها التابوت الذي يحمل جثمان كلِّ سلطانٍ بعد تغسيله وتكفينه، وكان السلاطين العثمانيون يرون هذه القاعدة عند دخولهم دائرة البردة الشريفة أو خروجهم منها، وبذلك يسعون إلى الحيلولة دون تعلُّقهم بالدنيا حتى لا تأسرهم عظمة السلطة وأبْهَتْها.

ولقد حافظَ نظامُ القصر في الدولة العثمانية على هذه الأماكن التي طالما ذكّرت السلاطين بأن الدنيا زائلةٌ ولا تدوم لأحد، وهو النظام الفريد الذي كان يضُمُّ داخله مزايا وخصائص دقيقة للغاية.

وتقع "بئر التراب" في ركنٍ من أركان تلك القاعدة، وهي بئرٌ تُبْرِهُنُ على الأهمية التي كان سلاطين آل عثمان يولونها للأمانات المقدسة، إذ كانوا يخشون حتى من فقدان غبار دائرة البردة الشريفة والأمانات المباركة المحفوظة بها، ولذلك أمرُوا خواصَّ الخدم الذين كانوا يُنظِّفون غرف الدائرة بتجميع الغبار والتراب الناجم عن عملية التنظيف، ومن ثم حفظها في هذه البئر.

وبعدَ مدّةٍ قصيرةٍ حُمِلَ نعشُ "عبد الحميد" على الأعناقِ مرّةً أخرى، وسيرَ به وسطُ الأنغام والأهازيج الصوفية الحزينة وكلمات التوحيد التي يقرأها شيوخ الطريقة الشاذلية، والتكبيرات، والمدائح، ثم وصل إلى "باب

السعادة" الذي يُعْتَبَرُ الباب الثالث من أبواب قصر "طوب قابي"، وأدى صلاة الجنائز عليه حشدٌ كبيرٌ من الناس بإمامة شيخ الإسلام "موسى كاظم أفندي"، ثم خرجت الجنائزُ من الباب الرئيسي لقصر "طوب قابي" بمراسم عسكرية مهيبّةٍ مخصّصةٍ للسلطين، وتقدّموا بعدها نحو ضريح السلطان "محمود الثاني" الواقع على طريق "ديوان يُولُو" مرورًا بميدان "آيا صوفيا".

اصطفَ صفّان من الجنود على الطريق الواصلة بين جامع "آيا صوفيا" ومكان الدفن، وكانت مراسم الجنائز مهيبّةً جدًّا؛ إذ تقدّم جميعُ الأمراء، وأصهارُ السلطان، وسفراء الدول الأجنبية، والملحقون العسكريون، والوكلاء، والعلماء، وأركان الدولة من الإداريين والعسكريين وراء الجنائز وقد ارتدوا بزّاتهم الرسمية.

وشارك في الجنائز عشرات الآلاف من عامة الشعب من إسطنبول، وقد عاشت عاصمة الدولة العثمانية ذلك اليوم كواحدٍ من أكثر أيام تاريخها صحبًا وزخمًا، بينما أطلّت نساء إسطنبول برؤوسهن من النوافذ وبدأن في البكاء والعيول ولسانُ حالهنّ يقول:

"يا ذخرنّا! إلى أين تذهب وتركنّا؟".

ومن ناحيةٍ أخرى كنّ يحتججنّ على حكومة تلك الفترة، ولم ينس شعبُ إسطنبول السلطان "عبد الحميد" بالرغم من مرور زمنٍ طويلٍ على عزله من عرش السلطنة، ولم ييخلّ عليه بما يستحقّ من التبجيل والاحترام كذلك أثناء مراسم جنازته، وامتلأت الشوارع المؤدية إلى جادة "ديوان يولو" بالناس وغصّت بهم، وملأ الناس جميع النوافذ وأسطح المنازل والأشجار والجدران وهم يكون ويدعون للسلطان ويشهدون له بحسن الخلق والسمعة، كما توقّفت عرباتُ القطار الكهربائي عن السير،

وكان عمّه السلطان "عبد العزيز" قد عُزل عن العرش إثر انقلابٍ عسكريٍّ وقُتل، ودُفن "عبد العزيز" في المكان نفسه وسط مراسم متواضعة شارك فيها آغوات مدرسة القصر وعددٌ من الوكلاء، وفي حين لم يشارك الشعب في مراسم جنازة السلطان "عبد العزيز" يومها خوفاً من غضب قائد الجيش "حسين عوني باشا" آنذاك؛ إلا أنّ جموعاً غفيرةً من الناس نزلت الشوارع اليوم للمشاركة في جنازة "عبد الحميد الثاني".

حضر جنازة السلطان "عبد الحميد" أكثر الشخصيات عداوةً له ومعارضةً إبان حكمه، ولم يتمكنوا حتى من السيطرة على دموعهم من الانهيار حزناً على فراقه، وشارك في الجنازة السلطان "محمد رشاد"، وولي العهد "وحيد الدين أفندي"، و"أنور باشا" وسط حضور مهيبٍ من كافة أطراف الشعب وأركان الدولة قاطبةً، وكان من بين الذين شيعوا الجنازة "طلعت باشا" -عضو جمعية "الاتحاد والترقي"-، حيث يقول "طلعت باشا" إنه زار السلطان "عبد الحميد" في قصر "بكلربكي"، وإنه شعر بحزنٍ شديدٍ وهو يغادر القصر، مشيراً إلى أنه استفاد كثيراً من هذا اللقاء، وأنه أدرك الأخطاء التي ارتكبها بحق السلطان، وهو بذلك يُعتبر واحداً من الذين لم يقدروا جيّداً قيمة السلطان "عبد الحميد" خلال سنوات حكمه، وكان أصحاب العقول الناضجة من أعضاء جمعية "الاتحاد والترقي" قد أدركوا أخطاءهم وشعروا بندمٍ شديدٍ عندما انزلت البلاد في أزمةٍ كبيرةٍ بعدما عزلوا "السلطان" عن عرشه.

وفي نهاية المطاف وصلت جنازة السلطان "عبد الحميد الثاني" إلى المقبرة المشيئة باسم جده السلطان "محمود الثاني" في طريق "ديوان يولو" وسط زحامٍ شديدٍ وأدعيةٍ وتكبيرات مؤثرة وحزينة، ونُقِلَ النعش إلى داخل القبر المدفون به السلطان "عبد العزيز" ومن حوله يُهلّلون

بأصوات "يا الله! يا الله!"، وأنزل جثمان السلطان إلى القبر باحترام وتكريم، ومن ثمّ تَمَّت مراسم الجنازة بالأدعية والأذكار، وبهذه الطريقة انتهى فصلٌ من فصول تاريخ الدولة العثمانية نهايةً حزينة.

وقد ترك السلطان "عبد الحميد الثاني" ميراثًا إنّما هو عبارة عن مبالغٍ ماليّةٍ نقديةٍ، وحوالات، ومجوهرات، وعقارات، وكتب وبعض الممتلكات الخاصة والأجهزة، وبعد وفاة السلطان بيومين أي يوم الثاني عشر من فبراير/شباط (١٩١٨م) جاء "أنور باشا" إلى قصر "بُكْلُزُبُكِي" برفقة هيئةٍ تفتيشيةٍ، وفتح الباب -الذي كان قد شُمع بعد وفاة السلطان- وبدأت الهيئة بتفتيشها، وعمدت الهيئة إلى تفتيش الغرفة حتى إنها فَتَشَتْ جيوب الملابس التي كانت في الخزانات، وفتحوا الخزانة التي كانت بجوار السرير، وصادروا حقيبة كان بها صندوق مشمع يحوي بداخله رزمة من الورق ودفترًا كان يسجل به السلطان مذكراته وبعض المجوهرات، واستدعي المسؤول عن سلك العملة "أرشود أفندي" من البلدية؛ حيث فَحَصَ المجوهرات، وصنّفها ثم قَدَّر قيمتها، ولم يكن هناك أية ورقة أو وثيقة تتعلّق بالسياسة أو أيّ من الموضوعات الأخرى بين متعلّقات السلطان الشخصية التي وجدتتها هيئة التفتيش داخل الغرفة، وقد تمّ تسجيل بعض الوثائق التي وُجدت بالقصر في أرشيف "الباب العالي"، وصودرت في تلك الأثناء نسخة من الأختام الخاصة بالسلطان، ومُنحت الأختام الأصلية لأكبر أبنائه ووارثه "محمد سليم أفندي"، وأُرسلت ميداليات الأختام مع بعض الأشياء الثمينة الأخرى كالحواتم والعقيق إلى الخزينة السلطانية بقصر "طوب قابي"، كما استلم "محمد سليم أفندي" حقيبة والده المنقوش عليها اسمه، والتي دائماً ما كان يحملها معه أينما ذهب، وقُسمت بعض مجوهراته على أبنائه بقيمة عشرة آلاف ليرة لكل واحد منهم، وزوجاته بقيمة خمسة آلاف ليرة لكل واحدةٍ منهم.



الحالة التي آلت إليها البلاد بعد وفاته

تابع عبد الحميد بحزن شديد الحالة السيئة التي آلت إليها الدولة العثمانية تحت حكم "الاتحاد والترقي" خلال السنوات التي أعقبت خلعه، ولكنه قد لقي ربه قبل أن يرى النهاية المأساوية للدولة العثمانية العلية، والحقيقة أنه لو كان شاهد تمزق الدولة العثمانية واحتلال أراضي الأناضول لكان سيصابُ بكمدٍ وحزنٍ شديدين لم يُصب بمثلهما من قبل، فقد كانت حدود الدولة ومساحتها التي تركها للاتحاديين عند خلعه تمتد إلى ما يقرب من خمسة ملايين كيلومتر من البحر الأدرياتيكي وحتى خليج البصرة ومن البحر الأسود إلى صحارى إفريقيا، فلم يترك لمن خلفوه دولة ممزقة أو مشتتة متناحرة بل دولة كبيرة بتعداد سكان يتجاوز ثلاثين مليوناً وجيش حديث، علاوة على أنه قد خفّض الديون الخارجية ودفع الاقتصاد دفعةً كبيرةً إلى الأمام.

وقد فقدت الدولة تحت حكم الاتحاديين الكثير من الأراضي بسبب الهزائم التي مُنيت بها خلال الحرب الإيطالية وحرب البلقان والحرب العالمية الأولى، واحتل العدو إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية ومركز الخلافة الإسلامية، أما الباشوات الذين خلعه من العرش فقد تركوا البلاد تحت أقدام العدو وفرّوا هاربين إلى الخارج، وكان أوّل الفارين "أنور باشا" و"طلعت باشا" و"د. بهاء الدين" و"د. ناظم" بعد توقيع هدنة "مندروس" لوقف إطلاق النار في الثلاثين من أكتوبر/تشرين الأول (١٩١٨م) بين الدولة العثمانية ودول المحور.

وكان هناك من الاتحاديّين مَنْ عبّروا عن ندمهم وخطئهم في حقّ عبد الحميد بعد وفاته وسجّلوا بذلك اعترافاتٍ تاريخيّة، حتى إن "أنور باشا" الذي رفع لواء العصيان ضدّ عبد الحميد بحجّة إنقاذ الدولة وأطلق عليه لقب "بطل الحرية" لما قام به من أجل تحقيق هذا الأمر، قد أدلى باعترافٍ ذي مغزى وعبّر عن ندمه لمساعدة "جمال باشا" أثناء مغادرته البلاد على متن إحدى الغوّصات الألمانية في الأول من نوفمبر/تشرين الثاني (١٩١٨م) حيث قال:

"كنا نعمل على نشر القومية التركية وإحيائها، ولكننا أخطأنا في هذا، إن أكبر ذنبٍ اقترفناه هو أننا لم نستطع فهمُ السلطان عبد الحميد.

فوا حسرتاه! يا جمال باشا، لقد كنّا ألعبه في يدِ الصهانية وها هم قد خانونا".

إن تلك الكلمات التي ذكرها "أنور باشا" تظهر بالبدهة كيف أن الاتحاديّين كانوا يبادق في مسرحية كبيرة وأنهم أدركوا هذا الأمر حتى وإن جاء ذلك متأخراً.

كان أنور باشا محقاً في هذا الكلام ولكن هيهات هيهات! فلقد فاته القطار، واحتلّت البلاد، وقد تعرّض من لم يستطيعوا فهم سياسة عبد الحميد لعصّب الأُمّة ولعنتها، فلم يكن "طلعت باشا" الذي كان واحداً ممن زجّوا بالدولة العثمانية في أتون الحرب العالمية وتسبّبوا في هزيمتنا واحتلال أراضيها؛ مُخطئاً حينما قال لأنور باشا -الذي قال "سأعود مرةً أخرى" - خلال هروبهم سويّاً على متن الغواصة الألمانية بعد توقيع معاهدة "موندروس":

"لقد هَرَمَتْنَا السياسة وليس هذا فقط، لقد أصابَتْنَا لعنةُ الأُمّة وحلّ علينا غضبُها".

وقد قُتل "طلعت باشا" في برلين عام (١٩٢١م) عن عمر ناهز تسعة وأربعين عامًا، وقتل "أنور باشا" في "طاجيكستان" عام (١٩٢٢م) عن عمر ناهز أربعين عامًا، و"جمال باشا" عام (١٩٢٢م) عن عمر ناهز خمسين عامًا، وهذه كانت نهاية أهم ثلاثة قادة في "الاتحاد والترقي".

كما كان "سعيد حليم باشا" (١٨٦١-١٩٢١م) أحد الصدور العظام لحكومات "الاتحاد والترقي" واحدًا ممن قتلوا على يد الجماعات الأرمنية الإرهابية كـ "جمال" و"طلعت" و"أنور"، وقد كان "سعيد حليم باشا" هذا حفيدًا لـ "محمد علي باشا" والي مصر الذي تحدى العثمانيين وعارضهم خلال عهد محمود الثاني، واضطرَّ للرجوع خطوة إلى الوراء بناءً على تَبَنِّي قيصر روسيا موقفًا مؤيدًا للدولة العثمانية، وقد غادر "سعيد حليم باشا" مصرَ مع بعض الأمراء الذين لم يُصبحوا ضمنَ سلسلةٍ ورثة العرش بعد التعديلات الجديدة، وحضرَ إلى إسطنبول فظلَّ يحمل لقبَ باشا طوال حياته، وبذلك كان واحدًا من الباشوات المدنيين خلال عهد عبد الحميد.

وقد أُلِّفَ "سعيد حليم باشا" المعروفُ بأفكارِهِ وميولِهِ الإسلامية كتبًا عديدةً إلا أنه أخفقَ في تحقيقِ النجاح الذي كان يأمله في حياته السياسية وسط جمعية "الاتحاد والترقي"، فعلى الرغم من توليه مهمة الصدارة العظمى عام (١٩١٣م) إلا أنه ظل تحت تأثير الاتحاديين الثلاثة المشهورين، إلى درجة أن الثلاثي "أنور وطلعت وجمال" اتخذوا قرارًا بالزج بالدولة العثمانية في الحرب العالمية إلى جانب "ألمانيا" حتى دون أن يُخبروا الصدر الأعظم "سعيد حليم باشا"، وبعد أن قرَّر الاستقالة تراجعَ عن فكرته تحت إصرار السلطان "رشاد" الذي قال له بأكياً:

"لا تتركني وحدي مع هؤلاء اللصوص".

ولكن إزاء التطوّرات المُخزِنَة التي حدثت خلال سنوات الحرب تقدّم سعيد باشا باستقالته من منصب الصدر الأعظم بشكل نهائي عام (١٩١٧م)، كما أن الإنجليز بعد احتلالهم إسطنبول نتيجة للحرب العالمية نفّوه إلى جزيرة "مالطة" باعتباره "مجرم حرب" كما تمت محاكمته، غير أن هذا الباشا لم يستطع العودة إلى تركيا بعد أن أُطلق سراحه بعد مدة؛ فاضطرّ للإقامة في إيطاليا، وفي الخامس أو السادس من ديسمبر/كانون الأول (١٩٢١م) اغتيل رمياً بالرصاص أمام منزله في "روما" على يد إرهابي أرمني، وأُخْضِرَ جثمانه إلى إسطنبول ودفن في حديقة ضريح السلطان محمود الثاني وهي نفس المقبرة التي دفن بها عبد الحميد، وكان "سعيد باشا" يتمتّع بمكانة متميّزة بين الاتحاديين، إلا أنه لم يُقدّر حقّ قدره وقيمتيه، بل أهدرت خبرته وعلمه، وكان على درجة كبيرة من العلم والاعتدال، كما كان مُلمّاً بالعديد من اللغات الشرقية والغربية.



ما قيل عن "عبد الحميد الثاني" بعد وفاته

لقد رحل عبد الحميد عن هذه الدنيا الفانية بحسناته وسيئاته وبأخطائه وإنجازاته، ومثلما كان هناك من يُجلُّونه، ومن يصفُّونه بآخر الزعماء العظام في العالم؛ كان هناك أيضًا من ينتقدونه بشدة ويرمونه بأبشع التُّهم، ولكن التاريخ يشهد على من شعروا بالندم بعد أن كانوا ينتقدونه بلا رحمة، وعلى من أدركوا قيمته ولو متأخرًا، بل وأولئك الذين عبروا عن هذا بكتابات تُعْتَبَر اعترافاتٍ منهم بحقِّه.

لقد أحبَّ الشعبُ عبد الحميد؛ فقد كانَ خلقًا متعلِّقًا بدينه وصاحب أدبٍ وحياء، عملَ ليل نهار في سبيل خدمة أمته كما كانَ عاقلًا عادلاً عالمًا، إلا أنه لم ينل التقدير الذي يستحقُّه وهو على قيد الحياة، وكان المنصفون يذكرونه دائمًا بكلِّ خيرٍ بعد وفاته؛ فقد اتَّضحَ أكثر بعد خلعه كيف أنه كان يعملُ على وحدة وسلامة الأمة والدولة وكيف أنه أدار الدولة بحنكة ودراية كبيرة لمدة ثلاثة وثلاثين عامًا لأنه لم تمضِ عشرة أعوام على خلعه من العرش حتى فقدت الإمبراطورية العظيمة ثلاثة أرباع أراضيها، كما أنه بداية من تلك الفترة لم يتحقق أي نوع من الاستقرار في الشرق الأوسط الذي كان يعجُّ بالاضطرابات على الرغم من مضيِّ وقتٍ طويلٍ على ذلك.

وكان الفيلسوف والشاعر التركي "رضا توفيق" أحد أكثر المعارضين لعبد الحميد بين جمعية "الاتحاد والترقي"، فكان يسير في فلك الاتحاديين ولعب دورًا فعالًا في إسطنبول خلال عهدِ المشروطية الثانية، واختير نائبًا في المجلس، وكانت له ميول أدبية وسياسية وزعامة شعبية علاوة على أنه

كان طبيياً وماسونياً من الدرجة الأولى، ولكنه بعد أن عاش بنفسه استبداد الاتحاديين بعد خلعهم عبد الحميد انفصل عنهم وانضمَّ لحزب "الحرية والوفاق"، وقد عمل في رئاسة الوزراء خلال سنوات الهدنة، وكان من بين الهيئة التي وقعت على معاهدة "سيفر"، وخلال عهد الجمهورية كان من بين "قائمة المائة والخمسين"^(٣٠) التي غادرت البلاد حيث عاش متنقلاً بين العديد من البلدان حتى صدر أمر بالعفو عنه عام (١٩٣٨م) عاد على أثره إلى الوطن، وقد توفي "رضا توفيق" الذي أثار ضجة كبيرة بما أدلاه من اعترافات عن الماسونية عام (١٩٥٠م) بعد أن عاش حياةً مضطربةً.

إن الدولة العثمانية بعد عبد الحميد لم تتمزق فحسب، بل إن المجتمعات التي عاشت في كنفها قد انفرط عقدُها كحبات اللؤلؤ، ولقد كان "رضا توفيق" من بين من شعروا بالندم واعترفوا بخطيئهم في حق عبد الحميد، ولكن ذلك الندم والاعتراف جاء متأخراً وبعد فوات الأوان، حيث أوقدت نارُ الفتنة وهَيَّيَ المجالُ للتحزُّب والاستقطاب داخل المجتمع العثماني.

وقد عبر الفيلسوف والشاعر "رضا توفيق" عن ندمه على أفعاله العدائية السابقة تجاه عبد الحميد، وعن أسفه لما حلَّ بعبد الحميد؛ بقصيدته الشعرية المسماة "نفحات من روحانيات عبد الحميد" التي نُشِرت للمرة الأولى في الرابع والعشرين من ديسمبر/كانون الأول (١٩٢٧م) في مصر -والتي أصبحت دعوى قضائية بعد أن نشرها الأديب "نجيب فاضل قيصاكُورُكُ" (Kısakürek) ضمن مجموعته الشعرية "الشرق الكبير" - حيث رثى في تلك القصيدة عبد الحميد وعبر له عن ندمه:

(٣٠) قائمة المائة والخمسين: اسم أطلق على مواطني الجمهورية التركية الذين اعتبروا متعاونين مع العدو في أعقاب حرب الاستقلال التركية، ونُفُوا من تركيا، وكلهم من ذوي الرتب والمناصب العليا. (المترجم)

أين أنت أيها السلطان العظيم "عبد الحميد"؟
 وهل يصل إلى قبرك بكائي وندائي عليك؟
 فلتنهض للحظة من غفوة الموت
 فتُبصر ماذا فعلت تلك الأمة الجاحدة!
 لقد تجرأنا بوقاحة على عرشك وتاجك
 وجَرَّبَت هذه الأمة حظها العاثر
 أيها السلطان العظيم! عندما يذكر التاريخ اسمك،
 سيوفيك حقك وقدرك، ويكون الحق لك ومعك.
 كنا نحن من افتري بلا خجل،
 على أكثر سلاطين العصر حنكةً ودهاءً
 قلنا إن السلطان ظالم، ومجنون
 قلنا لا بد من الثورة عليه
 وصدقنا كل ما قاله الشيطان
 وسعينا إلى إشعال الفتنة!
 لم تكن أنت المجنون، بل كنا نحن المجانين
 فقد علقنا الآمال على خيط واهٍ
 لم نكن فقط سفلة، بل كنا عديمي الأخلاق
 إذ بصقنا على قبلة الأجداد!

كان عبد الحمید إنساناً متديناً وسلطاناً ذا كرامات، إلا أن كونه إنساناً مؤسوساً تسيطر عليه المخاوف حيال أمنه، واعتمد على نظام حكمٍ فرديٍّ استبداديٍّ بسبب تلك الأوهام قد مهّد الطريق لأن يُساند بعض الشخصيات مثل "محمد عاكف" الاتحاديّين ضدّه، وقد كان "محمد عاكف" رئيس تحرير مجلّة "سبيل الرشاد" التي يمتلكها "أشرف أديب بك"، وفي أعداد تلك المجلة كانت تنشر مقالات وأشعار ينتقد فيها نظام حكم عبد الحمید، كما كان بديع الزمان واحداً ممن كان يُعتقد أنهم يعارضون عبد الحمید؛ إذ كان لفترة على صلة بمن يُجِلون الدين من الاتحاديّين، غير أنه لم تكن له أيّة علاقةٍ مشتركةٍ في هذا الشأن مع "أشرف أديب" أو "محمد عاكف" خلال تلك الفترة؛ فقد كان ينشر مقالاته في صحيفة "فولكان" (Volkan) باعتباره أحد أعضاء جمعية "الاتحاد المحمدي".

إن بديع الزمان الذي حضر إلى إسطنبول حينما كان في مستهل الثلاثينات من عمره عام (١٩٠٧م)، إلا أنه لم يتمكن من لقاء عبد الحمید شخصياً على الرغم من محاولاته، ومع هذا فقد تقدّم بعريضةٍ إلى دائرة الشؤون الخاصّة بالمابین السلطاني حتى يصل إليه من أقصر الطرق، وشرح في تلك العريضة الحالة العامة التي كانت عليها الولايات الشرقية في تلك السنوات، وأوضح مشكلات تلك المنطقة وطرق حلّها بحكم معيشته فيها وملاسته إياها عن قرب، فافتتح عليه افتتاح جامعةٍ في الشرق تقوم بتدريس العلوم الدينيّة والفنيّة باعتباره مشروعاً شخصياً، وأوضح أنه بتدريس تلك العلوم الدينيّة والفنية في تلك الجامعة سيُرسخ لأُسس التعليم القومي، وأيضاً سيُعَلِّي من روابط الأخوة والوحدة والاتحاد بين أبناء الوطن، وطلب أن يرعى ويدعم القصر هذا المشروع وأن تُولى الأهميّة العاجلة لنهضة الشرق مادياً ومعنوياً، وقد ناشد "بديع الزمان" في مقالاته التي تنشر في تلك الأيام عبد الحمید بكلّ جرأةٍ وصراحةٍ قائلاً:

"فَلْتُبْعِدْ رِجَالَ الشَّرْطَةِ السَّرِيَّةِ وَالمُتَمَلِّقِينَ عَنِ قَصْرِ "يَلْدِيز"،
وَلِتَجْعَلْهُ دَارًا لِلْعُلُومِ، وَلِتَشْكُلْ هَيْئَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ حَتَّى تَعْلُو
كَالنُجُومِ".

كما طلب منه أن يُبعد الباشوات المستبدين المتملقين إلى القصر
الملتفين حوله الذين يظلمون الشعب؛ حيث شبَّههم بزبانية جهنم وأن
يستبدلهم بالعلماء الحقيقيين، وبهذا سيكون القصر كجامعة للعلم
والإيمان والعرفان والفيض والرحمة والعدل، حتى إن عبد الحميد قد
قال بعد ذلك في منفاه بـ "سالونيك":

"إِنْ أَيْ سَوْءٌ حَدَثَ لِي إِنَّمَا بِسَبَبِ الْحَاشِيَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي
تَجَمَّعَتْ حَوْلِي".

كان بديع الزمان سعيد النورسي يُنادي بضرورة مكافحة ضعف
الإيمان ومناهضة الجهل حتى تشفى الأمراض العقلية والقلبية للأمة،
إلا أن السلطان عبد الحميد -للأسف- لم يكن يُدرِكُ رؤية بديع الزمان
واتساع أفقه وسط الظروف السياسية والاجتماعية في تلك الفترة، ولهذا
السبب فإن حاشية القصر قد جعلوا من "بديع الزمان" "غريب الزمان" في
لحظة، ليس بسبب صدق دعوى هذا العالم الشاب القادم من الشرق أو
لرويته الشاملة وشجاعته المتحضرة، ولكن لما سيعانونه منه بسبب قوة
عقله وذكاؤه.

إنَّ إنساناً متديّناً وعادلاً ورحيماً يعمل من أجل مداواة جروح الوطن
والأمة كعبد الحميد ربما لو التقى بشخص كبديع الزمان واطَّلَعَ على
أفكاره ومشروعاته لا شك أنه كان من الممكن أن تتغير آخر فترة في
التاريخ العثماني بشكل كبير.

لقد تعرّض "بديع الزمان" لمضايقاتٍ ومعاملةٍ سيئةٍ خلال الأيام التي أعقبت المشروطية الثانية بتأثيرٍ من الباشوات الملتقيين حول عبد الحميد؛ لذا قام بنشر بعض المقالات المعارضة لعبد الحميد في تلك الفترة، وقد كان "بديع الزمان" أحد المطالبين بالحرية يؤكد أن الحرية الشرعية والمشروطية لا تتعارض مع الإسلام أما الاستبداد فهو مخالفٌ للدين وللقيم الإنسانية.

وقد عبر "بديع الزمان" في "الملحق" الذي نشره في الخمسينات عن أنه لم يكن معارضاً لعبد الحميد وأن عبد الحميد كان مستبدّاً بعض الشيء على غير رغبةٍ منه في ذلك، وأنه مع الأسف كان موهوماً إلى درجة كبيرة بمسألة التهديد الأمني الدائم، وطبقاً لما نقله بعد ذلك "مصطفى سونجور (Mustafa Sungur)" - أحد تلاميذ النورسي -، فإنّ بديع الزمان ضرب بيده على جبهته قائلاً لنفسه:

"يا سعيد لقد اعترضت على السلطان الرحيم عبد الحميد قائلاً: "إنه مستبد"، فلتتحمل الآن الاستبداد الحقيقي للاتحاديين عقاباً لك على ذلك".
وكان يحكي قائلاً:

"إنني أتذكر الخدمات التي قدّمها عبد الحميد والأسرة العثمانية لصالح الإسلام؛ فلقد كان عبد الحميد ولياً من أولياء الله الصالحين، وإنني أدعو الله له في دعواتي الخاصة كل صباح وأقول: اللهم ارض عن عبد الحميد ووحيد الدين والأسرة العثمانية جمعاء".

وعلى الرغم من أنه كان سلطاناً فاضلاً إلا أنه استند إلى نظام حكمٍ فرديٍّ استبداديٍّ؛ فقد كان يمتلك جهازاً أمنٍ سرّيٍّ، ويطبق رقابة صارمة على الصحف والحرّيات الفكرية، وقد عارض "بديع الزمان" تلك

الإجراءات التي قام بها عبد الحميد -حتى ولو بِنِيَّةٍ سليمة- لأجل الدين، وذكر أنه مؤيِّدٌ للاتِّحاد والترقي من أجل الدفاع عن الحرية الشرعية، وبذل جهداً كبيراً لضبط الحرية والمشروطية بالشرعية الإسلامية.

وقد عقد بديع الزمان مقابلاتٍ ولقاءاتٍ مع كبار جماعة الأحرار في جماعة "الاتِّحاد والترقي"، وكان على صلةٍ بهم لمدَّةٍ، ولكن عصابة الماسونية والقوميين المتعصِّبين التي كانت تسيطر على الشرايين الرئيسية لـ"الاتِّحاد والترقي"؛ لم تستطع فهم فكرة القيم الإسلامية لدى بديع الزمان، فانفصلت عنه وناصبته العداوة، وظلَّت على هذا الخطِّ حتى وفاته.

كان بديع الزمان عندما يُعَبِّرُ عن أفكاره وآرائه يُثْنِي على شخصيَّة عبد الحميد، ولكنه كان يتَّخذُ موقفاً قوياً ضدَّ مصادرتِه للحريَّة والمشروطية، فلم يُهنُ مطلقاً في أيِّ من مقالاتِه شخصيَّة السلطان ومقام الخلافة، ولكنه كان ينتقدُ الحاشية الموجودة حول السلطان وأولئك الباشوات الذين يتَّخذون باسمِه إجراءاتٍ خاطئةً في إدارة الدولة، علاوة على أنه كان يُعَبِّرُ عن انتقاداتِه بأسلوب دعوى معتدل ومستقيم، ويقدمُ اقتراحاتٍ لحلول منطقية وعملية.

لقد كان بديع الزمان مؤمناً ومخلصاً بمعنى الكلمة ففي حين وصَف استبداد عبد الحميد بأنه "جزئي" و"اضطراري" وصف استبداد الاتحاديين بأنه "استبدادٌ كامل"، فلم يكن مؤيِّداً أبداً لكلِّ السياسات التي تبنتها جمعية "الاتِّحاد والترقي" ولا يصفق لكل ما يفعلونه، بل كان مؤيِّداً فقط لبعض أفكارهم البئساء، فقد قال عن الحرية التي يُقدِّمها "الاتِّحاد والترقي": "لقد أردتُ أن أُحوِّل مفهومهم عن الحريَّة لِتُصَبِّحَ حريةً شرعيَّةً"، حتى إنه حينما سافر إلى "سالونيك" مع بعض الاتحاديين ألقى خطبة هناك قال فيها:

"أنا مؤيدٌ لِلْحُرِّيَّةِ الشرعيَّة".

وقد عارضَ "الاتِّحَادَ وَالتَّرقِيَّ" بدفاعِهِ عن نَفْسِهِ أَمَامَ محكمةٍ "ديوانِ الحربِ العرفيَّة" التي قُدِّمَ للمحاكمةِ أَمَامَها بعد حادثة "الحادي والثلاثين من مارس/آذار"، فقد عبرَ أَمَامَ هيئة المحكمة عن تأييده للحرية الشرعية ورفضه للاستبداد، فكان بديع الزمان مؤيداً للحكم بالمشروطة و"تمثيلِ النوابِ الشعبِ في المجلس"، إلا أن عبد الحميد كان مضطراً بعد هزيمة "حرب ٩٣" إلى إغلاقِ المجلسِ آخِذاً في الاعتبار الظروف والتطورات السياسية آنذاك، وراح يُديرُ الدولةَ عبرَ مجلسٍ وزراء ومجالس خاصة يدينُ له كُلٌّ منها بالولاء، كما أبقيَ على مجلس الأعيان.

ولم يكن بديع الزمان معارضاً لكل سياسات عبد الحميد أو لمكانته المعنوية ولم يُضدِرْ أيُّ فتوى تقضي بخلعه من العرش.

وقد دافع "بديع الزمان" عن عبد الحميد خلال محاكمته في محكمة "ديوان الحرب" قائلاً:

"إن السلطان عبد الحميد مظلومٌ وذو قلبٍ رحيم".

خاتمة

إن الحديث عن السلطان عبد الحميد الثاني كالبهر الزاهر الذي لا شواطيء له، إذ لم يكن سلطاناً كباقي السلاطين، بل رجل دولة من طراز فريد، فلقد حمل السلطان عبد الحميد هموم الدولة الإسلامية بين جنباته، وعاش مشغولاً بها حتى بعد خلعه عن العرش، حتى إن ذلك قد يكون من أسباب مرض موته، ولقد كان نصيبه من الزمان أن يأتي في الأيام الأخيرة من حياة دولة عريقة مُنيت بضربات متتالية وقاصمة من الداخل والخارج على حدٍ سواء، وفي مجتمع حزين كسير، فلم ينل هذا الواقع المريء من همته، بل سعى كي يُعيد المجد إلى دولة عظيمة عريقة فقدت استقامتها واستقرارها في خضم كثير من الأطماع، وأراد أن يُصحح لها المسار وينظم شؤونها من جديد.

ومما يؤسف له أن كثيراً ممن كانوا حوله لم يفهموه كما ينبغي، ولم يقدروه حق قدره، فوصموه بما لم يكن فيه، وسوّقوه إعلامياً على أنه "السلطان الأحمر"؛ فصافت سيئاتهم إذ خلعه عن العرش وهو له أهل، مما أباح لهم العبث بأمور الدولة إلى أن مرّقوها شرّ مرّق؛ فلما رأوا ما حلّ بهم من البأس عادوا نادمين، ولأت ساعة مندم!

إن السلطان عبد الحميد الثاني الذي ترك بصمته على جبين التاريخ رغم أنه عاش في مرحلة زمنية حرجية من تاريخ الدولة العثمانية خلعه "مجلس مبعوثان" نتيجة ضغط "جيش الحركة" الذي صادر الحكم حينما فرض سيطرته على إسطنبول بعد حادثة ٣١ مارس/آذار، ثم نُفي السلطان

إلى "سالونيك"، وحين اندلعت حرب "البلقان" في أثناء فترة إقامته الجبرية في تلك المدينة أُعيد بُسرعة إلى إسطنبول، ووُضِعَ تحت المراقبة والإقامة الجبرية في قصر "بكلربكي".

نستطيع القول إن حياة السلطان عبد الحميد الثاني -منذ ولادته عام (١٨٤٢م) وحتى وفاته عام (١٩١٨م)- زخرت بالعديد من الأحداث السياسية الفارقة في تاريخ الدولة العثمانية، وفي خضم تلك الأحداث كان الشغل الشاغل لعبد الحميد كيف يستطيع الخروج من تلك الأزمات والأحداث بأقل الخسائر ودون الزج بالدولة في أتون الحرب، أو تلوّث جبينها وتخضيبه بالدماء، فكان يتبع سياسة حكيمة من خلال بناء تحالفات مع دولٍ دون معادة أخرى.



المصادر

- Alan Palmer, "**Bir Çöküşün Yeni Tarihi**", Sabah Kitapları, İstanbul, 1993.
- Ali Cevat Bey'in Fezlekesi, "**İkinci Meşrutiyet'in İlanı ve Otuz Bir Mart Hâdisesi**", Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara, 1991.
- Ali Fethi Okyar, "**Üç Devirde Bir Adam**" (Hatırat), İstanbul, 1980.
- Ali Fuad Türkeldi, "**Görüp İşittiklerim**", Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara, 1987.
- Ahmet T. Alkan, "**31 Mart İsyanı Türkiye'yi Hâlâ Etkiliyor**", 13-04-2009, Zaman Gaz.
- Aydın Talay, "**Eserleri ve Hizmetleriyle Sultan Abdülhamid**", Risale Yay, İstanbul, 1991.
- Ayşe Osmanoğlu, "**Babam Sultan Abdülhamid** (Hatıralarım)", Selçuk Yay., Ank. 1986.
- "**II. Abdülhamid ve Dönemi Sempozyum Bildirileri**", Seha Neşriyat, İstanbul, 1992.
- Bayram Kodaman (Doç. Dr.), "**Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi**", İstanbul, 1980.
- Bayram Kodaman (Prof. Dr.), "**Abdülhamid'in Doğu Anadolu Politikası**", İst., 1983.
- Cezmi Eraslan (Doç. Dr.), "**II. Abdülhamid ve İslâm Birliği**", Ötüken Yay, İstanbul, 1992.
- Coşkun Üçok (Prof. Dr.), "**Siyasal Tarih(1789-1950)**", Ankara, 1961.
- "**Dersaadetten Haremeyn'e Surre-i Hümayun**", Yitik Hazine Yayınları, İstanbul.
- Enver Ziya Karal (Ord. Prof.), "**Osmanlı Tarihi**", Türk Tarih Kurumu Yay., Ankara, 1998.
- Fausto Zonaro, "**Abdülhamid'in Hükümdarlığında Yirmi Yıl / Fausto Zonaro'nun Hatıraları ve Eserleri**" YKY, İstanbul.
- Halid Ziya Uşaklıgil, "**Saray ve Ötesi**" İstanbul, 1965.
- Halûk Y. Şehsuvaroğlu, "**Sultan İkinci Abdülhamid**", Tarih Mecmuası Koleksiyonu.
- Heyet, "**Doğuştan Günümüze Büyük İslâm Tarihi**", (İlmi Müşavir ve Redaktör Prof. Dr. Hakkı Dursun Yıldız), Çağ Yayınları, İstanbul, 1993.
- Heyet, "**Osmanlı Devleti Tarihi**", (Yazarlar: Feridun Emecen, Kemal Beydili, Mehmet İpşirli, Mehmet Akif Aydın, İlber Ortaylı, Abdülkadir Özcan, Bahaeddin Yediyıldız,

- Mübahat Kütükoğlu. Editör: Ekmelettin İhsanoğlu), Feza Gazetecilik A.Ş. İstanbul, 1999.
- Hüsameddin Ertürk, "**İki Devrin Perde Arkası**", İstanbul, 1957.
- Hüseyin Cahid Yalçın, "**Siyasi Anılar**", İstanbul, 1976.
- İbnülemin Mahmut Kemal İnal, "**Son Sadrazamlar**", Dergah Yayınları, İstanbul, 1982.
- İhsan Süreyya Sırma (Doç. Dr.), "**II. Abdülhamid'in İslâm Birliği Siyaseti**", Beyan Yayınları, İstanbul, 1990.
- İlber Ortaylı (Prof. Dr.), "**Osmanlı İmparatorluğu'nda Alman Nüfuzu**", İletişim Yayınları, İstanbul, 1998.
- İ. Hakkı Uzunçarşılı (Ord. Prof.), "**Osmanlı Tarihi**", TTK, Yay., Ankara, 1988.
- İ. Hami Danişmend, "**İzahlı Osmanlı Tarihi Kronolojisi**", Türkiye Yay., İstanbul, 1971.
- İsmail Hami Danişmend, "**31 Mart Vak'ası**" İstanbul Kitabevi, İstanbul, 1986.
- Mehmed Arif Bey, "**93 Moskof Harbi ve Başımıza Gelenler**", Adak Yay., İstanbul, 1990.
- Mehmet Bahadır Dördüncü, **II. Abdülhamid Yıldız Albümleri Mekke Medine**, İst. 2006
- Mehmet Zeki Pakalın, "**Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü**", MEB Yay.
- Metin Hülagü: **Abdülhamid'in Zaferi**, Yitik Hazine Yayınları İst. 2007
- _____ **Hicaz Demiryolu** Yitik Hazine Yayınları İst.2008
- _____ **Gazi Osman Paşa Yaralı Mareşal**, Yitik Hazine Yayınları 2007
- Mim Kemal Öke (Prof. Dr.), "**Kutsal Topraklarda Siyonistler ve Masonlar**", Çağ Yay.
- M. Birol Ülker, "**Osmanlı'dan Cumhuriyete Askerî İmamlar**", Tarih ve Medeniyet Dergisi.
- Nadir Özbek, "**Osmanlı İmparatorluğu'nda Sosyal Devlet**", İletişim Yay., İstanbul, 2004.
- Necdet Sakaoğlu, "**Bu Mülkün Sultanları**", Oğlak Yayıncılık, İstanbul, 1999.
- Necip Fazıl Kısakürek, "**Ulu Hakan Abdülhamid Han**", Büyük Doğu Yay., İstanbul, 1994.
- "**Osmanlı Ansiklopedisi**", İz Yayıncılık, İstanbul, 1996.
- Orhan Koloğlu, "**Reval'de Osmanlı Devleti Gerçekten Paylaşıldı mı?**", Tarih ve Toplum, Sayı: 24, Aralık 1985.
- Sâmiha Ayverdi, "**Türk Tarihinde Osmanlı Asırları**", Damla Yayınevi, İstanbul, 1981.
- Stanford J. Shaw, "**Osmanlı İmparatorluğu ve Modern Türkiye**" E Yayınevi, İstanbul 1994
- "**Sultan 2. Abdülhamid'in Sürgün Günleri - Hususi Doktoru Âtuf Hüseyin Bey'in Hatıraları (1909-1918)**", Yayına Hazırlayan: M. Metin Hülagü, Timaş, İstanbul, 2010.
- Şadiye Osmanoğlu, "**Babam Abdülhamid, Saray ve Sürgün Yılları**" Timaş Yay, 2009.

"*Tahsin Paşa'nın Yıldız Hatıraları: Sultan Abdülhamid*", Boğaziçi Yay., İstanbul, 1999.

Vahdettin Engin (Prof. Dr.), "*Kurtlar Sofrasında Osmanlı*", Yeditepe Yayınevi, İstanbul.

Yılmaz Öztuna, "*Büyük Türkiye Tarihi*", Ötüken Yayınevi, İstanbul, 1983.

_____, "*Tarih Sohbetleri I*", Ötüken Yayınevi, İstanbul, 1998.

_____, "*Devletler ve Hanedanlar I-V*", Ankara, 1996.

Yusuf Hikmet Bayur, "*Türk İnkılâbı Tarihi*", Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara 1991.

Ziya Nur Aksun, "*Osmanlı Tarihi*", Ötüken Neşriyat, İstanbul, 1994.

Dergi ve Ansiklopediler

Devri Hamid, Erciyes Üniversitesi Yayınları, Kayseri 2012

Aksiyon Dergisi Arşivi

Hayat Tarih Mecmuası Koleksiyonu

Resimli Tarih Mecmuası Koleksiyonu

Tarih Dünyası Dergisi Koleksiyonu

Tarih ve Düşünce Dergisi Arşivi

Türkiye İstiklâl ve Hürriyet Mücadeleleri Tarihi Dergisi Koleksiyonu

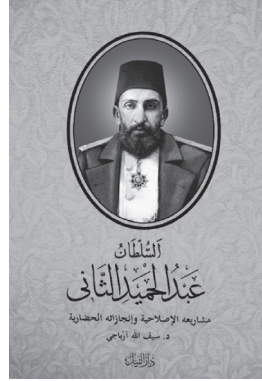
Ana Britannica Genel Kültür Ansiklopedisi

Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi

اقرأ أيضاً

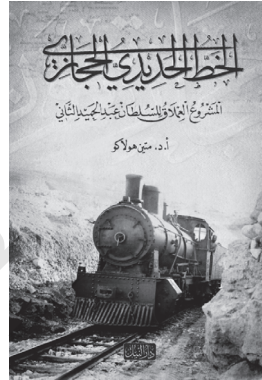
السلطان عبد الحميد الثاني مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية

فلن عبد الحميد الثاني، والفترة التي حكم فيها، فهي درة مليئة بالخبرات والعبر ظلت راقدة في أعماق بحر التاريخ.



الخط الحديدي الحجازي المشروع العملاق للسلطان عبد الحميد الثاني

الخط الحديدي الحجازي واحداً من أهم الإنجازات العملاقة التي حققها السلطان عبد الحميد الثاني في مستهل القرن العشرين



فلسطين في العهد العثماني وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني

دراسة وثائقية فريدة من نوعها لفلسطين، هذا الكتاب يتناول تاريخ فلسطين الحافل، لا سيما القدس، ومحاولات استيطان اليهود فيها، وخصوصاً في حقبة السلطان عبد الحميد الثاني.

